تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي
المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

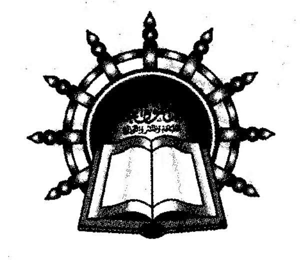
الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي
خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة

المجلد التاسع والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن



شعرٌ

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ وَفِطْنَتِهِ، أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخرُ

ٱلصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرَجَّىٰ وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُوْنُ
وَرُبَّمَا نِيْلَ بَاصْطِبَارٍ مَا قِيْلَ: هَيْهَاتَ لاَ يَكُوْنُ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن موعظة وشفاء لما في الصدور، وجعله منهلاً عذباً للورود والصدور، جمع فيه علوم الأولين والآخرين، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، والصلاة والسلام على من أوحي إليه ذلك القرآن من لوح الوجوب والأمر والشأن، سيدنا محمد الذي أجرى من مُسجَّلِهِ ما يحاكي السلسبيل والرحيق، وأفحم ببلاغته كل متكلم منطيق، وفسر الآيات في الأنفس والآفاق، على مراد الله الملك الخلاق، وعلى آله وأصحابه المقتبسين من مشكاة أنواره، المغترفين من بحار أسراره، ومن تبعهم بإحسان ممن تخلق بالقرآن في كل زمان.

أما بعدُ: فيقول العبد الفقير المعترف بذنبه وخطاه، المنادي لربه في عفوه وعطاه، الراجي في إسبال سجاف الندى عليه، المناجي في إرسال رسول الهدى إليه، حفظه الله سبحانه وأخلاءه وأعاذه وإياهم من الشيطان الرجيم،وجعل يومه خيراً من أمسه إلى الإياس من حياة نفسه سمّي محمد الأمين الهرري: إني لمّا فرغت من تفسير الجزء السابع والعشرين من القرآن الكريم عزمت - إن شاء الله تعالى - على الشروع في تفسير الجزء الثامن والعشرين، وإن كان علم التفسير لا يقحم في معاركه كل ذمير وإن كان أسداً، ولا يحمل لواءه كلّ أمير وإن مات حسداً، وذلك أظهر من أن يورد عليه دليل كالنيرين لغير كليل، ومع خطر هذا الأمر فالأمد قصير، وفي العبد تقصير وكم ترى من نحرير كامل في التحرير والتقرير قد أصابه سهم القضاء قبل بلوغ الأمل، وذلك بحلول ريب المنون والأجل، أو بتطاول يد الزمان، فإن الدنيا لا تصفو لشارب وإن كانت ماء الحيوان، وأي وجود لا ينسج عليه عناكب العاهات، وأي نعيم لا يكدره الدهر؟ هيهات، هيهات:

مِحَنُ ٱلزَّمَانِ كَثِيْرَةٌ لاَ تَنْقَضِيْ ... وَسُرُوْرُهُ يَأْتِيْكَ كَٱلأَعْيَادِ

اللهم: كما عوّدتني في الأول خيراً كثيراً فيسر لي الأمر في الآخر تيسيراً، واجعل رقيمي هذا سبباً لبياض الوجه يوم تبيض وجوه أولئك، وامح مسودات صحائف أعمالي بحق كتابك الكريم، واعف عني بكل حرف كتبته منه ألف ألف سيئة، واكتب لي بكل حرف رقمته منه ألف ألف حسنة، وارفع لي بكل سطر سطرته

منه ألف ألف درجة في فراديس جنتك ودار كرامتك، ولم أكن بدعائك رب شقياً بكرةً وعشياً ما دمت حياً، فلك الحمد ـ يا إلٰهي ـ في الأولى والأخرى على عنايتك الكبرى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وبتوفيقه أقول، وقولي هذا:

سورة المجادلة

سورة المجادلة نزلت بعد المنافقون، وهي مدنيّةٌ، قال القرطبي: في قول الجميع إلاّ روايةً عن عطاء: أن العشر الأول منها مدني، وباقيها مكّي. وقال الكلبي: نزلت جميعها بالمدينة إلا قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. فنزلت بمكّة.

وهي اثنتان وعشرون آية وأربع مئة وثلاث وسبعون كلمة، وألف وسبع مئة واثنتان وتسعون حرفاً.

التسميةُ: سميت بالمجادلة ـ بكسر الدال، اسم فاعل على الأصح كما سيأتي عن الشهاب ـ لبيانها قصة المرأة المجادلة ـ خولة بنت ثعلبة ـ في شأن زوجها الذي ظاهر على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار منها.

المناسبةُ: مناسبتها لما قبلها من وجهين(1):

١ ـ أنّ الأولى ختمت بفضل الله، وافتتحت هذه بما هو من هذاالوادي.

٢ ـ أنه ذكر في مطلع الأولى صفاته الجليلة، ومنها: الظاهر والباطن، وذكر في مطلع هذه أنّه سميع قول المجادلة التي شكت إليه تعالى.

الناسخُ والمنسوخُ فيها: قال محمد بن حزم: سورة المجادلة كلها محكم إلا آية واحدة؛ وهي: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً...﴾ الآية (١٢) من المجادلة، نسخت بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ...﴾ الآية (١٣). فنسخ الله تعالى ذلك بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والطاعة لله وللرسول.

---

(1) المراغي.

سبب نزولها: ما أخرجه أحمد في «المسند» عن عروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه كل الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ...﴾ إلى آخر الآية».

وأخرجه البخاري تعليقاً، والنسائي وابن ماجه وابن جرير والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير (١) الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور (٢) والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير (٣) فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم (٤) إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين (٥) يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد (٦) ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم (٧) ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير (٨) يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون (٩) إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٠) يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير (١١) يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم (١٢) أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون (١٣)﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السابقة.

قوله تعالى: ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما:

أن الله سبحانه لما ذكر أحكام كفّارة الظهار، وبين أنه إنما شرعها تغليظاً على الناس حتى يتركوا الظهار - وقد كان ديدنهم في الجاهلية - ويتبعوا أوامر الشريعة، ويلين قيادهم لها، ويخلصوا لله ربهم في جميع أعمالهم، فتصفو نفوسهم وتزكو بصالح الأعمال.. أردف هذا ببيان أنّ من يشاق الله ورسوله، ويعصي أوامره يلحق به الخزي والهوان في الدنيا، وله في الآخرة العذاب المهين في نار جهنم، ثم أعقب ذلك بالوعيد الشديد، فبين أنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو عليم بمناجاة المتناجين، فإن كانوا ثلاثة.. فهو رابعهم، وإن كانوا خمسة.. فهو سادسهم، وإن كانوا أقل من ذلك أو أكثر.. فهو معهم أينما كانوا، فلا تظنوا أنه تخفى عليه أعمالكم وسينبئكم بها عند العرض والحساب، وحين ينصب الميزان، فتلقون جزاء ما كسبت أيديكم، وتندمون ولات ساعة مندم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه لمّا ذكر أنّه عليم بالسر والنجوى، وأنه لا تخفى عليه خافية من أمرهم، فهو عليم بما يكون من التناجي بين الثلاثة والخمسة والأكثر والأقل، ومجازيهم على ما يكون به التناجي.. خاطب رسوله معجباً له من اليهود والمنافقين الذين نهوا عن التناجي دون المؤمنين، فعادوا لما نهوا عنه، وما كان تناجيهم إلا بما هو إثم وعدوان على غيرهم، ثم ذكر أنهم كانوا إذا جاؤوا الرسول.. حيوه بغير تحية الله، فيقولون: السام عليك - يريدون الموت، ثم يقولون في أنفسهم: لو كان رسولاً.. لعذبنا الله؛ للاستخفاف به، وإن جهنم لكافية جدّ الكفاية لعذابهم، ثم نهى المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم، بل يتناجون بالبرّ والتقوى. ثم بين أن التناجي بالإثم والعدوان من الشيطان، ولن يضيرهم شيء منه إلا بإذن الله، فعليه فليتوكلوا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما نهى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض من التناجي بالإثم والعدوان.. أمرهم بما يكون سبب التوادّ والتوافق بين بعض المؤمنين وبعضٍ، من التوسع في المجالس حين إقبال الوافد، والانصراف إذا طلب

---

(١) المراغي.

منكم ذلك. فإذا فعلتم ذلك.. رفع الله سبحانه منازلكم في جنّاته، وجعلكم من الأبرار الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أنّه لما كان المؤمنون يتنافسون في القرب من مجلس الرسول ﷺ لسماع أحاديثه ولمناجاته في أمور الدّين، وأكثروا في ذلك حتّى شق عليه ﷺ، وشغلوا أوقاته التي يجب أن تكون موزعة بين إبلاغ الرسالة والعبادة والقيام ببعض وظائفه الخاصة، فإنه بشر يحتاج إلى قسط من الراحة، وإلى التحنث إلى ربّه في خلواته.. أمرهم الله سبحانه وتعالى بتقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول والحديث معه؛ لما في ذلك من منافع ومزايا:

١ ـ إعظام الرسول، وإعظام مناجاته؛ فإن الشيء إذا نيل مع المشقة استعظم، وإن نيل بسهولة لم يكن له منزله ورفعة شأن.

٢ ـ نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقات المقدمة قبل المناجاة.

٣ ـ وتمييز المنافقين الذين يحبون المال ويريدون عرض الدنيا من المؤمنين حق الإيمان الذين يريدون الآخرة وما عند الله من نعيم مقيم.

قال ابن عباس: أكثروا المسائل على رسول الله ـ ﷺ ـ حتى شقوا عليه، وأراد الله أن يخفّف عن نبيه، وأنزل هذه الآيات، فكفّ كثير من الناس عن المناجاة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات[1]: ما أخرجه الحاكم، وصححه عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وتقول: يا رسول الله! أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فما

(١) لباب النقول.

برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وهو أوس بن الصامت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان، قال: (كان بين النبي - ﷺ - وبين اليهود موادعة، فكانوا إذا مرّ بهم رجل من الصحابة جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنّهم يتناجون بقتله أو بما يكرهه، فنهاهم النبي - ﷺ - عن النجوى فلم ينتهوا، فأنزل الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه أحمد، والبزار والطبراني بسند جيّد عن عبد الله بن عمرو: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله - ﷺ -: السام عليكم، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذّبنا الله بما نقول. فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ...﴾ الآية. وفي الباب عن أنس وعائشة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال: كان المنافقون يتناجون بينهم، وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويَكْبُر عليهم، فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ...﴾، الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير - أيضاً - عن قتادة قال: كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنوا بمجلسهم عند رسول الله - ﷺ -، فنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل: أنها نزلت يوم الجمعة، وقد جاء ناس من أهل بدر وفي المكان ضيق فلم يفسح لهم، فقاموا على أرجلهم، فأقام - ﷺ - نفراً بعدتهم وأجلسهم مكانهم، فكره أولئك النفر ذلك، فنزلت.

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ...﴾ الآية فلما نزلت صبر كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فأنزل الله ذلك: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ ...﴾ الآية.

وأخرج الترمذي - وحسنه - وغيره عن علي قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾. قال لي النبي - ﷺ -: «ما ترى ديناراً»؟ قلت: لا يطيقونه، قال: «فنصف دينار»، قلت: لا يطيقونه، قال: «فكم»؟

قلت: شعيرة، قال: «إنك لزهيد»؟ فنزلت: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ...﴾ الآية. فخفف الله عن هذه الأمّة. قال الترمذي: حسن.

التفسير وأوجهُ القراءةِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، وأجاب: ﴿قَوْلَ ٱلَّتِى﴾؛ أي: دعاء المرأة التي ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ وتخاصمك وتراجعك أيّها الرسول الكريم الكلام ﴿فِى﴾ شأن ﴿زَوْجِهَا﴾ أوس بن الصامت. واسمها خولة بنت ثعلبة ـ كما مرّ ـ وتلك المجادَلة: أنّها كلما قال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: «حرمت عليه».. كانت تقول: والله ما ذكر طلاقاً؛ أي: أجاب الله سبحانه دعاءها؛ بأن أنزل سبحانه حكم الظهار على ما يوافق مطلوبها. و﴿سَمِعَ﴾ هنا مجاز مرسل[1] عن أجاب بعلاقة السببية.

والمجادلة: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، والمراد هنا: المكالمة ومراجعة الكلام؛ أي: معاودته.

والمعنى: أي قد أجاب الله دعاء المرأة التي تكالمك في حق زوجها استفتاء، وتراجعك الكلام في شأنه وفيما صدر عنه في حقها من ظهاره إياها بغير وجه مشروع وسبب مقبول.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿قَدْ سَّمِعَ﴾ بإدغام الدال في السين. وقرأ الجمهور بالإظهار. قال خلف بن هشام البزار: سمعت الكسائي يقول: من قرأ ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ فأظهر الدال عند السين.. فلسانه أعجمي ليس بعربيّ. ولا يلتفت إلى هذا القول؛ لأن الجمهور على الإظهار.

﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه: عطف على ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾؛ أي: تتضرع إلى الله تعالى، وتظهر ما بها من المكروه والمشقة. وفي[2] ذكر ﴿قَدْ﴾ إشعار بأن الرسول والمجادلة كانا يتوقعان أن ينزل الله حكم الحادثة، ويفرج عنها كربها؛ لأنها إنما تدخل على ماض متوقع.

وقد مرّ لك أن المجادلة هي خولة بنت ثعلبة بن مالك بن خزاعة الخزرجية،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة. روي: أنّها كانت حسنة البدن، فرآها أوس وهي تصلي، فاشتهى مواقعتها، فلما سلمت.. راودها فأبت وكان به خفّة عقل - فغضب عليها بمقتضى البشرية، وقال: أنت عليّ كظهر أمي - وكان أول ظهار وقع في الإسلام - ثم ندم على ما قال، بناء على أن الظهار والإيلاء كانا من طلاق الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلي وقد حرمت علي، فشقّ ذلك عليها، فأتت رسول الله - ﷺ - وعائشة رضي الله عنها تغسل شق رأسه - فقالت: يا رسول الله! إن زوجي أوس بن الصامت، أبو ولدي، وابن عمي، وأحب الناس إلي، ظاهر مني وما ذكر طلاقاً، وقد ندم على فعله، فهل من شيء يجمعني وإياه؟ فقال - ﷺ -: «ما أراك إلا وقد حرمت عليه» فقالت: لا تقل ذلك يا رسول الله، وذكرت فاقتها ووحدتها بتفاني أهلها، وأن لها صبية صغاراً، فقالت: إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن ضممتهم إلى أبيهم ضاعوا. فأعاد النبي - ﷺ - قوله الأول وهو: «حرمت عليه» فجعلت تراجع رسول الله - ﷺ - مقالتها الأولى، وكلما قال لها رسول الله - ﷺ -: «حرمت عليه» هتفت، وقالت: أشكو إلى الله مما لقيت من زوجي حال فاقتي ووحدتي، وقد طالت معه صحبتي ونفضت له بطني؛ تريد بذلك: أني قد بلغت عنده سنّ الكبر وصرت عقيماً لا ألد بعد، وكانت في ذلك ترفع رأسها إلى السماء على ما هو عادة الناس استنزالاً للأمر الإلهي من جانب العرش وتقول: اللهم أنزل على لسان نبيك، فقامت عائشة تغسل الشق الآخر من رأسه - ﷺ -، وهي ما زالت في مراجعة الكلام مع رسول الله - ﷺ - وبث الشكوى إلى الله سبحانه حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات الأربع سمعاً لدعائها وقبولاً لشكواها، وكانت سبباً لظهور حكم الظهار.

وجملة قوله: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ في محل نصب على الحال من الجلالة، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها، كما سيأتي؛ أي: والله يعلم[1] تراجعكما في الكلام، وتخاطبكما، وتجاوبكما في أمر الظهار. فإن التحاور بمعنى التجاوب، وهو رجع الكلام وجوابه من الحور؛ بمعنى: الرجوع. وذلك كان برجوع الرسول إلى الحكم بالحرمة مرة بعد أخرى، وبرجوع المجادلة إلى طلب التحليل كذلك.

---

(١) روح البيان.

ومثله: المحاورة في البحث ومنه قولهم في الدعاء: نعوذ بالله من الحور بعد الكور؛ أي: الرجوع إلى النقصان بعد الوصول إلى الزيادة، أو إلى الوحشة بعد الأنس. وقال الراغب: الحور: التردد، إما بالذات وإما بالتفكر. وقيل: نعوذ بالله من الحور بعد الكور؛ أي: من التردد في الأمر بعد المضي فيه، أو من نقصان وتردد في الحال بعد الزيادة فيها. وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده. وفي نظمها في سلك الخطاب مع أفضل البريّات تغليب، إذ القياس: تحاورها وتحاورك، تشريفاً لها من جهتين. والجملة استئناف جار مجرى التعليل لما قبلها كما مرّ آنفاً. فإن إلحافها في المسألة ومبالغتها في التضرع إلى الله، ومدافعته عليه السلام إياها بجواب منبىء عن التوقف وترقب الوحي، وعلمه تعالى بحالهما.. من دواعي الإجابة. وفي «كشف الأسرار»: ليس هذا تكراراً؛ لأن الأول لما حكته عن زوجها، والثاني لما كان يجري بينها وبين رسول الله - ﷺ -؛ لأن الأول ماضٍ، والثاني مستقبل.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾؛ أي: مبالغ في السمع، يسمع كل مسموع. ﴿بَصِيرٌ﴾؛ أي: مبالغ في الإبصار يبصر كل مبصر، ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة؛ أي: ومن قضيته أن يسمع تحاورهما، ويرى ما يقارنه من الهيئات التي من جملتها رفع رأسها إلى السماء وسائر آثار التضرع.

وفي الآية دليل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق، ولم يبق له في مهمه أحد سوى ربه، وصدق في دعائه وشكواه.. كفاه الله في ذلك، ومن كان أضعف.. فالرب به ألطف. ولقد أجاد من قال:

يَا مَنْ يَرَىٰ مَا فِيْ ٱلضَّمِيْرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ ٱلْمُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ

يَا مَنْ يُرَجَّىٰ لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيْهِ ٱلْمُشْتَكَىٰ وَٱلْمَفْزَعُ

مَا لَي سِوَىٰ قَرْعِيْ لِبَابِكَ حِيْلَةٌ ... وَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ

حَاشَا لِجُوْدِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِياً ... اَلْفَضْلُ أَجْزَلُ وَٱلْمَوَاهِبُ أَوْسَعُ

وقد شاهدنا مشهداً عجيباً في إجابة الدعاء عند قراءة هذه الأبيات في الشدائد والنوائب، وفي المعارك.

وفي الآية أيضاً: أن من استمع الله ورسوله والورثة إلى كلامه.. فسائر الناس أولى.

روي: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مر بهذه المرأة في خلافته، وهو على حمار والناس معه، فاستوقفته طويلاً ووعظته، وقالت: يا عمر! قد كنت تدعى عميراً، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر؛ فإنه من أيقن الموت.. خاف الفوت، ومن أيقن الحساب.. خاف العذاب. وهو واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف الطويل؟ فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ما زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟!

ثم اعلم: أنه من أكبر الذنوب أن يقول الرجل لأخيه: اتق الله، فيقول في جوابه: عليك نفسك؛ أي: الزم نفسك، أنت تأمرني بهذا؟! وذلك لأنه إذا ذكر اسم الله.. يلزم التعظيم له، سواء صدر من مسلم أو كافر، وأعلم الناس لا يستغني عن تنبيه وإيقاظ، وقد قيل: اللائق بالعاقل أن يكون كالنحل يأخذ من كل شيء ثم يخرجه عسلاً، فيه شفاء من كل داء، وشمعاً له منافع لا سيما الضياء، فطالب الحكمة يأخذها من كل مقام سواء قعد أو قام.

ٱلْـمَـرْءُ لَـوْلاَ عُـرْفُـهُ فَـهُـوَ ٱلـدُّمَـىٰ   وَٱلْـمِـسْـكُ لَـوْلاَ عَـرْفُـهُ فَـهُـوَ ٱلـدَّمُ

العرف الأول ـ بالضم ـ بمعنى المعروف، والثاني ـ بالفتح ـ: الرائحة الطيبة. والدمى ـ بضم الدال وفتح الميم ـ: جمع دمية، كالدجى جمع دجية، وهي الصورة المنقشة من رخام أو عاج.

ومعنى الآية: أي قد قبل الله سبحانه شكوى المرأة التي تجادلك يا محمد في شأن زوجها، وبث أمرها إلى ربها، وسمع ما سمع من تحاورها معك، والله سميع لما يقال، خبير بحال عباده، فأنزل فيها ما أزال غصتها، وفرج كربتها، وأقر به عينها، وبلّ به ريقها، وأرجع إلى كنفها صبيتها الذين كانوا مصدر شقوتها، وبهم اعتلت ـ تعللت واحتجت ـ على رسوله ﷺ.

ثم بيّن سبحانه شأن الظهار في نفسه، وذكر حكمه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ أيها المؤمنون؛ أي: يحرمون نساءهم على أنفسهم كتحريم الله عليهم ظهور

أمهاتهم، فلا يلحق بهم الذمي؛ لأنه ليس من أهل الكفارة لغلبة جهة العبادة فيها، فلا يصح ظهاره؛ أي: الذين يقع منهم الظهار ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾؛ أي: من زوجاتهم، فيقول أحدهم لامرأته: أنت علي كظهر أمي يريد: أنك علي حرام كما أن أمي عليّ حرام، مخطئون فيما صنعوا.

ثم بيّن وجه خطئهم بقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ...﴾ إلخ. وفي «فتح الرحمٰن»: قال ذلك هنا، وقال بعده: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ لأنّ الأوّل خطاب للعرب خاصة، وكان طلاقهم في الجاهلية الظهار، والثاني بيان أحكام الظهار للناس عامة، انتهى.

وهذا شروع في بيان الظهار نفسه[1]، وحكمه المترتب عليه شرعاً بطريق الاستئناف.

والظهار لغة: مصدر ظاهر الرجل؛ أي: قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، والظهر: العضو، والجارحة، ويعبر عن البطن بالظهر؛ أي: أنت عليّ حرام كبطن أمي؛ أي: فكنّى عن البطن بالظهر الذي هو عمود البطن لئلا يذكر ما يقارب الفرج، تأدباً.

واعلم: أنه ألحق الفقهاء بالظهر نحو البطن والفخذ والفرج، مما يحرم النظر إليه من الأم، فمن قال: أنت عليّ كبطن أمي أو فخذها أو فرجها.. كان ظهاراً، بخلاف مثل اليد أو الرجل، وكذا ألحقوا بالأم سائر المحارم، فلو وضع المُظاهر مكان الأم ذات رحم محرم منه من نسب، كالخالة والعمة، أو رضاع، أو صهر.. كان ظهاراً؛ مثل أن يقول: أنت عليّ كظهر خالتي أو عمتي أو أختي، نسباً أو رضاعاً، أو كظهر امرأة أبي أو ابني. ولو شبّهها بالخمر أو الخنزير أو الدم أو الميتة، أو قتل المسلم، أو الغيبة أو النميمة، أو الزنا، أو الربا، أو الرشوة.. فإنه ظهار إذا نوى. وفي أنت عليّ كأمي: صح نية الكرامة؛ أي: استحقاق البرّ، فلا يقع طلاق ولا ظهار، وصح نية الظهار؛ بأن يقصد التشبيه بالأمّ في الحرمة.. فيترتب عليه أحكام الظهار لا غير. ونية الطلاق؛ بأن يقصد إيجاب الحرمة، فإن لم

---

(١) روح البيان.

ينو شيئاً.. لغا. وأنت عليّ حرام كأمي: صحّ فيه ما نوى من ظهار أو طلاق أو إيلاء، ولو قال: أنت أمي أو أختي أو بنتي، بدون التشبيه.. فهو ليس بظهار، يعني: إن قال: إن فعلت كذا فأنت أمي، ففعلته.. فهو باطل وإن نوى التحريم. ولو قالت لزوجها: أنت عليّ كظهر أمّي.. فإنه ليس بشيء، وقال الحسن: إنه يمين. والكلام على الظهار مبسوط في كتب الفروع، فراجعها إن أردت الخوض فيه.

وفي إيراد[1] ﴿مِنكُم﴾ مع كفاية ﴿مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ مزيد توبيخ للعرب، وتقبيح لعادتهم في الظهار، فإنه كان من أيمان جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم، فلا يليق بهم بعد الإسلام أن يراعوا تلك العادة المستهجنة، فكأنه قيل: منكم على عادتكم القبيحة المستنكرة. ويحتمل أن يكون لتخصيص نفع الحكم الشرعي للمؤمنين بالقبول والاقتداء به؛ أي: منكم أيها المؤمنون المصدّقون بكلام الله، المؤتمرون بأمر الله، إذ الكافرون لايستمعون الخطاب، ولا يعلمون بالصواب.

وفي قوله: ﴿مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ إشارة إلى أن الظهار لا يكون في الأمة، ومن ذلك قالوا: إن للظهار ركناً، وهو: التشبيه المذكور، وشرطاً وهو: أن يكون المشبه منكوحةً؛ حتى لا يصح من الأمة، وأهلاً وهو: من كان من أهل الكفارة؛ حتى لا يصح من الذمي والصبي والمجنون، وحكماً وهو: حرمة الوطء، حتى يكفّر مع بقاء أصل الملك.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يظّهّرون﴾ بالتشديد مع فتح حرف المضارعة. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَظّاهرون﴾ بفتح الياء، وتشديد الظاء، وزيادة ألف. وقرأ أبو العالية، وعاصم، وزر بن حبيش: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء، وكسر الهاء. وقد تقدم مثل هذا في سورة الأحزاب. وقرأ أبيّ: ﴿يتظاهرون﴾ بفك الإدغام.

وجملة قوله: ﴿مَّا هُنَّ﴾؛ أي: ما نساؤهم ﴿أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ خبر الموصول؛ أي: ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة، فهو كذب بحت؛ يعني: أنّ من قال لامرأته:

---

(١) روح البيان.   (٢) الشوكاني.

أنت عليّ كظهر أمي.. ملحق في كلامه هذا للزوج بالأمّ، وجاعلها مثلها، وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين، وكانوا يريدون بالتشبيه الحرمة في المُظَاهر منها كالحرمة في الأم تغليظاً وتشديداً. فإن قيل: فحاصل الظهار مثلاً: أنت محرّمة عليّ كما حرمت علي أمي، وليس فيه دعوى الأمومة حتى تنفى وتثبت للوالدات.. يقال: إن ذلك التحريم في حكم دعوى الأمومة، وأنّ المراد: نفي المشابهة، لكن نفي الأمومة للمبالغة فيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ بالنصب على اللغة الحجازية في إعمال (ما) عمل (ليس). وقرأ أبو عمرو، والسلمي، والمفضل عن عاصم بالرفع على عدم الإعمال، وهي لغة نجد وبني أسد. وقرأ ابن مسعود ﴿بأمهاتهم﴾ بزيادة الباء.

ثم بيّن سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال: ﴿إن﴾ نافية بمعنى: (ما) ﴿أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ في الحقيقة والصدق ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي﴾ جمع التي. أي: ما أمهاتهم إلا النساء اللاتي ﴿وَلَدْنَهُمْۚ﴾؛ أي: ولدن المظاهرين، فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الشرع بهن من أزواج النبي - ﷺ - والمرضعات، ومنكوحات الآباء لكرامتهن، وحرمتهن، فدخلن بذلك في حكم الأمهات، وأما الزوجات.. فأبعد شيء من الأمومة فلا تلحق بهنّ في وجه من الوجوه.

ثم زاد سبحانه في توبيخهم وتقريعهم، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: وإن المظاهرين منكم ﴿لَيَقُولُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: فظيعاً قبيحاً من القول، ينكره الشرع، على[2] أنَّ مناط التأكيد ليس صدور القول منهم فإنه أمر محقق، بل كونه منكراً؛ أي: عند الشرع وعند العقل والطبع أيضاً، كما يشعر به تنكيره؛ وذلك لأنّ زوجته ليست بأمه حقيقة، ولا ممن ألحقه الشرع بها، فكان التشبيه بها إلحاقاً لأحد المتباينين بالآخر، فكان منكراً مطلقاً غير معروف ﴿وَزُورًاۚ﴾؛ أي: كذباً باطلاً منحرفاً عن الحق. فإنّ الزور بالتحريك: الميل، فقيل للكذب: زور بالضم لكونه مائلاً عن الحق. قال بعضهم: ولعلَّ قوله: ﴿وَزُورًاۚ﴾ من قبيل عطف السبب على المسبب.

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط.

(٢) روح البيان.

فإن قلت: قوله: أنت علي كظهر أمي، إنشاء لتحريم الاستمتاع بها وليس بخبر، والإنشاء لا يوصف بالكذب.

قلت: هذا الإنشاء يتضمن إلحاق الزوجة المحللة بالأم المحرمة أبداً، وهذا إلحاق مناف لمقتضى الزوجية، فيكون كاذباً. وقال بعضهم: لمّا كان مبنى طلاق الجاهلية الأمر المنكر الزور لم يجعله الله طلاقاً، ولم تبق الحرمة إلا إلى وقت التكفير.

والمعنى[1]: أي وإنهم ليقولون قولاً منكراً لا يجيزه شرع ولا يرضى به عقل ولا يوافق عليه ذو طبع سليم، فكيف تشبه من يسكن إليها، وتسكن إليه، وجعل بينه وبينها مودةً ورحمة وصلة خاصة لا تكون لأم ولا لأخت بمن جعل صلتها بابنها صلة الكرامة والحنو والإجلال والتعظيم؟ إلى أن الرجل قوام على المرأة، له حق تأديبها إذا اعوجت، وهجرانها في المضاجع إذا جمحت. ولم يعط ذلك الابن ليعامل به أمه؟ فهذا زور وبهتان عظيم. ولا يخفى ما في هذا من الاستهجان وشديد التشنيع على صدور هذا القول منهم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ أي: لكثير العفو والمغفرة لما سلف من الذنب متى تاب فاعله منه؛ إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم عن هذا القول المنكر الزور. والفرق بين المغفرة والعفو: أن العفو محو للذنوب عن صحف الملائكة، والمغفرة سترها عن أعينهم.

ثم فصل حكم الظهار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾؛ أي: والذين يقولون ذلك القول المنكر الفظيع لنسائهم ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾؛ أي: ثم يريدون العود إلى ما حرموا على أنفسهم بلفظ الظهار من الاستمتاع. ففيه تنزيل القول منزلة المقول فيه، واللام فيه بمعنى إلى، لأنّهما قد يتقارضان. أو يعودون لما قالوا إما بالسكوت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه، كما قاله الشافعي، أو إما باستباحة الوطء والملامسة والنظر إليها بالشهوة ـ كما قاله أبو حنيفة ـ أو بالعزم على جماعها، كما قاله مالك ـ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أي[2]: فالواجب عليهم إعتاق

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

رقبة مؤمنة، فلا تجزىء كافرة قياساً على كفّارة القتل على ما ذهب إليه الشافعي ومالك، واشترطا أيضاً: سلامتها من كل عيب. أو إعتاق أي رقبة مؤمنة كانت أو كافرة، وإن كان الأولى تحرير المؤمنة على ما قاله أبو حنيفة، وهو الظاهر.

والتحرير: جعل الإنسان حراً، وهو خلاف الرقيق. والرقبة: ذات مرقوق مملوك، سواء كان مؤمناً أو كافراً، ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، هندياً أو رومياً، عربياً أو حبشياً. فيعتقها مقروناً بالنية، وإن كان محتاجاً إلى خدمتها، فلو نوى بعد العتق أو لم ينو.. لم يجزىء، وإن وجد ثمن الرقبة وهو محتاج إليه.. فله الصيام، كما في «الكواشي». ولا يجزىء إعتاق أمّ الولد، والمدبر، والمكاتب الذي أدّى شيئاً، فإن لم يؤدّ.. جاز. ويجب أن تكون سليمة من العيوب الفاحشة بالاتفاق. واشترط الشافعي الإيمان قياساً على كفّارة القتل، كما قال تعالى فيها: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾. قلنا: حمل المطلق على المقيد إنما هو عند اتحاد الحادثتين واتحاد الحكم أيضاً، وهنا ليس كذلك.

و﴿الفاء﴾: فيه رابطة الخبر بالمبتدأ لشبهه بالشرط، وفيها معنى السببية. ومن فوائدها[1]: الدلالة على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار؛ لأن تكرر السبب يوجب تكرر المسبب، كقراءة آية السجدة في موضعين. فلو ظاهر من امرأته مرتين أو ثلاثاً في مجلس واحد، أو مجالس متفرقة.. لزمه بكل ظهار كفارة. هذا عند الأحناف ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾؛ أي: من قبل أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر جماعاً وتقبيلاً ولمساً، ونظراً إلى الفرج بشهوة، ذلك لأنّ اسم التماس، يتناول الكلّي، وإن وقع شيء من ذلك قبل التكفير.. يجب عليه أن يستغفر، لأنه ارتكب الحرام. ولا يعود حتى يكفر وليس عليه شيء سوى الكفارة الأولى بالاتفاق. وإن أعتق بعض الرقبة ثمّ مسّ.. فعليه أن يستأنف عند أبي حنيفة، ولا تسقط الكفارة بل يأتي بها على وجه القضاء، كما لو أخّر الصلاة عن وقتها فإنه لا يسقط عنه الإتيان بها بل يلزمه قضاؤها.

وفي الآية دليل على أنّ المرأة لا يجوز لها أن تدع الزوج أن يقربها قبل الكفارة؛ لأنه نهاهما جميعاً عن المسيس قبل الكفارة. قال القهستاني: لها مطالبة

---

(١) روح البيان.

التكفير والحاكم يجبر عليه بالحبس ثم بالضرب، فالنكاح باقٍ والحرمة لا تزول إلا بالتكفير. وكذا لو طلقها ثم تزوجها بعد العدة أو زوج آخر. . حرم وطؤها قبل التكفير، ثم العود الموجب لكفارة الظهار عند أبي حنيفة هو: العزم على جماعها، كما مر. فمتى عزم على ذلك لم تحل له حتى يكفر، ولو مات بعد مدة قبل أن يكفر. . سقطت عنه الكفارة؛ لفوت العزم على جماعها.

والمعنى[1]: أي والذين يقولون هذا القول المنكر الزور ثم يتداركونه بنقضه ويرجعون عمّا قالوا فيريدون المسيس. . فعلى كل منهم عتق عبد أو أمة قبل التماس إن كان ذلك لديه.

ثم بيّن السبب في شرع هذا الحكم، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحكم بالكفارة أيها المؤمنون. وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: تؤمرون به أو تزجرون به؛ لأن الوعظ زجر يقترن بتخويف؛ أي: تزجرون به من ارتكاب المنكر المذكور. فإن الغرامات مزاجر من تعاطي الجنايات. والمراد بذكره: بيان أنّ المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذي هو علم في استتباع الثواب العظيم، بل هو ردعكم وزجركم عن مباشرة ما يوجبه.

والحاصل: أن في المؤاخذة الدنيوية نفعاً لكلّ من المظاهر وغير المظاهر؛ بأن يحصل للمُظاهر الكفارة والتدارك، ولغير المُظاهر الاحتياط والاجتناب. وقال الزَّجاج: معنى الآية: ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به؛ أي: إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار، انتهى.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من جناية الظهار والتكفير ونحو ذلك من قليل وكثير ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بظواهرها وبواطنها، ومجازيكم بها، فحافظوا حدود ما شرع لكم، ولا تخلوا بشيء منها.

والمعنى: أي إنه شرع لكم حكم الكفارة عند طلب العودة إلى المسيس ليكون ذلك زاجراً لكم من ارتكاب المنكر، فإن الكفارة تمنع من وقوع الجرم. والله خبير بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيكم بها، فانتهوا عن قول المنكر،

---

(١) المراغي.

وحافظوا على ما شرع لكم من الحدود، ولا تخلوا بشيء منها.

ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن التكفير بالإعتاق، فقال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾؛ أي[1]: فالمُظاهر الذي لم يجد الرقبة في ملكه وعجز عن قيمتها فاضلاً عمّا لا بدّ له منه من مسكن وثياب وقوت، والذي غاب ماله.. فهو واجد بأن كان فقيراً وقت التكفير، وهو من حين العزم إلى أن تقرب الشمس من الغروب من اليوم الأخير مما صام فيه من الشهرين، فلا يتحقق العجز الحقيقي إلا بذلك.

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾؛ أي: فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾؛ أي: متواليين ليس فيهما رمضان ولا الأيام الخمسة المحرم صومها؛ أي: يوما العيد وأيام التشريق الثلاثة فيصومهما بحيث لا يفصل يوماً عن يوم ولا شهراً عن شهر بالإفطار، فإن أفطر فيهما يوماً أو أكثر بعذر أو بغير عذر.. استأنف، ولم يحسب ما صام إلا بالحيض، كما سيأتي. قال الشافعي ومالك وغيرهما: إن أفطر بعذر كمرض وسفر.. لا يستأنف بل يبني على ما صام؛ أي: فعليه صيام شهرين متتابعين ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾؛ أي: من قبل أن يتجامع المظاهِر والمظاهَر منها، ليلاً أو نهاراً، عمداً أو خطأً. ولو جامع زوجةً أخرى ناسياً.. لا يستأنف، ولو أفطرت المرأة للحيض في كفّارة القتل أو الفطر في رمضان.. لا تستأنف، لكنها تصل صومها بأيام الحيض. وقال الشافعي: ولو وطىء ليلاً.. لا يستأنف؛ لأنه ليس محلاً للصوم. والأول أولى[2]. ثم إنه إن صام بالأهلة.. أجزأه، وإن صام ثمانية وخمسين؛ بأن كان كل من الشهرين ناقصاً، وإن صامها بغيرها.. فلا بد من ستين يوماً، حتى لو أفطر صبيحة تسعة وخمسين.. وجب عليه الاستئناف.

والمعنى: أي فمن لم يجد رقبة، ولا ثمنها فاضلاً عن قدر كفايته.. فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين من قبل التماس، فإن أفطر يوماً من الشهرين ولو اليوم الأخير ولو بعذر مرض أو سفر.. لزمه الاستئناف بصوم جديد لزوال التتابع.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ صيام شهرين متتابعين بسبب من الأسباب[3]، كالهرم، والمرض المزمن؛ أي: الممتد الغير المرجو برؤه.. فإنه بمنزلة العاجز من كبر

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

السن، وإن كان يرجى برؤه واشتدت حاجته إلى وطء امرأته.. فالمختار أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام، ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام.. أجزأه. ومن الأعذار: الشبق المفرط، وهو: أن لا يصبر عن الجماع، فإنه ـ ﷺ ـ رخّص للأعرابي أن يعطي الفدية لأجله. ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾؛ أي: فعليه إطعام ستين مسكيناً من قبل أن يتماسا، حملاً للمطلق هنا على المقيد في الإعتاق والصيام عند غير أبي حنيفة، فيجب تقديمه على المسيس عند غيره، ولو وطىء في خلال الإطعام.. استأنف. وأما عند أبي حنيفة: فلا يستأنف، لأنه تعالى لم يذكر التماس مع الإطعام، وقيد المسكين اتفاقي؛ لجواز صرفه إلى غيره من مصارف الزكاة.

يقول الفقير: إنما خصّ المسكين بالذكر لكونه أحق بالصدقة من سائر مصارف الزكاة. وإطعام ستين مسكيناً يشمل ما كان حقيقياً وما كان حكمياً؛ بأن يطعم واحداً ستين يوماً، فإنه في حكم ستين مسكيناً، وإن أعطاه في يوم واحد وبدفعات لا يجوز على الصحيح.

والإطعام: جعل الغير طاعماً، ففيه رمز إلى جواز التمليك والإباحة في الكفارة. والمسكين ـ ويفتح ميمه ـ من لا شيء له ـ أو له ما لا يكفيه وأسكنه الفقر؛ أي: قلل حركته ـ والذليل والضعيف.

أي: فعليه أن يطعم ستين مسكيناً، لكل مسكين مدّان، وهما: نصف صاع. وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. قال الشافعي وغيره: لكل مسكين مدّ. والظاهر من الآية: أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين في يوم وبعضهم في يوم آخر.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم ذكره من الأحكام. وهو مبتدأ خبره مقدر؛ أي: ذلك البيان والتعليم للأحكام، والتنبيه عليها واقع كائن، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. ويجوز أن يكون اسم الإشارة في محل النصب بفعل محذوف، والتقدير: فعلنا ذلك لتصدقوا بالله ورسوله، وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم، وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم، وتقفوا عند حدود الشرع، ولا تتعدوها، ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول.

وإن قيل[1]: إذا كان ترك الظهار مفروضاً فما بال الفقهاء يجعلونه باباً في الفقه؟

أجيب: بأن الله تعالى، وإن أنكر الظهار وشنع على من تعوّد به من الجاهلين، إلا أنه تعالى وضع له أحكاماً يعمل بها من ابتلي به من الغافلين، فبهذا الاعتبار جعلوه باباً ليبينوا تلك الأحكام، وزادوا قدر ما يحتاج إليه مع أن المحققين قالوا: إن أكثر الأحكام الشرعية للجهال؛ فإن الناس لو احترزوا عن سوء المقال والفعال.. لما احتيج إلى تكثير القيل والقال.

ودلّت الآية على أن الظهار أكثر خطأ من الحنث في اليمين، لكون كفارته أغلظ من كفارة الحنث. واللام في ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ للحكمة والمصلحة؛ لأنها إذا قارنت فعل الله تكون للمصلحة؛ لأنه الغني المطلق، وإذا قارنت فعل العبد تكون للغرض؛ لأنه المحتاج المطلق.

والإشارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ إلى الأحكام المذكورة، وهو مبتدأ خبره ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: وتلك الأحكام المذكورة من تحريم الظهار، وإيجاب العتق للواجد، وإيجاب الصوم لغير الواجد إن استطاع، وإيجاب الإطعام لمن لم يستطع.. حدود الله التي لا يجوز تعديها، وشرائعه الموضوعة لعباده التي لا يجوز تجاوزها إلى ما يخالفها. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يقفون عند حدود الله، ولا يعملون بها، ولا يقبلونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجع. والأليم: بمعنى المؤلم، كالبديع بمعنى المبدع، أو بمعنى المتألم، لكن أسند مجازاً إلى العذاب مبالغةً، كأنه في الشدة بدرجة تتألم بها نفسه. وفي إثبات العذاب للكافرين حث للمؤمنين على قبول الطاعة. وعبر عن ترك العمل بمقتضى الظهار بالكفر للتغليظ على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾؛ يعني: أن إطلاق الكفر لتأكيد الوجوب والتغليظ على تارك العمل، لا لأنه كفر حقيقة كما يزعمه الخوارج. قال بعضهم في قوله - ﷺ -: «من ترك الصلاة فقد كفر»؛ أي: قارب الكفر، كما يقال: دخل البلدة، لمن قاربها.

---

(١) روح البيان.

وختم الآية[1] هنا بـ﴿أَلِيمٌ﴾، وفيما بعده بـ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأن الأول متصل بضده وهو الإيمان، فتوعدهم على الكفر بالعذاب الأليم الذي هو جزاء الكافرين، والثاني متصل بقوله: ﴿كُبِتُوا﴾، وهو الإذلال والإهانة، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال: ﴿مُّهِينٌ﴾.

والمعنى[2]: أي ذلك الذي بيناه لكم من وجوب الكفارة حين الظهار لتقروا بتوحيد الله، وتصدقوا رسوله، وتنتهوا عن قول الزور والكذب، وتتبعوا ما حده الدين من حدود الله، وبينه لكم من فرائض، وللجاحدين بهذه الحدود وغيرها من فرائض الله عذاب مؤلم على كفرهم بها. وأطلق اسم الكافر على متعدي هذه الحدود تغليظاً للزجر، كما مرّ آنفاً، كما قال في المتهاون في أداء فريضة الحج: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

والخلاصة[3]: أي ولمن جحد هذه الأحكام، وكذب بها عذاب أليم، فإن عجز عن جميع خصال الكفارة.. لم تسقط عنه، بل هي باقية في ذمته إلى أن يقدر على شيء منها، ولا ينبغي للمرأة أن تدعه يقربها حتى يكفر، كما مرّ، فإن تهاون بالتكفير.. حال الإمام بينه وبينها، وأجبره على التكفير وإن كان الإجبار بالضرب، ولا شيء من الكفّارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها؛ لأن ترك التكفير إضرار بالمرأة، وامتناع من إيفاء حقها.

وروي[4]: أنه لما نزلت هذه الآيات الأربع تلاها رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال لأوس بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: «هل تستطيع عتق رقبة؟» قال: إذن يذهب جلّ مالي، قال: «فصيام شهرين متتابعين» قال: يا رسول الله! إذا لم آكل في اليوم ثلاث مرات.. كلّ بصري وخشيت أن تعشو عيني، قال: «فإطعام ستين مسكيناً»، قال: لا، إلا أن تعينني عليه، قال: «أعينك بخمسة عشر صاعاً، وأنا داعٍ لك بالبركة». وتلك البركة بقيت في آله، كما في «عين المعاني».

ولما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين، فقال: ﴿إِنَّ

---

(١) برهان القرآن.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

﴿ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: محمداً ـ ﷺ ـ؛ أي: يعادونهما، ويشاقونهما، ويخالفونهما فيما أمرا به ونهيا عنه. وقال الزجاج: المحادة أن تكون في حد يخالف صاحبك وأصلها: الممانعة. ومنه الحديد، ومنه: الحداد للبواب. وفي إيراد[1] المحادة في أثناء ذكر حدود الله دون المعاداة والمشاقة من حسن الموقع ما لا غاية وراءه.

وقال بعضهم في معنى الآية: إن الذين يحادون؛ أي: يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما. ففيه وعيد عظيم للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا أموراً خلاف ما حده الشرع، وسموها: القانون والنظام.

﴿كُبِتُوا۟﴾؛ أي: أذلوا وأخزوا. وذلك كما وقع للمشركين يوم بدر، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر والقهر. يقال: كبت الله فلاناً إذا أذله. وقال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا، وقال ابن زيد: عذبوا، وقال السدي: لعنوا، وقال ابن الشيخ: يصلح لأن يكون دعاء عليهم وإخباراً عما سيكون بالماضي لتحققه؛ أي: سيكبتون. ويدخل فيهم المنافقون والكافرون جميعاً. أما الكافرون: فمحادتهم في الظاهر والباطن. وأمّا المنافقون: ففي الباطن فقط.

﴿كَمَا كُبِتَ﴾ وأذل وأهلك وعذب ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الماضية المعادين المحادين للرسل عليهم الصلاة والسلام، مثل: أقوام نوح، وهود، وصالح وغيرهم. وكان السريّ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: عجبت من ضعيف عصىٰ قوياً، فيقال له: كيف ذلك؟ ويقول: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ حال[2] من واو ﴿كُبِتُوا۟﴾؛ أي: كبتوا لمحادّتهم الله ورسوله، والحال أنّا قد أنزلنا آياتٍ واضحات فيمن حاد الله ورسوله ممن قبلهم من الأمم، وفيما فعلنا بهم، أو آيات بينات تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به.

والسؤال بأنّ الإنزال نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل، وهو إنما يتصور في الأجسام والآيات التي هي من الكلام من الأعراض الغير القارّة، فكيف يتصور

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الإنزال فيها؟

يجاب عنه: بأن المراد منه إنزال من يتلقّف من الله ويرسل إلى عباده تعالى. فيسند إليها مجازاً لكونها المقصودة منه. أو المراد منه: الإيصال، والإعلام، على سبيل الاستعارة.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بتلك الآيات أو بكل ما يجب الإيمان به ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم، من الإهانة بمعنى التحقير. والمراد: عذاب الكبت الذي هو في الدنيا، فيكون ابتداء كلام، أو عذاب الآخرة، فيكون للعطف، بمعنى: أن لهم الكبت في الدنيا ولهم عذاب مهين في الآخرة، فهم معذبون في الدارين. وقال بعضهم: وصف الله تعالى العذاب الملحق بالكافرين أولاً بالإيلام وثانياً بالإهانة لأن الإيلام يلحق بهم أولاً ثم يهانون به، وإذا كانت الإهانة ما في الآخرة.. فالتقديم ظاهر، وقد سبق غير هذا.

ومعنى الآية[1]: أي أن الذين يختارون لأنفسهم حدوداً غير ما حده الله ورسوله ويضعون شرائع غير ما شرعه الله سيلحقهم الخزي والنكال في الدنيا كما لحق من قبلهم من كفار الأمم الماضية الذين حادوا الله ورسله، وقد تحقق ذلك. وفي هذا بشارة عظيمة للمؤمنين بظهورهم على عدوهم ونصر الله لهم، كما أن فيه وعيداً عظيماً للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا قوانين وشرائع وضعية غير ما شرع الله، وألزموا رعاياهم العمل بها والجري على نهجها، وعينوا لذلك قضاةً يحكمون بها، ونبذوا ما جاء في شرعهم، والله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. نعم: إنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق ذوي الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يكون به انتظام شمل الجماعات، إذا كانت لا تخالف في أحكامها روح التشريع الديني؛ كتعيين مراتب التأديب للزجر عن المعاصي والجنايات التي لم ينص الشارع فيها على حدّ معين، بل فوض الأمر فيها للإمام، وليس في ذلك محادة لله ورسوله، بل فيها استيفاء لحق الله على الوجه الأكمل. وبالجملة: فلا بأس في النظام الذي لا يخالف روح الشرع، من ترتيب أحوال الداخلية والخارجية، مما لا بد منه في الحياة

---

(١) المراغي.

الاجتماعية.

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: وكيف يفعلون ذلك، وقد أقمنا دلائل واضحات تبين معالم الشريعة، وتوضح حدودها، وتفصل أحكامها، وتبين سر تشريعها. فلا عذر لهم في مخالفتها، والانحراف عن سننها، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: وللجاحدين بتلك الآيات عذاب يذهب بعزهم وكبريائهم.

والخلاصة: أن لهؤلاء المحادين عذاباً في الدنيا بالخزي والهوان، وعذاباً في الآخرة في جهنم، وبئس القرار.

والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منصوب[1] باذكر المقدر تعظيماً لذلك اليوم وتهويلاً، أو بـ﴿مُّهِينٌ﴾ أو بما تعلق به اللام من الاستقرار، أو بـ﴿أَحْصَىٰهُ﴾ المذكور بعده، والمراد به: يوم القيامة؛ أي: واذكر لقومك ـ يا محمد ـ أهوال يوم يحييهم الله فيه بعد الموت للجزاء ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: كلهم، بحيث لا يبقى منهم أحد غير مبعوث، فيكون تأكيداً للضمير، أو يبعثهم مجتمعين في حالة واحدة، فيكون حالاً منه. ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾؛ أي: فيخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ في الدنيا من الأعمال القبيحة، ببيان صدورها منهم أو بتصويرها في تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤوس الأشهاد، توبيخاً لهم وتخجيلاً لهم، وتشهيراً لحالهم وتشديداً لعذابهم، ولتكميل الحجة عليهم، وإلا.. فلا فائدة في نفس الإنباء لينبهوا على ما صدر منهم.

وجملة قوله: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ مستأنفة[2] واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: كيف ينبئهم بأعمالهم على كثرتها واختلاف أنواعها، وهي أعراض منقضية متلاشية؟ فقيل: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أحصى الله سبحانه عمل عبده، وأحاط به عدداً، وحفظه كما عمله، لم يفت منه شيء، ولم يغب عنه. ﴿و﴾ الحال أنهم قد ﴿نسوه﴾؛ أي: نسوا عملهم، ولم يحفظوه؛ لكثرته أو لتهاونهم حين ارتكبوه لعدم اعتقادهم المجازاة؛ أي: وجدوه حاضراً مكتوباً في صحائف أعمالهم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي: حاضر مطلع عليه، لا يغيب عنه أمر من

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

الأمور، فالشهيد بمعنى الشاهد، من الشهود بمعنى الحضور. فالعاقل لا بد له من استحضار الذنوب، والبكاء عليها، وطلب التوبة من الله تعالى الذي يحصي كل شيء، ولا ينساه، قبل أن يجيء يوم يفتضح فيه المصرّ على رؤوس الأشهاد، ولا يقبل الدعاء والمعذرة من العباد.

ومعنى الآية[1]: أي واذكر لهم ـ أيها الرسول ـ حالهم يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيخبرهم بما كسبت أيديهم تشهيراً لهم وخزياً على رؤوس الأشهاد، والله قد حفظه وضبطه، وهم قد نسوه، والله شهيد على كل شيء، فلا يغيب عنه شيء ولا ينسى شيئاً، وفي هذا شديد الوعيد والتقريع العظيم ليعرفوا أن ما حاق بهم من العذاب إنما كان من جزاء أعمالهم وقبيح أفعالهم.

ثم أكد ما سبق من إحاطة علمه تعالى بكل شيء، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والاستفهام فيه تقريري. وفي «الروح»: ﴿الهمزة﴾: فيه للإنكار المقرر بالرؤية لما أن الإنكار نفي معنيٌّ، ونفي النفي يقرر الإثبات، فتكون الرؤية ثابتة مقررة. والخطاب للرسول ـ ﷺ ـ، أو لكل من يستحق الخطاب.

والمعنى[2]: ألم تعلم علماً يقينياً بمرتبة المشاهدة أنه تعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض من الموجودات، سواء كان بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما.

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية. كانوا يوماً يتحدثون فقال أحدهم: أترى الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً، وقال الثالث: إن كان يعلم بعضه فهو يعلم كله ـ وصدق؛ لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها؛ لأنَّ كونه عالماً بغير سبب ثابت له مع كل معلوم ـ فنزلت الآية.

وجملة قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلخ، مستأنفة لتقرير شمول علمه، وإحاطته بكل المعلومات. و﴿ما﴾ نافية، و﴿يَكُونُ﴾ تامة، بمعنى: يوجد ويقع. و﴿مِن﴾ مقحمة، و﴿نَّجْوَىٰ﴾ فاعله، وهو مصدر بمعنى التناجي، مضاف إلى فاعله؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

أي: ما يقع تناجي ثلاثة نفر ومسارّتهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَابِعُهُمْ﴾؛ أي: جاعلهم أربعة من حيث إنه تعالى يشاركهم في الاطلاع عليها، كما قال الحسين النوري: إلا هو رابعهم علماً وحكماً، لا نفساً وذاتاً. وهو استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال؛ أي: ما يوجد في حال من الأحوال إلا في هذه الحال. وفي الكلام اعتبار التصيير. قال النصر أبادي: من شهد معيّة الحق معه.. زجره عن كل مخالفة وعن ارتكاب كل محذور، ومن لا يشاهد معيته.. فإنه متخط إلى الشبهات والمحارم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَكُونُ﴾ بالتحتية، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، والأعرج وأبو حيوة بالفوقية نظراً إلى تأنيث النجوى، والتذكير على قراءة العامة؛ لأنه مسند إلى ﴿مِن نَّجْوَىٰ﴾ وهو يقتضي الجنس، وذلك مذكر، وليس الأكثر في هذا الباب التذكير، لأن ﴿من﴾ زائدة، فالفعل مسند إلى مؤنث، فالأكثر التأنيث، وهو القياس. قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾. و﴿نَّجْوَىٰ﴾: احتمل أن تكون مصدراً مضافاً إلى ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾؛ أي: من تناجي ثلاثة، أو مصدراً على حذف مضاف؛ أي: من ذوي نجوى، أو مصدراً أطلق على الجماعة المتناجين؛ أي: ما يكون من جماعة متناجين. فـ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ على هذين التقديرين قال ابن عطية: بدل أو صفة. وقرأ ابن أبي عبلة ثلاثة وخمسة بالنصب على الحال، والعامل ﴿يتناجون﴾ مضمرة، يدل عليه ﴿نَّجْوَىٰ﴾. قال الفراء[2]: ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت ﴿نَّجْوَىٰ﴾ إليها، ولو نصبت على إضمار فعل.. جاز، وهي قراءة ابن أبي عبلة. ويجوز رفع ثلاثة على البدل من موضع نجوى.

﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾؛ أي: ولا نجوى خمسة نفر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿سَادِسُهُمْ﴾؛ أي: إلا وهو تعالى جاعلهم ستة في الاطلاع على ما وقع بينهم. وتخصيص[3] العددين بالذكر لخصوص الواقعة؛ لأن المنافقين المجتمعين في النجوى كانوا مرة ثلاثة وأخرى خمسة، ويقال: إن التشاور غالباً إنما يكون من ثلاثة إلى ستة ليكونوا أقل لفظاً وأجدر رأياً وأكتم سراً، ولذا ترك عمر رضي الله عنه حين علم بالموت

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

أمر الخلافة شورى بين ستة؛ أي: على أن يكون أمر الخلافة بين ستة ومشاورتهم واتفاق رأيهم. قال الفراء: العدد غير مقصود؛ لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر يعلم السر والجهر، لا تخفى عليه خافية، ولذا عمم الحكم، فقال: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ...﴾ إلخ؛ أي: ولا يكون نجوى عدد أقل مما ذكر من الثلاثة كالاثنين والواحد، فإن الواحد أيضاً يناجي نفسه ﴿وَلَا﴾ نجوى ﴿أَكْثَرَ﴾ من ذلك المذكور من الخمسة كالستة والسبعة ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَعَهُمْ﴾؛ أي: مع المتناجين بالعلم والسماع، يعلم ما يتناجون به، ولا يخفى عليه ما هم فيه، فكأنه مشاهدهم، ومحاضرهم، تعالى الله عن المشاهدة والحضور معهم حضوراً جسمانياً. ومما يدل على أن المراد بالمعية، معية العلم لا معيّة الذات: أنه تعالى بدأ الآية بالعلم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾. ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾؛ أي: في أي مكان كانوا فيه من الأماكن، ولو كانوا تحت الأرض، فإن علمه تعالى بالأشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة قرباً وبعداً.

وفي «كشف ما يلتبس من القرآن»: إن قلت: لِمَ خص[1] الثلاثة والخمسة بالذكر؟

قلت: لأن قوماً من المنافقين تحلقوا للتناجي فيما بينهم، يوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم فيحزنون لذلك، وكانوا بعدة العدد المذكور، فلما طال ذلك، وكثر.. شكوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله هذه الآيات بصفة حالهم عند تناجيهم. أو لأن الفرد أشرف من الزوج؛ لأنه الله تعالى، وتر يحب الوتر، فخصص العددان المذكوران بالذكر تنبيهاً على أنه لا بد من رعاية الأمور الإلهية في جميع الأمور، ثم بعد ذكرهما زيد عليهما ما يعم غيرهما من المتناجين بقوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ تعميماً للفائدة، انتهى بزيادة فيه.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ بالجر بالفتحة عطفاً على لفظ ﴿نَّجْوَىٰ﴾. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، والأعمش، وأبو حيوة، وسلام، ويعقوب، وأبو العالية، ونصر، وعيسى بن عمر بالرفع عطفاً على محل ﴿نَّجْوَىٰ﴾ إن أريد به

---

(١) فتح الرحمٰن.

المتناجون. ومن جعله مصدراً محضاً فعلى حذف مضاف؛ أي: ولا نجوى أدنى أو أكثر ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فأعرب بإعرابه. ويجوز أن يكون ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ﴾ مبتدأ والخبر ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾. فهو من عطف الجمل. وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ بالمثلثة. وقرأ الحسن أيضاً، ومجاهد، والخليل بن أحمد، ويعقوب أيضاً ﴿ولا أكبر﴾ بالباء الموحدة والرفع، واحتمل الإعرابين: العطف على الموضع، والرفع بالابتداء.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: ثم بعد بعثهم يخبرهم بالذي عملوه في الدنيا ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تفضيحاً لهم، وإظهاراً لما يوجب عذابهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من المعلومات ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: مبالغ في علمه، لا يخفى عليه شيء كائناً ما كان. وقرىء: ﴿يُنْبِئُهُم﴾ بالتخفيف والهمز. وقرأ زيد بن علي بالتخفيف وترك الهمز وكسر الهاء، والجمهور بالتشديد والهمز وضم الهاء.

ومجمل معنى الآية[2]: أي ألم تعلم أنه تعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض، فلا يتناجى ثلاثة إلا والله معهم ويعلم ما يقولون وما يدبرون ولا خمسة إلا وهو سادسهم يعلم ما به يتناجون، ولا نجوى أكثر من هذه الأعداد، ولا أقل منها إلا وهو عليم بها وعليم بزمانها ومكانها، لا يخفى عليه شيء من أمرها. وإنما خص هذه الأعداد لأن أقل ما لا بد منه في المشاورة التي يكون الغرض منها تدبير المصالح العامة ثلاثة، فيكون الاثنان كالمتنازعين نفياً وإثباتاً، والثالث كالحكم بينهما، وحينئذٍ تكمن المشورة ويتم الغرض، وهكذا في كل جمع اجتمعوا للمشورة لا بد من واحد يكون حكماً مقبول القول، ومن ثم يكون عدد رجال المشورة فرداً، كما جاء في الآية ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ...﴾ إلخ؛ أي: ثم ينبىء هؤلاء المتناجين بما عملوا من عمل يحبه أو يسخطه يوم القيامة، وإنه لعليم بنجواهم وإسرارهم، لا تخفى عليه خافية من أمرهم.

وقد علمت أن هذا الإنباء إنما هو لزيادة التقريع والتوبيخ على مرأى ومسمع من أهل الموقف، فيكون ذلك أنكى وأشد إيلاماً لهم. ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾؛ أي: ألم تنظر يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ﴾ ومنعوا ﴿عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ والمحادثة فيما بينهم دون المؤمنين

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ ويرجعون ﴿لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من تلك النجوى مرة بعد مرة إيقاعاً للحزن في قلوب المؤمنين، وإيهاماً لهم بأنّهم يتشاورون عليهم وهؤلاء هم من تقدم ذكرهم من اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم، ويتحلقون ثلاثة وخمسة ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يريدون أن يغيظوهم، فنهاهم رسول الله - ﷺ - ثم عادوا لمثل فعلهم والخطاب[1] للرسول - ﷺ - و﴿الهمزة﴾: للتعجب من حالهم، وصيغة المضارع للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة. قال أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه -: خرج - ﷺ - ذات ليلة ونحن نتحدث، فقال: «ما هذه النجوى، ألم تنهوا عن النجوى»؟ فقلنا: تبنا إلى الله إنا كنا في حديث الدجال، قال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم منه؟ هو الشرك الخفي» يعني: المراءاة.

﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ﴾؛ أي: بما هو إثم في نفسه، كالكذب ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ للمؤمنين ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾؛ أي: ومخالفة الرسول - ﷺ -. وهو معطوف على قوله: ﴿يَعُودُونَ﴾، داخل في حكمه، وبيان لما نهوا عنه لضرره في الدين؛ أي: يتحدثون سراً بما هو إثم في نفسه، وعدوان للمؤمنين، وتواص بمعصية الرسول. والعدوان: الظلم والجور، والمعصية: خلاف الطاعة، كما سيأتي.

فائدة: رسمت ﴿معصيت﴾ هذه والتي بعدها بالتاء المبسوطة، وإذا وقف عليها فأبو عمرو، وابن كثير والكسائي يقفون بالهاء، غير أن الكسائي يقف بالإمالة على أصله، والباقون يقفون بالتاء على الرسم، واتفقوا في الوصل على التاء. ا هـ. «خطيب».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يتناجون﴾ بوزن يتفاعلون، واختار هذه القراءة أبو عبيدة، وأبو حاتم لقوله فيما بعد: ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا﴾. وقرأ حمزة، وخلف، وورش عن يعقوب ﴿وينتجون﴾ بوزن يفتعلون مضارع ﴿انتجى﴾ وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه. وحكى سيبويه: أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو: تخاصموا واختصموا، وتقاتلوا واقتتلوا. وقرأ الجمهور ﴿وَمَعْصِيَتِ﴾ بالإفراد. وقرأ الضحاك وحميد ومجاهد: ﴿ومعصيات﴾ بالجمع.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ﴾؛ أي: وإذا جاءك يا محمد هؤلاء المتناجون من اليهود ﴿حَيَّوْكَ﴾؛ أي: خاطبوك، وعظّموك، وسلموك ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: بشيء لم يقع من الله أن يحييك به؛ أي: بتحية لم يأذن الله فيه أن يقال لك، فيقولون: السام عليك؛ أي: إنهم يقولون إذا جاؤوك في تحيتهم إياك: السام عليك يا محمد، وهم يوهمون أنهم يقولون: السلام عليك، فيرد النبي - ﷺ - فيقول: «عليكم» - بدون الواو -. ورواية: «وعليكم» بالواو خطأ، كذا في «عين المعاني». والسام بلغة اليهود: الموت. أو يقولون: أنعم صباحاً، وهو تحية الجاهلية، من النعومة؛ أي: ليصر صباحك ناعماً ليناً لا بؤس فيه. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

واختلفوا في رد السلام على أهل الذمة[1]: فقال ابن عباس، والشعبي وقتادة: هو واجب؛ لظاهر الأمر بذلك. وقال مالك: ليس بواجب فإن رددت فقل: عليك. وقال بعضهم: يقول في الرد: علاك السلام؛ أي: ارتفع عنك. وقال بعض المالكية: يقول في الرد: السلام عليك - بكسر السين -، يعني: الحجارة.

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: فيما بينهم إذا خرجوا من عندك ﴿لَوْلَا﴾ تحضيضية؛ أي: هلا ﴿يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ لمحمد؛ أي: هلا يغضب علينا، ويقهرنا بجزائنا على الدعاء بالشر على محمد لو كان نبياً حقاً، وقيل: المعنى: لو كان نبياً.. لاستجيب له فينا حيث يقول: وعليكم ووقع علينا الموت عند ذلك.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً، مبتدأ وخبر[2]؛ أي: محسبهم وكافيهم جهنم في التعذيب، من أحسبه إذ كفاه. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يدخلونها ويقاسون حرها لا محالة، وإن لم يعجل تعذيبهم لحكمة. والمراد: الاستهزاء بهم، والاستخفاف بشأنهم لكفرهم وعدم إيمانهم ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجع لهم، والمخصوص بالذم ﴿جَهَنَّمُ﴾. قال في «برهان القرآن»: الإتيان بالفاء لما فيه من معنى التعقيب؛ أي: فبئس المصير ما صاروا إليه، وهو جهنم، انتهى. وقال بعض المفسرين: وقولهم ذلك من جملة ما غفلوا عمّا عندهم من العلم، فإنهم كانوا أهل كتاب يعلمون أن

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

بعض الأنبياء قد عصاه أمته وآذوه، ولم يعجل تعذيبهم لحكمة ومصلحة، علمها عند الله تعالى، انتهى.

ثم إن الله سبحانه يستجيب دعاء الرسول عليه السلام، كما روي: أن عائشة رضي الله عنها سمعت قول اليهود، فقالت: عليكم السام والذام واللعن، فقال عليه السلام: «يا عائشة ارفقي؛ فإن الله يحب الرفق في كل شيء، ولا يحب الفحش والتفحش، أما سمعت ما رددت عليهم فقلت: عليكم، فيستجاب لي فيهم».

والمعنى: أي يفعلون ذلك، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وهم يريدون شتمه، ويحدثون أنفسهم أنه لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول؛ لأن الله يعلم ما نسره، فلو كان نبياً حقاً.. لعاجلنا بالعقوبة في الدنيا، فرد الله عليهم بقوله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: وإن جهنم وما فيها من العذاب الأليم لكافية لعقابهم ونكالهم، وقد أجّل عذابهم إلى هذا اليوم.

ثم قال تعالى مؤدباً عباده المؤمنين: أن لا يكونوا مثل اليهود والمنافقين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بألسنتهم وقلوبهم ﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ﴾ وتحدثتم في أنديتكم وخلواتكم ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ﴾؛ أي: لا تتحدثوا ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ والكذب، والمكر، والكيد بالرسول - ﷺ - ﴿و﴾ لا بـ﴿العدوان﴾ على المؤمنين باللمز والطعن والتعيير بهم ﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: ولا بمعصية الرسول ومخالفته، كما يفعله المنافقون واليهود. ثم بين لهم ما يتناجون به في أنديتهم وخلواتهم فقال: ﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ﴾ أي: بما يتضمن خير المؤمنين ﴿وَٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أي: وبما يتضمن الإتقاء عن معصية الرسول - ﷺ -. قال سهل رحمه الله: وتناجوا بذكر الله وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ﴾. وأدغم ابن محيصن التاء في التاء وقرأ الكوفيون، والأعمش، وأبو حيوة، ورويس: ﴿فلا تنتجوا﴾ مضارع انتجى. وقرأ الجمهور بضم عين ﴿العدوان﴾، وأبو حيوة بكسرها حيث وقع. وقرأ الضحاك: ﴿ومعصيات الرسول﴾ بالجمع، والجمهور على الإفراد. وقرأ عبد الله: ﴿إذا انتجيتم

(١) البحر المحيط.

فلا تتنجوا﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا أيها المؤمنون عقاب الله ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ﴾ وحده ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ لا إلى غيره استقلالاً، ولا اشتراكاً فيجازيكم بكل ما تأتون وما تذرون.

والمعنى[1]: أي إذا حدث منكم ـ أيها المؤمنون ـ تناج ومسارّة في أنديتكم وخلواتكم.. فلا تفعلوا كما يفعل أولئك الكفار من أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين، وتناجوا بما هو خير، واتقوا الله فيما تأتون وما تذرون، فإليه تحشرون فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم، وسيجزيكم بها.

ودلت الآية[2] على أن التناجي ليس بمنهي عنه مطلقاً، بل مأمور به في بعض الوجوه، إيجاباً واستحباباً وإباحة، على مقتضى المقام.

فإن قيل: كيف يأمر الله بالاتقاء عنه، وهو المولى الرحيم، والقرب منه ألذ المطالب، والأنس به أقصى المآرب، فالتقوى توجب الاجتناب، والحشر إليه يستدعي الإقبال إليه؟

يجاب عنه: بأن في الكلام مضافاً؛ إذ التقدير: واتقوا عذاب الله، أو قهر الله، أو غيرهما.

فإن قيل: إن العبد لو قدر على الخلاص من العذاب والقهر لأسرع إليه، لكنه ليس بقادر عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾، والأمر إنما يكون بالمقدور ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾؟

أجيب عنه: بأن المراد: الاتقاء عن السبب من الذنوب والمعاصي الصادرة عن العبد العاصي، فالمراد: اتقوا ما يفضي إلى عذاب الله، ويقتضي قهره في الدارين، من الإثم والعدوان ومعصية الرسول التي هي السبب الموجب لذلك. فالمراد: النهي عن مباشرة الأسباب، والأمر بالاجتناب عنها.

وإن قيل: إن ذلك الاتقاء إنما يكون بتوفيق الله له، فإن وفق العبد له فلا حاجة إلى الأمر به، وإن لم يوفقه فلا قدرة له عليه، والأمر إنما يحسن في

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

المقدرو؟

أجيب: بأنه تعالى علَّمَهُ الحق أولاً، ووهب له إرادةً جزئية يقدر بها على اختيار شيء، فله الاختيار السابق على إرادة الله تعالى، ووجود الاختيار في الفاعل المختار أمر يطلع عليه كل أحد حتى الصبيان، والله أعلم.

ثم بين سبحانه أن ما يفعله اليهود والمنافقون من التناجي هو من جهة الشيطان، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول بقرينة قوله: ﴿لِيَحْزُنَ﴾. ولأن ﴿أل﴾ فيه للعهد. ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لا من غيره، فإنه المزين لها، والحامل عليها فكأنها منه؛ أي: من تزيينه وتسويله. ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خبر آخر[1]. من الحُزن - بضم - فسكون متعد من الباب الأول، من الحَزَن بفتحتين لازماً من الباب الرابع؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾. فيكون الموصول مفعوله. قال الراغب: والحُزن: خشونة في النفس، لما يحصل فيها من الغمّ، ويضاده الفرح.

والمعنى: إنما هي ليجعل الشيطانُ المؤمنين محزونين بتوهمهم أنهم في نكبة أصابتهم في سيرتهم، يعني: أن غزاتهم غلبوا، وأن أقاربهم قتلوا متألمين، بذلك فاترين في تدبير الغزو، إلى غير ذلك مما يشوش قلوب المؤمنين. وفي الحديث: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما إلا بإذنه؛ فإن ذلك يحزنه». متفق عليه.

﴿وَلَيْسَ﴾؛ أي: الشيطان أو التناجي ﴿بِضَآرِّهِمْ﴾؛ أي: بالذي يضر المؤمنين ﴿شَيْـًٔا﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ سبحانه وتعالى، أي: إلا بمشيئته وإرادته؛ أي: ما أراده من حزن أو وسوسة. وفي «**الكشاف**» ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بمشيئته، وهو: أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة.

والمعنى: أي إنما فعل ذلك ليسوء المؤمنين بإيهامهم أن ذلك في نكبة أصابتهم وليس الشيطان بضار المؤمنين شيئاً إلا بإرادة الله ومشيئته.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه خاصة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمد المؤمنون عليه

---

(١) روح البيان.

تعالى في شؤونهم، وليفوضوا أمورهم إليه، وليثقوا به، ولا يبالوا بنجوى أعدائهم، فإنه تعالى يعصمهم من شرها وضررها، فينبغي للعبد التوكل التام، فإن المؤثر في كل شيء هو الله تعالى.

والمعنى[1]: أي إن ما يتناجى به المنافقون مما يحزن المؤمنين - إن وقع - فإنما يكون بإرادة الله ومشيئته، فلا يكترث المؤمنون بتناجيهم، وليتوكلن على الله ولا يحزنن، فإن من توكل عليه لا يخيب أمله، ولا يبطل سعيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني المخلصين ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ﴾ من أي قائل كان من الإخوان ﴿تَفَسَّحُواْ﴾؛ أي: توسعوا ﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾؛ أي: في أماكن الجلوس، متعلق بـ﴿تَفَسَّحُواْ﴾، وقال في «الإرشاد»: متعلق بـ﴿قِيلَ﴾، والأول أولى؛ لأن التفسح يتعدى بـ(في). ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾؛ أي: فوسعوا وأنتم جالسون أو قائمون. يقال: افسح عني، تنح وتباعد عني. ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَكُمۡۖ﴾ في الجنة، أو في كل ما تريدون التفسح فيه من الرزق، والصدر، والقبر، وغيرها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، أمرهم الله سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضاً بالتوسعة في المجلس وعدم التضايق فيه.

والآية عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر، سواء كان مجلس رسول الله - ﷺ - وكانوا يتضامُّون فيه تنافساً في القرب منه - ﷺ - وحرصاً على استماع كلامه أو مجلس حرب إذا اصطفوا للقتال كانوا يتشاحون على الصف الأول، فلا يوسع بعضهم لبعض ويأتي الرجل الصف ويقول: تفسحوا، ويأبون لحرصهم على الشهادة، أو مجلس ذكر، أو مجلس يوم الجمعة. وإن كل واحدٍ، وإن كان أحق بالمكان الذي سبق إليه لكنه يوسع لأخيه ما لم يتأذ لذلك، فيخرجه الضيق من موضعه. وفي الحديث: «لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يخلفه فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَفَسَّحُواْ﴾. وداوود بن أبي هند، وقتادة، وعيسى: ﴿تفاسحوا﴾. وقرأ الجمهور: ﴿في المجلس﴾ بالإفراد. قرأ السلمي، وزر بن

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

حبيش، وعاصم ﴿فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ على الجمع؛ لأن لكل واحد منهم مجلساً في بيت رسول الله ﷺ . وقرىء ﴿في المجلس﴾ بفتح اللام، وهو الجلوس؛ أي: توسعوا في جلوسكم، ولا تتضايقوا فيه.

والمعنى: أي يا أيها الذين آمنوا بالله، وصدقوا برسوله إذا قيل لكم: توسعوا في مجالس رسول الله - ﷺ - أو في مجالس القتال.. فافسحوا يفسح الله في منازلكم في الجنة، أو في قبوركم، أو في قلوبكم، أو في الدنيا والآخرة، أقوال.

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: كان رسول الله - ﷺ - يوم الجمعة في الصفة وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناسٌ، منهم: ثابت بن قيس، وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله - ﷺ - فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد النبي - ﷺ -، ثم سلموا على القوم، فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فلم يفسحوا لهم، فشق ذلك على رسول الله - ﷺ -، فقال لبعض من حوله: «قم يا فلان قم يا فلان» فأقام نفراً بمقدار من قدم، فشق ذلك عليهم، وعرفت كراهيته في وجوههم، وطعن المنافقون وقالوا: والله ما عدل محمد على هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه أقامهم وأجلس من أبطأ عنه. فنزلت الآية.

ويستفاد من الآية أمور[1]:

١ - أن الصحابة كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله - ﷺ - لسماع حديثه؛ لما فيه من الخير العميم والفضل العظيم، ومن ثم قال - ﷺ -: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى».

٢ - الأمر بالتفسح في المجالس، وعدم التضام فيها متى وجد إلى ذلك سبيل؛ لأن ذلك يدخل المحبة في القلوب، والاشتراك في سماع أحكام الدِّين.

٣ - أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة.. وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة. وبالجملة: فالآية تشتمل التوسع في إيصال جميع أنواع الخير إلى المسلم، وإدخال السرور عليه ومن ثم قال - ﷺ -: «لا يزال الله في عون

---

(١) المراغي.

العبد ما دام العبد في عون أخيه».

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم أيها المؤمنون، سواء كان القائل رسول الله ـ ﷺ ـ أو غيره ﴿ٱنشُزُواْ﴾ مِنْ نشز الرجل إذا نهض وارتفع في المكان؛ أي[1]: وإذا قيل لكم: قوموا للتوسعة على المقبلين؛ أي: على من جاء بعدكم.. ﴿فَٱنشُزُواْ﴾؛ أي: فارتفعوا وقوموا؛ يعني: إذا كثرت المزاحمة، وكانت بحيث لا تحصل التوسعة، بتنحي أحد الشخصين عن الآخر حال قعود الجماعة وقيل: قوموا جميعاً، تفسحوا حال القيام.. فانشزوا وانهضوا، ولا تثاقلوا عن القيام. أو إذا قيل لكم: قوموا عن مواضعكم فانتقلوا منها إلى موضع آخر لضرورة داعية إليه.. أطيعوا من أمركم به، وقوموا من مجالسكم وتوسعوا لإخوانكم. ويؤيده: أنه ـ ﷺ ـ كان يكرم أهل بدر، فأقبلت جماعة، منهم: ثابت بن قيس، فلم يوسعوا لهم... إلى آخر ما مر في الحديث السابق آنفاً. فأنزل الله الآية، فالقائل هو الرسول ـ ﷺ ـ.

ويقال: وإذا قيل: انشزوا ـ أي: انهضوا ـ عن مجلس رسول الله؛ أي: أمرتم بالنهوض عنه.. فانهضوا، ولا تملوا رسول الله ـ ﷺ ـ بالارتكان فيه. أو قيل لكم: انهضوا إلى الصلاة، أو إلى الجهاد، أو الشهادة أو غير ذلك من أعمال الخير.. انهضوا ولا تفرطوا، فالقائل يعم الرسول وغيره.

والظاهر[2]: حمل الآية على العموم، والمعنى: إذا قيل لكم: انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية.. فانهضوا، ولا تتثاقلوا. ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصاً، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو الحق.

وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج، وابن عامر، ونافع، وحفص بضم الشين في الموضعين. وقرأ الحسن، والأعمش، وطلحة، وباقي السبعة بكسرها فيهما. وهما لغتان بمعنى واحد.

وقال المراغي: والمعنى[3]: أي وإذا دعيتم إلى القيام عن مجلس رسول الله ـ ﷺ ـ.. فقوموا؛ لأن الرسول ـ ﷺ ـ كان يؤثر الانفراد أحياناً لتدبير شؤون الدين، أو لأداء وظائف تخصه لا تؤدى أو لا يكمل أداؤها إلا بالانفراد. وقد

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

عمموا هذا الحكم، فقالوا: إذا قال صاحب مجلس لمن في مجلسه: قوموا.. ينبغي أن يجاب، ولا ينبغي لقادم أن يقيم أحداً ليجلس في مجلسه؛ فقد أخرج مالك، والبخاري، والترمذي، عن ابن عمر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يقم الرجل الرجل من مجلسه، ولكن تفسّحوا وتوسعوا».

وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون بامتثال أوامره وأوامر رسوله في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ـ جواب[1] للأمر ـ أي؛ من فعل ذلك طاعة للأمر وتوسعة للإخوان يرفعهم الله تعالى بالنصر، وحسن الذكر في الدنيا، والإيواء إلى غرف الجنان في الآخرة؛ لأن من تواضع رفعه الله، ومن تكبر وضعه، فالمراد: الرفعة المطلقة الشاملة للرفعة الصورية والمعنوية. وقوله: ﴿و﴾ يرفع ﴿الذين أوتوا العلم﴾ منكم، معطوف على الموصول الأول، عطف خاص على عام، للدلالة على علو شأنهم وسمو مكانهم حتى كأنهم جنس آخر؛ أي: ويرفع الله الذين أوتوا العلم الديني منكم ﴿دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: طبقات عالية، ومراتب مرتفعة، بسبب ما جمعوا من العلم والعمل، فإن العلم لعلو درجته يقتضي للعمل المقرون به مزيد رفعة لا يدرك شأوه العمل العاري عنه وإن كان في غاية الصلاح، ولذا يقتدى بالعالم في أفعاله، ولا يقتدى بغيره. فعلم من هذا التقرير أنه لا شركة للمعطوف عليه في الدرجات، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: تم الكلام عند قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ وينتصب ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بفعل مضمر؛ أي: ويرفعهم درجات، وانتصاب ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ إما على إسقاط الخافض؛ أي: إلى درجات، أو على المصدرية؛ أي: رفع درجات، فحذف المضاف، أو على الحالية من الموصول؛ أي: ذوي درجات، أو على التمييز.

وفي هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله، وقد دلّ على فضله وفضلهم آيات قرآنية وأحاديث نبوية، كما بسطناها في كتابنا: «سلم المعراج على خطبة المنهاج».

وعبارة الشوكاني هنا: ومعنى الآية[2]: أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم.. رفعه الله بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات. وقيل: المراد بالذين

---

(١) روح البيان. (٢) فتح القدير.

آمنوا من الصحابة، وكذلك الذين أوتوا العلم. وقيل: المراد بالذين أوتوا العلم: الذين قرأوا القرآن. والأولى حمل الآية على العموم في كل مؤمن وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة. ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون الآخر. ا هـ.

والخلاصة[1]: إنكم أيها المؤمنون إذا فسح أحدكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج.. فلا يظنن أن ذلك نقص في حقه، بل هو رفعةٌ وزيادة قربى عند ربه، والله تعالى لا يضيع ذلك بل يجزي به في الدنيا والآخرة؛ فإن من تواضع لأمر الله.. رفع الله قدره، ونشر ذكره.

ويعلم من الآية سرّ تقدم العالم على غيره في المجالس والمحاضر[2]؛ لأن الله تعالى قدمه وأعلاه، حيث جعل درجاته عالية. وفي الحديث: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»؛ أي: فضل العالم الباقي بالله على العابد الفاني في الله، كما في «التأويلات النجمية».

قال بعضهم: المتعبد بغير علم كحمار الطاحونة يدور ولا يقطع المسافة. وحيث مدح العلم فالمراد به: العلم المقرون بالعمل. قال بعض الحكماء: ليت شعري أيَّ شيء أدْرَكَ من فَاته العلم، وأيُّ شيءٍ فات من أدرك العلم، وكل علم لم يوطَّد بعمل.. فإلى ذلّ يصير. وعن الزهري: العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال. قال مقاتل: إذا انتهى المؤمن إلى باب الجنة يقال له: لست بعالم، ادخل الجنة بعملك، ويقال للعالم: قف على باب الجنة واشفع للناس.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لأن أَعلَم مسألة أحب إلي من أن أصلي مئة ركعة، ولأن أُعلِّم مسألة أحب إلي من أن أصلي ألف ركعة. وعن أبي هريرة وأبي ذر الغفاري رضي الله عنهما قالا: سمعنا رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إذا جاء الموت طالب العلم على هذه الحال.. مات وهو شهيد».

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: بعملكم أو بالذي تعملونه ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم ببواطنه كظواهره، لا يخفى عليه شيء منه، لا ذاته جنساً أو

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

نوعاً، ولا كيفيته إخلاصاً أو نفاقاً أو رياء أو سمعة ولا كميته قلة أو كثرة، فهو خبير بتفسّحكم ونشزكم ونيتكم فيهما، فلا تضيع عند الله سبحانه. وجعله بعضهم تهديداً لمن لم يمتثل بالأمر أو استكرهه، فلا بد من التفسح والطاعة وطلب العلم الشريف.

والمعنى: والله تعالى ذو خبرة بأعمالكم، لا يخفى عليه المطيع منكم من العاصي، وهو مجازيكم جميعاً بأعمالكم، فالمحسن بإحسانه، والمسيء بالذي هو أهله أو يعفو.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله، وأخلصوا في إيمانهم ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً - ﷺ - أي: إذا كلمتموه سرّاً في بعض شؤونكم المهمة الداعية إلى مناجاته - ﷺ -، ومكالمته سرّاً. والمناجاة: المحادثة سرّاً.. ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾؛ أي: فتصدقوا قبلها على المستحق.

والمعنى: إذا أردتم مساررة الرسول في أمر من أموركم.. فقدموا بين يدي مساررتكم له صدقة. والآية نزلت حين أكثر الناس عليه السؤال، حتى أسأموه وأملّوه، فأمرهم الله بتقديم الصدقة عند المناجاة، فكف كثير من الناس عن مناجاته، أما الفقير: فلعسرته، وأما الغني: فلشحّه. وقرىء: ﴿صدقات﴾ بالجمع كما في الآتي.

وفي هذا الأمر تعظيم الرسول، ونفع الفقراء، والزجر عن الإفراط في السؤال، والتمييز بين المخلص والمنافق، ومحب الآخرة ومحب الدنيا(1). واختلف في أنه للندب أو للوجوب، لكنه نسخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ ...﴾ الآية، وهو وإن كان متصلاً به تلاوةً لكنه متراخ عنه نزولاً على ما هو شأن الناسخ. واختلف في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ، فقيل: كان ساعة من النهار، والظاهر: أنه عشرة أيام؛ لما روي عن علي رضي الله عنه، كما قاله مقاتل بن حيان. وقال الكلبي: كان ذلك ليلة واحدة. وقال قتادة: ما كان ذلك إلا ساعة من نهار ثم نسخ. وهذا لا ينافي الجلوس في مجلسه المبارك، والتكلم معه لمصلحة دينية أو دنيوية بدون

---

(1) روح البيان.

النجوى، إذ المناجاة تكلم خاص، وعدم الخاص لا يقتضي عدم العام.

والمعنى[1]: أي أيها المؤمنون إذا أراد أحد منكم أن يناجي الرسول ويسارّه فيما بينه وبينه.. فليقدم صدقة قبل هذا؛ لما في ذلك من تعظيم أمر الرسول - ﷺ -، ونفع الفقراء والتمييز بين المؤمن حقاً والمنافق، ومن دفع التكاثر عليه - ﷺ - من غير حاجة ملحة إلى ذلك.

ثم ذكر العلة في هذا فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التصدق بين يدي نجواكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أيها المؤمنون من إمساكه؛ لما فيه من طاعة الله تعالى، ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لأنفسكم من دنس الريبة ودرن البخل الناشيء من حب المال الذي هو من أعظم حب الدنيا، وهو رأس كل خطيئة. وتقييد[2] الأمر بكون امتثاله خيراً لهم من عدم الامتثال وأطهر لنفوسهم... يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب، لكن قوله فيما بعد: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ منبيء عن الوجوب، لأنه ترخيص لمن لم يجد، والظاهر: عدم الوجوب.

والمعنى: أن في هذا التقديم خيراً لكم؛ لما فيه من الثواب العظيم عند ربكم، ومن تزكية النفوس وتطهيرها من الجشع في جمع المال وحب ادّخاره، وتعويدها بذله في المصالح العامة؛ كإغاثة ملهوف، ودفع خصاصة فقير، وإعانة ذي حاجة والنفقة في كل ما يرقي شأن الأمة ويرفع من قدرها ويعلي كلمتها، ويؤيد الدين، وينشر دعوته.

ثم أقام العذر للفقراء، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ أيها الفقراء ما تتصدقون به بين يدي نجواكم، وعجزتم عن ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن لم يجده ﴿رَّحِيمٌ﴾ به حيث رخّص له المناجاة بلا تصدق؛ لأنه ما أمر بها إلا من قدر عليها، وقد شرع هذا الحكم لتمييز المخلص من المنافق، فلما تمّ هذاالغرض انتهى ذلك الحكم، ورخّص في المناجاة بدون تقديم صدقة، فقال: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾؛ أي: أبخلتم وخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم الصدقات بين يدي نجواكم، ووسوس لكم الشيطان أن في هذا الإنفاق ضياعاً للمال. والاستفهام[3] فيه للتقرير، كأن بعضهم ترك المناجاة للإشفاق لا مخالفة للأمر. والإشفاق: الخوف من

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

المكروه. وجمع ﴿صَدَقَٰتٍۚ﴾ هنا نظراً إلى كثرة المخاطبين. قال بعض المفسرين: أفرد الصدقة أولاً لكفاية شيء منها، وجمع ثانياً نظراً إلى كثرة التناجي والمناجي.

والمعنى[1]: أخفتم الفقر ـ يا أهل الغنى ـ من تقديم الصدقات، فيكون المفعول محذوفاً للاختصار. و﴿أَن تُقَدِّمُواْ﴾ في تقدير: لأن تقدموا. أو: أخفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر. قال الشاعر:

هَـوِّنْ عَـلَـيْـكَ وَلاَ تُـوْلَـعْ بِـإِشْـفَـاقِ ... فَـإِنَّـمَـا مَـالُـنَـا لِـلْـوَارِثِ ٱلْـبَـاقِـيْ

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ ما أمرتم به، وشقّ عليكم ذلك ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم في أن لا تفعلوه، وأسقط عنكم تقديم الصدقة. وذلك لأنه لا وجه لحملها على قبول التوبة حقيقة؛ إذ لم يقع منهم التقصير في حق هذا الحكم، بأن وقعت المناجاة بلا تصدق، وهذا هو الناسخ للآية السابقة. وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم من الانفعال ما قام مقام توبتهم. و﴿إذ﴾ على معناها من الظرفية والمضي بمعنى: أنكم تركتم ذلك فيما مضى وتجاوز الله عنكم بفضله، فتداركوه بما تؤمرون به بعد هذا. وقيل: بمعنى (إذا) للمستقبل، كما في قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾. أو بمعنى إن الشرطية، وهو قريب مما قبله إلا أنّ ﴿إن﴾ تستعمل فيما يحتمل وقوعه واللاوقوعه. وقوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على ﴿لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾. وقوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ جواب ﴿إذ﴾ مسبب عن قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾؛ أي: فإذا فرطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات، وتجاوز الله عنكم.. فتداركوه بالمواظبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المفروضة. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر الأوامر، فإن القيام بها كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط. والتعميم بعد التخصيص لتتميم النفع. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ جملة حالية، أو استئنافية معترضة بين الشرط وجوابه. وهذه الجملة هي التي فيها نسخ الوجوب كما تقدم، تأمل. انتهى.

والمعنى: أي فحين لم تفعلوا ما أمرتم به، وشق ذلك عليكم، وخفف عنكم ربكم فرخص لكم في المناجاة من غير تقديم صدقة، فأدوا الصلاة، وقوموها بأدائها

---

(١) روح البيان.

على أكمل الوجوه؛ لما فيها من الإخبات والإنابة إليه، والإخلاص له في القول والعمل، ونهيها عن الفحشاء والمنكر، ولما في الزكاة من تطهير النفوس وإزالة الشحّ بالمال المستحوذ على القلوب الدافع لها إلى ارتكاب الشرور والآثام، وأطيعوا الله فيما يأمركم به من الفرائض والواجبات وينهاكم عنه من الموبقات.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: عالم بالذي تعملون من الأعمال الظاهرة والباطنة، لا تخفى عليه خافية فيجازيكم عليه، فاعملوا ما أمركم به ابتغاء لمرضاته لا لرياء وسمعة، وتضرعوا إليه خوفاً من عقوباته خصوصاً بالجماعة يوم الجمعة. وقرأ عياش عن أبي عمرو(1): ﴿يعملون﴾ بالتحتية، والجمهور بالفوقية. ومن الأدعية النبوية: «اللهم: طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة. إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور».

وفي تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر من بين العبادات المرادة بالأمر بالإطاعة العامة إشارة إلى علو شأنهما وإنافة قدرهما(2)؛ لأن الصلاة رئيس الأعمال البدنية، جامعة لجميع أنواع العبادات، من القيام والركوع والسجود والقعود، ومن التعوذ والبسملة والقراءة والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والصلاة على النبي - ﷺ -، ومن الدعاء الذي هو مخّ العبادة، ومن ذلك سميت صلاة، وهي الدعاء لغةً. فهي عبادة من عبد الله تعالى بها.. فهو محفوظ بعبادة العابدين من أهل السماوات والأرضين، ومن تركها.. فهو محروم منها. فطوبى لأهل الصلاة، وويل لتاركها. وإن الزكاة هي أمّ الأعمال المالية، بها يطهر القلب من دنس البخل، والمال من خبث الحرمة، فعلى هذا هي بمعنى الطهارة، وبها ينمو المال في الدنيا بنفسه؛ لأنه: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾، وفي الآخرة بأجره؛ لأنه تعالى يضاعف لمن يشاء. وفي الحديث: «من تصدق بقدر تمرة من كسب حلال - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه، حتى تكون مثل الجبل». فعلى هذا هي من الزكاء، بمعنى النماء؛ أي: الزيادة.

فإن قلت: لم قدم المعمول على عامله في قوله السابق: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ

---

(1) البحر المحيط. (2) روح البيان.

﴿خَبِيرٌ﴾، وأخره هنا حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. فما الفرق بين الموضعين؟

قلتُ: فَعَلَ ما فَعَلَ في الموضعين رعاية للفواصل التي كانت بعدهما؛ لأنه بعد الأول وقع ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، و﴿رَّحِيمٌ﴾ بوزن خبير ـ وإن كان الحرف الأخير مختلفاً ـ وبعد الموضع الثاني الفواصل نفس ما فيه.

وقيل: قدم في الأول تأكيداً للتهديد المفهوم من الجملة؛ لأنها وقعت تعليلاً للأوامر العزائم قبلها، وفي الموضع الثاني لا حاجة إلى التأكيد المذكور؛ لأن الجملة وإن وقعت تعليلاً لما قبلها؛ لأن الأوامر قبلها إنما وقعت للترخيص وقيل: للتفنن. فليتأمل، هكذا وقع في فهمي السقيم، والله أعلم بأسرار كتابه.

الإعراب

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿سَمِعَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿قَوْلَ ٱلَّتِي﴾: مفعول به، ومضاف إليه ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ومن هذا سميت السورة سورة المجادلة بكسر الدال، على أنها اسم فاعل. وقيل: بفتحها وكسرها كما في «حاشية الشهاب على البيضاوي». والكسر أرجح على كل حال؛ لأنه أنسب بالسياق. ﴿فِي زَوْجِهَا﴾: متعلق بـ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾: ولا بد من حذف مضاف؛ أي: في شأن زوجها. ﴿وَتَشْتَكِيٓ﴾: معطوف على ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾. ويجوز أن تكون الواو حالية، والجملة في موضع نصب على الحال من فاعل ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿تشتكي﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿الله﴾: مبتدأ وجملة ﴿يَسْمَعُ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ أيضاً. ﴿يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن الجلالة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول له، ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر ثان. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، لا محل لها من الإعراب.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ صلته. ﴿مِنكُم﴾: حال من فاعل ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾؛ أي: حال كونهم منكم. ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾: متعلق بـ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾. ﴿مَّا﴾: حجازية، ﴿هُنَّ﴾: اسمها. ﴿أُمَّهَٰتِهِمْ﴾: خبرها، نصب بالكسرة نيابةً عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. وجملة ﴿مَّا﴾ الحجازية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الابتدائية مستأنفة مسوقة لبيان أحكام المظاهر. ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾: اسم موصول للجمع المؤنث، في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَدْنَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إنهم﴾: ناصب واسمه، ﴿لَيَقُولُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾. ﴿مُنكَرًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: قولاً منكراً ﴿مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ صفة لـ﴿مُنكَرًا﴾، ﴿وَزُورًا﴾: معطوف على ﴿مُنكَرًا﴾، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنَّ الله﴾: ناصب واسمه، ﴿لَعَفُوٌّ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿عفو﴾: خبر أول لـ﴿إنَّ﴾، ﴿غَفُورٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ صلة الموصول. ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، وجملة ﴿يَعُودُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾. ﴿لِمَا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، وجملة ﴿قَالُوا۟﴾: صلة ﴿ما﴾ المصدرية، والمصدر المؤول من ﴿ما﴾ المصدرية وصلتها مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَعُودُونَ﴾، ولك أن تجعل ﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف؛ أي: لما قالوه. ﴿فَتَحْرِيرُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ؛ لما في المبتدأ من معنى الشرط، ﴿تَحْرِيرُ رقبة﴾: مبتدأ، خبره محذوف تقديره: فتحرير رقبة واجب عليهم، والجملة الاسمية في محل

الرفع خبر عن الموصول، وجملة الموصول مستأنفة. ﴿مِّن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير المستكن في الخبر؛ أي: فتحرير رقبة واجب هو عليهم حال كون ذلك التحرير من قَبْلِ تماسهما. أو متعلق بـ﴿تحرير﴾. ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَتَمَآسَّاۚ﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من قبل تماسهما. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تُوعَظُونَ﴾ من الفعل المغير، ونائبه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تُوعَظُونَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية، ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر عن الجلالة، وجملة الجلالة مستأنفة أو معطوفة على ما قبلها.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿لَّمْ يَجِدْ﴾: صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿يَجِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾: وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَصِيَامُ﴾: ﴿الفاء﴾؛ رابطة الخبر بالمبتدأ لشبهه الشرط، ﴿صيام﴾: مبتدأ، ﴿شَهْرَيْنِ﴾: مضاف إليه، ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾: صفة له، والخبر محذوف تقديره: واجب عليه، والجملة خبر لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾: الموصولة معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من الضمير المستكن في الخبر؛ أي: حال كون ذلك الصوم من قبل أن يتماسا، وجملة ﴿أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه. ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿من﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾: صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿فَإِطْعَامُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ، ﴿إطعام﴾: مبتدأ، ﴿سِتِّينَ﴾: مضاف إليه، مجرور بالياء، ﴿مِسْكِينًاۚ﴾: تمييز لـ﴿سِتِّينَ﴾: منصوب به، والخبر محذوف تقديره: فإطعام ستين مسكيناً واجب عليه، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾ الموصولة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تؤمنوا﴾ فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تؤمنوا﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام: تقديره: ذلك واقع أو واجب لطلب إيمانكم بالله ورسوله، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَتِلْكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿تلك﴾: مبتدأ، ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿للكافرين﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة عذاب، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَرَسُولَهُ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿كُبِتُوا﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿و﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لزفّ البشرى إلى رسول الله - ﷺ - والمؤمنين بكبت أعدائهم وإذلالهم. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جرّ وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية ﴿كُبِتَ الَّذِينَ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل. والجملة صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: كبتوا كبتاً كائناً ككبت الذين من قبلهم. و﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف صلة الموصول، ﴿وَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿آيَاتٍ﴾: مفعول به، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾: صفة لآيات، والجملة الفعلية في محل النصب حال من واو ﴿كُبِتُوا﴾، والتقدير: كبتوا لمحادتهم، والحال أنا قد أنزلنا آيات بينات تدل على صدق الرسول كما في «أبي السعود». ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿للكافرين﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُّهِينٌ﴾: صفة عذاب، والجملة مستأنفة.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: ظرف منصوب، متعلق بمحذوف تقديره: اذكرهم، أو متعلق بـ﴿مُّهِينٌ﴾، أو بـ﴿عَذَابٌ﴾، أو بالاستقرار الذي تعلق به ﴿للكافرين﴾. ﴿يَبْعَثُهُمُ

﴿ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمَ﴾. ﴿جَمِيعٗا﴾: حال من مفعول ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾ أو تأكيد له، ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ينبئهم﴾: فعل مضارع، ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿ينبئهم﴾ على أنه مفعول ثان له، وجملة ﴿عَمِلُوٓاْۚ﴾ صلة الموصول، ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض، ومفعول به وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَنَسُوهُۚ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿نسوه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿أَحۡصَىٰهُ﴾، ولكنه على تقدير: قد. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: متعلق بـ﴿شَهِيدٌ﴾، و﴿شَهِيدٌ﴾: خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل الإحصاء.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

﴿أَلَمۡ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التعجبي؛ ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطَب. والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾: خبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر سادّ مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾؛ أي: ألم تعلم علم الله. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع تام، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿نَّجۡوَىٰ﴾: فاعل، ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾: مضاف، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتقرير سعة علمه تعالى، وبيان كيفيته. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿رَابِعُهُمۡ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾؛ أي: إلا حالة كونهم مصطحبين الله، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، كما مر. ﴿وَلَا خَمۡسَةٍ﴾: معطوف على ثلاثة ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿سَادِسُهُمۡ﴾: خبر، والجملة في محل النصب حال من ﴿خَمۡسَةٍ﴾، ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية، ﴿أَدۡنَىٰ﴾: معطوف على ﴿نَّجۡوَىٰ﴾، ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿أَدۡنَىٰ﴾، ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾: معطوف على أدنى. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر،

﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. والجملة في محل النصب حال من ﴿أَدْنَىٰ﴾ و﴿أَكْثَرَ﴾. ﴿أَيْنَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية، و﴿ما﴾: زائدة، والظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به ﴿مَعَهُمْ﴾؛ أي: مصاحب لهم بعلمه في أي مكان استقروا فيه. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل تام، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿أَيْنَ﴾؛ لأن ﴿مَا﴾ زائدة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿يُنَبِّئُهُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ على أنه مفعول ثان له، وجملة ﴿عَمِلُوٓا۟﴾ صلة الموصول، و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ أيضاً، وجملة ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ معطوفة على جملة ﴿يَعْلَمُ﴾ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، وما بينهما اعتراض. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. و﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، أو على أي مخاطَب، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿تَرَ﴾، لأنه بمعنى النظر، فيتعدى بإلى. وجملة ﴿نُهُوا۟﴾: صلة الموصول، وهو فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل ﴿عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾: متعلق بـ﴿نُهُوا۟﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿يَعُودُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نُهُوا۟﴾. وعدل عن صيغة الماضي إلى المضارع لاستحضار صورة العود الماضي. ﴿لِمَا﴾ متعلق بـ﴿يَعُودُونَ﴾، وجملة ﴿نُهُوا۟﴾ صلة لـ﴿ما﴾، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بـ﴿نُهُوا۟﴾، ﴿وَيَتَنَـٰجَوْنَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَعُودُونَ﴾، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: متعلق بـ﴿يتناجون﴾، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾: معطوفان على ﴿الإثم﴾. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لِما يُستقبل من الزمان، ﴿جَآءُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة في محل الخفض بـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿حَيَّوْكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من

الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَيَّوۡكَ﴾. ﴿لَمۡ﴾: حرف جزم، ﴿يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمۡ﴾ وعلامة جزمه حذف حرف العلة، و﴿الكاف﴾: مفعول به، و﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿يُحَيِّكَ﴾ ولفظ الجلالة فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿حَيَّوۡكَ﴾، أو حال من فاعل ﴿حَيَّوۡكَ﴾، ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿يقولون﴾، ﴿لَوۡلَا﴾: حرف تحضيض ﴿يُعَذِّبُنَا﴾: فعل ومفعول به مقدم، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿يُعَذِّبُنَا﴾، وجملة ﴿نَقُولُۚ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من ﴿جَهَنَّمُ﴾. ﴿فَبِئۡسَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿بئسَ المصير﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾، ولكنها على تقدير القول؛ أي: حالة كونها يصلونها، وحالة كونها مقولاً فيها: بئس المصير. ويصح أن تكون الفاء استئنافية، والمخصوص بالذمِّ محذوف وجوباً تقديره: هي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ أو بدل منه، وجملة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تَتَنَٰجَوۡاْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾: لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾: متعلق بـ﴿تَتَنَٰجَوۡاْ﴾، ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾: معطوفان على ﴿الإثم﴾.

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾.

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿تناجوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة معطوفة على ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾. ﴿بِٱلۡبِرِّ﴾: متعلق

بـ﴿تناجوا﴾، ﴿وَٱلتَّقْوَىٰٓ﴾: معطوف عليه، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر، وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿وَتَنَٰجَوْاْ﴾. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة للجلالة ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُحْشَرُونَ﴾، وجملة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ صلة الموصول. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿ٱلنَّجْوَىٰ﴾: مبتدأ، ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: خبر، و﴿مِنَ﴾: فيه ابتدائية، والجملة مستأنفة. ﴿لِيَحْزُنَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يحزن﴾: فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة (أن) المضمرة، (أن) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لحزنه الذين آمنوا، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ثان لـ﴿ٱلنَّجْوَىٰ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول. وقيل: إن الموصول فاعل بـ﴿يحزن﴾. ﴿وَلَيْسَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، ﴿بِضَآرِّهِمْ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿ضارهم﴾: خبر ﴿ليس﴾. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول مطلق؛ أي: شيئاً من الضرر. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ضارهم﴾، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يحزن﴾. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿عَلَىٰ اللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يتوكل﴾، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾: ﴿الفاء﴾: زائدة، و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿يتوكل﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تقدم إعرابه قريباً. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، ﴿تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. وإن شئت قلت: ﴿تَفَسَّحُواْ﴾: فعل أمر، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾: متعلق بـ﴿تَفَسَّحُواْ﴾. ﴿فَٱفْسَحُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ ﴿افسحوا﴾: فعل أمر، وفاعل والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿يَفْسَحِ﴾: فعل مضارع مجزوم

بالطلب، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَفْسَحِ﴾، والجملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿ٱنشُزُواْ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. وإن شئت قلت: ﴿ٱنشُزُواْ﴾: فعل أمر، وفاعل والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿فَٱنشُزُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة، ﴿ٱنشُزُواْ﴾: فعل أمر، وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الأولى. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بالطلب، لا محل له من الإعراب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلته، ﴿مِنكُمْ﴾: حال من فاعل ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول، ﴿أُوتُواْ﴾: فعل ماض، ونائب فاعل، ﴿ٱلْعِلْمَ﴾: مفعول ثان لـ﴿أُوتُواْ﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: منصوب بنزع الخافض أو تمييز. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾، ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: تقدم إعرابه مراراً. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَقَدِّمُواْ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾، ﴿قدموا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿بَيْنَ﴾: ظرف، متعلق بـ﴿قدموا﴾، ﴿بَيْنَ﴾: مضاف، ﴿يَدَىْ﴾: مضاف إليه مجرور بالياء، ﴿يَدَىْ﴾: مضاف، ﴿نَجْوَىٰكُمْ﴾: مضاف إليه، ﴿نجوى﴾: مضاف، والكاف: مضاف إليه. وكثرة الإضافة لا تخرج الكلام عن الفصاحة لورودها في الكتاب والسنة. وجملة ﴿قدموا﴾: جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء، ﴿صَدَقَةً﴾: مفعول قدموا. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر والجملة مستأنفة. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بخير، ﴿وَأَطْهَرُ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فقدموا بين يدي نجواكم صدقة إن وجدتم ما تتصدقون به، فإن لم تجدوا إلخ. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم، ﴿لَّمْ﴾: حرف

جزم، ﴿تَجِدُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة في محل الجزم بإن الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لـ﴿إنَّ﴾، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿أشفقتم﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: أأشفقتم وخفتم الفقر والعيلة. والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تُقَدِّمُواْ﴾: فعل مضارع، منصوب بـ﴿أن﴾، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تُقَدِّمُواْ﴾، ﴿صَدَقَٰتٍ﴾: مفعول ﴿تُقَدِّمُواْ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جرّ محذوف، تقديره: أخفتم الفقر من تقديم الصدقات بين يدي نجواكم. والجار والمجرور متعلق بـ﴿أشفقتم﴾. ﴿فَإِذْ﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَفْعَلُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذ﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿وَتَابَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، أو استئنافية، أو اعتراضية، ﴿تاب الله﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تاب﴾، والجملة في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تَفْعَلُواْ﴾ أو معترضة بين الشرط وجوابه، ﴿فَأَقِيمُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿أقيموا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب ﴿إذ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذ﴾ مستأنفة. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أقيموا الصلاة﴾، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أقيموا﴾، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿خَبِيرٌۢ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تعملونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾؛ أي: أجاب وقَبِلَ، كما يقال: سمع الله لِمَنْ حمده. ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾؛ أي: تراجعك الكلام في شأن زوجها، وما صدر منه في شأنها، وأصله من جدلت الحبل؛ أي: أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كلّ واحد منهما الآخر عن رأيه. والمراد هنا: المكالمة، ومراجعة الكلام؛ أي: معاودته.

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: تتضرع إلى الله تعالى، وتُظهر ما بها من المكروه. قال في «المفردات»: الشكاية، والشكاة، والشكوى: إظهار البث. يقال: شكوت واشتكيت. وأصل الشكوى: فتح الشكوة وإظهار ما فيها. وهي سقاء صغير يجعل فيه الماء. وكان في الأصل استعارة، كقولك: بثثت له ما في وعائي، ونفضت ما في جرابي، إذا أظهرت ما في قلبك. وفي «كشف الأسرار»: الفرق بين الشكوى والاشتكاء: أن الاشتكاء إظهار ما يقع بالإنسان من المكروه، والشكوى: إظهار ما يصنعه غيره به. والمعنى هنا أي: تبث إليه ما انطوت عليه نفسها من غم وهم، وتتضرع إليه أن يزيل كربها.

﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾؛ أي: تراجعكما الكلام، وتخاطبكما، وتجاوبكما في أمر الظهار. والحوار في الكلام معروف. وفي «المصباح»: وحاورته: راجعته الكلام، وتحاورا وأحار الرجل الجواب بالألف: رده، وما أحاره: ما رده، انتهى. والتحاور: المرادة في الكلام، والكلام المردد. كما يقال: كلمته فما رجع إليّ حوار؛ أي: ما رد عليّ بشيء.

﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾: مضارعُ ظاهَرَ، من باب فاعل. والظهار لغة: مصدر ظاهَرَ، ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض، فيقال: ظاهر فلان فلاناً؛ أي: نصره وظاهر بين ثوبين؛ أي: لبس أحدهما فوق الآخر، وظاهر من امرأته؛ أي: قال لها: أنت علي كظهر أمي؛ أي: محرمة، وكان هذا أشد طلاق في الجاهلية. والظهار شرعاً: تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسباً، أو رضاعاً، أو مصاهرة، بقصد التحريم لا بقصد الكرامة، ولهذا المعنى نزلت الآية.

﴿مُنكَرًا﴾: والمنكر: ما ينكره الشرع والعقل والطبع، ﴿وَزُورًا﴾؛ أي: كذباً. ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أي: عتق عبد أو أمة. والتحرير: هو جعل الإنسان حراً،

وهو خلاف الرقيق. والرقبة: ذات مرقوق مملوك كما مر.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّاۚ﴾ أي: من قبل أن يجتمعا اجتماع الأزواج. أصله: يتماسَسَا، فكرهوا توالي المثلين فأدغمت السين الأولى في الثانية.

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ والياء في الصيام منقلبة عن واو، لأنّ أصله: صوام فقلبت الواو ياء لوقوعها بعد كسرة كقوام في قيام. ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ الوعظ: زجر يقترن بتخويف.

﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ والإطعام: جعله الغير طاعماً. والمسكين بكسر الميم، وقد تفتح: من لا شيء له من المال، أو له ما لا يكفيه، سمي به لأنه أسكنه الفقر أي: قلل حركته وأذله، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِۗ﴾ أي: أحكام شرعه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾ أي: يشاقون، ويعادون. وأصل المحادة: الممانعة، ومنه قيل للبواب: حداد. وأصله: يحادون بوزن يفاعلون بدالين، أدغمت الأولى منهما في الثانية لكراهة توالي المثلين.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والأليم بمعنى المؤلم؛ أي: الموجع، كالبديع بمعنى المبدع أو بمعنى المتألم، كما مر.

﴿كُبِتُوا﴾ وفي «المفردات»: الكبت: الرد بعنف، وتذليل. وفي «القاموس»: كبته يكبته ـ من باب ضرب ـ صرعه، وأخزاه، وصرفه، وكسره، ورد العدو بغيظه، وأذله، اهـ.

﴿مُّهِينٌ﴾ اسم فاعل من أهان الرباعي أصله: مهون بوزن مفعل، نقلت حركة الواو إلى الهاء فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء حرف مد.

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي: أحاط الله به علماً، وحفظه كما عمله، لم يفت منه شيء، ولم يغب. قال الراغب: الإحصاء: التحصين بالعدد، يقال: أحصيت كذا. وذلك من لفظ الحصي، واستعمال ذلك فيه؛ لأنهم كانوا يعتمدون اعتمادنا فيه على الأصابع. وقال بعضهم: الإحصاء: عد بإحاطة وضبط؛ إذ أصله: العدد بآحاد الحصىٰ للتقوي في الضبط، فهو أخص من العد لعدم لزوم الإحاطة فيه. وفيه إعلال بالقلب، أصله: أحصي بوزن أفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا.

﴿وَنَسُوهُ﴾ أصله: نسيوه، استثلقت الضمة على الياء فحذفت فلما سكنت حذفت لالتقائها ساكنة مع واوِ الجماعة، وضمت السين لمناسبة الواو.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ أصله: نهيوا بوزن فعلوا استثقلت الضمة على الياء فحذفت ثم حذفت لما التقت ساكنة بواو الجماعة، وضمت الهاء لمناسبة الواو.

﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أصله: يتناجيون بوزن يتفاعلون، قبلت الياء فيه ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنةً مع واو الجماعة. والمناجاة: المحادثة سراً، والنجوى مصدر بمعنى التناجي، كالشكوى بمعنى الشكاية. يقال: نجاه نَجوى ونِجوى: سارّه كناجاه مناجاة. والنجوى: السر الذي يكتم، اسم مصدر كما في «القاموس». وأصله: أن تخلو في نجوة من الأرض؛ أي: مكان مرتفع منفصل بارتفاعه عما حوله، كأن المتناجي بنجوة من الأرض لئلا يطلع عليه أحد. والفرق بين الإثم والعدوان، ومعصية الرسول: أن الإثم مخالفة أوامر الله ونواهيه؛ بتركها أو بارتكابها، والعدوان: التعدي على المؤمنين، ومعصية الرسول: إساءة أدبه وعدم احترامه؛ بالطعن فيه وسبه.

﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ﴾: أصله: حييوك، بوزن فعلوك، قلبت الياء الأخيرة لام الفعل ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أصله؛ يصليونها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أصله: المصير، بوزن مفعل، نقلت حركة الياء إلى الصاد، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مدّ.

وقوله: ﴿حَيَّوْكَ﴾: أيضاً أي: خاطبوك بتحية، ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ﴾؛ أي: بتحية لم يأذن الله أن تخاطب بها. والتحية في الأصل: مصدر حياك، على الإخبار، من الحياة، فمعنى: حياك الله: جعل لك حياة، ثم استعمل للدعاء بها، ثم قيل لكل دعاء فغلب في السلام، فكل دعاء تحية، لكون جميعه غير خارج عن حصول حياة أو سبب حياة، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا﴾: أصله: تتناجيون، حذفت منه نون

الرفع لدخول أداة الجزم ﴿لا﴾ عليه، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، لكنها حذفت لما التقت بواو الجماعة لالتقاء الساكنين. ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أصله: تناجيون، حذفت نون الرفع لبناء الأمر، ثم قلبت الياء ألفاً، وحذفت لالتقاء الساكنين.

﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: وفي «القاموس»: الحزن بالضم، ويحرك: الهم والجمع: أحزان، وحزن كفرح، وحزنه الأمر حزناً ـ بالضم ـ وأحزنه: جعله حزيناً، وحزنه: جعل فيه حزناً. وقال الراغب: الحُزْنُ والحَزَن: خشونة في الأرض، وخشونة في النَّفْس؛ لما يحصل فيها من الغم، ويضاده الفرح، ولاعتبار الخشونة بالغمّ قيل: خشنت بصدره، إذا أحزنته.

﴿بِضَارِّهِمْ﴾: الأصل: بضاررهم، أدغمت الراء في الراء للقاعدة المقررة عندهم؛ وهي: أن كل مثلين متحركين في كلمة يدغم الأول منهما في الثاني إلا ما استثني من ذلك، كما هو مقرر في محله.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا﴾؛ أي: توسعوا، وليفسح بعضكم عن بعض، ولا تتضاموا من قولهم: أفسح عني؛ أي: تنحّ، وأنت في فسحة من دِينك؛ أي: في وسعة ورخصة، وفلان فسيح الخلق؛ أي: واسع الخلق. ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: في رحمته، ويوسع لكم في أرزاقكم. ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا﴾؛ أي: انهضوا للتوسعة على المقبلين. ﴿فَانْشُزُوا﴾؛ أي: فانهضوا، ولا تتباطؤوا. يقال: نشز الرجل إذا نهض، وارتفع في المكان نشزاً. والنشز كالفلس، وكذا النشز ـ بفتحتين ـ: المكان المرتفع من الأرض، ونشز فلان إذا قصد نشزاً، ومنه: نشز فلان عن مقره، وقلب ناشز: ارتفع عن مكانه رعباً.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: أصل ﴿تاب﴾: توب بوزن فعل، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، نظيرَ: قال. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ الأصل فيه: أقوموا بوزن افعلوا، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ. ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أصله: أأتيوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت التاء لمناسبة الواو، وأبدلت الهمزة الساكنة ألفاً حرف مدّ للهمزة المفتوحة. ﴿الزَّكَاةَ﴾: الألف منقلبة عن واو؛ ولذلك ترسم بالواو.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أصله: أطوعوا، بوزن أفعلوا، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، لأنه مجاز عن (أجاب الله) بعلاقة السببية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأن الشكوى حقيقة في فتح الشكوة، وإخراج ما فيها، وهي: سقاء صغير يجعل فيه ماء، ثم استعير لإظهار ما في قلب الإنسان من الغم والحزن، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾ حيث نظمها في سلك الخطاب مع أفضل البريات تشريفاً لها؛ إذ القياس: يسمع تحاورها وتحاورك.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، وفي قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إفادة أنه منكر عند العقل والطبع، كما أنه منكر في الشرع.

ومنها: فن السلب والإيجاب في قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾. وهو فن عجيب من فنون البلاغة، وهو: بناء الكلام على نفي الشيء من جهة وإيجابه من جهة أخرى. وفي الكلام هنا نفي لصيرورة المرأة أماً بالظهار، وإثبات الأمومة للتي ولدت الولد.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾؛ لأن المعنى: عَلِمَهُ اللَّهُ وجهِلُوهُ، وفي قوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾؛ لأن معنى ﴿أَدْنَىٰ﴾: أقل، فحصل الطباق بينه وبين ﴿أَكْثَرَ﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿ٱلنَّجْوَىٰ﴾، ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾. وفيه الإطناب أيضاً بتكرار ﴿نُهُوا۟﴾.

ومنها: الاستهزاء في قولهم: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾؛ لأن فيه استخفافاً بشأنهم، لكفرهم وعدم إيمانهم.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ للدلالة على علو شأن العلماء وسمو مكانتهم، حتى كأنهم جنس آخر.

ومنها: صيغة المضارع في قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ للدلالة على تمكن عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة. وكذلك صيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ﴾. فإن اليدين استعيرت لمعنى (قبل) على سبيل التخييل، فقوله: ﴿نَجْوَىٰكُمْ﴾ استعارة بالكناية و﴿بَيْنَ يَدَىْ﴾ تخييلية، كذا في «الروح».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[١] لما ذكر أن أصحاب رسول الله - ﷺ - كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله - ﷺ - لتلقي الدِّين عنه والاهتداء بهديه، حتى كان يضيق بهم المجلس فأمروا أن يتوسعوا ولا يتضاموا.. ذكر هنا حال قوم من المنافقين يوادّون اليهود، ويطلعونهم على أسرار المؤمنين، فهم عيون لهم عليهم، وإذا لاقوا المؤمنين.. قالوا لهم: إنا معكم نؤيدكم على أعدائكم بكل ما أوتينا من قوة وهم كاذبون في كل ما يقولون، وقد جعلوا الأيمان وقاية لستر ما يبطنون، فأمنوا من المؤاخذة، وجاسوا خلال ضعفاء المؤمنين يصدونهم عن الدِّين، ويذكرون لهم ما يبغضهم فيه. ثم أبان أن الله قد أعد لمثل هؤلاء عذاباً شديداً يوم القيامة، وما هم فيه من مال وولد في الدنيا لن يغني عنهم شيئاً حينئذٍ. ثم ذكر أن

---

(١) المراغي.

الذي جرأهم على ما فعلوا هو الشيطان؛ فقد استولى على عقولهم وزين لهم قبيح أعمالهم، فأنساهم عذاب اليوم الآخِر. ثم ذكر أن أولئك هم جند الشيطان، وجنود الشيطان لن تفلح في شيء، وسيرد الله سبحانه عليهم كيدهم في نحورهم، ويحبط سعيهم، ويظهر نور دينه ولو كره الكافرون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال أولئك المنافقين الذين يحلفون كذباً أنهم مؤمنون، ويمالئون المؤمنين طوراً واليهود طوراً آخر اكتساباً لرضا الفريقين، ثم بين أن الذي حملهم على ذلك هو الشيطان؛ إذ غلبهم على أمرهم حتى أنساهم ذكر الله وما يجب له من تعظيم والإيمانَ باليوم الآخر، ثم حكم عليهم بأن صفقتهم خاسرة؛ لأنهم باعوا الباقي بالفاني، والزائل الذي لا دوام له بما هو دائم أبداً سرمداً.. بين هنا سبب خسرانهم، وهو: أنهم شاقّوا الله ورسوله، وعصوا أمرهما، فكتب عليهم الذلة في الدنيا والآخرة؛ إذ قَضى بأن العزة والغلب له ولرسله، والذلة لأعدائه. ثم ذكر أن الإيمان الحق لا يجتمع مع موالاة أعدائه، مهما قرب بهم النسب، بأن كانوا آباء أو أبناء أو إخواناً أو من ذوي العشيرة؛ لأن المحادين كتبت عليهم الذلة، وأولئك كتبت لهم العزة، وقواهم ربهم بالطمأنينة والثبات على الإيمان، وهم جند الله وناصرو دينه، وحزب الله مفلح لا محالة، وقد كتبت لهم السعادة في الدارين، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية(١): ما أخرجه أحمد، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ جالساً في ظلّ حُجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين فقال: «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم.. فلا تكلموه»، فلم

(١) لباب النقول.

يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فقال حين رآه: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فقال: ذرني آتيك بهم، فحلفوا واعتذروا. فأنزل الله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ...﴾ الآية، والتي بعدها.

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «سننه» عن عبد الله بن شوذب قال: جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر. قصده أبو عبيدة، فقتله. فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ إلى آخرها.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج، قال: حدثت أن أبا قحافة سبّ النبي - ﷺ -، فصكه أبو بكر صكة شديدة، فسقط. فذكر ذلك للنبي - ﷺ - فقال: «أوفعلته يا أبا بكر؟ فقال: والله لو كان السيف قريباً مني.. لضربته به. فنزلت: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا...﴾ الآية.

وقيل[1]: نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ابن سلول؛ وذلك أنه كان جالساً إلى جنب رسول الله - ﷺ -، فشرب رسول الله - ﷺ - ماء، فقال عبد الله: يا رسول الله، أبق فضلة من شرابك، قال: «وما تصنع بها»؟ قال: أسقيها أبي لعل الله سبحانه يطهر قلبه، ففعل، فأتى بها أباه، فقال: ما هذا؟ قال: فضلة من شراب رسول الله - ﷺ -، جئتك بها لتشربها، لعل الله يطهر قلبك، فقال: هلا جئتني ببول أمك؟ فرجع إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا رسول الله، ائذن لي في قتل أبي، قال: فقال رسول الله - ﷺ -: «ارفق به، وأحسن إليه». فنزلت هذه الآية. قاله السدي.

وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكّة يخبرهم أن رسول الله - ﷺ - قد عزم على قصدهم، قاله مقاتل، واختاره الفراء والزجاج.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تعجيب[2] من حال المنافقين الذين يتخذون اليهود أولياء،

---

(١) زاد المسير.
(٢) روح البيان.

ويناصحونهم، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين. والخطاب للرسول ـ ﷺ ـ، أو لكل من يسمع ويعقل. وتعدية الرؤية بـ﴿إِلَى﴾ لكونها بمعنى النظر؛ أي: ألم تنظر يا محمد ﴿إِلَى﴾ حال المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡا﴾؛ أي: والوا، من التولي، بمعنى الموالاة، لا بمعنى الإعراض؛ أي: اتخذوا ﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ أولياء وأصدقاء وهم اليهود، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾. ينقلون؛ أي: المنافقون أسرار المؤمنين إليهم؛ أي: إلى اليهود. والغضب: حركة للنفس مبدؤها إرادة الانتقام، وهو بالنسبة إليه تعالى نقيض الرضا، أو إرادة الانتقام، أو تحقيق الوعيد، أو الأخذ الأليم، والبطش الشديد، أو هتك الأستار والتعذيب بالنار، أو تغيير النعمة، هكذا قالوا.

والأسلم الذي عليه السلف: أن الغضب صفة ثابتة لله تعالى، نعتقده ولا نكيّفه ولا نمثله، ولكن أثرها الانتقام من أعدائه. ﴿مَّا هُم﴾؛ أي: ما أولئك المنافقون الذين يوالون اليهود ﴿مِّنكُمۡ﴾ أيها المؤمنون في الحقيقة؛ لأنهم يبطنون الكفر، ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: ولا من القوم المغضوب عليهم؛ لأنهم يظهرون الإسلام مذبذبون بين ذلك. فهم وإن كانوا كفاراً في الواقع لكنهم ليسوا من اليهود حالاً؛ لعدم اعتقادهم بما اعتقدوا وعدم وفائهم لهم، ومآلاً؛ لأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار. وهذه الجملة مستأنفة معترضة.

وقوله: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾: معطوف على ﴿تَوَلَّوۡا﴾، داخل في حكم التعجب. وصيغة المضارع للدلالة على تكرر الحلف وتجدده، حسب تكرر ما يقتضيه؛ أي: ويحلفون لكم على الكذب، ويقولون: والله إنا لمسلمون، فالكذب المحلوف عليه هو ادعاء الإسلام. أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود. وجملة قوله: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿فَيَحۡلِفُونَ﴾، مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا؛ فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب في غاية القبح. وفي هذا التقييد دلالة على أن الكذب يعمّ ما يعلم المخبر عدم مطابقته للواقع وما لا يعلمه، فيكون حجة على النَّظّام والجاحظ. أي: والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له؛ أي: يوالونهم، ويحلفون لكم على أنهم مسلمون منكم، والحال أنهم يعلمون أن المحلوف عليه كذب، كمن يحلف بالغَموس؛ وهو: الحلف على فعل أو ترك ماض كاذباً عمداً، سمي بالغموس لأنه يغمس صاحبه في

الإثم ثم في النار. ولم يجعل حلفهم غموساً؛ لأن الغموس حلف على الماضي، وحلفهم هذا على الحال.

والمعنى[1]: أي ألم تنظر يا محمد، أو أيها المخاطب إلى حال هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، إن حالهم لتستدعي العجب، يقابلون كل قوم بوجه؛ فهم مع اليهود نصحاء أمناء، يبلغونهم ما يعرفونه من دخائل المؤمنين اكتساباً لصداقتهم وودهم، ومع المؤمنين مؤمنون مخلصون، قد بلغ الإيمان قرارة نفوسهم وملك عليهم مشاعرهم وحواسهم، وفي الحقيقة إنهم يخدعون الفريقين، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: فلا هم بالمؤمنين حقاً، بل هم مؤمنون من طرف اللسان مداراةً للمؤمنين وخوفاً من بطشهم، ولا هم باليهود؛ لأنهم لا يعتقدون أنهم على الدِّين الحق، ولكنهم يريدون أن ينتفعوا بما عندهم من عرض الدنيا، وأن يحتفظوا بمودّتهم إذا احتاجوا إليها، فهم كما قال الله فيهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾. وفي الحديث: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين» أي: المترددة بين قطيعين - لا تدري أيهما تتبع».

ثم ذكر أنهم يؤكدون إيمانهم وإخلاصهم بالأيمان الكاذبة، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: إنّا آمنّا، وإذا جاء الرسول حلفوا وقالوا له: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يقولون، لأنهم لا يعتقدون صِدقه.

ثم ذكر مآلهم، وبيّن ما يلقون من النكال والوبال، فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: أرصد، وهيأ ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المنافقين بسبب هذا التولي والحلف الباطل ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا والآخرة.

والمراد نوعاً عظيماً من العذاب[2]. فالنوعية مستفادة من تنكير ﴿عَذَابًا﴾، والعظيم من توصيفه بالشدة. ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن هؤلاء المنافقين ﴿سَآءَ﴾ وقبح ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ساء ما تمرنوا عليه وأصروا وتمرنهم أي: اعتيادهم واستمرارهم

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

على مثل ما عملوه في الحال من العمل السوء، مستفاد من ﴿كان﴾ الدالة على الزمان الماضي؛ أي: العمل السيء دأبهم.

والمعنى: أي أرصد الله لهم نكالاً وعذاباً أليماً، جزاء صنيعهم بغش المسلمين وإطلاع أعدائهم على أسرارهم ونصحهم لهم.

ثم ذكر ما جعلوه تكأة لهم على تصديقهم فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ الفاجرة التي يحلفون بها عند الحاجة. واليمين في الحلف مستعار من اليد، اعتباراً بما يفعله المحالف، والمعاهد عنده. ﴿جُنَّةٗ﴾؛ أي: كالجنّة وهي الترس الذي يجن صاحبه من السلاح؛ أي: يستره. أي: جعلوها وقاية وسترة يستترون بها من المؤمنين ومن قتلهم ونهب أموالهم.

قرأ الجمهور[1]: ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ بفتح الهمزة، جمع يمين. وهي: ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين، توقّياً من القتل. فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم، كما يجعل المقاتل الجُنة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم. وقرأ الحسن، وأبو العالية: ﴿إيمانهم﴾ بكسر الهمزة، أي: جعلوا تصديقهم جُنة من القتل، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل، ولم تؤمن قلوبهم.

فالاتخاذ[2] عبارة عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة، لا عن استعمالها بالفعل. فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية، والخيانة، واتخاذ الجنّة لا بد أن يكون قبل المؤاخذة، وعن سببها أيضاً، كما تعرب عنه الفاء في قوله: ﴿فَصَدُّواْ﴾؛ أي: منعوا الناس وصرفوهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن دينه في خلال أمنهم وسلامتهم، بسبب ما يصدر عنهم من التثبط وتهوين أمر المسلمين، وتضعيف شوكتهم عندهم.

وقيل المعنى: فصدوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام.

﴿فَلَهُمۡ﴾؛ أي: فلهؤلاء المنافقين بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ أي: يهينهم ويخزيهم بين أهل المحشر. وعيد ثانٍ بوصف آخر لعذابهم.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

قيل: هو تكرير لقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ للتأكيد. وقيل: الأول عذاب القبر، وهذا عذاب الآخرة. ولا وجه للقول بالتكرار، فإن العذاب الموصوف بالإهانة غير العذاب الموصوف بالشدة.

والمعنى[1]: أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وتستروا بالأيمان الكاذبة. فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم أنهم صادقون، وبهذه الوسيلة صدوا كثيراً من الناس عن سبيل الله، وبتثبيط من لقوا عن الدخول في الإسلام، بتحقير شأنه في نظرهم. ثم بيّن ما كافأهم به على عملهم فقال: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: عذاب يلحقهم به الذل والهوان في النار، جزاء ما امتهنوا اسمه الكريم بالحلف به كذباً.

ثم أرشد إلى أنّ ما ظنوه منجياً لهم من عذاب الله من المال والأولاد ليس بنافع لهم حينئذٍ، فقال: ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ ولن تدفع ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن هؤلاء المنافقين ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ الكثيرة ﴿وَلَآ أَوْلَادُهُم﴾ العديدة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: من عذاب الله سبحانه يوم القيامة ﴿شَيْئًا﴾ قليلاً من الإغناء والدفع. يقال: أغنى عنه كذا إذا كفاه، يعني: أنهم يحلفون كاذبين للوقاية المذكورة، ولا تنفعهم إذا دخلوا النار أموالهم ولا أولادهم التي صانوها وافتخروا بها في الدنيا. أو يقولون: إن كان ما يقول محمد حقاً.. لندفعنّ العذاب عن أنفسنا بأموالنا وأولادنا. فأكذبهم الله تعالى بهذه الآية، فإن يوم القيامة يومٌ لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا يكفي أحد أحداً في شأن من الشؤون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة. قال في «برهان القرآن» بغير واو موافقة للجمل التي قبلها، ولقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾. ﴿أَصْحَٰبُ النَّارِ﴾؛ أي: ملازموها ومقارنوها أو مالكوها، لكونها حاصلهم وكسبهم الذي اكتسبوه في الدنيا بالسيئة المردية المؤدية إلى التعذيب. ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً. وضمير ﴿هُمْ﴾ لتقوية الإسناد ورعاية الفاصلة، لا للحصر؛ لخلود غير المنافقين فيها من الكفار.

والمعنى: لن تغني عن هؤلاء المنافقين الأموال، فيفتدوا بها من عذاب الله،

---

(١) المراغي.

ولا الأولاد فينصروهم وينقذوهم من العذاب إذا هو عاقبهم. فأولئك هم أهل النار، وهم خالدون فيها أبداً.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منصوب باذكر، ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المفعول، بمعنى مجموعين. ﴿فَيَحْلِفُونَ﴾ في ذلك اليوم، وهو يوم القيامة ﴿لَهُ﴾؛ أي: لله سبحانه وتعالى على أنهم مسلمون مخلصون، كما قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا.

وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم[1]؛ فإن يوم القيامة قد انكشفت فيه الحقائق، وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة، فكيف يجترئون على أن يكذبوا في ذلك الموقف ويحلفون على الكذب؟

والمعنى: واذكر له ـ أيها الرسول ـ حالهم يوم يبعثهم الله جميعاً من قبورهم أحياء كهيئتهم قبل مماتهم، فيحلفون له قائلين: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا أنهم مؤمنون مثلكم.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الكاذبة ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من جلب منفعة أو دفع مضرّة، كما كانوا عليه في الدنيا؛ حيث كانوا يدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم، ويستجلبون بها فوائد دنيوية. ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبهوا أيها المخاطبون، واعلموا ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾؛ أي: المبالغون في الكذب إلى غاية لا مطمح وراءها؛ حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب، وزعموا أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب لديه كما تروجه عند الغافلين من المؤمنين. و﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه، والمراد[2]: التنبيه على توغلهم في النفاق وتعودهم به؛ حيث لا ينفكون عنه موتاً ولا حياة. ولو ردوا.. لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون.

والمعنى[3]: أي ويعتقدون أن ذلك نافع لهم، فيجلب لهم الخير ويدفع عنهم الضير، كما كان ذلك في شأنهم في الدنيا؛ إذ كانوا يدفعون بتلك الأيمان الفاجرة عن أرواحهم وأموالهم. ويحصلون على فوائد دنيوية أخرى، ثم أنكر عليهم أعمالهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فيما يحلفون عليه زعماً منهم أن أيمانهم

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

الفاجرة تروج الكذب لديه تعالى، كما تروجه لدى المؤمنين في الدنيا. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم بيّن السبب الذي أوقعهم في الردى،وأوصلهم إلى قرارة جهنم فقال: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: غلب على عقولهم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بوسوسته وتزيينه ﴿فـ﴾ اتبعوه حتى ﴿أنساهم ذكر الله﴾ تعالى، فلم يُمكنهم من ذِكر الله واتباع أوامره وترك نواهيه بما زين لهم من الشهوات فأوقعهم في دركات جهنم، وبئس المصير.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: غلب عليهم، واستعلى واستولى. قال المبرد: استحوذ على الشيء حواه، وأحاط به؛ أي: أحاط بهم من كل جهة، وغلب على نفوسهم، واستولى عليها. وقيل: قوي عليهم. وقيل: جمعهم، يقال: أحوذ الشيء؛ أي: جمعه، وضم بعضه إلى بعض. والمعاني متقاربة؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوي عليهم وغلبهم واستعلى عليهم واستولى وأحاط بهم. وتقدمت هذه المادة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ في سورة النساء، وأنها من حاذ الحمار العانة إذا ساقها وجمعها غالباً لها، ومنه كان عمر أحوذيّاً نسيج وحده كما سيأتي، وقرأ عمر[1]: ﴿استحاذ﴾. أخرجه على الأصل والقياس. واستحوذ: شاذ في القياس، فصيح في الاستعمال. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ فهم لا يذكرونه لا بقلوبهم ولا بألسنتهم. وقيل: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أوامره والعمل بطاعته، فلم يذكروا شيئاً من ذلك. وقيل: زواجره في النهي عن معاصيه. و﴿ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول؛ أي: كان سبباً بالاستيلاء لنسيانه تعالى، فلم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنافقون الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: جنود الشيطان وأتباعه الساعون فيما أمرهم به. والحزب: الفريق الذي يجمعه مذهب واحد، كما سيأتي. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: الموصوفون بالخسران الذي لا غاية وراءه؛ حيث فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم، وأخذوا بدله العذاب الأليم.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى[1]: أي أولئك هم جنود الشيطان وأعوانه، وإن جنده لهم الهالكون المغبونون في صفقتهم، إذ هم قد فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم، واستبدلوا به العذاب الأليم، وليس من دأب العاقل أن يقبل مثل هذا لنفسه. أو: هم الكاملون في الخسران، حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران؛ لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة والعذاب، وكذبوا على الله وعلى نبيه وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة.

قال بعض المشايخ ـ بوأه الله الدرجات الشوامخ ـ: علامة استحواذ الشيطان على العبد: أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والملابس والمراكب والمفارش، ويشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمه عليه والقيام بشكرها، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب واللغو والغيبة والبهتان، وسمعه عن الحق باستماع اللهو والملاهي والفيديو والتلافيز، كما هو ديدن أهل زماننا ودأب أهل عصورنا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ أي[2]: يعادونهما، ويخالفون أمرهما، ويتعدون حدودهما ويفعلون معهما فعل من ينازع آخر في أرض فيغلب على طائفة منها، فيجعل لها حداً لا يتعداه خصمه.

ولما كانوا لا يفعلون ذلك إلا لكثرة أعوانهم وأتباعهم فيظن من رآهم أنهم الأعزاء الذين لا أحد أعزّ منهم.. قال تعالى نفياً لهذا الغرور الظاهر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأباعد والأسافل بما فعلوا من المحادة ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾؛ أي: في جملة من هو أذل خلق الله من الأولين والآخرين، لا ترى أحداً أذل منهم؛ لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزّة الآخر، حيث كانت عزة الله غير متناهية كانت ذلة من يحاده كذلك، وذلك بالسبي، والقتل في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، سواء كانوا فارس والروم أو أعظم منهم، سوقة كانوا أو ملوكاً.

والمعنى: أي إن الذين يخالفون أوامر الله ونواهيه، ويمتنعون عن أداء ما فرض عليهم من فرائضه هم في جملة أهل الذلة؛ لأن الغلبة لله ولرسوله، وذلهم في الدنيا يكون بالقتل والأسر والإخراج من الديار، كما حصل للمشركين واليهود، وفي

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الآخرة بالخزي والنكال والعذاب الأليم، كما قال سبحانه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾. وفي هذا بشارة للمؤمنين بأنه سيظهرهم على عدوهم، ويكتب لهم الفوز، ويكونون هم الأعزاء وسواهم الأذلاء.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، استئناف وارد لتعليل كونهم في الأذلين؛ أي: كتب الله سبحانه، وأثبت في اللوح المحفوظ. ولما جرى ذلك مجرى القَسَم.. أجيبَ بما يُجاب به القَسَم، حيث قال: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾، أكده لما لهم من ظن الغلبة بالكثرة والقوة، والمراد: الغلبة بالحجة والسيف أو بأحدهما. والغلبة بالحجة ثابتة لجميع الرسل؛ لأنهم الفائزون بالعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة. وأما الغلبة بالسيف: فهي ليست ثابتة للجميع؛ لأن منهم من لم يؤمر بالحرب. قال الزجاج: غلبة الرسول على نوعين: من بعث منهم بالحرب.. فهو غالب بالحرب، ومن لم يؤمر بالحرب.. فهو غالب بالحُجة. وإذا انضم إلى الغلبة بالحجة الغلبة بالسيف. كان أقوى.

أي: كتب الله في اللوح المحفوظ وقضى في سابق علمه لأغلبن أنا ورسلي بالحجة والسيف. وعن مقاتل: أنه لما قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم.. قال رئيس المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول: أتظنون الروم وبعض فارس كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ والله إنهم لأكثر عدداً وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ...﴾ الآية، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

وحاصل المعنى: أي قضى الله وحكم في أمّ الكتاب بأن الغلبة بالحجة والسيف، وما يجري مجراهما تكون لله ورسله، فقد أهلك كثيراً من أعدائهم بأنواع من العذاب: كقوم نوح وقوم صالح، وقوم لوط وغيرهم. والحرب بين نبينا وبين المشركين وإن كانت سجالاً كانت العاقبة فيها له ـ ﷺ ـ، ثم تكون لأتباعه من بعده ما داموا على سننه، محافظين على الحدود التي أمروا بها، وجاهدوا عدوهم جهاداً خالصاً لله على نحو جهاد الرسل، لا لطلب ملك وسلطان، ولا لطلب دنيا ومال، ولا لطلب جاه ومقام عال.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه، تعليل للقهر والغلبة، أكده لأن أفعالهم مع أوليائه أفعال من يظن ضعفه ﴿قَوِيٌّ﴾ على نصر أنبيائه. قال بعضهم: القوي: هو الذي لا يلحقه ضعف في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا يمسه نصب ولا تعب، ولا يدركه قصور ولا عجز في نقض ولا إبرام. والقوة في الأصل: عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف، ويراد بها: القدرة بالنسبة إلى الله تعالى. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلب عليه في مراده.

والمعنى: أن الله الذي له الأمر كله ـ قوي على نصر رسله، لا يُغلب على مراده، فمتى أراد شيئاً.. كان، ولم يجد معارضاً ولا ممانعاً، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

فإن قلت[1]: فإذا كان الله قوياً عزيزاً غير عاجز. فما وجه انهزام المسلمين في بعض الأحيان وقد وعد النصر لأوليائه؟

قلت: إن النصرة والغلبة منصب شريف فلا يليق بالكافر، لكن الله تعالى تارة يشدد المحنة على الكفار، وأخرى على المؤمنين، لأنه لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات.. لحصل العلم الضروري بأن الإيمان حق وما سواه باطل ولو كان كذلك.. لبطل التكليف والثواب والعقاب. فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان، وأخرى على أهل الكفر، لتكون الشبهات باقية، والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام، فيعظم ثوابه عند الله تعالى.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾: الخطاب للنبي ـ ﷺ ـ أو لكل أحد. و﴿تَجِدُ﴾ إما متعد إلى اثنين، فقوله: ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مفعوله الثاني، أو إلى واحدٍ؛ بأن كان بمعنى: صادف، فهو حال من مفعوله، لتخصيصه بالصفة، وهو ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. والموادة: المحابة، مفاعلة من المودة، بمعنى: المحبة، وهي: حالة تكون في القلب أولاً، ويظهر آثارها في القالب ثانياً. والمراد بمن حاد الله ورسوله: المنافقون، واليهود، والفساق، والظلمة، والمبتدعة. والمراد

---

(١) روح البيان.

بنفي الوجدان: نفي الموادة على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال وإن جد في طلبه كل أحد، وجعل ما لا ينبغي وجوده غير موجود لشركته في فقد الخير. ويجوز أن يقال: لا تجد قوماً كاملي الإيمان على ما يدل عليه سياق النظم، فعدم الوجدان على حقيقته.

أي: لا تجد يا محمد، أو أيها المخاطب قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان، موادين ومحبين من حاد الله ورسوله، وخالفهما في أوامرهما ونواهيهما ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ﴾؛ أي: من حاد الله ورسوله. والجمع باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾ كما أن الإفراد فيما قبله باعتبار لفظها. ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾؛ أي: آباء الموادين ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ قدم الأقدم حرمة ثم الأحكم محبة ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ نسباً ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾؛ أي: أقاربهم؛ أي: ولو كان المحادون لله ورسوله آباء الموادين.. إلخ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك، ويمنع منه، ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة.

والمعنى[1]: أي لا تجد قوماً يجمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر، ومودة أعداء الله ورسوله؛ لأن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين، إذ من كان مؤمناً حقاً لا يوالي كافراً، فمن أحب أحداً.. امتنع أن يوالي عدوه. والمراد من موالاته: مناصحته وإرادة الخير له في الدِّين والدنيا. أما المخالطة والمعاشرة: فليست بمحظورة، ولقد أصاب المسلمين اليوم من ذلك بلاء شديد، فإنا نرى الأمم الإسلامية أصبحت في أخريات الأمم، ويصادقون الأفارج والنصارى، وينصرونهم على أبناء جنسهم، ويقتدون بهم في عاداتهم وأخلاقهم، ولو كان في ذلك ذل لهم ولدينهم وأمتهم، ولن تزول هذه الغفلة إلا بالاستشعار بالعزة الدينية والكرامة القومية، والدفاع عن حوزة الدِّين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ثم بالغ في الزجر، وأبان أنه لا ينبغي لمؤمن أن يفعل ذلك ولو مع الأقارب، كالآباء الذين يجب طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف، أو الأبناء الذين هم فلذات الأكباد، أو الإخوان الذين هم الناصرون لهم، أو العشيرة الذين يعتمد عليهم بعد الإخوان.

والخلاصة: أنه لا يجتمع إيمان مع موادة أعداء الله؛ لأن من أحب أحداً.. امتنع من محبة عدوه، فإذا حصل في القلب مودّة أعداء الله.. لم يحصل فيه

---

(١) المراغي.

الإيمان الصحيح، وكان صاحبه منافقاً.

أخرج الطبراني والحاكم والترمذي مرفوعاً: يقول الله تبارك وتعالى: «وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعاد أعدائي».

وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللّهم لا تجعل لفاجر ولا لغاش عليّ يداً ولا نعمة فيوده قلبي، فإني وجدت فيما أوحيت إليّ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

تتمّة: وبدأ بالآباء[1]؛ لأنهم الواجب على الأولاد طاعتهم، فنهاهم عن مودتهم، وقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾. ثم ثنى بالأبناء؛ لأنهم أعلق بالقلوب، ثم أتى ثالثاً بالإخوان؛ لأن بهم التعاضد، كما قيل:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لا أَخَا لَهُ ... كَسَاعٍ إِلَىٰ ٱلْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلاَحِ

ثم رابعاً بالعشيرة؛ لأن بها التناصر، وبهم المقاتلة والتغلب، والتسرع إلى ما دعوا إليه كما قال:

لاَ يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْ ... فِيْ ٱلنَّائِبَاتِ عَلَىٰ مَا قَالَ بُرْهَانا

وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾ على الإفراد، وأبو رجاء على الجمع ﴿عَشِيْرَاتِهِم﴾.

ورويت هذه القراءة عن عاصم.

ثم بيّن العلة في عدم اجتماع الإيمان، ومودة أعدائه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين سلفت أوصافهم. فهو إشارة إلى الذين لا يوادونهم وإن كانوا أقرب الناس إليهم وأمسهم رحماً. ﴿كَتَبَ﴾ الله سبحانه؛ أي: خلق، وأثبت، وأركز ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ وهو[2] الإيمان الوهبي الذي وهبه الله لهم قبل خلق الأصلاب والأرحام، إذ لا يزال أبداً بحال كالإيمان المستعار. وفيه دلالة على خروج العمل من مفهوم الإيمان، فإن الجزء الثابت في القلب ثابت فيه قطعاً، ولا شيء من أعمال الجوارح

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

يثبت فيه. وفيه حجة ظاهرة على القدرية حيث زعموا أن الإيمان والكفر يستقل بعملهما العبد، وهم القائلون بنفي كون الخير والشر كله بتقدير الله ومشيئته، يعني: هم الذين يزعمون أن كلّ عبد خالق لفعله، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله. وسموا بذلك لمبالغتهم في نفيه وكثرة مدافعتهم إياه. وقيل: لإثباتهم للعبد قدرة الإيجاد، وليس بشيء، لأن المناسب حينئذٍ القدري بضمّ القاف.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كَتَبَ﴾ مبنياً للفاعل ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ نصباً على المفعولية؛ أي: كتب الله. وقرأ أبو حيوة، وزرّ بن حبيش، والمفضل عن عاصم: ﴿كُتِبَ﴾ مبنياً للمفعول، ورفع ﴿الإِيمانُ﴾ على النيابة.

والمعنى: أي أولئك الذين لا يوادون مَنْ حاد الله ورسوله أثبت[2] الله سبحانه في قلوبهم الإيمان، والإيمان نعمة عظيمة لا تحصل لمن يواد من حاد الله ورسوله. وفي هذا مبالغة عظيمة في الزجر عن موادة أعداء الله.

ثم ذكر سبباً آخر يمنع من موادتهم، فقال: ﴿وَأَيَّدَهُم﴾؛ أي: قواهم الله سبحانه. وأصله: قوّى يدهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾؛ أي[3]: من عند الله تعالى. و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، وهو نور القرآن، أو النصر على العدوّ؛ أي: قوّى يدهم بنصر منه على عدوهم في الدنيا. وسمى نصره لهم روحاً لأن به يحيا أمرهم. وقيل: هو نور القلب. وهو بإدراك حقيقة الحال، والرغبة في الارتقاء إلى المدارج الرفيعة الروحانية، والخلاص من درك عالم الطبيعة الدنية. وكل ذلك سمي روحاً لكونه سبباً للحياة. وقيل: بجبريل. وقيل: برحمة. وقيل[4]: الضمير للإيمان؛ فإنه سبب لحياة القلب.

أي: إنه قوّاهم بطمأنينة القلب، والثبات على الحق. فلا يبالون بموادة أعداء الله، ولا يأبهون لهم.

ثم ذكر ما أعده لهم من النعيم المقيم، فقال: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها أو

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) البيضاوي.

قصورها ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الأربعة: الماء، واللبن،والخمر، والعسل، حال كونهم ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي[1]: ماكثين فيها أبدَ الآباد لا يقرب منهم زوال، ولا موت، ولا مرض، ولا فقر، كما قال ـ ﷺ ـ: «ينادي منادٍ: آن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وآن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وآن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وآن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً».

ثم ذكر السبب فيما أفاض عليهم من نعمه، فقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: قبل أعمالهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة. والرضى: ضد السخط. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: فرحوا بما أعطاهم عاجلاً وآجلاً.

والمعنى[2]: أي رضي الله عنهم، فأغدق عليهم رحمته العاجلة والآجلة، فأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ورضوا لابتهاجهم بما أوتوا عاجلاً وآجلاً، فإنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى.. عوضهم بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم.

ثم أشاد بتشريفهم فجعلهم جنده تعالى، فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات السابقة ﴿حِزْبُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: جنده الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه وينصرون أولياءه. وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم وتكريم فخيم. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ وأعوانه ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الناجون من المكروه والفائزون بالمحبوب، دون غيرهم المقابلين لهم من حزب الشيطان المخصوصين بالخذلان والخسران، وهو بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة النشأتين وخير الدارين.

والمعنى[3]: أي هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، الكاملون في الفلاح، الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كَلاَ فلاح.

الإعراب

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

ﭐلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التعجبي، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾ وعلامة جزمه: حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى محمد، أو إلى أي مخاطَب، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿تَرَ﴾ وهو متعد بإلى؛ لأنه بمعنى: تنظر. والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة للتعجب من حال المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء. ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ صفة قوماً، ﴿مَّا﴾: نافية حجازية، ﴿هُم﴾: اسمها، ﴿مِّنكُمْ﴾: خبرها. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿مِنْهُمْ﴾: معطوف على ﴿مِّنكُمْ﴾، وجملة ﴿مَّا﴾ الحجازية مستأنفة، أو صفة ثانية لـ﴿قَوْمًا﴾، أو حال من فاعل ﴿تَوَلَّوْا۟﴾. ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَوَلَّوْا۟﴾. وهو داخل في حيّز الصلة. ﴿عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ متعلق بـ﴿يحلفون﴾، ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يحلفون﴾. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به، ﴿شَدِيدًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض بمعنى قبح، مجرد عن معنى الإنشاء، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿سَآءَ﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، وجملة ﴿سَآءَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، من أخوات ظنّ، ﴿أَيْمَـٰنَهُمْ﴾: مفعول أول لـ﴿اتخذ﴾، ﴿جُنَّةً﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فَصَدُّوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿صدوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿صدوا﴾، ﴿فَلَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لهم﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُّهِينٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿صدوا﴾ ﴿لَّن﴾: حرف نصب واستقبال، ﴿تُغْنِىَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لَّن﴾، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿تُغْنِىَ﴾، ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾: فاعل، ﴿وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم﴾: معطوف على ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾، ﴿مِّنَ

﴿اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُغْنِيَ﴾، ﴿شَيْئًا﴾: مفعول مطلق؛ أي: قليلاً من الاغناء. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿أَصْحَابُ﴾: خبره، ﴿النَّارِ﴾: مضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَالِدُونَ﴾، و﴿خَالِدُونَ﴾: خبرهم، والجملة في محل النصب حال من ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب بفعل محذوف، تقديره: اذكر، والجملة مستأنفة، ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾: فعل ومفعول مقدم ﴿اللَّهُ﴾: فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير المفعول؛ أي: مجتمعين. ﴿فَيَحْلِفُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يحلفون﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾، ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿يحلفون﴾، ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿يَحْلِفُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَحْلِفُونَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كحلفهم لكم. والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: فيحلفون له حلفاً مثل حلفهم لكم. ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب حال من الواو في ﴿يَحْلِفُونَ﴾؛ أي: يحلفون له حال كونهم ظانين أنّ حلفهم في الآخرة يجديهم من عذابها. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: خبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سادّ مسد مفعولي حسب، أي: ويحسبون كونهم على شيء، ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه واستفتاح. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ، ﴿الْكَاذِبُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾ على الأول، وخبر ﴿هُمُ﴾ على الثاني، والجملة خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿اسْتَحْوَذَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق بـ﴿اسْتَحْوَذَ﴾، ﴿الشَّيْطَانُ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان استيلاء الشيطان عليهم. ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أنساهم﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿الشَّيْطَانُ﴾، ومفعول به أول، والجملة معطوفة على جملة ﴿اسْتَحْوَذَ﴾، ﴿ذِكْرَ اللَّهِ﴾: مفعول ثان لـ﴿أنساهم﴾، ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾: خبره. والجملة مستأنفة. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح وتنبيه. ﴿إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ﴾ ناصب

واسمه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ، ﴿الْخَسِرُونَ﴾: خبر على الحالين، كما مر آنفاً. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة صلة الموصول، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿فِى الْأَذَلِّينَ﴾: خبر. والجملة الابتدائية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وقد تضمن ﴿كَتَبَ﴾: معنى فعل القسم، وأجيب عنه بقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾. كأنه قيل: أقسم بالله لأغلبن أنا.. إلخ. ﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أغلبن﴾: فعل مضارع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنا، والجملة جواب القسم المضمن في ﴿كَتَبَ﴾، لا محل لها من الإعراب. و﴿أَنَا۠﴾: تأكيد لفاعل ﴿أغلبن﴾، ﴿وَرُسُلِىٓ﴾: معطوف على الضمير المستتر في ﴿أغلبن﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿قَوِىٌّ﴾: خبر أول، ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر ثان له. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَّا﴾: نافية، ﴿تَجِدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت، والجملة مستأنفة. ﴿قَوْمًا﴾: مفعول أول، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: صفة قوماً، ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَالْيَوْمِ﴾: معطوف على الجلالة، ﴿الْآخِرِ﴾: صفة اليوم، ﴿يُوَآدُّونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تَجِدُ﴾، ﴿حَآدَّ اللَّهَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة.

هذا إن كان وجد بمعنى علم، وإن كان بمعنى صادف.. فجملة ﴿يُوَآدُّونَ﴾: حال من ﴿قَوۡمٗا﴾، لتخصصه بالصفة. ﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف تقديره: لا يوادون من حاد الله ورسوله لو كانوا غير أبائهم أو أبنائهم، إلخ، لا يوادونهم. وجملة الشرط المحذوف في محل النصب حال من ﴿مَنۡ﴾ الموصولة في قوله: ﴿مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ناقص، ﴿ءَابَآءَهُمۡ﴾: خبر كان، ﴿أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾: معطوفات على ﴿ءَابَآءَهُمۡ﴾. وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ﴿لو﴾ الشرطية، وجوابها محذوف تقديره: لا يوادونهم. وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لو﴾ المحذوفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿كَتَبَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على اللَّهَ، ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡإِيمَٰنَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿كَتَبَ﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَأَيَّدَهُم﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿كَتَبَ﴾، ﴿بِرُوحٖ﴾: متعلق بـ﴿أيد﴾، ﴿مِّنۡهُۖ﴾: صفة روح، ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به أول، معطوف على ﴿كَتَبَ﴾، ﴿جَنَّٰتٖ﴾: مفعول به ثان على السعة، ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة صفة لـ﴿جَنَّٰتٖ﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من هاء ﴿يدخلهم﴾، ﴿فِيهَاۚ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق بـ﴿رَضِيَ﴾، ﴿وَرَضُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿رَضِيَ﴾، ﴿عَنۡهُ﴾: متعلق بـ﴿وَرَضُواْ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاح. ﴿إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ، ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ أو خبر ﴿هُمُ﴾، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾: من التولي، بمعنى الموالاة، لا بمعنى الإعراض. والموالاة: المودة، والمحبة، والصداقة. وأصله: توليوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار: ﴿تولوا﴾. ﴿قَوۡمًا﴾: هم اليهود. ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾: غضب الله: سخطه، وطرده من رحمته. والغضب

في الأصل: حركة للنفس مبدؤها إرادة الانتقام ممن أساء لك. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾: والحلف: العهد بين القوم، والمحالفة: العهد. والحلف أصله: اليمين التي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد، ثم عبر به عن كل يمين.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾: أصله: أعدد، نقلت حركة الدال الأولى، إلى العين فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية. ﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أصله: سوأ، بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿جُنَّةً﴾: الجنة ـ بضم الجيم ـ: الترس؛ لأنه يجن صاحبه ويقيه من السلاح. ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ فالاتخاذ عبارة عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة، ا هـ من «الروح». ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ من الإغناء، يقال: أغنى عنه كذا، إذا كفاه. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ مصدره الحسبان، وهو أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه ويعقد عليه الأصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، يقاربه الظن، لكن الظن: أن يخطر النقيضان بباله، فيغلب أحدهما على الآخر. ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ من حذت الإبل، إذا استوليت عليها وجمعتها وسقتها سوقاً عنيفاً، وهو مما جاء على الأصل،كاستصوب واستنوق؛ أي: على خلاف القياس، فإن القياس أن يقال: استحاذ، بقلب الواو ألفاً، كاستقام واستعاذ، فهو فصيح استعمالاً وشاذ قياساً. ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «كان عمر أحوذياً نسيج وحده»؛ أي: سائماً ضابطاً للأمور، لا نظير له. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول؛ أي: لم يمكنهم من ذكرهم إياه تعالى بما زين لهم من الشهوات. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ والحزب: الفريق الذي يجمعه مذهب واحد. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ أي: يعادونهما، ويخالفون أمرهما، من حادّه محادّةً، كشاقه مشاقة. وكلٌّ منهما: المخالفة، والمعاداة، والمنازعة.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾؛ أي: في جملة أذل خلق الله وأحقره؛ لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزّة الآخر. ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾: ﴿تَجِدُ﴾: فيه إعلال بالحذف، إذ قياسه: توجد، من وجد المثالي، من باب فعل بفتح العين، يفعل بكسرها، نظير وعد يعد، لكن فاء هذا الفعل حذفت من المضارع حذفاً مطرداً. ﴿يُوَآدُّونَ﴾ أصله: يواددون، بوزن يفاعلون، سكنت الدال الأولى وأدغمت في الثانية. ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ أصله: حادد بوزن فاعل، كرهوا توالي المثلين فسكنوا الدال

الأولى، فأدغموها في الثانية. ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ العشيرة: أهل الرجل الذين يتكثّر بهم؛ أي: يصيرون بمنزلة الكامل. وذلك أن العشرة هو العدد الكامل، فصار العشيرة لكل جماعة من أقارب الرجل يتكثر بهم. والعشير: المعاشر قريباً أو معارفاً. وفي «القاموس»: عشيرة الرجل بنو أبيه الأدنون أو قبيلته، انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ للدلالة على تكرر الحلف وتجدده حسب تكرر ما يقتضيه.

ومنها: التقييد بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: دلالة على أن الكذب يعم ما يعلم المخبر عدم مطابقته للواقع وما لا يعلمه، فيكون حُجة على النظَّام، والجاحظ، كما مر.

فائدة: ذكر علماء البلاغة في حد الصدق والكذب أقوالاً أربعة:

أولاً - إن الصدق مطابقة حكم الخبر للواقع، والكذب عدم مطابقته له. ولو كان الاعتقاد بخلاف ذلك في الحالين.

ثانياً - وهو للنظَّام من كبار المعتزلة -: أن الصدق المطابقة لاعتقاد المخبر، ولو خطأً، والكذب: عدم مطابقته للاعتقاد، ولو صواباً. وما الاعتقاد معه على هذا القول داخل في الكذب بلا واسطة.

ثالثاً - وهو للجاحظ، أحد شيوخ المعتزلة أيضاً -: أن الصدق المطابقة للخارج مع اعتقاد المخبر المطابقة. والكذب عدم المطابقة للواقع مع اعتقاد عدمها. وما عدا ذلك ليس بصدق ولا كذب - أي: واسطة بينهما -. وهو أربع صور: المطابق ولا اعتقاد لشيء، والمطابق مع اعتقاد عدم المطابقة، وغير المطابق مع اعتقاد المطابقة، وغيره ولا اعتقاد.

رابعاً - وهو للراغب -: وهو مثل قول الجاحظ، غير أنه وَصَف الصور الأربع بالصدق والكذب باعتبارين؛ فالصدق باعتبار المطابقة للخارج أو للاعتقاد، والكذب من حيث انتفاء المطابقة للخارج أو للاعتقاد. وحجة ما لكل من الأقوال مذكورة

في محله.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إفادة لنوعية العذاب؛ لأنه يدل على أنه نوع من أنواع العذاب الشديد.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية، أو التشبيه البليغ في قوله: ﴿جُنَّةً﴾ من قوله: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾؛ لأنه حقيقة في الترس، فاستعير لما هو وقاية للشيء، أو كالجنة.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿يَعْلَمُونَ﴾، و﴿يَعْمَلُونَ﴾ لتغيير الرسم.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾؛ لأنه حذف منه وجه الشبه، وهو عدم النفع في كل من الحلفين.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾، وفي قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وبين قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

ومنها: توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل: ﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، ﴿ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾، ﴿خَـٰلِدُونَ﴾، ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

ومنها: رعاية الترتيب العجيب في قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ إلخ. فقد بدأ أولاً بالآباء؛ لأنهم أدعى إلى الاهتمام بهم، لوجوب إخلاص الطاعة لهم، ثم ثنى بالأبناء؛ لأنهم أعلق بحبات القلوب ثم ثلث بالإخوان؛ لأنهم هم المثابة عند الحاجة والناصر عند نشوب الأزمات، ثم ربع بالعشيرة؛ لأنها المستغاث في الشدائد، وهي الموئل والمفزع في النوائب، وهم المسرعون إلى النجدة. كما مر.

ومنها: الزيادة الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ ألفة الأزواج في المنازل.

٢ ـ ألفة الأصحاب في المجالس.

٣ ـ الأدب مع الحكام؛ بترك مضايقتهم لكثرة أعمالهم.

٤ ـ رفق الحكام بالمحكومين عليهم إذا رأوا أمراً يثقلهم.

٥ ـ مجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها، وبالنفاق والشقاق، فإن ذلك يضعفها، ويفرق جمعها، ويذلها[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تمّ بعون الله تعالى، وتوفيقه تفسير سورة المجادلة في أوائل يوم الاثنين المبارك، اليوم الخامس من شهر شوال، من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة ٥/ ١٠/ ١٤١٥ هـ، من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، آمين.

سورة الحشر

سورة الحشر نزلت بعد سورة البيّنة، وتسمى: سورة النضير.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، فقال: قل: سورة النضير؛ يعني: أنها نزلت في بني النضير كما صرح بذلك في بعض الروايات. وهي مدنيّة ـ قال القرطبي ـ: في قول الجميع.

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي، عن ابن عباس قال: (نزلت سورة الحشر بالمدينة).

وآيها أربع وعشرون آية، وكلماتها سبع مئة، وخمس وأربعون كلمة، وحروفها ألف وتسع مئة وثلاثة عشر حرفاً.

مناسبتها لما قبلها من وجوه[1]:

١ ـ أن في آخر السالفة قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾، وفي أول هذه قال: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾.

٢ ـ أن في السابقة ذكر من حاد الله ورسوله، وفي أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله.

٣ ـ أن في السابقة ذكر حال المنافقين واليهود وتولي بعضهم بعضاً، وفي هذه ذكر ما حل باليهود وبيان عدم فائدة تولي المنافقين إياهم.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها[2]: أنه لما ذكر في السابقة حال المنافقين واليهود وتولي بعضهم بعضاً.. ذكر هنا أيضاً ما حلّ باليهود من غضب الله عليهم وجلائلهم، وإمكان الله تعالى رسوله ـ ﷺ ـ ممن حاد الله ورسوله رام الغدر بالرسول ـ ﷺ ـ، وأظهر العداوة بحلفهم مع قريش.

---

(١) المراغي.　　(٢) البحر المحيط.

تسميتها: سميت سورة الحشر، وسورة النضير؛ لذكر حشر بني النضير، وإخراجهم من المدينة إلى الشام فيها.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الحشر ليس فيها منسوخ، وفيها ناسخ، وهو قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ...﴾ الآية (٧)، نسخ الله تعالى بها آية الأنفال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ الآية (١) من سورة الأنفال.

فضائلها[1]: ومما ورد في فضلها: ما أخرجه الترمذي عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر.. وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات من يومه.. مات شهيداً، ومن قرأها حين يمسي.. فكذلك». وقال: حديث حسن غريب.

ومنه: ما روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قرأ سورة الحشر.. لم يبق شيء من الجنة والنار، والعرش والكرسي، والسموات والأرض، والهوام والريح، والسحاب، والطير والدواب، والشجر والجبال، والشمس والقمر، والملائكة، إلا صلوا عليه واستغفروا له، فإن مات في يومه أو ليلته.. مات شهيداً». أخرجه الثعلبي، وفيه مقال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الفتوحات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)﴾.

المناسبة

قد عرفتَ مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما[1]: أن الله سبحانه لما بين ما حل ببني النضير من العذاب العاجل؛ كتخريب بيوتهم بأيديهم، وتحريق نخيلهم وتقطيعها، ثم إجلائهم من بعد ذلك عن الديار إلى الشام دون أن يحملوا إلا القليل من المتاع.. ذكر هنا حكم ما أخذ من أموالهم،

(١) المراغي.

فجعله فيئاً لله ورسوله، ينفق منه على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله، ولا يقسم بين المقاتلة كالغنيمة؛ لأنهم لم يقاتلوا لأجله.

روي: أن الصحابة رضي الله عنهم طلبوا من الرسول ـ ﷺ ـ أن يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة في بدر وغيرها بينهم، فبيّن سبحانه الفرق بين الأمرين: بأن الغنيمة تكون فيما أتعبتم أنفسكم في تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب، والفيء فيما لم تتحملوا في تحصيله تعباً. وحينئذٍ يكون أمره مفوّضاً إلى الرسول ـ ﷺ ـ يضعه حيث يشاء.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بيّن مصارف الفيء فيما سلف، وذكر أنه لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين.. ذكر هنا أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين لهم هذه الصفات السامية والمناقب الرفيعة، ثم مدح الأنصار ساكني المدينة، وبالغ في مدحهم. فذكر لهم هذه الفضائل:

١ ـ أنهم يحبون المهاجرين.

٢ ـ أنهم ليس في قلوبهم حقد ولا حسد لهم.

٣ ـ أنهم يفضلونهم على أنفسهم، ويعطونهم ما هم في أشد الحاجة إليه. وما ذاك إلا لأن الله عصمهم من الشحّ المردي والبخل المهلك الذي يدنّس النفوس ويمنعها من اكتساب الخير وعمل البر. ثم ذكر أن التابعين لهم بإحسان ـ وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ـ يَدْعُون لأنفسهم ومن سبقهم من المؤمنين بالمغفرة. ويطلبون من الله أن لا يجعل في قلوبهم حقداً وحسداً لهم.

أسباب النزول

سورة الحشر سبب نزولها[1]: ما أخرجه البخاري عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل ومنهم

---

(١) أسباب النزول.

ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر، قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير». الحديث أخرجه مسلم أيضاً.

وما أخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقرّه الذهبي، والبيهقي في «دلائل النبوة» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت غزوة بني النضير ـ وهم: طائفة من اليهود ـ على رأس ستة أشهر من غزوة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ـ ﷺ ـ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلّتِ الإبلُ من الأمتعة والأموال إلا الحلقة؛ يعني: السلاح. فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾. فقاتلهم النبي ـ ﷺ ـ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، كان الله قد كتب عليهم ذلك. ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي. وأما قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ فكان ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام.

تنبيه: الحديث ـ أي: حديث الحاكم ـ ليس على شرط الشيخين؛ لأنهما لم يُخرجا لزيد بن المبارك ومحمد بن ثور، وهما ثقتان. فالحديث صحيح، لكن في قوله: (على شرطهما) نظر.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه البخاري عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: حرق رسول الله ـ ﷺ ـ نخل بني النضير، وقطع وهي البويرة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الحديث، أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وأبو داود، وأحمد، وابن جرير، والبيهقي في «دلائل النبوة» عن ابن عباس في قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ قال: اللينة: النخلة، ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: استنزلوهم من حصونهم، قال: وأمروا بقطع النخل، فحك في صدورهم، فقالوا: قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، ولنسألن رسول الله ـ ﷺ ـ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿مَا قَطَعْتُم

---

(١) أسباب النزول.

﴿مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ. . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلاً أتى النبي - ﷺ - فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله - ﷺ -: «من يضم أو يضيف هذا»؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله - ﷺ -، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها، ونوّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته فجعلا يريانه كأنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله - ﷺ -، فقال: ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وأخرج ابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي: أن رجلاً من المسلمين. . . فذكر نحوه، وفيه أن الرجل الذي أضاف هو: ثابت بن قيس بن شماس. فنزلت فيه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إن جميع ما في السماوات والأرض من الأشياء يقدسه سبحانه، ويمجّده، إما[1] باللسان أو بالقلب أو بدلالة الحال لانقياده لتصريفه له كيف شاء، لا معقب لحكمه. والتسبيح معناه: تبعيد الله عن السوء، وتطهيره عمّا لا يليق بشأن ألوهيته. ويكون بالجنان واللسان والحال:

الأول: اعتقاد العبد بتعاليه عمّا لا يليق بالألوهية، وذلك لأن من معاني التفعيل الاعتقاد بشيء والحكم به؛ مثل: التوحيد، والتمجيد، والتعظيم؛ بمعنى: الاعتقاد بالوحدة، والمجد، والعظمة، والحكم بها.

والثاني: القول بما يدل على تعاليه؛ مثل: التكبير، والتهليل، والتأمين؛ بمعنى: أن يقول: الله أكبر، ولا إله إلا الله، وآمين. وهو المشهور عند الناس.

---

(١) روح البيان.

والثالث: دلالة المصنوعات على أن صانعها متصف بنعوت الجلال، مقدس عن الإمكان وما يتبعه.

وقال مجاهد: كل الأشياء تسبح لله، حيّاً كان أو جماداً، وتسبيحها: سبحان الله وبحمده. وهذا على الإطلاق. وأما بالنسبة إلى كل موجود: فالتسابيح مختلفة، فلكل موجود تسبيح مخصوص به من حيث ما يقتضيه نشأته، كما قال بعض الكبار. فإذا رأيت هؤلاء العوالم مشتغلين بالذكر الذي أنت عليه.. فكشفك خيالي غير صحيح لا حقيقي، وإنما ذلك خيالك أقيم لك في الموجودات، فإذا شهدت في هؤلاء تنوعات الأذكار.. فهو الكشف الصحيح، انتهى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: ذو العزة القاهرة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: ذو الحكمة الباهرة. وفي إيراد الوصفين بعد التسبيح إشارة إلى الباعث له والداعي إليه؛ لأن العزة أثر الجلال، والحكمة أثر الجمال، فله تعالى الاتصاف بصفات الكمال.

قال المفسرون[1]: نزلت هذه السورة في بني النضير - وهم: طائفة من اليهود من ذرية هارون أخي موسى عليه السلام - وكان بنو النضير، وقريظة وبنو قينقاع في وسط أرض العرب من الحجاز وإن كانوا يهوداً، والسبب في ذلك: أن بني إسرائيل كانت تُغِير عليهم العماليق في أرض الحجاز، وكانت منازلهم: يثرب والجحفة إلى مكة، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى عليه السلام، فوجه إليهم جيشاً وأمرهم أن يقتلوهم ولا يبقوا منهم أحداً، ففعلوا ذلك، وترك منهم ابن مَلِكٍ لهم كان غلاماً حسناً، فرقوا له. ثم رجعوا إلى الشام وموسى قد مات، فقالت بنو إسرائيل: قد عصيتم وخالفتم فلا نؤويكم، فقالوا: نرجع إلى البلاد التي غلبنا عليها ونكون بها، فرجعوا إلى يثرب، فاستوطنوها وتناسلوا بها إلى أن نزل عليهم الأوس والخزرج بعد سيل العرم، فكانوا معهم إلى الإسلام، فلما هاجر النبي - ﷺ -.. صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك رسول الله - ﷺ - منهم، فلما غزا رسول الله - ﷺ - بدراً وظهر على المشركين.. قال بنو النضير: والله إنه النبي الأمي الذي نجد نعته في التوراة، لا تُردُّ له راية. فلما غزا أُحداً وهزم المسلمون.. ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله - ﷺ - وللمؤمنين، ونقضوا

---

(١) الخازن بتصرف.

العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله - ﷺ -، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة فأتوا قريشاً، فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد - ﷺ -، ودخل أبو سفيان في أربعين من قريش، وكعبُ بن الأشرف في الأربعين من اليهود المسجد الحرام، وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستار الكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة، فنزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي - ﷺ - بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، وأمره بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة - بفتح الميم - الأنصاري، وكان أخا كعب من الرضاعة، فقتله غيلةً - أي: خدعة - وذلك أنه أتاه ليلاً فاستخرجه من بيته بقوله: إني أتيتك لأستقرض منك شيئاً من التمر، فخرج إليه فقتله، ورجع إلى النبي - ﷺ - فأخبره، ففرح النبي - ﷺ - به؛ لأنه أضعف قلوبهم، وسلب قوتهم، وكان النبي - ﷺ - قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم في دية الرجلين المسلمين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في منصرفه من بئر معونة، فهموا بطرح حَجَر على النبي - ﷺ - من الحصن، فعصمه الله سبحانه منهم، وأخبره بذلك جبريل عليه السلام.

فلما قتل كعب بن الأشرف.. أصبح رسول الله - ﷺ -، وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير، وكانوا بقرية يقال لها: زهرة، فلما سار إليهم النبي - ﷺ - وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد! واعية على إثر واعية، وباكية على إثر باكية، قال: «نعم». فقالوا: ذرنا نبك شجونا ثم ائتمر أمرك، فقال النبي - ﷺ -: «اخرجوا من المدينة»، فقالوا: الموت أقرب إلينا من ذلك، ثم تنادوا بالحرب وأَذَّنوا بالقتال، ودس المنافقون عبد الله بن أبي وأصحابه إليهم أن لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم.. فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم، ولئن أخرجتم.. لنخرجن معكم. فدربوا على الأزقة وحصنوها، ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله - ﷺ - فأرسلوا إليه أن اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك.. آمنا كلنا. فخرج النبي - ﷺ - في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود، حتى كانوا في براز من الأرض، فقال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب الموت قبله، ولكن أرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستون؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك،

ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فيسمعون منك، فإن آمنوا بك.. آمنا بك وصدقناك، فخرج رسول الله - ﷺ - في ثلاثة من أصحابه، وخرج ثلاثة من اليهود معهم الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله - ﷺ - فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها - وهو رجل مسلم من الأنصار - فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله - ﷺ -، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي - ﷺ - فساره بخبرهم قبل أن يصل إليهم، فرجع النبي - ﷺ -، فلما كان من الغد صبحهم رسول الله - ﷺ - بالكتائب، فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وأيسوا من نصر المنافقين، فسألوا رسول الله - ﷺ - الصلح، فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به، فقبلوا ذلك، فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة - وهي: السلاح - وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم. قال ابن عباس: على أن يحمل كل أهل بيت على بعير ما شاؤوا من متاعهم، وللنبي - ﷺ - ما بقي. وقيل: أعطي كل ثلاثة نفر بعيراً وسقاء، ففعلوا ذلك، وخرجوا من ديارهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام إلا أهل بيتين منهم: آل أبي الحقيق وآل حييّ بن أخطب؛ فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة.

فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: بني النضير ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾؛ أي: من بيوتهم التي كانت بالمدينة.

قال ابن إسحاق: كان إجلاء بني النضير مرجع النبي - ﷺ - من أحد، وفتح قريظة مرجعه من الأحزاب، وبينهما سنتان، انتهى. أي: أمر بإخراج أهل التوراة؛ يعني: بني النضير من ديارهم. جمع دار. والفرق بين الدار والبيت: أن الدار دار وإن زالت حوائطها، والبيت ليس ببيت بعدما انهدم جدرانها؛ لأن البيت اسم لمبنى مسقف، مدخله من جانب واحد بني للبيتوتة، سواء كان حيطانه أربعة أو ثلاثة. وهذا المعنى موجود في الصُّفَّة إلا أن مدخلها واسع، فيتناولها اسم البيت. والبيوت اسم أخص بالمسكن، والأبيات بالشِّعر.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ للتوقيت كاللام في قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾، متعلقة بـ﴿أَخْرَجَ﴾؛ أي: عند أول حشرهم وسوقهم إلى الشام، وفي «كشف الأسرار»: اللام لام العلة؛ أي: أخرجوا من ديارهم ليكون حشرهم إلى

الشام أول الحشر، والحشر معناه: إخراج جمع من مكان إلى آخر، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط، إذ كان انتقالهم من بلاد الشام إلى جانب المدينة عن اختيار منهم، وهم أول من أخرج به من جزيرة العرب إلى الشام، فعلى هذا الوجه ليس الأول مقابلاً للآخر.

وسميت جزيرة؛ لأنه أحاط بها بحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات. قال الخليل بن أحمد: مبدأ الجزيرة من حفر أبي موسى، إلى اليمن في الطول، ومن رمل بِبِريش ـ وهو موضع بحذاء الإِحساء ـ إلى منقطع السماوة في العرض. والسماوة بالفتح: موضع بين الكوفة والشام. أو يقال: هذا أول حشرهم، وآخر حشرهم إجلاء عمر ـ رضي الله عنه ـ إياهم من خيبر إلى الشام، وذلك حين بلغه الخبر عن النبي ـ ﷺ ـ: «لا يبقين دينان في جزيرة العرب». وقيل: آخر الحشر: حشر جمع الناس يوم القيامة؛ لأن المحشر يكون بالشام. قال عكرمة: من شك أن المحشر يوم القيامة في الشام.. فليقرأ هذه الآية، فإن النبي ـ ﷺ ـ لما قال لهم: «اخرجوا».. قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر». قال ابن العربي: الحشر أوّل وأوسط وآخر. فالأول: إجلاء بني النضير، والأوسط: إجلاء أهل خيبر، والآخر: يوم القيامة، انتهى.

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾؛ أي[1]: أن يخرج بنو النضير من ديارهم وبيوتهم بهذا الذل والهوان؛ بشدة بأسهم ووثاقة حصونهم؛ لأنهم كانوا أهل حصون مانعة، وعقار ونخيل واسعة، وأهل عَدد كثيرة وعُدد وافرة. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾؛ أي: ظن بنو النضير ظناً قوياً هو بمرتبة اليقين؛ لأن ﴿أَنَّ﴾ لا تقع إلا بعد فعل اليقين أو ما نزل منزلته. ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ﴾ وحافظتهم ﴿حُصُونُهُم﴾ وقلاعهم ﴿مِّنَ﴾ بأس ﴿اللَّهِ﴾ وعذابه وبطشه؛ أي: وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله وقهره وبطشه. وقوله: ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿حُصُونُهُم﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿أَنَّهُم﴾. وقدم الخبر وأسند الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها واعتقادهم في أنفسهم في عزة ومنعة لا يبالى بسببها، فتقديم المسند يفيد قصر المسند إليه على المسند. فإن معنى قائم زيد: أن زيداً مقصور على القيام لا

(١) روح البيان.

يتجاوزه إلى القعود، وكذا معنى الآية: أن حصونهم ليس لها صفة غير المانعية، ويجوز أن يكون ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبر ﴿أَنَّهُم﴾، و﴿حُصُونُهُم﴾ فاعل ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ لاعتماده على المبتدأ. ورجح الثاني أبو حيان، والأول أولى.

فإن قيل: ما المانع من جعل ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ مبتدأ ﴿حُصُونُهُم﴾ خبراً، فإن كليهما معرفة؟

قلت: كون ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ نكرةً؛ لأن إضافتها غير مخصصة، وأن القصد إلى الإخبار عن الحصون.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أتى بني النضير أمرُ الله وقدره المقدور لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ ولم يظنوا ولم يخطر ببالهم؛ أي: أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، وهو: أنه سبحانه أمر نبيه - ﷺ - بقتالهم وإجلائهم، وكانوا لا يظنون ذلك. وقيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرة على يد أخيه، قاله ابن جريج، والسدي، وأبو صالح؛ فإنّ قَتْلَهُ ممَّا أضعف قوتهم، وقل شوكتهم، وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب. و﴿الفاء﴾: إما للتعقيب إشارة إلى أن البأس لم يكن متراخياً عن ظنهم، أو للسبب إشارة إلى أنهم إنما أخذوا بسبب إعجابهم بأنفسهم وقطعهم النظر إلى قدرة الله وقوّته.

﴿وَقَذَفَ﴾؛ أي: ألقى الله سبحانه وتعالى، وأركز، وأثبت ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾؛ أي: في قلوب بني النضير ﴿ٱلرُّعْبَ﴾؛ أي: الخوف الذي أرعبها وملأها، بحيث غير عقلهم، وأعجز أنفسهم، وشوش رأيهم، وفرق تدبيرهم؛ أي: ألقى في قلوبهم الخوف من المسلمين. والمراد[1] بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو: الذي ثبت في «الصحيح» من قوله - ﷺ -: «نصرت بالرعب مسيرة شهر».

وجملة قوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ مستأنفة لبيان حالهم عند الرعب أو في محل النصب على الحال؛ أي: يخربونها بأيديهم ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة، ولئلا تبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين، وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء.. حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فجعلوا يخربونها

---

(١) الشوكاني.

من داخل والمسلمون من خارج، ولينقلوا معهم بعض آلاتها المرغوب فيها مما يقبل النقل. ﴿و﴾ بـ﴿أيدي المؤمنين﴾ حيث كانوا يخربونها إزالة لمتحصنهم ومتمنعهم، وتوسيعاً لمجال القتال، وإضراراً بهم، وإسناد هذا إليهم لما أنهم السبب فيه، فكأنهم كلفوهم إياه، وأمروهم به، وهذا كقوله - ﷺ -: «من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه»، فقالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ فقال: «يساب الرجل، فيسب أباه فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

وقال الضحَّاك وقتادة: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم.

وقال الزهري، وابن زيد، وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبي - ﷺ - على أن لهم ما أقلت الإبل.. كانوا يستحسنون الخشبة أو العمود، فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها.

وقال الزهري أيضاً: يخربون بيوتهم بنقض المعاهدة، وأيدي المؤمنين بالمقاتلة.

وقال أبو عمرو: بأيديهم بتركهم لها، وبأيدي المؤمنين بإجلائهم عنها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يخْربون﴾ بالتخفيف. وقرأ الحسن، والسلمي، ونصر بن عاصم، وأبو العالية، وأبو عمرو، وقتادة، والجحدري، ومجاهد، وأبو حيوة، وعيسى: ﴿يخرِّبون﴾ بالتشديد. والقراءاتان بمعنى واحد، إلا أن في التشديد معنى التكثير. وفيه إشارة إلى أن استناد الكفار إلى الحصون والأحجار والسلاح، وأن اعتماد المؤمنين على الله الملك الغفار؟ ولا شك أن من اعتمد على المأمن الحقيقي ظفر بمراده في دنياه وآخرته، وأن ما استند إلى ما سوى الله تعالى خسر خسراناً مبيناً في تجارته.

﴿فَٱعْتَبِرُواْ﴾؛ أي: فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا تكاد تهتدي إليه الأفكار. ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ والعقول والبصائر الكاملة، واتقوا مباشرة ما أدّاهم إليه من الكفر والمعاصي، وانتقلوا من حال الفريقين إلى حال

(١) البحر المحيط.

أنفسكم، فلا تعولوا على تعاضد الأسباب كبني النضير الذين اعتمدوا على حصونهم ونحوها، بل توكلوا على الله تعالى. وفي «عين المعاني»: فاعتبروا بها خراب جميع الدنيا.

ومعنى الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي[1]: هو الذي أجلى بني النضير من المدينة بقوته وعزته وعظيم سلطانه. وكان هذا أول مرة حشروا فيها وأخرجوا من جزيرة العرب، لم يصبهم الذل قبلها؛ لأنهم كانوا أهل عزة ومنعة: وآخر حشر لهم: إجلاء عمر - رضي الله عنه - لهم من خيبر إلى الشام.

ثم بيّن فضل الله على المؤمنين ونعمته عليهم في إخراج عدوهم من ديارهم ولم يكن ذلك منتظراً، فقال: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾؛ أي: ما خطر لكم ذلك - أيها المؤمنون - ببال؛ لشدة بأسهم ومنعتهم، وقوة حصونهم، وكثرة عَددهم وعُددهم. وفي ذكر هذا تعظيم النعمة؛ فإن النعمة إذا جاءت من حيث لا ترتقب.. كانت مكانتها في النفوس أعظم وكانت بها أشد سروراً وابتهاجاً، والمسلمون ما ظنوا أن يبلغ الأمر بهم إلى إخراج اليهود من ديارهم، ويتخلصوا من مكايدهم وأشراكهم التي ما فتئوا ينصبونها للمؤمنين. وبذا قضى الله عليهم قضاءه الذي لا مرد له، وصدق الله ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

ثم ذكر ما جرأهم على مشاكسة النبي - ﷺ - وتأليب المشركين عليه، فقال: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وظن بنو النضير أن حصونهم المنيعة القوية تمنعهم من أن ينالهم عدو بسوء، فلا يستطيع جيش مهما أوتي من بأس أن يصل إليهم بأذى، فاطمأنوا إلى تلك القوة، وأوقدوا نار الفتنة بين الرسول - ﷺ - والمشركين طمعاً في القضاء عليه بعد أن أصبحت له الزعامة الدينية والسياسية في المدينة، وسيكون في ذلك القضاء عليهم لو صبروا، وقد غبروا وهم أصحاب السلطان فيها، لأنهم من وجه أهل كتاب، ومن وجه آخر أرباب النفوذ المالي فيها وأصحاب الثروة والجاه العريض.

ثم أكد ما سلف وقرره بقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾؛ أي: فجاءهم بأس الله وقدرته التي لاتدفع من حيث لم يخطر ذلك لهم ببال، وصدق

---

(١) المراغي.

فيهم ما قيل: قد يؤتى الحَذِرُ من مأمنه. فأجلاهم النبي - ﷺ - من المدينة، فذهبت طائفة منهم إلى أذرعات من أعالي الشام، وطائفة إلى خيبر، على أن يأخذوا معهم ما حملت إبلهم.

ثم بيّن أسباب هذا الاستسلام السريع والنزول على حكم الرسول على مناعة الحصون وكثرة العَدد والعُدَد فقال: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾؛ أي: بث في قلوبهم الهلع والخوف حين جاء رسول الله - ﷺ - وأصحابه إليهم، فلم يستطيعوا إلى المقاومة سبيلاً، ومما كان له بالغ الأثر في هذا الخوف: قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غيلة، وما رأوه من كذب وعد عبد الله بن أبي رأس المنافقين في نصرتهم وإرسال المدد إليهم وتغريره بهم، وتوسيع مسافة الخلف بينهم وبين الرسول - ﷺ -. فهم قد أوقدوا ناراً كانوا هم حطب لهبها، وفتحوا ثغرة برؤوسهم قد سدوها، ووقعوا في حفرة هم الذين كانوا قد حفروها، فابتلعتهم لا إلى رجعة.

ثم بيّن مدى ما لحقهم من الهلع والجزع، وكيف حاروا في الدفاع عن أنفسهم، فقال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ...﴾ إلخ؛ أي: يخربون بيوتهم بأيديهم. ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة، حتى لا يدخلها العدو، وحتى لا تبقى صالحة لسكنى المؤمنين بعد جلائهم، ولينقلوا بعض أدواتها التي تصلح للاستعمال في جهات أخرى؛ كالخشب والعمد والأبواب. ويخربها المؤمنون من خارج؛ ليدخلوها عليهم، ويزيلوا تحصنهم بها، وليتسع مجال القتال، ويكون في ذلك عظيم التنكيل والغيظ لهم.

ثم ذكر ما يجب أن يجعله العاقل نصب عينيه من عظة واعتبار، فقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ أي: فاتعظوا يا ذوي البصائر السليمة والعقول الراجحة بما جرى لهؤلاء، من أمور عظام وبلاء ما كان يخطر لهم ببال، وأسباب تحار في فهمها العقول، ولا يصل إلى كنه حقيقتها ذوو الآراء الحصيفة. وابتعدوا عن الكفر والمعاصي التي أوقعتهم في هذه المهالك، فالسعيد من وعظ بغيره وإياكم والغدر والاعتماد على غير الله، فما اعتمد أحد على غيره إلا ذلّ.

ثم بيّن أن الجلاء الذي كتب عليهم كان أخف من القتل والأسر، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ﴾ وحكم في سابق علمه ﴿عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: على بني النضير

﴿ٱلْجَلَآءَ﴾؛ أي: الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع. و﴿لولا﴾[1] امتناعية، وما بعدها مبتدأ محذوف الخبر. فإن ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المقدر؛ أي: ولولا أنه، و﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: خبرها، وجملة ﴿أَنْ﴾ في محل رفع على الابتداء، والخبر محذوف، والتقدير: ولولا كتاب الله عليهم الجلاء واقع في علمه أو في لوحه.. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي، كما فعل ببني قريظة إخوانهم من اليهود.

قال بعضهم: لما استحقوا بجرمهم العظيم قهراً عظيماً.. أخذوا بالجلاء الذي جعل عديلاً لقتل النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ مع أن فيه احتمال إيمان بعضهم بعد مدة وإيمان من يتولد منهم.

وكان[2] بنو النضير من الجيش الذين عصوا موسى عليه السلام في كونهم لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق، تركوه لجماله وعقله، وقال موسى عليه السلام: لا تستحيوا منهم أحداً، فلما رجعوا إلى الشام.. وجدوا موسى عليه السلام قد مات، فقال لهم بنو إسرائيل: أنتم عصاة، والله لا دخلتم علينا بلادنا. فانصرفوا إلى الحجاز، فكانوا فيه فلم يجر عليهم الجلاء الذي أجراه بختنصر على أهل الشام؛ فإنه أجلى معظمهم من بلاد الشام إلى العراق، وكان الله قد كتب على بني إسرائيل جلاء، فنالهم هذا الجلاء على يد محمد ـ ﷺ ـ، ولولا ذلك.. لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، كأهل بدر وغيرهم. ويقال: جلا القوم عن منازلهم، وأجلاهم غيرهم. قيل: والفرق بين الجلاء والإخراج: أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج: قد يكون مع بقاء الأهل والولد. وقال الماوردي: الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج قد يكون لجماعة ولواحد.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ ممدوداً، والحسن بن صالح، وأخوه عليّ بن صالح مقصوراً. وقرأ طلحة مهموزاً من غير ألف كـ﴿النبأ﴾.

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: إن نجوا من عذاب الدنيا.. لم ينجوا في

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الآخرة. والجملة[1] مستأنفة غير متعلقة بجواب ﴿لولا﴾ إذ لو كانت معطوفة عليه.. لزم أن ينجوا من عذاب الآخرة أيضاً؛ لأن ﴿لولا﴾ تقتضي انتفاء الجزاء لحصول الشرط، وإنما جيء به لبيان أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا بكتابة الجلاء.. لا نجاة لهم من عذاب الآخرة. يقول الفقير: لا يلزم من نجاتهم من عذاب الدنيا أن لا يكون جلاؤهم من قبيل العذاب، وإنما لم يكن منه بالنسبة إلى عذاب الاستئصال. والحكمة في جلائهم: أنهم قصدوا قتل النبي - ﷺ -، وقتله شر من ألف قتل، فأخذوا بالجلاء ليموتوا كل يوم ألف مرة؛ لأن انقطاع النفس عن مألوفاتها بمنزلة موتها، فجاء الجزاء من جنس العمل.

والمعنى[2]: أي ولولا أن الله قدر الجلاء من المدينة وخروجهم من أوطانهم على هذا الوجه المهين.. لعذبهم في الدنيا بما هو أفظع منه، من قتل وأسر، كما فعل مع المشركين في وقعة بدر، وكما فعل مع بني قريظة في سنة خمس من الهجرة، كفاء غدرهم وخيانتهم، وتأليب المشركين على المؤمنين، والسعي في إطفاء نور الإسلام حتى لا تقوم لهم قائمة، إلى ما أعد لهم في الآخرة من عذاب مقيم ونكال وجحيم، حين تقوم الساعة وتجازى كل نفس بما كسبت.

ثم بيّن السبب فيما حل بهم، وذكر علته بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما حاق بهم من الجلاء، وسيحيق من عذاب الآخرة. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: خالفوا أمرهما، وفعلوا ما فعلوا مما حكي عنهم من القبائح. والمشاقة: كون الإنسان في شق ومخالفه في شق آخر. ﴿وَمَن يُشَآقِّ اللَّهَ﴾ كائناً من كان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ له. فهو[3] نفس الجواب بحذف العائد، أو تعليل للجزاء المحذوف؛ أي: يعاقبه الله، فإن الله شديد العقاب، فإذاً لهم عقاب شديد أيضاً لكونهم من المشاقين، وأيا ما كان، فالشرطية تحقيق للسببية بالطريق البرهانيّ. وفيه إشعار بأنّ المخالفة تقتضي المؤاخذة بقدر قوتها وضعفها، فليحذر المؤمنون من العصيان مطلقاً. واقتصر ههنا على مشاقة الله؛ لأنَّ مشاقته مشاقة لرسوله. وقيل: بينهما فرق، فإن مشاقة الله: الامتناع من امتثال المأمورات بإنكارها، كالامتناع من أداء الصلوات لجحدها، وكذا للزكاة والحج مثلاً. ومشاقة

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

الرسول: المنازعة معه في حكمة أمره ونهيه، مثل أسرار الصلوات الخمس واختلاف أعدادها، واختلاف قراءتها جهراً وسرّاً، ومثل: أسرار الزكاة واختلاف أحكامها، ومثل: أحكام الحج ومناسكه. ونحن أمرنا بمحض الامتثال والانقياد، وما كلفنا بمعرفة أسرارها وحقائقها، والنبي - ﷺ - مع كمال عرفانه وجلال برهانه يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وقال: «نحن نحكم بالظواهر والله يعلم السرائر».

وقرأ الجمهور: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ بالإدغام. وقرأ طلحة بن مصرف ومحمد بن السميفع ﴿يشاقق﴾ بالإظهار، كالمتفق عليه في الأنفال.

والمعنى: أي إنه تعالى إنما فعل ذلك بهم، وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزله على رسله المتقدمين من البشارة بمحمد - ﷺ -، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. ثم ذكر مآل من يعادي الله ورسوله، فقال: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: ومن يعاد الله فإن الله يعاقبه أشد العقاب، وينزل به الخزي والهوان في الدنيا، والنكال السرمدي في الآخرة.

ثم ذكر أن كل شيء بقضاء الله وقدره، فقال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾: ﴿مَا﴾شرطية، نصب بـ﴿قَطَعْتُم﴾. واللينة: وزان فعلة، نظير حنطة، وهي: النخلة الكريمة الشجرة، بكونها قريبة من الأرض والطيبة الثمرة، ولا تختص بنوع من النخل دون نوع، كما قاله الراغب. وقيل: اللينة ضروب النخل كلها، ما خلا العجوة والبرنية، وهما أجود النخل.

والمعنى: أي شيء قطعتم من نخلة من نخيلهم بأنواعها ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الضمير لـ﴿مَا﴾ وتأنيثه لتفسيره باللينة كما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾. ﴿قَآئِمَةً﴾: في حال من ضمير المفعول ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ وسوقها كما كانت، من غير أن تتعرضوا لها بشيء من القطع. جمع أصل، وهو ما يتشعب منه الفرع. ﴿فـ﴾ ـذاك ﴿بإذن الله﴾ تعالى؛ أي: قطعُها وتركُها واقع بأمر الله وإرادته، فلا جناح عليكم فيه؛ فإن في كل من القطع والترك حكمة ومصلحة.

وقال محمد بن إسحاق: إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة، فقال بنو النضير -

وهم أهل كتاب ـ: يا محمد! ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض؟ فشق ذلك على رسول الله ـ ﷺ ـ، ووجد المسلمون في أنفسهم شيئاً. فنزلت هذه الآية.

أي: أي شيء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله تعالى. فجعل أمر الرسول ـ ﷺ ـ أمر الله تعالى؛ لأنه ما ينطق عن الهوى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿قَآئِمَةً﴾ أنث قائمة، والضمير في ﴿تَرَكۡتُمُوهَا﴾ على معنى ﴿مَا﴾ وقرأ عبد الله والأعمش وزيد بن علي ﴿قوماً﴾ بفتحتين على وزن فعل، جمع قائم، وقرىء ﴿قائماً﴾ اسم فاعل، فذكر على لفظ ﴿مَا﴾ وقرأ الجمهور ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ بالجمع، وقرىء ﴿على أصلها﴾ بغير واو على الإفراد.

و﴿اللام﴾: في قوله: ﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ علة لمحذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على علة محذوفة، والتقدير: أذن في قطعها ليسر المؤمنين ويعزهم، ويخزي الفاسقين، أي: وليذل اليهود الخارجين عن دائرة الإسلام؛ لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف أحبوا، ويتصرفون فيها حسبما شاؤوا من القطع والترك.. يزدادون غيظاً ويتضاعفون حسرة.

وتخصيص[2] اللينة بالقطع إن كانت من الألوان.. ليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية هما كرام النخل، وإن كانت هي الكرام.. ليكون غيظهم أشد.

ويقال: إن العتيق والعجوة كانتا مع نوح في السفينة. والعتيق الفحل، وكانت العجوة أصل الإناث كلها. فلذا شق على اليهود قطعها، وظهر من هذا أن اللون هو ما عدا العجوة، والبرني من أنواع التمر بالمدينة. ومن أنواع التمر بالمدينة: الصيحاني. وفي «شرح مسلم» للنواوي: أنواع التمر مئة وعشرون. وفي «تاريخ المدينة الكبير» للسيد السمنودي: أن أنواع التمر بالمدينة التي أمكن جمعها بلغت مئة، وبضعاً وثلاثين. ويوافقه قول بعضهم: اختبرناها فوجدنا أكثر مما ذكره النواوي، قال: ولعل ما زاد على ما ذكر حدث بعد ذلك، وأما أنواع التمر بغير

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

المدينة، كالمغرب.. فلا تكاد تنحصر. وكانت العجوة خير أموال بني النضير؛ لأنهم كانوا يقتاتونها، ولما قطعت العجوة.. شق النساء الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل كما في «إنسان العيون».

واستدل بهذه الآية على جواز هدم ديار الكفرة، وقطع أشجارهم مثمرة كانت أو غير مثمرة، وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم، وعلى جواز الاجتهاد وعلى تصويب المجتهدين. والكلام فيه مبسوط في كتب الأصول.

والمعنى: وقد أذن الله في ذلك ليعز المؤمنين، وليخزي الفاسقين ويذلهم، ويزيد غيظهم، ويضاعف حسرتهم بنفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم.

والخلاصة: أنكم بأمر الله قطعتم، ولم يكن ذلك فساداً، بل نعمة من الله ليخزيهم ويذلهم بسبب فسقهم وخروجهم من طاعة الله ومخالفة أمره ونهيه.

ولما جلا بنو النضير عن أوطانهم[1]، وتركوا أرباعهم وأموالهم.. طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر. فنزلت: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ...﴾. فبين أن أموالهم فيء لم يوجف عليها خيل ولا ركاب ولا قطعت مسافة، إنما كانوا ميلين من المدينة مشوا مشياً، ولم يركب إلا رسول الله - ﷺ -.

وهذا شروع في[2] بيان حال ما أخذ من أموالهم بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل، وما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع. و﴿ما﴾ موصولة، وقوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾ خبره. ويجوز جعلها شرطية، وقوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾ جواباً. والفيء في الأصل بمعنى الرجوع، وأفاء: أعاد وأرجع فهو على أصل معناه هنا.

والمعنى: وما أعاده الله على رسوله ورده، وأرجع إليه من مالهم؛ أي: جعله عائداً إليه، ففيه إشعار بأنه كان حقيقاً بأن يكون له - ﷺ -، وإنما وقع في أيديهم بغير حق، فرجعه الله إلى مستحقه؛ لأنه تعالى خلق الناس لعبادته، وخلق ما خلق ليتوسلوا به إلى طاعته، فهو جدير بأن يكون للمطيعين، وهو - ﷺ - رأسهم ورئيسهم، وبه أطاع من أطاع، فكان أحق به. فالعود على هذا بمعنى: أن يتحول

---

(١) البحر المحيط.   (٢) روح البيان.

الشيء إلى ما فارق عنه، وهو الأشهر. ويجوز أن يكون معناه: صيّره له، فالعود على هذا بمعنى: أن يتحول الشيء إلى ما فارق عنه، وإن لم يكن ذلك التحول مسبوقاً بالحصول له قبل. والحمل هنا على هذا المعنى لا يحوج إلى تكلف توجيه بخلاف الأول. وكلمة ﴿على﴾ تؤيد المعنى الثاني.

قال بعضهم: سمى ذلك المال فيئاً تشبيهاً له بالفيء، الذي هو الظل، تنبيهاً على أن أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظل زائل. قال المطرزي في «المُغْرِب»: الفرق بين الغنيمة، والفيء، والنفل: أن الغنيمة: ما نيل من أهل الشرك عنوة والحرب قائمة، وحكمها: أن تخمس، وسائرها بعد الخمس للغانمين خاصة. والفيء: ما نيل منهم بعدما تضع الحرب أوزارها، وتصير الدار دار إسلام، ومنه الجزية، ومال أهل الصلح والخراج من أموالهم. وحكمه: أن يكون لكافة المسلمين، ولا يخمس. والنَّفَلُ ـ بالتحريك ـ: ما ينفلُه الغازي؛ أي: يعطاه زائداً على سهمه؛ لكثرة نكايته في الأعداء، وكأن يقول الإمام أو الأمير: من قتل قتيلاً.. فله سلبه، أو قال للسرية: ما أصبتم.. فلكم ربعه أو نصفه، ولا يخمس. وعلى الإمام الوفاء به.

﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير ﴿فَمَآ﴾ نافية ﴿أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أجريتم على تحصيله وتغنمه من الوجيف، وهو سرعة السير. ﴿مِنْ خَيْلٍ﴾: ﴿مِنْ﴾زائدة بعد النفي للتأكيد؛ أي: خيلاً. وهو جماعة الأفراس، لا واحد له من لفظه، كما سيأتي. ﴿وَلَا رِكَابٍ﴾؛ أي: ولا ركاباً؛ أي: جملاً. والركاب هو: ما يركب من الإبل خاصة، كما أن الراكب عندهم راكبها لا غير. وأما راكب الفرس فإنهم يسمونه فارساً، ولا واحد لها من لفظها، وإنما الواحد منها: راحلة.

والمعنى: أي وما أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير[1]، فما قطعتم لها شقة بعيدة، ولا لقيتم مشقة شديدة، ولا قتالاً شديداً، وذلك أنه كانت قرى بني النضير على ميلين من المدينة، وهي ساعة واحدة بحساب الساعات النجومية، فذهبوا إليها مشياً، وما كان فيهم راكب إلا النبي ـ ﷺ ـ، وكان يركب حماراً مخطوماً بليف أو جملاً، فافتتحها صلحاً من غير أن يجري بينهم مسايفة. كأنه قال:

---

(١) روح البيان.

وما أفاء الله على رسوله منهم، فما حصلتموه بكد اليمين وعرق الجبين.

والمعنى[1]: أي ما صيره الله إلى رسوله من أموال بني النضير.. فهو لله ورسوله، ولا يجعل غنيمة للجيش يقسم تقسيم الغنائم؛ لأنه لم تقاتل فيه الأعداء بالمبارزة والمصاولة، بل نزلوا على حكم الرسول فرقاً ورعباً، ولهذا: يصرف في وجوه البرّ والمنافع العامة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآيات.

أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، وغيرهم عن عمر بن الخطاب قال: (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه؛ أي: ولكن جرت سنة الله تعالى بأن ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من أعدائه، ويقذف الرعب في قلوبهم، فيستسلمون لهم بلا قتال، ولا مصاولة، كما سلط محمداً - ﷺ - على هؤلاء، فنزلوا على حكمه دون اقتحام مضايق الخطوب ولا مقاومة شدائد الحروب، فلا حق للمقاتلة في الفيء، بل يكون أمره مفوضاً إلى الرسول، يصرفه كيف شاء ولا يقسمه تقسيم الغنائم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء، تارة على ما يعهد من السنن، وأخرى على غير ما يعهد منها، كما جرى لبني النضير من استسلامهم بلا قتال، على مناعة حصونهم وكثرة عددهم وعُددهم من سلاح وكراع، وما كان المسلمون يظنون أن هذا سيكون.

وبعد أن أتمّ الكلام في إجلاء بني النضير وفيئهم أعقبه بالكلام في حكم ما أفاء الله على رسوله من قرى الكفار عامة، فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ورده ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ - ﷺ - ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: من أموال الكفار أهل القرى. قال ابن عباس: هي قريظة، والنضير، وفدك، وخيبر وقرى عرينة، وينبع. وهذا بيان لمصارف الفيء بعد بيان إفاءته على رسول الله - ﷺ - من غير أن يكون للمقاتلة فيه حق، ولذا لم يعطف عليه، كأنه لما قيل: ما أفاء على رسوله من أموال بني النضير

(١) المراغي.

شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة، فلا يقسم قسمة الغنائم. قيل: فكيف يقسم؟ فقيل: ما أفاء الله.. إلخ. قال في «برهان القرآن»: قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ﴾، وبعده ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ بغير واو؛ لأن الأول معطوف على قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، والثاني استئناف لبيان مصارف مطلق الفيء، وليس له به تعلق. وقول من قال: بدل من الأولى، مزيف عند أكثر المفسرين، انتهى. وإعادة عين العبارة الأولى لزيادة التقرير والتأكيد. ووضع أهل القرى موضع قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير؛ للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم، بل هو حكم عام على كل قرية يفتحها رسول الله ـ ﷺ ـ صلحاً، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب.

والمعنى: ما رده الله سبحانه على رسوله من كفار أهل القرى، كقريظة، والنضير، وفدك، وخيبر، يصرف في وجوه البرّ والخير، ولا يقسم تقسيم الغنائم؛ أي: لا تعطى أربعة أخماسه للمقاتلة؛ لأن القتال ليس موجوداً في الفيء، بل يخمس الفيء كالغنائم أيضاً، ولكن يصرف أربعة أخماسه في مصالح المسلمين، من سد الثغور، وحفر الأنهار، وبناء القناطر، والمدارس والمساجد، يقدم الأهم فالأهم. وأما الخمس الباقي: فيخمس أيضاً، فتصرف أخماسه في المصارف المذكورة بقوله: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ أي: يصرف خمس الخمس لله وللرسول يأمران فيه بما أحبّا. وذكر الله للتشريف والتعظيم والتبرك. والمراد: يصرف هذا الخمس لرسول الله ـ ﷺ ـ ينفق منه أهل بيته قوت سنة، وما بقي في مصالح المسلمين من السلاح والكراع.

وقال الواحدي في تفسيره «الوجيز على القرآن العزيز»: وكان الفيء يخمس خمسة أخماس، فكانت أربعة أخماسه لرسول الله ـ ﷺ ـ يفعل فيها ما يشاء، والخمس الباقي يقسم بين المذكورين في هذه الآية. فأما اليوم فما كان للنبي ـ ﷺ ـ من الفيء يصرف إلى أهل الثغور والمترصدين للقتال في أحد قولي الشافعي، انتهى.

والمراد: أن للرسول من الفيء خمس، والأربعة الأخماس، يعني: أن لهؤلاء الأصناف المذكورة هنا أربعة أخماس الخمس والباقي للرسول ـ ﷺ ـ في حياته، وهو أربعة أخماس الفيء وخمس الخمس، وبعده ـ ﷺ ـ أربعة أخماس الفيء للمرتزقة، وخمس الخمس لمصالحنا. ا هـ. «شيخنا» انتهى من «الفتوحات».

﴿و﴾ يصرف الخمس الثاني ﴿لذي القربى﴾؛ أي: لذوي قربى رسول الله ـ ﷺ ـ من مؤمني بني هاشم وبني المطلب، الفقراء منهم، قيل: ولو كانوا أغنياء؛ لأنهم قد منعوا من الزكاة فجعل لهم حقاً في الفيء. وقال في «شرح الآثار» عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: أن الصدقات كلها جائزة على بني هاشم وبني المطلب، والحرمة عليهم كانت في عهد النبي ـ ﷺ ـ لوصول خمس الخمس إليهم، فلما سقط ذلك بموته ـ ﷺ ـ. حلت لهم الصدقات. قال الطحاوي: وبالجواز نأخذ، كذا في «شرح الوقاية» لابن الملك. ﴿و﴾ يصرف الخمس الثالث لـ﴿اليتامى﴾؛ أي: يتامى المسلمين؛ أي: أطفال المسلمين الذين هلكت آباؤهم وهم فقراء. جمع يتيم، وهو: صغير لا أب له، وإن كان له جد أو أمّ. ﴿و﴾ يصرف الخمس الرابع لـ﴿المساكين﴾؛ أي: مساكين المسلمين ذوي الحاجة. ﴿و﴾ يصرف الخمس الخامس لـ﴿ابن السبيل﴾؛ أي: للمسافر المنقطع عن ماله ووطنه، ولا يمكن له أن يصل إليه لبعد الشقّة، وانقطاع طرق المواصلات وقد كان ذلك حين كانت طرق الوصول شاقة لكنها الآن سهلة، وهي على أساليب شتى، فيمكن المرء أن يطلب ما شاء بحوالة على أي مصرف في أي بلد على سطح الكرة الأرضية. ومن ثم فهذا النوع لا يوجد الآن.

ثم علل هذا التقسيم بقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ﴾ الفيء، ﴿دُولَةً﴾: علة لمحذوف، تقديره: أي[1] جعل الله سبحانه الفيء قسمة لمن ذكر من الأصناف؛ لأجل أن لا يكون الفيء شيئاً متداولاً ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾؛ أي: شيئاً مخصوصاً بهم يكاثرون به أموالهم، لا يخرجونه إلى المستحقين، ولا يصرفونه للفقراء والمساكين يعيشون بها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ﴾ بالياء التحتية. ﴿دُولَةً﴾ ـ بضم الدال ونصب التاء ـ؛ أي: كي لا يكون الفيء دولة. وقال الخطيب: وترسم ﴿كي﴾ هنا مفصولة من ﴿لا﴾ انتهى. وقرأ عبد الله، وأبو جعفر، وهشام، والأعرج، وأبو حيوة ﴿تكون﴾ بالتاء الفوقية، و﴿دَولة﴾ بفتح الدال ورفع التاء. قال عيسى بن عمر، ويونس، والأصمعي، ﴿دولة﴾ بضمها وفتحها، لغتان بمعنى واحد. وقال أبو عمرو بن العلاء: الدولة ـ بالفتح ـ: الذي يتداول من الأموال، وبالضم: الفعل.

---

(١) المراح (كذا في الأصل). (٢) البحر المحيط والشوكاني.

وكذا قال أبو عبيدة. وقال الكسائي، وحذاق البصرة: الدَّولة ـ بالفتح ـ في المُلك ـ بضم الميم ـ؛ لأنها الفِعْلة في الدهر، وبالضم في المِلك بكسرِ الميمِ. والضمير في ﴿تكون﴾ بالتأنيث مع نصب ﴿دولةً﴾ على معنى ﴿مَّا﴾ إذ المراد به: الأموال، والمغانم. وذلك الضمير اسم ﴿تكون﴾. وكذلك من قرأ بالياء أعاد الضمير على لفظ: ﴿مَّا﴾ أي: يكون الفيء، وانتصب ﴿دُولَةً﴾ على الخبر. ومن رفع ﴿دولةٌ﴾ فتكون تامة، و﴿دولةٌ﴾ فاعل، و﴿كَىۡ لَا يَكُونَ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾. أي: فالفيء وحكمه لله وللرسول، يقسمه على ما أمره الله تعالى؛ كي لا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى للفقراء بلغة يعيشون بها متداولاً بين الأغنياء يتكاثرون به. أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم، كما كان رؤساؤهم يستأثرون بالغنائم، ويقولون: من عزّ بزّ.

والمعنى: كي لا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية، قاله أبو حيان. وعبارة «الخازن»: وذلك أن الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة، أخذ الرئيس ربعها لنفسه وهو المرباع، ثم يصطفي بعد المرباع منها ما شاء، فجعله الله سبحانه لرسوله ـ ﷺ ـ يقسمه على ما أمره الله به. اهـ.

والمعنى[1]: أي وإنما حكمنا بذلك وجعلناه مقسماً بين هؤلاء المذكورين لئلا يأخذه الأغنياء ويتداولوه فيما بينهم ويتكاثرون به، كما كان ذلك دأبهم في الجاهلية، ولا يصيب الفقراء من ذلك شيء.

ثم لما بيّن لهم سبحانه مصارف هذا المال.. أمرهم بالاقتداء برسوله ـ ﷺ ـ، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾؛ أي: وما أعطاكم ـ أيها المؤمنون ـ الرسولُ من أموال الفيء وغيره ﴿فَخُذُوهُ﴾ منه، فهو لكم حلال ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾؛ أي: عن أخذه ﴿فَٱنتَهُواْ﴾ عنه؛ أي: فابتعدوا عنه، ولا تطلبوه، ولا تقربوه، فإن الرسول لا ينطق عن الهوى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾.

وقال ابن جريج[2]: ما آتاكم من طاعتي.. فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي.. فاجتنبوه.

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

والحق: أن هذه الآية في كل شيء يأتي به رسول الله ـ ﷺ ـ من أمر أو نهي أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً، كما سيأتي، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وكل شيء أتانا به من الشرع.. فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها.

أخرج الشيخان، وأبو داوود، والترمذي في جماعة، عن ابن مسعود قال: (لعن الله تعالى الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيّرات لخلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، كانت تقرأ القرآن، فقالت: بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ـ ﷺ ـ وهو في كتاب الله عزّ وجل، فقالت: لقد قرأت ما بين لوْحي المصحف فما وجدته، قال: إن كنت قرأته.. فقد وجدته، أما قرأت قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟. قالت: بلى، قال: فإنه ـ ﷺ ـ قد نهى عنه).

وعن أبي رافع: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدته في كتاب الله اتبعناه».

وروي في سبب نزول هذه الآية[1]: أن قوماً من الأنصار تكلموا في هذه القرى المفتتحة، وقالوا: لنا منها سهمنا. فنزل ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ...﴾ الآية. وهذا عام يدخل فيه قسمة ما أفاء الله والغنائم وغيرها، حتى أنه قد استدل بهذا العموم على تحريم الخمر، وحكم الواشمة والمستوشمة، وتحريم المخيط للمحرم.

ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول وترك ما نهاهم عنه.. أمرهم بتقواه وخوفهم شدة عقوبته، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، وخالف أمره، وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه. ورسوله ترجمان عما يريده لخير عباده

---

(١) البحر المحيط.

وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾قيل[1]: هو بدل من قوله: ﴿لذي القربى﴾ وما عطف عليه؛ أي: وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى للفقراء المهاجرين. ولا يصح أن يكون بدلاً من ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ لئلا يلزم وصف الله تعالى والرسول بالفقر.

والمعنى عليه: أنه أراد بهؤلاء الأربعة السالفين: فقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وترك أموالهم، طلباً لمرضاة الله، ونيلاً لثوابه، ونصرة لله ورسوله، وإعلاء لشأن دينه.

وقيل: تقدير الكلام: كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، ولكن يكون للفقراء المهاجرين.

وقيل[2]: متعلق بمحذوف، تقديره: تعجبوا من حال الفقراء المهاجرين، ويكون خطاباً لكل من يصلح منه التعجب والتأمل في حال المهاجرين، حيث تركوا أوطانهم، وأموالهم، وتحملوا الضيق والتغرب في حب النبي - ﷺ - والإسلام. وفي هذا نوع تخويف ونوع توبيخ للكفار والمنافقين القاطنين بأوطانهم مع الأمن والسعة، ولم يؤمنوا، فليتهم اعتبروا بالمهاجرين.

ومعنى ﴿الْمُهَاجِرِينَ﴾؛ أي: الذين هاجروا وارتحلوا من أوطانهم إلى رسول الله - ﷺ - رغبة في الدّين ونصرة له. ومعنى ﴿أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾؛ أي: أخرجهم كفار مكة منها، واضطروهم إلى الخروج وكانوا مئة رجل. وقال قتادة: هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار والأموال والأهلين حال كونهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ﴾ تعالى في الدنيا ﴿وَرِضْوَانًا﴾ منه في الآخرة؛ أي[3]: حال كونهم طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا ومرضاة في الآخرة. وصفوا أولاً بما يدل على استحقاقهم للفيء من الإخراج من الديار، وقد أعاد ذلك ثانياً بما يوجب تفخيم شأنهم، ويؤكده، فهو حال من واو ﴿أُخْرِجُوا﴾. وفي ذكر حالهم ترقٍّ من العالي إلى الأعلى، فإن رضوان الله أكبر من عطاء الدنيا.

﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ عطف على ﴿يَبْتَغُونَ﴾، فهي حال مقدرة؛ أي: ناوين

---

(١) الشوكاني. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

نصرة الله بإعلاء دينه، ونصرة رسوله ببذل وجودهم في طاعته أو مقارنة، فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة نصرة، وأي نصرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المهاجرون الموصوفون بما ذكر من الصفات الحميدة، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الصدق الراسخون فيه، حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهوراً بيناً كأنّ الصدق مقصور عليهم لكمال آثاره.

أي: هؤلاء[1] هم الصادقون في إيمانهم؛ إذ قد فعلوا ما يدل على الإخلاص فيه والرغبة الصادقة من نيل المغفرة والكرامة عند ربهم، فهم قد أخرجوا من ديارهم وهي العزيزة على النفوس المحببة إلى القلوب.

بِــلَادِيْ وَإِنْ جَــارَتْ عَــلَــيَّ عَــزِيــزَةٌ وَأَهْــلِــي وَإِنْ ضَــنُّــوْا عَــلَــيَّ كِــرَامُ

وتركوا الأموال، والمال شقيق الروح، وكثيراً ما يقتل المرء في سبيل الذود عنه وانتزاعه من أيدي غاصبيه، وما فعلوا ذلك إلا لإعلاء منار الدِّين ورفعة شأنه، وذيوع ذكره. فحق لهم من ربهم النعيم المقيم وجزيل الثواب، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال وعظيم الخلال.

روي: أن رجلاً منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ منهم الحفيرة في الشتاء، ماله دثار غيرها.! وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بشروا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، يدخلون الجنة قبل الناس بنصف يوم، وذلك خمس مئة سنة». أخرجه أبو داود.

ثم مدح سبحانه الأنصار، وأثنى عليهم حين طابت نفوسهم على الفيء، إذ جعل للمهاجرين دونهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾؛ أي: لزموا دار الهجرة، وهي المدينة، ﴿وَ﴾ أخلصوا ﴿الإيمان﴾ لله تعالى، مبتدأ خبره سيأتي. وهو كلام مستأنف مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة، من جملتها: محبتهم للمهاجرين، ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسن رضا وأكمله. ويجوز نصبه على المدح.

---

(١) المراغي.

وجملة ﴿يُحِبُّونَ﴾ في محل النصب على الحال.

والأنصار[1]: بنو الأوس والخزرج، ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نيت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. قال في «القاموس»: قحطان بن عامر بن شالخ أبو حيّ انتهى. وهو أصل العرب العرباء. ومن الأنصار: غسان، كشداد، ماء قرب الجحفة نزل عليه قوم من ولد الأزد، فشربوا منه، فنسبوا إليه. يقال: تبوأ المكان، إذا اتخذه منزلاً واستقر فيه. والدار هي المدينة، وتسمي قديماً: يثرب، وحديثاً: طيبة وطابة.

ومعنى تبوئهم الدار والإيمان: أنهم اتخذوا المدينة والإيمان مباءة، وتمكنوا فيهما أشد تمكن، على تنزيل الحال منزلة المكان. وقيل: ضُمِّنَ التبوؤ معنى اللزوم. وقيل: تبؤوا الدار وأخلصوا الإيمان، أو قبلوه، أو آثروه، كقول من قال:

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً

أي: وسقيتها ماء بارداً فاختصر الكلام، وقيل: غير ذلك.

يقول الفقير: لعل أصل الكلام: والذين تبؤوا دار الإيمان. فإن المدينة يقال لها: دار الإيمان لكونها مظهره ومأوى أصله، كما يقال لها: دار الهجرة. وإنما عدل إلى ما ذكر من صورة العطف تنصيصاً على إيمانهم، إذ مجرد التبوُّء لا يكفي في المدح.

﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل هجرة المهاجرين، فلا بدّ من تقدير مضاف، لأن الأنصار لم يؤمنوا قبل إيمان المهاجرين، بل منهم من آمن قبل الهجرة ومنهم من آمن بعدها. قال في «الإرشاد»: يجوز أن يجعل اتخاذ الإيمان مباءة، ولزومه وإخلاصه عبارة عن إقامة كافة حقوقه، التي من جملتها إظهار عامة شعائره، وأحكامه، ولا ريب في تقدم الأنصار في ذلك على المهاجرين؛ لظهور عجزهم عن إظهار بعضها، لا عن إخلاصه قلباً واعتقاداً؛ إذ لا يتصور تقدمهم عليهم في ذلك.

وجملة قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ خبر[2] عن الموصول؛ أي: يحبونهم

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

من حيث مهاجرتهم إليهم لمحبتهم الإيمان، ولأن الله وحبيبه أحباؤهم، وحبيب الحبيب حبيب. ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾؛ أي: ولا يجد الأنصار ﴿فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾؛ أي: وجداً وحسداً وغيظاً وحزازة ﴿مِّمَّآ أُوتُوا﴾؛ أي: مما أوتي المهاجرون دونهم، من الفيء وغيره بل طابت أنفسهم بذلك. وفي الكلام مضاف محذوف؛ أي: لا يجدون في صدورهم مس حاجة أو أثر حاجة، وكل ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إليه.. فهو حاجة. وكان المهاجرون في دور الأنصار، فلما غنم النبي - ﷺ - بني النضير.. دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين، من إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم، ثم قال: إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علي من بني النضير بينكم وبين المهاجرين، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم والمشاركة لكم في أموالكم. وإن أحببتم أعطيتهم ذلك وخرجوا من دياركم. فرضوا بقسمة ذلك في المهاجرين، وطابت أنفسهم.

﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾؛ أي: يقدمون المهاجرين، فالمفعول محذوف. والإيثار[1]: تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة. يقال: آثرته بكذا؛ أي: خصصته به. أي: ويقدم الأنصار المهاجرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في كل شيء من أسباب المعاش، جوداً وكرماً، حتى إن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما، ويزوجها واحداً منهم. والإيثار أيضاً: عطاؤك ما أنت تحتاج إليه. وفي الخبر: «لم يجتمع في الدنيا قوم إلا وفيهم أسخياء وبخلاء إلا في الأنصار، فإن كلهم أسخياء، ما فيهم من بخيل». ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ أي: حاجة وخلة وفقر. مأخوذة من خصاص البيت، وهي: الفرج التي تكون فيه. شبه حالة الفقر والحاجة ببيت ذي فرج في الاشتمال على مواضع الحاجة. والخص: بيت من قصب وشجر. وجملة قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ في محل نصب على الحال.

وعن أنس رضي الله عنه: أنه قال: (أهدي لرجل من الأنصار رأس شاة، وكان مجهوداً، فوجه به إلى جار له زاعماً أنه أحوج إليه منه، فوجه جاره أيضاً إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداول ذلك الرأس سبعة بيوت إلى أن رجع إلى المجهود الأول).

---

(١) الشوكاني.

قال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لي ومعي شيء من الماء وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك، فأشار برأسه أن نعم، فإذا برجل يقول: آه آه، فأشار إلي ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك، فأشار أن نعم، فسمع آخر يقول: آه آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئت إليه، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات». وهذا من قبيل الإيثار بالنفس، وهو فوق الإيثار بالمال.

وقال في «التكملة»: والصحيح: أن الآية نزلت في أبي طلحة الأنصاري - رضي الله عنه - حين نزل برسول الله - ﷺ - ضيف، ولم يكن عنده ما يضيفه به، فقال: ألا رجلاً يضيف هذا رحمه الله، فقام أبو طلحة فانطلق به إلى رحله وقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله - ﷺ -، فنوّمت الصبية وأطفأت السراج، وجعل الضيف يأكل، وهما يُريان أنهما يأكلان معه ولا يفعلان، فنزلت الآية. وكانت قناعة السلف أوفر ونفوسهم أقنع وبركتهم أكثر، ونحن نؤثر أنفسنا على الغير، فإذا وضعت مائدة بين أيدينا.. يريد كل منا أن يأكل قبل الآخر، ويأخذ أكثر مما يأخذ الرفيق، ولذلك لم توجد بركة الطعام، وينفد سريعاً.

والمعنى: أي والذين سكنوا المدينة وأشربت قلوبهم حب الإيمان من قبل هجرة أولئك المهاجرين، لهم صفات كريمة وشيم جليلة تدل على كرم النفوس ونبل الطباع. فهم:

١ - يحبون المهاجرين ويتمنون لهم من الخير ما يتمنون لأنفسهم.

٢ - لا يطمحون إلى شيء مما أعطيه أولئك المهاجرون من الفيء وغيره.

٣ - يقدمون ذوي الحاجة على أنفسهم، ويبدؤون بسواهم قبلهم، حتى إن من كان عنده امرأتان ينزل عن إحداهما، ويزوجها واحداً من المهاجرين.

ثم بيّن سوء عاقبة الشح، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره. والشُّح - بالضم والكسر -: بخل مع حرص، فيكون جامعاً بين ذميمتين من صفات النفس. وإضافته إلى النفس لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذي هو البخل. وقيل: الشح أشد من البخل. قال مقاتل: شح نفسه،

حرص نفسه. وقال سعيد بن جبير: شح النفس: أخذ الحرام، ومنع الزكاة. وقال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، ولم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه.. فقد وقي شح نفسه. وقال طاووس: البخل: أن يبخل الإنسان بما في يده، والشح: أن يشح بما في أيدي الناس. وقال ابن عيينة: الشح: الظلم. وقال الليث: ترك الفرائض وانتهاك المحارم.

والظاهر من الآية: أن الفلاح مترتب على عدم شح النفس بشيء من الأشياء التي يقبح الشح بها شرعاً، من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك، كما تفيده إضافة الشح إلى النفس؛ أي: ومن يحفظ بتوفيق الله شحها وبخلها حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ إلى ﴿مَن﴾ باعتبار معناها وهومبتدأ وخبره ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: فأولئك المحفوظون من الشح هم الفائزون بكل مطلوب،الناجون من كل مكروه. والفلاح اسم لسعادة الدارين. والجملة[1] اعتراض وارد لمدح الأنصار، والثناء عليهم. فإن الفتوة هي الأوصاف المذكورة في حقهم، فلهم جلائل الصفات ودقائق الأحوال؛ ولذا قال ـ ﷺ ـ: «آية الإيمان: حب الأنصار، وآية النفاق: بغض الأنصار». وقال ـ ﷺ ـ: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُوقَ﴾ بسكون الواو وتخفيف القاف، من الوقاية. وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو حيوة بفتح الواو وتشديد القاف. وقرأ الجمهور ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ بضم الشين. وقرأ ابن عمر، وابن أبي عبلة بكسرها.

والمعنى[3]: أي ومن يحفظوا أنفسهم من الحرص على المال والبخل به.. فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه.

أخرج الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه، عن أنس مرفوعاً: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان نار جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الإيمان والشح في قلب عبد أبداً».

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

وأخرج أحمد والبخاري في «الأدب» ومسلم والبيهقي، عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح قد أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

وروى الأموي عن ابن مسعود: (أن رجلاً أتاه، قال: إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ وأنا رجل شحيح، لا أكاد أخرج من يدي شيئاً، فقال ابن مسعود: ليس ذاك الذي ذكر الله تعالى، وإنما الشح: أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبئس الشيء البخل). ففرق بين الشح والبخل.

وليس المراد من تقوى الشح الجودُ بكل ما يملك؛ فقد روى أنس بن مالك: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بريء من الشح من أدى الزكاة، وقَرَى الضيف، وأعطى في النائبة».

ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين والأنصار.. ذكر ما ينبغي أن يقوله من جاء بعدهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد هجرة المهاجرين الأولين، ومن بعد قوة إيمان الأنصار، وهم: التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة. وقيل: هم الذين هاجروا بعدما قوي الإسلام. والظاهر: شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم في عصر النبوة، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة؛ لأنه يصدق على الكل أنهم جاؤوا بعد المهاجرين الأولين والأنصار. والموصول[1] مبتدأ، وخبره ﴿يَقُولُونَ﴾، والجملة مسوقة لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين، ومراعاتهم لحقوق الأخوة في الدين والسبق بالإيمان ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ﴾ فيكون ﴿يَقُولُونَ﴾ في محل النصب على الحال، أو مستأنف. والمراد بالأخوة هنا: أخوة الدين، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار.

---

(١) روح البيان.

أي: والذين جاؤوا من بعدهم يدعون لهم قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا ﴿وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾؛ أي: في الدِّين، الذي هو أعزّ وأشرف عندهم من النسب. ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم. قدموا أنفسهم في طلب المغفرة لما في المشهور من أن العبد لا بد أن يكون مغفوراً له حتى يستجاب دعاؤه لغيره. وفيه حكم بعدم قَبول دعاء العاصين قبل أن يُغْفَرَ لهم، وليس كذلك كما دلت عليه الأخبار. فلعل الوجه: أن تقديم النفس كونها أقرب النفوس إليه مع أن في الاستغفار إقراراً بالذنب، فالأحسن للعبد أن يرى أولاً ذنب نفسه، كذا في بعض التفاسير.

يقول الفقير: نفس المرء أقرب إليه من نفس غيره، فكل جلب أو دفع فهو إنما يطلبه أولاً لنفسه لإعطاء حق الأقدم، وأما غيره.. فهو بعده ومتأخر عنه. وأيضاً: إن ذنب نفسه مقطوع بالنسبة إليه، وأما ذنب غيره.. فمحتمل، فلعل الله قد غفر له وهو لا يدري. وأيضاً: تقديمهم في مثل هذا المقام لا يخلو عن سوء أدب وسوء ظن في حق السلف.

ويقال: إنما بدؤوا بأنفسهم؛ لقوله ـ ﷺ ـ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول». ويدعون لأنفسهم قائلين: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾؛ أي: حقداً وبغضاً وحسداً. وقرىء: ﴿غمراً﴾. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله على الإطلاق، صحابة أو غيرهم. وفيه إشارة إلى أن الحقد على غيرهم جائز لغيرة الدِّين، وإن لم يكن الحسد جائزاً. أمرهم الله سبحانه[1]. بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل في ذلك الصحابة دخولاً أوليّا؛ لكونهم أشرف المؤمنين، ولكون السياق فيهم، فمن لم يتسغفر للصحابة على العموم، ويطلب رضوان الله لهم.. فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلاً لهم.. فقد أصابه نزغ من الشيطان، وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه، وخير أمة نبيه ـ ﷺ ـ، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجأ إلى الله سبحانه، والاستغاثة به، والتوبة منه، والعياذ من ذلك كله بالله تعالى.

---

(١) الشوكاني.

والحقد والحسد هما رأس كل خطيئة، وينبوع كل معصية، فهما يوجبان سفك الدماء، والبغي، والظلم، والسرقة، وسائر أنواع الفجور.

ونحو الآية قوله تعالى في سورة براءة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: ربنا إنك عظيم الرأفة بعبادك، كثير الرحمة لهم، فحقيق بأن تجيب دعاءنا، فأجب دعاءنا يا إلٰهنا ويا مالك أمرنا. وفي الآية[1] حث على الدعاء للصحابة وصفاء القلوب من بغض أحد منهم، ودليل على أن الترحم والاستغفار واجب على المؤمنين الآخرين للسابقين منهم، لا سيما لآبائهم ولمعلمهم أمور الدّين. قالت عائشة رضي الله عنها: «أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم». وفي الحديث: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رجلاً وهو يتناول بعض المهاجرين، فقرأ عليه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ثم قال: هؤلاء المهاجرون، أفمنهم أنت؟ قال: لا. ثم قرأ عليه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء الأنصار، فأنت منهم؟ قال: لا. ثم قرأ عليه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ...﴾ الآية، ثم قال: أفمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو، قال: ليس من هؤلاء من سب هؤلاء.

وفي تكرير: ﴿رَبَّنَا﴾ إظهار لكمال الضراعة. وفي الأثر: «من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا.. أنجاه الله مما يخاف».

الإعراب

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾.

﴿سَبَّحَ﴾: فعل ماض، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، وقيل: ﴿اللام﴾: زائدة، ﴿مَا﴾ فاعل، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿الْحَكِيمُ﴾:

---

(١) روح البيان.

خبر ثان، والجملة في محل النصب حال من الجلالة، أو مستأنفة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿أَخۡرَجَ﴾، ﴿لِأَوَّلِ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتوقيت، بمعنى: عند متعلق بـ﴿أَخۡرَجَ﴾ أيضاً، ﴿أول الحشر﴾: مجرور ومضاف إليه ﴿مَا﴾ نافية، ﴿ظَنَنتُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يَخۡرُجُواْۖ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ وجملة ﴿أَن﴾المصدرية مع مدخولها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن، أي: ما ظننتم خروجهم. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ظنوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مَا ظَنَنتُمۡ﴾، ﴿أَنَّهُم﴾: ناصب واسمه، ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾: خبر مقدم، ﴿حُصُونُهُم﴾: مبتدأ مؤخر. ويجوز أن يكون ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾ خبر ﴿أَنَّهُم﴾، ﴿حُصُونُهُم﴾: فاعل مانعتهم؛ لاعتماده على المخبر عنه. وجملة ﴿أَن﴾من اسمها وخبرها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن؛ أي: وظنوا منع حصونهم من الله تعالى. و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿مَّانِعَتُهُمۡ﴾.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أتاهم الله﴾: فعل ومفعول، وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ظنوا﴾، ﴿مِنۡ حَيۡثُ﴾: متعلق بـ﴿أتاهم﴾، وجملة ﴿لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيۡثُ﴾. ﴿وَقَذَفَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾، ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾: متعلق بـ﴿قذف﴾، ﴿ٱلرُّعۡبَۚ﴾: مفعول قذف ﴿يُخۡرِبُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿قُلُوبِهِمُ﴾؛ لأن المضاف كان جزءاً من المضاف إليه، أو مستأنفة لبيان الرعب. ﴿بُيُوتَهُم﴾: مفعول به، ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿يُخۡرِبُونَ﴾، ﴿وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: معطوف على ﴿أيديهم﴾. ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما فعل الله بهم وعقلتموه وأردتم بيان ما هو اللازم لكم. . فأقول لكم: اعتبروا يا أولي الأبصار، ﴿اعتبروا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿يَٰٓأُوْلِي﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أولي﴾: منادى مضاف

منصوب، وعلامة نصبه الياء المحذوفة لفظاً للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنه اسم جمع ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿أولي﴾: مضاف ﴿ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: مضاف إليه، وجملة النداء جواب الطلب، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿كَتَبَ﴾. ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿كَتَبَ﴾ في محل الرفع خبر لـ﴿أَن﴾ المخففة وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره محذوف، تقديره: ولولا كتاب الله الجلاء عليهم موجود ﴿لَعَذَّبَهُمْ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿عذَّبهم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ: عذب، والجملة الفعلية جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة. ﴿وَلَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لهم﴾: خبر مقدم، ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: حال من ﴿عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾، و﴿عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية مستأنفة. ولا يجوز عطفها على ﴿عذَّبَهُمْ في الدنيا﴾؛ لأن ذلك يقتضي أن ينجوا من عذاب الآخرة أيضاً؛ لأن ﴿لولا﴾ تقتضي انتفاء الجزاء بحصول الشرط. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، ﴿أنهم﴾: ناصب واسمه، ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، والتقدير: ذلك كائن بسبب مشاقتهم الله ورسوله. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع، مبتدأ، والخبر جملة فعل الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُشَآقِّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿من﴾ الشرطية، ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبره. وجملة ﴿إنّ﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ على كونها

مستأنفة، ويجوز أن تجعل الفاء تعليلية للجواب المحذوف، تقديره: ومن يشاق الله يعاقب؛ لأن الله شديد العقاب.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

﴿مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب، مفعول مقدم لـ﴿قَطَعْتُم﴾، ﴿قَطَعْتُم﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿مَا﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾: حال من ﴿مَا﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتقسيم ﴿تَرَكْتُمُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿قَطَعْتُم﴾، ﴿قَآئِمَةً﴾: مفعول ثان لترك، أو حال من ضمير المفعول، ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾: متعلق بـ﴿قَآئِمَةً﴾، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَا﴾الشرطية، ﴿بإذن الله﴾: متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فقطعها أو تركها كائن بإذن الله وإرادته. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَا﴾الشرطية على كونها جواب الشرط لها، وجملة ﴿مَا﴾الشرطية مستأنفة، ﴿وَلِيُخْزِىَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على علة محذوفة متعلقة بمعلول محذوف، تقديره: أذن الله في قطعها ليسر المؤمنين، ويعزّهم وليخزي الفاسقين. و﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يخزي﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: أذن في قطعها لإعزاز المؤمنين وإخزاء الفاسقين، والجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور المقدر قبله على كونه تعليلاً لمحذوف.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع، مبتدأ ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وما أفاءه الله. ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أفاء﴾، ﴿مِنْهُمْ﴾ حال من العائد المحذوف؛ أي: ما أفاءه الله على رسوله حال كونه من أموالهم، فهو على تقدير مضاف، أو متعلق بـ﴿أَفَآءَ﴾ ﴿فَمَآ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لشبه المبتدأ

بالشرط، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾، ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿خَيْلٍ﴾: مفعول به، ﴿وَلَا رِكَابٍ﴾: معطوف على ﴿خَيْلٍ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكنه خبر سببيّ، والتقدير: والذي أفاءه الله على رسوله منهم فغير مجيفين أنتم عليه خيلاً ولا ركاباً. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أو مستأنفة، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكنّ﴾، وجملة ﴿لكنّ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ﴾. ﴿عَلَىٰ مَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُسَلِّطُ﴾. وجملة ﴿يَشَاءُ﴾ صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الابتدائية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَفَاءَ اللَّهُ﴾: صلة لـ﴿مَّا﴾، والعائد محذوف؛ أي: ما أفاءه الله. ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾: متعلق بـ﴿أَفَاءَ﴾، ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾: حال من ﴿مَّا﴾ أو من العائد المحذوف، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: حال كونه من أموال أهل القرى، ﴿فَلِلَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ، لشبه المبتدأ بالشرط، ﴿لله﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ؛ أي: فكائن لله. والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لبيان مصارف الفيء. ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾: معطوفان على ﴿لله﴾، ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ﴾: معطوفات على ﴿ذي القربى﴾.

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿كَيْ﴾: حرف جر وتعليل بمعنى اللام، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد كي التعليلية، واسمها ضمير يعود على الفيء. ﴿دُولَةً﴾: خبر ﴿يَكُونَ﴾، ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿دُولَةً﴾، ﴿مِنكُمْ﴾: حال من الأغنياء، وجملة ﴿يَكُونَ﴾: صلة أن المضمرة، (أن) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿مَّا﴾ التعليلية؛ أي: لعدم كونه دولة بين الأغنياء. والجار

والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر في قوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: اسم موصول منصوب المحل على الاشتغال بفعل محذوف يفسره المذكور بعده، تقديره: خذوا ما آتاكم الرسول. ﴿ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، لأن ﴿آتى﴾ بمعنى أعطى، يتعدى إلى مفعولين؛ أي: وخذوا ما آتاكم الرسول إياه. والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. ويجوز رفع ﴿ما﴾ على الابتداء، وجملة ﴿فَخُذُوهُ﴾ خبره. ﴿فَخُذُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لما في الموصول من شبه اسم الشرط، ﴿خذوه﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، أو في محل الرفع خبر لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾: معطوفة على ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾. فهو نظيره في الإعراب. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿اتقوا الله﴾ فعل أمر، وفاعل ومفعول به. والجملة مستأنفة، أو معطوفة على قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾: جار ومجرور، بدل من قوله: ﴿لذي القربى﴾ على مذهب أبي حنيفة، ومقتضاه اشتراط الفقر في استحقاق ذي القربى. ومن جنح إلى مذهب الشافعي علقه بمحذوف تقديره: اعجبوا للفقراء، ومقتضاه عدم اشتراط الفقر، وأنّ الاستحقاق يكون بالقرابة، فيأخذ ذو القربى الفقير لقرابته، كما مر. وعلى هذا نهج السيوطي، وغيره. والمعنى: اعجبوا لهؤلاء المهاجرين حيث تركوا أوطانهم وأموالهم. ﴿ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾: نعت للفقراء، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نعت ثان للفقراء، ﴿أُخْرِجُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول، ﴿مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أُخْرِجُوا۟﴾، ﴿وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾: معطوف على ﴿دِيَـٰرِهِمْ﴾، ﴿يَبْتَغُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿فَضْلًا﴾: مفعول به، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أو بمحذوف نعت لـ﴿فَضْلًا﴾، ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾: معطوف على ﴿فَضْلًا﴾، والجملة الفعلية حال من مرفوع ﴿أُخْرِجُوا۟﴾؛ أي: حال كونهم طالبين فضلاً ورضواناً. ﴿وَيَنصُرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَبْتَغُونَ﴾، ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾: معطوف عليه ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير

فصل، أو مبتدأ ثان، ﴿ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾: خبر لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أو خبر لـ﴿هُمُ﴾، والجملة خبر ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، وجملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الذين﴾: مبتدأ، ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول به صلة الموصول، أو منصوب على المدح؛ أي: أمدح الذين تبؤوا الدار، أو في محل الجر معطوف على الفقراء، ﴿وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾: مفعول به لفعل محذوف، تقديره: وأخلصوا الإيمان، على حد قوله:

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبْـنـاً ومَـاءً بـارِداً

أي: سقيتها ماء بارداً، ويكون من عطف الجمل؛ لأن الإيمان لا يتخذ منزلاً، فاختصر الكلام. وقيل: هو على حذف مضاف؛ أي: والذين تبؤوا دار الهجرة ودار الإيمان. فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان وأقيم المضاف إليه مقامه، أو منصوب بـ﴿تَبَوَّءُو﴾ على تضمينه معنى لزموا، كأنه قال: لزموا الدار ولزموا الإيمان. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: حال من فاعل ﴿تَبَوَّءُو﴾.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿يُحِبُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿تَبَوَّءُو﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿هَاجَرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به. والجملة صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوفة على ﴿يُحِبُّونَ﴾، ﴿وَلَا﴾: نافية، ﴿فِى صُدُورِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَجِدُونَ﴾، ﴿حَاجَةً﴾: مفعول به، ﴿مِّمَّآ﴾: نعت لحاجة، وجملة ﴿أُوتُوا۟﴾ صلة لـ﴿ما﴾، والعائد محذوف؛ أي: مما أوتوه. ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُحِبُّونَ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يؤثرون﴾، ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لو﴾: حرف شرط مجرد عن معنى الشرط لا جواب لها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿بِهِمْ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها، ﴿خَصَاصَةٌ﴾: اسمها مؤخر.

وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يؤثرون﴾؛ أي: يؤثرون المهاجرين على أنفسهم حالة كون الخصاصة بهم. ويصحّ أن تكون ﴿الواو﴾ عاطفة على شرط محذوف، و﴿لو﴾: حرف شرط على بابها، والتقدير: ويؤثرون على أنفسهم إن لم تكن بهم خصاصة، ولو كانت بهم خصاصة يؤثرونهم على أنفسهم. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُوقَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾: مفعول ثان، ومضاف إليه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿جَآءُو﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿جَآءُو﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: خبر الذين، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء للتخفيف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿ٱغْفِرْ﴾: فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباريء سبحانه، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، ﴿لَنَا﴾: متعلق بـ﴿ٱغْفِرْ﴾، ﴿وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾: معطوف على ﴿لَنَا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿إخواننا﴾، وجملة ﴿سَبَقُونَا﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ متعلق بـ﴿سَبَقُونَا﴾ ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: دعائية، سلوكاً مسلك الأدب مع الباريء سبحانه، ﴿تَجْعَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الدعائية، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱغْفِرْ﴾، ﴿فِى قُلُوبِنَا﴾: متعلق بـ﴿تَجْعَلْ﴾. وهو في موضع المفعول الثاني لـ﴿تَجْعَلْ﴾، ﴿غِلًّا﴾: مفعوله الأول، ﴿لِّلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿غِلًّا﴾، لأنه مصدر بمعنى: بغضاً. وقيل: نعت لـ﴿غِلًّا﴾. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول.

﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾، وكرره للتأكيد، ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب، واسمه، ﴿رَءُوفٌ﴾: خبره، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها تعليلية للدعاء المذكور قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والتسبيح: تبعيد الله عن السوء، وتنزيهه عما لا يليق بشأن ألوهيته، قولاً وفعلاً وقلباً كما مر. ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هم بنو النضير، بزنة: أمير، قبيلة عظيمة من اليهود كبني قريظة. ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ والحشر: إخراج جمع من مكان إلى آخر، أي: في أول حشرهم؛ أي: جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام. وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام. ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾: جمع دار، وهو: المكان الذي حوط ودور به للنزول فيه وإن لم يكن مسقفاً بخلاف البيت، وهو اسم لمبنى مسقف مدخله من جانب واحد للبيتوتة فيه، كما مرّ في مبحث التفسير بيان الفرق بينهما ﴿حُصُونُهُم﴾: جمع حصن، وهو القصر الشاهق والقلعة المشيدة. وفي «الروح»: الحصون: جمع حصن - بكسر فسكون - وهو كل موضع حصين لا يوصل إلى جوفه، والقلعة: الحصن الممتنع على الجبل. فالأول أعم من الثاني. ويقال: تحصن، إذا اتخذ الحصن مسكناً، ثم تجوز به فقيل: درع حصينة؛ لكونها حصناً للبدن، وفرس حصان؛ لكونه حصناً لراكبه. ﴿مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من بأسه وعقابه. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: جاءهم عذابه وبأسه. ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾؛ أي: من حيث لم يخطر لهم ببال؛ أي: من الجهة التي لم تخطر ببالهم، فالجهة هي المؤمنون، كانوا لا يخطر ببالهم أن الذل يأتيهم من جهة المؤمنين الضعفاء بالنسبة إليهم في ذلك الوقت. ا هـ. «شيخنا».

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾؛ أي: أنزله فيها إنزالاً شديداً، كأنه قد قذف الحجارة فيها. ا هـ. «خطيب». وقَذْفُ الشيء: رميه بقوة. والمراد هنا: إثباته وركزه في قلوبهم، كما في «الكشاف»، ومنه قالوا في صفة الأسد: مقذف، لما أن قذف باللحم قذفاً، لاكتنازه وتداخل أجزائه. والرعب: الخوف الذي يملأ الصدور،

فيغيّر العقل، ويعجز النفس، ويشوش الرأي.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ بالتشديد من التخريب، وبالتخفيف من الإخراب. والإخراب والتخريب بمعنى واحد يقال: خرب المكان خراباً، وهو ضد العمارة. وقد أخربه وخربه؛ أي: أفسده بالنقض والهدم غير أن في التشديد مبالغة من حيث التكثير، لكثرة البيوت، وهو قراءة أبي عمرو. وفرق أبو عمرو بين الإخراب والتخريب، فقال: خرب ـ بالتشديد ـ بمعنى هدم ونقض وأفسد، وأخرب ـ بالهمزة ـ ترك الموضع. وقال ـ أي: أبو عمرو ـ: وإنما اخترت التشديد لأن الإخراب ترك الشيء خراباً بغير ساكن.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ أي: فاتعظوا بحالهم، ولا تغتروا، ولا تعتمدوا على غير الله. ا هـ. «بيضاوي». والاعتبار: مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء. ولهذا سميت العبرة عبرة؛ لأنها تنتقل من العين إلى الخد، وسمي علم التعبير؛ لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول، وسميت الألفاظ عبارات؛ لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع. ويقال: السعيد من اعتبر بغيره؛ لأنه ينقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه، ومن لم يعتبر بغيره.. اعتبر به غيره. ولهذا قال القشيري: الاعتبار هو: النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها؛ ليعرف بالنظر فيها شيء آخر. ا هـ. «خطيب». ﴿الْأَبْصَارُ﴾: جمع بصر، يقال للجارحة: الناظرة، وللقوة التي فيها، ويقال للقلب المدركة: بصيرة وبصر، ولا يكاد يقال للجارحة: بصيرة، كما في المفردات.

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الجلاء: الخروج من الوطن والجولان في الأرض. يقال: أجليت القوم عن منازلهم؛ أي: أخرجتهم منها، وجلوا منها خرجوا. وقد فرقوا بين الإجلاء والإخراج من وجهين:

١ ـ أن الأول لا يكون إلا لجماعة، والثاني يكون لواحد ولجماعة.

٢ ـ أو أن الأول ما كان مع الأهل والولد، والثاني يكون مع بقائهما. وفي «المختار»: الجلاء ـ بالفتح والمد ـ: الأمر الجلي، تقول منه: جلا الخبر، يجلو جلاء، إذا وضح. والجلاء أيضاً: الخروج من البلد والإخراج أيضاً. وقد جلوا عن

أوطانهم، وجلاهم غيرهم. يتعدى، ويلزم. ا هـ. وفي «المصباح»: والفاعل من الثلاثي جال، مثل قاض، والجماعة جالية، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أجلاهم عمر ـ رضي الله عنه ـ من جزيرة العرب: جالية. ثم نقلت الجالية إلى الجزية التي أخذت منهم، ثم استعملت في كل جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه فيقال: استعمل فلان على الجالية؛ أي: على أخذها من أهلها. والجمع: جوالي. ا هـ.

قلت: ومن هذه المادة سمّت الجُبُوش الأرْميا بالجالّا، إخفاء لحسبهم ونسبهم ووطنهم، فالجالا: هم الذين أخرجوا من وطنهم وأسكنوا في وطن الغير بالجزية. ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من المشاقة، وهو كون الإنسان في شق ومخالفه في شق آخر. ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ واللينة فعلة، نحو: حنطة، من اللون، على أن أصلها لونة، فياؤها مقلوبة عن واو لكسر ما قبلها، نحو: ديمة، قيمة. وتجمع على: ألوان، وهي ضروب النخل كلها. وقيل: من اللين، وتجمع على لين وأليان، وهي النخلة الكريمة الشجرة، لكونها قريبة من الأرض، والطيبة الثمرة. قال الراغب في «المفردات»: اللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخُلق ولغيره من المعاني، فيقال: فلان لين وفلان خشن، وكل واحد منهما يمدح به طوراً، ويذم به طوراً، بحسب اختلاف المواضع والمقام. ا هـ. وفي «الفتوحات»: واللينة في معناها خلاف كثير، فقيل: هي النخلة مطلقاً، وقيل: هي النخلة ما لم تكن عجوة ولا برنية، وقيل: هي النخلة الكريمة، وقيل: هي العجوة، وقيل: هي أغصان الشجر للينها. وفي عين ﴿لِّينَةٍ﴾ قولان:

أحدهما: أنها واو؛ لأنها من اللّون، وإنما قلبت ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، كديمة وقيمة.

والثاني: أنها ياء؛ لأنها من اللين، وجمع اللينة لين؛ لأنه من باب اسم الجنس، كتمر وتمرة. وقد تكسر على ليان، وهو شاذ؛ لأن تكسير ما يفرق فيه بتاء التأنيث شاذ، كرطبة ورطب وأرطاب. ا هـ. «سمين».

﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾: جمع: أصل، وهو ما يتشعب منه الفرع. ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: وليذلهم. يقال: خزي الرجل لحقه انكسار، إما من نفسه؛ وهو: الحياء المفرط ومصدره الخزاية، وإما من غيره وهو ضرب من الاستخفاف، ومصدره الخزي. ا هـ. «روح».

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال المبرد: يقال: فاء يفيء إذا رجع، وأفاءه الله إليه؛ أي: رده وصيره إليه. والفيء لغة: الرجوع، وشرعاً: ما أخذ من أموال الكفار من غير قتال، ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير. ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ﴾ يقال: وجف الفرس والبعير يجف وجفاً وجيفاً إذا أسرع، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع. وفي «القاموس»: الوجيف: ضرب من سير الخيل والإبل. والخيل: جماعة الأفراس، لا واحد له، أو واحده خائل؛ لأنه يختال، والجمع: أخيال، وخيول، كما في «القاموس». وقال الراغب: الخيلاء: التكبر، من تخيل فضيلة تتراءى للإنسان من نفسه. ومنها: تتأول لفظة الخيل لما قيل: إنه لا يركب أحد فرساً إلا وجد في نفسه نخوة. وللخيل نوعان: عتيق وهجين:

فالعتيق: ما أبواه عربيان؛ سمي بذلك لعتقه من العيوب وسلامته من الطعن فيه بالأمور المنقصة، وسميت الكعبة بالبيت العتيق لسلامتها من عيب الرق؛ لأنه لم يملكها ملك قط.

والهجين: الذي أبوه عربي وأمه عجمية. والفرق: أن عظم البرذونة أعظم من عظم الفرس، وعظم الفرس أصلب وأثقل، والبرذونة أحمل من الفرس، والفرس أسرع منه، والعتيق بمنزلة الغزال، والبرذونة بمنزلة الشاة.

﴿وَلَا رِكَابٖ﴾ والركاب: ما يركب من الإبل خاصة، واحدتها راحلة، ولا واحد لها من لفظها. والعرب لا تطلق لفظ الراكب، إلا على راكب البعير، ويسمون راكب الفرس فارساً. قال في «المفردات»: الركوب في الأصل: كون الإنسان على ظهر حيوان، وقد يستعمل في السفينة والراكب اختص في التعارف بممتطي البعير، جمعه: ركب وركبان وركوب، واختص الركاب بالمركوب، انتهى.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ﴾؛ أي: على أعدائه من غير قتال، ولا مصاولة، بل بإلقاء الرعب في القلوب، فيكون الفيء للرسول يصرفه في مصارفه التي ستعلمها

بعد. ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: من أهل البلدان التي تفتح هكذا بلا قتال. ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: لبني هاشم وبني المطلب، والقربى: مصدر سماعي، لقرب قرباً وقربىٰ؛ أي: قرابة. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم. واليتم: انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، وفي سائر الحيوانات من قبيل أمه.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: جمع مسكين، ويفتح ميمه، وهو من لا شيء له، أو له ما لا يكفيه. سمي بذلك؛ لأن الفقر أسكنه؛ أي: قلل حركته، وهو من السكون، فنونه أصلية لا نون جمع، ولذلك تجري عليه حركات الإعراب الثلاثة. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: المسافر البعيد عن ماله، وسمي به لملازمته له، كما تقول لِلُصِّ القاطع: ابن الطريق، وللمعمر: ابن الليالي، ولطير الماء: ابن الماء، وللغراب: ابن دأبة، بإضافة الابن إلى دأبة البعير؛ لكثرة وقوعه عليها إذا دبرت، والدأبة: الجنب.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ بضم الدال وقرىء بفتحها، وهي: ما يدول للإنسان؛ أي: يدور، من الغنى، والجد والغلبة. قال المبرد: الدولة ـ بالضم ـ: الشيء الذي يتداوله القوم بينهم، يكون كذا مرة وكذا أخرى. والدولة ـ بالفتح ـ: انتقال حال سارة من قوم إلى قوم؛ أي: فالأول: اسم لما يتداول من المال والثانية: اسم لما ينتقل من الحال.

﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ والتبوؤ: النزول في المكان، ومنه: المباءة للمنزل. وأصل البواء: مساواة الأجزاء في المكان، خلاف النبو الذي هو منافاة الأجزاء يقال: مكان بواء إذا لم يكن نابياً بنازله، وبوأت له مكاناً: سويت. والمراد بالدار: المدينة. والمراد بالحاجة: الحسد والغيظ. ﴿أُوتُوا۟﴾؛ أي: أعطي المهاجرون دون الأنصار. ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾؛ أي: يقدمون ويفضلون. ﴿خَصَاصَةٌ﴾ والخصاصة: الحاجة، من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج، وكذا كل خرق في منخل أو باب أو سحاب أو برقع. ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ والشح: اللؤم، وهو: أن تكون النفس كزة حريصة على المنع. قال شاعرهم:

يُمَارِسُ نَفْساً بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَزَّةً ... إِذَا هَمَّ بِالْمَعْرُوْفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلاً

قال الراغب: البخل: المنع والشح: الحال النفسية التي تقتضي ذلك. وقيل: الشح: الحرص على المال. والفرق بينه وبين البخل: أن الشح غريزة، والبخل

المنع نفسه، فهو أعم؛ لأنه قد يوجد البخل ولا شح له، ولا ينعكس. وفي الصحاح: والشح: البخل مع حرص.

﴿وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾ جمع أخ. وفي «المصباح»: الأخ لامه محذوفة، وهي واو، وترد في التثنية على الأشهر، فيقال: أخوان. وفي لغة يستعمل منقوصاً، فيقال: أخان. وجمعه: إخوة وإخوان، بكسر الهمزة فيهما، وضمها لغة. وقيل: جمعه بالواو والنون، وعلى آخاء بوزن آباء أقل. والأنثى: أخت وجمعها: أخوات، وهو جمع مؤنث سالم. ا هـ.

﴿غِلًّا﴾؛ أي: حقداً، وهو حرارة وغليان يوجب الانتقام. ا هـ. «خطيب». وفي «المصباح»: الحقد: الانطواء على العدواة والبغضاء، وحقد عليه: من باب ضرب. وفي لغة: من باب تعب، والجمع: أحقاد. وقال الراغب: الغل والغلول تدرع الخيانة والعداوة؛ لأن الغلالة اسم ما يلبس بين الشعار والدثار، وتستعار للدرع كما تستعار الدرع لها.

ملحقات بالآيات من بعض أحكام الصرف نسيناها أولاً

﴿مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾: الياء فيه منقلبة عن الواو؛ لأن مفرده: دار، أصله دور، قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ بدليل تصغيره على دويرة، ثم حمل الجمع على المفرد في الإعلال، فأعل الواو بقلبه ياء لما وقع بعد كسرة وقبل ألف. ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾: فيه إعلال بالإبدال أصله: الجلاو، أبدلت الواو همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: الياء فيه مبدلة من (واو) إن قلنا: إنه من الدنو بمعنى القرب لقرب زوالها أو أصلية إن قلنا إنه من الدنيء؛ لدناءتها وخستها عند الله تعالى. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أصله: شاققوا، سكنت القاف الأولى وأدغمت في الثانية، وكذلك القول في: ﴿يُشَآقِّ﴾ أصله: يشاقق.

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾: ﴿قَآئِمَةً﴾: فيه إعلال بالإبدال، وأصله: قاومة، أبدلت الواو همزة حملاً للوصف في الإعلال على فعله قام، حيث أعل بقلب الواو ألفاً أصل قام قوم. ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أصله: أفيأ، بوزن أفعل، نقلت حركة الياء إلى الفاء، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ فيه إعلالان، لأن أصله: أأتيكم، أبدلت الهمزة

الساكنة ألفاً حرف مد مجانساً لحركة الأولى، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.
﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾أصله: نهيكم، بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.
﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ أصله: فانتهيوا، أمر من انتهى الخماسي، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت.. حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الهاء لمناسبة الواو.
﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أصله: يبتغيون، بوزن يفتعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت للتخفيف، فلما سكنت.. التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الغين لمناسبة الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: طباق السلب في قوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾. إن قلنا: إن ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبر مقدم، و﴿حُصُونُهُم﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿أَنَّهُم﴾. فإن تقديم المسند على المسند إليه يفيد قصر المسند إليه على المسند، فإن معنى قولك: (قائم زيد) أن زيداً مقصور على القيام لا يتجاوزه إلى القعود، وكذا معنى الآية أن حصونهم ليس لها صفة غير المانعية.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وبين ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾؛ لأن القذف حقيقة في الرمي البعيد، فاستعير لإلقاء الرعب وإثباته في قلوبهم.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن إسناد تخريب المؤمنين إليهم لما أنهم تسببوا في ذلك، فكأنهم كلفوهم إياه وأمروهم به.

ومنها: الطباق بين القطع والترك في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا

﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ لأن فيه حذف المعطوف عليه؛ فإن أصل الكلام: ليعز المؤمنين وليخزي الفاسقين.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾. وهو إعادة عين العبارة الأولى لزيادة التقرير.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾. فإن المراد: قرى بني النضير، ومقتضى السياق أن يقال: منهم، ولكنه أظهر للإشعار بشمول ما لعقاراتهم.

ومنها: الفصل في هذه الآية، أعني قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾. والفصل عند علماء المعاني: ترك عطف جملة على أخرى. وضده الوصل، وهو: عطف بعض الجمل على بعض. وهذا الباب أغمض أبواب علم المعاني، حتى قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل والوصل. قال:

الْفَصْلُ تَرْكُ عَطْفِ جُمْلَةٍ أَتَتْ مِنْ بَعْدِ أُخْرَى عَكْسَ وَصْلٍ قَدْ ثَبَتْ

ولكل منهما مواضع نلخصها فيما يلي:

مواضع الفصل: يجب الفصل في خمسة مواضع:

١ ـ أن يكون بين الجملتين اتحاد تام، بأن تكون الثانية بدلاً من الأولى؛ كالآية التي نحن بصددها، أو بياناً لها، نحو: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾، أو مؤكدة لها، نحو: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾. ويقال في هذا الموضع: إن بين الجملتين كمال الاتصال.

٢ ـ أن يكون بين الجملتين تباين تام؛ بأن تختلفا خبراً، وإنشاء، كقوله:

لاَ تَسْأَلِ ٱلْمَرْءَ عَنْ خَلاَئِقِهِ فِيْ وَجْهِهِ شَاهِدٌ يُغْنِي عَنِ ٱلْخَبَرِ

٣ ـ كون الجملة الثانية جواباً عن سؤال نشأ من الجملة الأولى، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

٤ ـ أن تسبق جملة بجملتين يصح عطفها على إحداهما لوجود المناسبة، وفي عطفها على الأخرى فساد، فيترك العطف دفعاً للوهم، كقوله:

وَتَـظُـنُّ سَـلْـمَـىٰ أَنَّـنِـي أَبْـغِـيْ بِـهَـا بَـدَلاً أَرَاهَـا فِـيْ الـضَّـلاَلِ تَـهِـيْـمُ

٥ ـ أن لا يقصد تشريك الجملتين في الحكم لقيام مانع، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ فجملة ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ لا يصح عطفها على ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ لاقتضائه أنه من مقولهم، ولا على جملة ﴿قَالُوٓاْ﴾ لاقتضائه أن استهزاء الله بهم مقيد بحال خلوهم إلى شياطينهم.

وللوصل مواضع كثيرة أيضاً مذكورة في كتب المعاني، ليس هذا الكتاب موضعها، فراجعها إن أردت الخوض فيها.

ومنها: الترقي في ذكر حال المهاجرين من العالي إلى الأعلى في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، فإن رضوان الله أكبر من عطاء الدنيا.

ومنها: الإتيان بضمير الفصل في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ لإفادة الحصر، فكأن الصدق مقصور عليهم لكمال آثار صدقهم.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾. شبه الإيمان المتمكن في نفوسهم بمنزل ومستقر للإنسان نزل فيه وتمكن منه حتى صار منزلاً له، وهو من لطيف الاستعارة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما ذكر ما حدث لبني النضير من الاستسلام خوفاً ورهبةً لما قذفه في قلوبهم من الرعب، ثم ذكر مصارف الفيء التي تقدمت.. أردفه بذكر ما حصل من مناصحة المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول، ورفقته لأولئك اليهود، وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم، ومحاربتهم رسول الله ـ ﷺ ـ، بما قصه الله علينا وفصله أتم تفصيل ليكون في ذلك عبرة لنا. وإنا لنشاهد كل يوم أن

---

(١) المراغي.

الناس يضل بعضهم بعضاً ويغوونهم ثم يتركونهم في حيرة من أمرهم، لا يجدون لهم مخلصاً مما وقعوا فيه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر المضلين من المنافقين، وبين أن ما يقولون غير ما يبطنون، وأن مثلهم كمثل الشيطان في الإغواء والإضلال، ثم أعقبه بذكر الضالين من بني النضير، وكيف خدعوا بتلك الوعود الخلابة التي كانت عليهم وبالاً ونكالاً، وكان فيها سوء حالهم في دنياهم ودِينهم.. شرع ينصح المؤمنين بلزوم التقوى، وأن يعملوا في دنياهم ما ينفعهم في أخراهم حتى ينالوا الثواب العظيم والنعيم المقيم، وأن لا ينسوا حقوق الله فيجعل الله الران على قلوبهم، فلا يقدموا لأنفسهم ما به رشادهم وفلاحهم.

وقوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فرق المضلين من المنافقين والضالين من اليهود وغيرهم، وأمر عباده المؤمنين بالتقوى استعداداً ليوم القيامة.. ذكر هنا أن لهم مرشداً عظيماً، وإماماً هادياً؛ هو القرآن الذي يجب أن تخشع لهيبته القلوب، وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة؛ لما فيه من وعد ووعيد، وبشارة وإنذار، وحكم وأحكام، فلو أنا ألهمنا الجبل عقلاً وفهمه وتدبر ما فيه.. لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف بكم أيها البشر لا تلين قلوبكم، ولا تخشع، ولا تتصدع من خشيته؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟. وبعد أن وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمة المنزل للقرآن ذي الأسماء الحسنى الذي يخضع له ما في السماوات والأرض، وينقادون لحكمه وأمره ونهيه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو نعيم عن ابن عباس، أنه قال: نزلت هذه الآيات في رهط من بني عوف، منهم: عبد الله بن أبي ابن سلول. ووديعة بن مالك وسويد وداعس، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لا نسلمكم، وإن قوتلتم.. قاتلنا معكم، وإن أخرجتم.. خرجنا معكم، فتربصوا ذلك

من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ـ ﷺ ـ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة، ففعل، فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعير فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.

التفسير وأوجه القراءة

ولما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاثة من المؤمنين.. ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة الكاذبة والأحوال الفاسدة؛ لتعجيب المؤمنين من حالهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والخطاب لرسول الله ـ ﷺ ـ، أو لكل من يصلح له؛ أي: ألم تنظر يا محمد، أو أيها المخاطب ـ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾؛ أي: إلى أقوالهم الكاذبة، ومواعيدهم العاطلة، وأحوالهم الفاسدة، وهم: عبد الله بن أبيّ وأصحابه. وجملة قوله: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مستأنفة لبيان المتعجب منه. والتعبير[1] بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية أو للدلالة على الاستمرار. والمراد بإخوانهم: بنو النضير، وبأخوَّتهم: إما توافقهم في الكفر، فإن الكفر ملة واحدة وإن اختلفت أنواعه. و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ هي لام التبليغ وفي قوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ موطئة للقسم. وهي اللام الداخلة على حرف الشرط بعد تمام القسم ظاهراً، أو مقدراً ليؤذن أن الجواب له لا للشرط، وقد تدخل على غير الشرط.

والمعنى: يقولون لهم: والله لئن أخرجتم.. أيها الإخوان.. من داركم وقراركم قسراً بإخراج محمد وأصحابه إياكم منها ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ ألبتة، ونذهبن في صحبتكم أينما ذهبتم لتمام المحبة بيننا وبينكم. وهو جواب القسم، وكررت اللام للتأكيد، وجواب الشرط مضمر. ولما كان جواب القسم وجواب الشرط متماثلين.. اقتصر على جواب القسم، وأضمر جواب الشرط، وجعل المذكور جواباً للقسم بسعة. وكذا قوله: ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾، وقوله: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ كل واحد منهما جواب القسم؛ ولذلك رفعت الأفعال ولم تجزم، وحذف جواب الشرط

(١) روح البيان.

لدلالة جواب القسم عليه. ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾؛ أي: في شأنكم. وهو[1] معطوف على جملة ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾، وكذا قوله: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾. فمقولهم ثلاث جمل. ﴿أَحَدًا﴾ يمنعنا من الخروج معكم من محمد وأصحابه ﴿أَبَدًا﴾ وإن طال الزمان. وهو ظرف للنفي لا للمنفي، ونصبه على الظرفية، وهو[2] لاستغراق المستقبل، كما أن الأزل لاستغراق الماضي. ولاستعمالهما في طول الزمانين جداً قد يضافان إلى جمعهما، فيقال: أبد الآباد وأزل الآزال، وأما السرمد: فلاستغراق الماضي والمستقبل، يعني: لاستمرار الوجود لا إلى نهاية في جانبهما.

ثم لما وعدوهم بالخروج معهم.. وعدوهم بالنصرة لهم، فقالوا: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾؛ أي: قاتلكم محمد وأصحابه، حذفت منه اللام الموطئة. ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾؛ أي: لنعاوننكم على عدوكم، ولا نخذلكم. ثم كذبهم سبحانه، فقال: ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مواعيدهم المؤكدة بالأيمان الفاجرة، من الخروج معهم والنصرة لهم.

ثم لما أجمل كذبهم فيما وعدوا به.. فصّل ما كذبوا فيه، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ قهراً وإذلالاً ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ وهذا مع ما بعده تكذيب لهم في كل وا-ند من أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم في الكل على الإجمال بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك، فإن ابن أبيّ وأصحابه أرسلوا إلى بني النضير، وذلك سراً ثم أخلفوهم، يعني: أن ابن أبيّ أرسل إليهم: لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصنكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان. فطمع بنو النضير فيما قاله اللعين، وهو جالس في بيته، حتى قال أحد سادات بني النضير - وهو سلاّم بن مشكم - لحيي بن أخطب الذي كان هو المتولي لأمر بني النضير: والله يا حيي! إن قول ابن أبيّ لباطل وليس بشيء، وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمداً، فيجلس في بيته ويتركك. فقال حيي: نأبى إلا عدواة محمد، وإلا قتاله. فقال سلام: فهو والله جلاؤنا من أرضنا، وذهاب أموالنا وشرفنا، وسبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا. فكان ما كان كما سبق في

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

أول السورة.

وفيه حجة بيّنة لصحة النبوة وإعجاز القرآن، أما الأول: فلأنه أخبر عما سيقع فوقع كما أخبر؛ وذلك لأنّ نزول الآية مقدم على الواقعة. وعليه يدل النظم، فإن كلمة ﴿إن﴾ للاستقبال. وأما الثاني: فمن حيث الإخبار عن الغيب.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على سبيل الفرض والتقدير؛ أي: لو قدر وجود نصرهم إياهم؛ لأن ما نفاه الله تعالى لا يجوز وجوده. قال الزجاج: معناه: لو قصدوا نصر اليهود ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾ المنافقون ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾؛ أي: الأقفاء منهزمين فارين. جمع دبر، ودبر الشيء خلاف القُبل؛ أي: الخلف. وتولية الأدبار كناية عن الانهزام الملزوم لتولية الأدبار. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: المنافقون بعد ذلك؛ أي: يهلكهم الله تعالى، ولا ينفعهم نفاقهم؛ لظهور كفرهم بنصرهم اليهود، أو لينهزمن اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين.

وفي الآية تنبيه على أن من عصى الله ورسوله وخالف الأمر.. فهو مقهور في الدنيا والآخرة وإن كان سلطاناً ذا منعة، وما يقع أحياناً من الفرصة فاستدراج، وغايته إلى الخذلان.

والحاصل[1]: أن المراد من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟...﴾ إلخ.. تعجيب المخاطب من حال المحدث عنه، وأن أمره غاية في الغرابة، وموضع للدهشة والحيرة.

فهؤلاء قوم من منافقي المدينة لهم أقوال تخالف ما يبطنون، منهم: عبد الله بن أبيّ وشيعته، رأوا رسول الله ـ ﷺ ـ يحاصر بني النضير ويقاتلهم، فأرسلوا إليهم يقولون لهم: إنا قادمون لمساعدتكم بخيلنا ورجلنا، ولا نسلمكم لمحمد أبداً، فجدوا في قتالهم ولا تهنوا في الدفاع عن دياركم وأموالكم، حتى إذا اشتد الحصار وأوغل المسلمون في ديارهم، وجدّوا في تحريق نخيلهم وهدم بيوتهم.. رأى بنو النضير أن تلك الوعود ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾. وأنهم بين أمرين:

---

(١) المراغي.

١ ـ الاستسلام، وقبول حكم محمد عليهم.

٢ ـ فناؤهم، وتخريب ديارهم.

وقد أدخل الله الرعب في قلوبهم فاختاروا الدنية، وقبلوا الجلاء عن الديار، واستبان لهم أن المنافقين كانوا كاذبين لا عهود لهم، ولا وعود، كما هو دأبهم في كل زمان ومكان.

وبعد أن كذبهم على سبيل الإجمال.. كذبهم تفصيلاً ليزيد تعجيب المخاطب من حالهم، وليبين لهم مبلغ خبث طويتهم. وشدة جبنهم وفزعهم من القتال، وأن هذه الوعود أقوال كاذبة لاكتها ألسنتهم، وقلوبهم منها براء، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ...﴾ إلخ.

أي: والله! لئن أخرج بنو النضير من ديارهم فأجلوا عنها.. لا يخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم بالخروج معهم من ديارهم ولئن قاتلهم محمد ـ ﷺ ـ.. لا ينصرونهم، ولئن نصروهم.. ليولن الأدبار منهزمين عن محمد وأصحابه، هاربين منهم خاذلين لهم، ثم لا ينصر الله بني النضير.

وهذا إخبار بالغيب، ودليل من دلائل النبوة، ووجه من وجوه الإعجاز؛ فإنه قد كان الأمر كما أخبر الله قبل وقوعه.

والخلاصة: أن بني النضير أخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون، وقوتلوا فما نصروهم. ولو كانوا قد نصروهم.. لتركوا النصرة،وانهزموا، وتركوا أولئك اليهود في أيدي الأعداء.

ثم ذكر السبب في عدم نصرتهم لليهود والدخول مع المؤمنين في قتال فقال: ﴿لَأَنتُمْ﴾ يا معشر المسلمين ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾؛ أي: مرهوبية ﴿فِي صُدُورِهِم﴾؛ أي: في قلوب المنافقين، أو في صدور اليهود، أو صدور الجميع ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: من رهبة الله، بمعنى: مرهوبيته. والرهبة: مخافة مع تحزّن واضطراب وهي هنا مصدر من المبنيّ للمفعول، وهو رهب؛ أي: أشد مرهوبية. وذلك لأن ﴿أنتم﴾ خطاب للمسلمين، والخوف ليس واقعاً منهم بل من المنافقين، فالمخاطبون مرهوبون غير خائفين. وهذه الجملة في المعنى كالتعليل لقوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ كأنه قال: إنهم لا يقدرون على مقاتلتكم، لأنكم أشد رهبة... إلخ.

قال في «الكشاف»: قوله: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ دال على نفاقهم؛ يعني: أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله، وأنتم أهيب في صدورهم من الله.

فإن قلت: كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد.

قلت: معناه: أن رهبتهم في السرّ منكم أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم، وكانوا يظهرون رهبة شديدة من الله.

يقول الفقير: إنما رهبوا من المؤمنين لظهور نور الله فيهم، فكما أن الظلمة تنفر من النور ولا تقاومه، فكذا أهل الظلمة ينفر من أهل النور ولا يقوم معه. ومرادنا بالظلمة: ظلمة الشرك، والكفر، والرياء والنفاق. وبالنور: نور التوحيد، والإيمان، والإخلاص، والتقوى. ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، حيث إن الله تعالى أثبت معيته لأهل التقوى، فنصرهم على مخالفيهم.

ثم ذكر سبب الرهبة منهم من دون الله، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشد من رهبة الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً من الأشياء حتى يعلموا عظمة الله تعالى، فيخشوه حق خشيته، ولو كان لهم فقه.. لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم، فهو أحق بالرهبة منه دونكم.

وفي «فتح الرحمٰن»: ختمه هنا بـ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ وفيما بعد بـ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأن الأول متصل بقوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لأنهم يفقهون ظاهر الشيء بدون باطنه، والفقه: معرفة الظاهر والباطن، فناسب نفي الفقه عنهم. والثاني متصل بقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ...﴾ إلخ؛ أي: لو عقلوا.. لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا، فناسب نفي العقل عنهم، انتهى.

وفيه تنبيه على أن من علامات الفقه[1]: أن يكون خوف العبد من الله أشد من خوفه من الغير، وتقبيح لحال أكثر الناس على ما ترى وتشاهد. وعنه ـ ﷺ ـ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

قال بعضهم: لا ينقص الكمل من الرجال خوفهم من سبع أو ظالم أو نحو ذلك؛ لأن الجزع في النشأة الإنسانية أصلي، فالنفوس أبداً مجبولة على الخوف،

---

(١) روح البيان.

ولذة الوجود بعد العدم لا يعدلها لذة، وتوهم العدم العيني له ألم شديد في النفوس، لا يعرف قدره إلا العلماء.

ثم أكد جبن اليهود والمنافقين وشديد خوفهم منهم، فقال: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾؛ أي: لا يقاتلكم أيها المسلمون اليهود والمنافقون، بمعنى: لا يقدرون على قتالكم، ولا يجترئون عليه. ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين متفقين في موطن من المواطن ﴿إِلَّا فِى قُرًى﴾: جمع قرية، وهي مجتمع الناس للتوطن ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾؛ أي: محكمة بالدروب والخنادق، وما أشبه ذلك؛ كالسور. قال الراغب؛ أي: مجعولة بالإحكام، كالحصون. والدروب: جمع درب، وهو الباب الكبير. ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾؛ أي: من خلف حيطان، دون أن يحضروا لكم ويبارزوكم؛ أي: يشافهوكم بالمحاربة لفرط رهبتهم. جمع جدار، وهو كالحائط، إلا أن الحائط يقال اعتباراً بالإحاطة بالمكان، والجدار يقال اعتباراً بالنتوّ والارتفاع؛ ولذا قيل: جدر الشجر، إذا خرج ورقه، كأنه حمص، وجدر الصبي، إذا خرج جدريه، تشبيهاً بجدر الشجر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿جُدُرٍۭ﴾ بضمتين، جمع جدار. وأبو رجاء والحسن وابن وثاب بإسكان الدال تخفيفاً. ورويت عن ابن كثير وعاصم والأعمش. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير وكثير من المكيين ﴿جدار﴾ بالألف وكسر الجيم. وقرأ كثير من المكيين وهارون عن ابن كثير ﴿جَدْرٍ﴾ بفتح الجيم وسكون الدال. وقال ابن عطية: ومعناه: أصل بنيان، كالسور ونحوه.

والمعنى[2]: أي إن هؤلاء اليهود والمنافقين قد ألقى الله الرعب في قلوبهم، فلا يواجهونكم بقتال مجتمعين؛ لأن الخوف والهلع بلغا منهم كل مبلغ، بل يقاتلونكم في قرى محصنة بالدروب والخنادق ونحوها، ومن وراء الجدر والحيطان وهم محاصرون.

ثم بين أن من أسباب هذا الجبن والخوف: التخاذل وعدم الاتحاد حين اشتداد الخطوب، فقال: ﴿بَأْسُهُم﴾؛ أي: قتالهم فيما ﴿بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ﴾ إذا قاتلوا قومهم؛ أي: بعضهم غليظ فظّ على بعض وقلوبهم مختلفة ونياتهم متباينة. قال السدي: المراد: اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وقال مجاهد: بأسهم بينهم شديد بالكلام والوعيد ليفعلن كذا.

والمعنى: أنهم إذا انفردوا.. نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس، وإذا لاقوا عدواً.. ذلوا وخضعوا وانهزموا. والأول أولى؛ لقوله تعالى فيما بعد: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن.

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾: استئناف[1] سيق لبيان أن ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم في أنفسهم، فإن بأسهم وحربهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، وإنما ضعفهم وجبنهم بالنسبة إليكم بما قذف الله في قلوبهم من الرعب. وأيضاً: إن الشجاع يجبن والعزيز يذل إذا حارب الله ورسوله.

قال في «كشف الأسرار»: إذا أراد الله نصرة قوم.. استأسد أرنبهم، وإذا أراد الله قهر قوم.. استرنب أسدهم. ا هـ.

وإن قيل: إن البأس شدة الحرب، فما الحاجة إلى الحكم عليه بـ﴿شَدِيدٌ﴾؟

أجيب: بأنه أريد من البأس هنا مطلق الحرب، فأخبر بشدته لتصريح الشدة، أو أريد المبالغة في إثبات الشدة لبأسهم مبالغة في شدة بأس المؤمنين، لغلبته على بأسهم بتأييد الله ونصرته لهم عليهم.

والظرف متعلق بـ﴿شَدِيدٌ﴾، والتقديم للحصر. ويجوز أن يكون متعلقاً بمقدر صفة أو حالاً؛ أي: بأسهم الواقع بينهم، أو واقعاً بينهم. فقولهم: الظرف الواقع بعد المعرفة يكون حالاً ألبتة، ليس بمرضي، فإن الأمرين جائزان، بل قد ترجح الصفة.

والمعنى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾؛ أي: بعضهم لبعض عدو، فلا يمكن أن يقاتلوا عدواً لهم، وهم في تخاذل وانحلال، ومن ثم استكانوا وذلوا.

وفي هذا[2]: عبرة للمسلمين في كل زمان ومكان؛ فإن الدول الإسلامية ما هدد كيانها وأضعفها أمام أعدائها إلا تخاذلها أفراداً وجماعات وانفراط عقد وحدتها، ومن ثم طمع الأعداء في بلادهم، ودخلوها فاتحين، وأذاقوا أهلها كؤوس

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

الذل والهوان، وفرقوهم شذر مذر، وجعلوهم عبيداً أذلاء في بلادهم، والتهموا ثرواتهم، ولم يبقوا لهم إلا النفاية وفتات الموائد، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وعسى الله أن يأتي بالفتح ونصر من عنده، فيستيقظ المسلمون من سباتهم، ويثوبوا إلى رشدهم، فيستعيدوا سابق مجدهم، وتدول الدولة لهم:

فيومٌ لنا ويومٌ علينا ... ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرُّ

ثم زاد ما سلف توكيداً، فقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ يا محمد، أو يا كلّ من يسمع ويعقل ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين متفقين، ذوي ألفة واتحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾؛ أي: والحال أن قلوبهم متفرقة لا ألفة بينها، وهم بخلاف من وصفهم الله بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾. جمع شتيت، كمرض ومريض، وهذا التخالف هو البأس السابق الذي بينهم الموصوف بالشدة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿شَتَّىٰ﴾ بألف التأنيث، ومبشر بن عبيد منوناً، جعلها ألف الإلحاق وعبد الله ﴿وقلوبهم أشت﴾؛ أي: أشد تفرقاً. ومما ورد في استعمال ﴿شَتَّىٰ﴾ في كلام العرب قول الشاعر:

إِلَى ٱللَّهِ أَشْكُوْ فِتْيَةً شَقَّتِ ٱلْعَصَا ... هِيَ ٱلْيَوْمَ شَتَّى وَهْيَ أَمْسِ جَمِيْعُ

والمعنى: أي إنك أيها الرسول إذا رأيتهم مجتمعين.. خلتهم متفقين وهو مختلفون غاية الاختلاف لما بينهم من إحن وعداوات. فهم لا يتعاضدون ولا يتساندون ولا يرمون عن قوس واحدة.

وفي هذا: تشجيع للمؤمنين على قتالهم، وحث للعزائم الصادقة على حربهم؛ فإن المقاتل متى عرف ضعف خصمه.. ازداد نشاطاً، وازدادت حميته، وكل ذلك من أسباب نصرته عليه.

تنبيه[2]: على أن اللائق بالمؤمن الاتفاق والاتحاد صورة ومعنى، كما كان المؤمنون متفقين في عهد النبي - ﷺ -. ويقال: الاتفاق قوة، والافتراق هلكة، والعدو إبليس يظفر في الافتراق بمراده. قال سهل: أهل الحق مجتمعون أبداً موافقون، وإن تفرقوا بالأبدان وتباينوا بالظواهر، وأهل الباطل متفرقون أبداً وإن

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

اجتمعوا بالأبدان وتوافقوا بالظواهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿تَحْسَبُهُمْ ...﴾ إلخ.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي ما ذكر من تشتت قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لا يعقلون شيئاً حتى يعرفوا الحق، ويتبعوه وتطمئن به قلوبهم، وتتحد به كلمتهم، ويرموا عن قوس واحدة، فيقعون في تيه الضلال، وتشتت قلوبهم حسب تشتت طرقه وتفرق فنونه، وتشتت القلوب يوهن قواهم؛ لأن صلاح القلب يؤدي إلى صلاح الجسد، وفساده إلى فساده. كما قالوا: كل إناء يترشح بما فيه.

واعلم[1]: أن الله تعالى ذم الكفار في القرآن بكل من: عدم الفقه والعلم والعقل. قال الراغب: الفقه هو: التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد. فهو أخصّ من العلم. والعلم: إدراك الشيء بحقيقته، وهو نظري وعملي، وأيضاً عقلي وسمعيّ. والعقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوى: عقل.

والمعنى[2]: أي ذلك التفرق من جراء أن أفئدتهم هواء، وأنهم لا يفقهون سر نظم هذه الحياة، ولا يعلمون أن الوحدة هي سر النجاح، ومن ثم تخاذلوا وتفرقت كلمتهم، واختلف جمعهم، واستهان بهم عدوهم، ودارت عليهم الدائرة.

ثم أرشد إلى أن هؤلاء ليسوا ببدع في الكافرين بل قد سبقهم غيرهم ممن كان حقه أن يكون عبرة لهم، فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: مثل اليهود من بني النضير كائن كمثل الذين من قبلهم؛ أي: صفتهم الغريبة وحالهم العجيبة، وهي ما وقع لهم من الإجلاء والذل كمثل وصفة وحال المشركين من أهل مكة فيما وقع لهم أيضاً يوم بدر من الهزيمة والأسر والقتل.

وقوله: ﴿قَرِيبًا﴾: ظرف زمان متعلق بالاستقرار المحذوف الذي تعلق به ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾. ولك أن تعلقه بـ﴿ذَاقُوا﴾ المذكور بعده. وعلقه الزمخشري بمضاف مقدر في الخبر؛ أي: كوجود وحصول ووقوع مثل أهل بدر قريباً.

أي: مثل اليهود من بني النضير فيما وقع لهم من الإجلاء والذل والمهانة

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

كمثل أهل مكة فيما وقع لهم قريباً يوم بدر من الهزيمة والأسر والقتل، وليس قوله ببعيد.

﴿ذَاقُوا۟﴾؛ أي: ذاق الذين من قبلهم، وهذا بيان لمثل الذين من قبلهم؛ أي: ذاقوا في الدنيا ببدر ﴿وَبَالَ﴾؛ أي: عقوبة ﴿أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: كفرهم، وهو عذاب القتل والأسر ببدر. وكانت غزوة بدر في رمضان من السنة الثانية من الهجرة قبل غزوة بني النضير، وكانت غزوة بني النضير في ربيع الأول من السنة الرابعة، وكان ما بينهما نحو سنة ونصف. ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة؛ أي: للذين من قبلهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم لا يقادر قدره حيث يكون ما في الدنيا بالنسبة إليه كالذوق بالنسبة إلى الأكل. وفي «الفتوحات»: والمقصود تشبيه حال اليهود، وهي ما حصل لهم في الدنيا من الوبال، وما سيحصل لهم في الآخرة من العذاب بحال المشركين في هذين الأمرين.

والخلاصة: أن حال هؤلاء كحال أولئك في الدنيا والآخرة، ولكن لا على أن حال كلهم كحالهم، بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك.

وأما حال المنافقين: فهو ما تعلق به قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فإنه خبر ثان[1] للمبتدأ المقدر، مبين لحالهم، متضمن لحال أخرى لليهود. وهي اغترارهم بمقالة المنافقين أولاً، وخيبتهم آخراً. وقد أجمل في النظم الكريم؛ حيث أسند كل من الخبرين إلى المقدر المضاف إلى ضمير الفريقين من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه، ثقة بأن السامع يرد كلاً من المثلين إلى ما يماثله، كأنه قيل: مثل اليهود في حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما حكي عنهم ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، ﴿إِذْ قَالَ﴾؛ أي: الشيطان ﴿لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾. وقول الشيطان مجاز عن الإغواء والإغراء؛ أي: إذ أغراه على الكفر إغراء الآمر المأمور على المأمور به. ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الإنسان المذكور إطاعة لإغوائه وتبعاً لأهوائه ﴿قَالَ﴾ الشيطان: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾؛ أي: بعيد عن عملك وأملك غير راض بكفرك وشركك.

(١) روح البيان.

قال العلماء: إن أريد بالإنسان الجنس فهذا التبرّي من الشيطان يكون يوم القيامة، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. وهذه الجملة تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره، وإن أريد به أبو جهل.. على كون اللام للعهد.. فمعنى قوله: ﴿ٱكۡفُرۡ﴾: دم على الكفر، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ إلخ، عبارة عن قول إبليس له يوم بدر: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤٨﴾. يعني: لما قاتلوا ورأى إبليس جبريل مع محمد عليهما السلام.. خافه، وتبرأ منهم، وانهزم. قال بعضهم: هذا من كذبات إبليس، وإنه لو خاف الله حقيقة وقال صدقاً.. لما استمر على ما أدى إلى الخوف بعد ذلك، كيف وقد طلب الإنظار إلى البعث للإغواء؟!.

وقال أبو الليث: قال ذلك على وجه الاستهزاء، ولا بعد أن يقول له: ليوقعه في الحسرة والحرقة، انتهى.

يقول الفقير: الظاهر أن الشيطان يستشعر في بعض المواد جلال الله تعالى وعظمته، فيخافه حذراً من المؤاخذة العاجلة وإن كان منظراً، ولا شك أن كل أحد يخاف السطوة الإلٰهية عند ظهور أماراتها، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. على أن نحو قاطع الطريق وقاتل النفس ربما فعل ما فعل، وهو خائف من الأخذ.

وقيل: المراد بالإنسان: هو عابد كان في بني إسرائيل، حمله الشيطان على الكفر فأطاعه. والجمهور على أن الشيطان والإنسان اسما جنس يورطه في المعصية ثم يفر منه. وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنِّي﴾ بسكون الياء. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتحها.

والمعنى: أي مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود من بني النضير النصرة إن قوتلوا أو الخروج معهم إن أخرجوا، ومثل بني النضير في غرورهم بوعودهم

(١) الشوكاني.

وإسلامهم إياهم في أشد حاجتهم إليهم وإلى نصرتهم.. كمثل الشيطان الذي غر إنساناً ووعده النصرة عند الحاجة إليه إذا هو كفر بالله، واتبعه وأطاعه، فلما احتاج إلى نصرته.. أسلمه وتبرأ منه، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. إذا أنا نصرتك لئلا يشركني معك في العذاب.

والخلاصة: أن مثل اليهود في اغترارهم بمن وعدوهم النصرة من المنافقين بقولهم لهم: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، ولما جد الجد واشتد الحصار والقتال.. تخلوا عنهم وأسلموا للهلكة، كمثل الشيطان إذ سول للإنسان الكفر والعصيان، فلما دخل فيه.. تبرأ منه وتنصل وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ولا تجد مثلاً أشد وقعاً على النفوس، ولا أنكى جرحاً في القلوب من هذا المثل لمن اعتبر وادكر، ولكنهم قوم لا يعقلون.

ثم ذكر عاقبة الناصح والمنصوح له، فقال: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾؛ أي: عاقبة الشيطان وذلك الإنسان. قرأ الجمهور بنصب ﴿عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ على أنه خبر ﴿كان﴾ مقدم على اسمها، واسمها قوله: ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾. وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد وسليم بن أرقم برفعه، على أنه اسم ﴿كان﴾، والخبر ما بعده. وهو أوضح في المعنى.

والمعنى: فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار حال كونهما ﴿خَٰلِدَيْنِ﴾؛ أي: ماكثين ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في النار مكثاً مؤبداً لا يبرحان عنها. وهو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور. وقرأ الجمهور ﴿خَٰلِدَيْنِ﴾ بالياء نصباً على الحال. وقرأ عبد الله وزيد بن علي والأعمش، وابن أبي عبلة ﴿خالدان﴾ بالألف رفعاً على أنه خبر ﴿أن﴾. والظرف لغو متعلق به. ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: الخلود في النار ﴿جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على الإطلاق دون هؤلاء خاصة.

والمعنى: أي فكان عاقبة الآمر بالكفر والداخل فيه الخلود في النار أبداً، وهكذا جزاء الظالمين لأنفسهم بالكفر، كيهود بني النضير والمنافقين الذين وعدوهم بالنصرة.

ثم رجع سبحانه وتعالى إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، إيماناً خالصاً، ويقيناً صادقاً ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: اتقوا عقاب الله في كل ما تأتون، وما تذرون، فتحرزوا عن العصيان بالطاعة، وتجنبوا عن الكفران بالشكر، وتوقوا عن النسيان بالذكر، واحذروا عن الاحتجاب عنه بأفعالكم وصفاتكم بشهود أفعاله وصفاته في كل شيء.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله سبحانه، فافعلوا ما به أمر، واتركوا ما عنه نهى، وزجر، أو: اتقوا الله بفعل المأمورات، كما سيأتي مقابله.

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾؛ أي: ولتتفكر كل نفس - برة أو فاجرة - ولتبحث وتفتش ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾؛ أي: عما تقدمه ليوم القيامة من الأعمال الصالحة أو السيئة، فتختاره وتفعله؛ أي: لينظر أحدكم أي شيء يقدمه لنفسه من الأعمال، وليفكر فيه، وليحصله؛ أي: فليختر هل يقدم لها عملاً صالحاً ينجيها أو سيئاً يوبقها، فإن الدنيا دار الزراعة، والآخرة دار الحصاد، فلا تحصد في الآخرة إلا ما زرعته في الدنيا.

والمتبادر من معنى الغد أنه عبارة عن يوم بينك وبينه ليلة، ويطلق أيضاً على مطلق الزمان المستقبل كقوله:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ   وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِيْ غَدٍ عَمِي

وأطلق[1] هنا اسم الغد في قوله: ﴿لِغَدٍ﴾ على يوم القيامة تقريباً له؛ كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ فكأنه لقربه شبه بما ليس بينك وبينه إلا ليلة واحدة، أو لأن الدنيا - أي: زمانها - كيوم والآخرة كغده، لاختصاص كل منهما بأحكام وأحوال متشابهة وتعقيب الثاني للأول، فلفظ الغد حينئذٍ استعارة كما سيأتي. وفائدة تنكير النفس: إفادة أن الأنفس الناظرة في معادها قليلة جداً، كأنه قيل: ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وأين تلك النفس؟

يقول الفقير[2]: إنما كانت الآخرة كالغد لأن الناس في الدنيا نيام، ولا انتباه إلا عند الموت الذي هو مقدمة القيامة كما ورد به الخبر، فكلّ من الموت والقيامة كالصباح بالنسبة إلى الغافل، كما أن الغد صباح بالنسبة إلى النائم في الليل. ودل هذا على أن الدنيا ظلمانية والآخرة نورانية، انتهى.

---

(١) الفتوحات.   (٢) روح البيان.

وفائدة تنكير الغد تعظيمه، وتفخيمه وتهويله، كأنه قيل: لغد لا تعرف كل نفس كنه عظمته وغاية هوله، فالتنكير فيه للتعظيم، وفي النفس للتقليل أو للتعريض بغفلة كلهم عن هذا النظر الواجب. وأصله: غدو، حذفوا الواو بلا تعويض عنها كما سيأتي في مبحث التصريف.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلْتَنظُرْ﴾ أمراً، واللام ساكنة. وقرأ أبو حيوة، ويحيى بن الحارث بكسرها. وروي ذلِك عن حفص عن عاصم. وقرأ الحسن بكسرها وفتح الراء، جعلها لام كي، ذكره في «البحر».

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى. كرره للتأكيد والاهتمام في شأن التقوى، وإشارة إلى أن اللائق بالعبد أن يكون كل أمره مسبوقاً بالتقوى ومختوماً بها. أو الأول في أداء الواجبات، كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل كما سبق، والثاني في ترك المحارم، كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عالم بما تعملونه من المعاصي، فيجازيكم عليها يوم الجزاء.

والتقوى هو: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك. وقال بعض الكبار: التقوى: وقاية النفس في الدنيا عن ترتب الضرر في الآخرة. فتقوى العامة عن ضرر الأفعال، وتقوى الخاصة عن ضرر الصفات، وتقوى أخص الخواص عن جميع ما سوى الله تعالى.

وفي الآية ترغيب في الأعمال الصالحة.

والمعنى[1]: أي ولتنظروا ماذا قدمتم لآخرتكم مما ينفعكم يوم الحساب والجزاء، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكنهم من توقع العذاب سكارى. واتقوا الله إنه خبير عليم بأحوالكم، لا يخفى عليه شيء من شؤونكم، فراقبوه في جليل أعمالكم، وحقيرها، واعلموا أنه سبحانه سيحاسبكم على النقير والقطمير، والقليل والكثير، ولا يفوته شيء من ذلك.

---

(١) المراغي.

ثم ضرب لهم الأمثال تحذيراً وإنذاراً، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ قرأ الجمهور[1]: ﴿لا تكونوا﴾ بتاء الخطاب، وأبو حيوة بياء الغيبة على سبيل الالتفات؛ أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ﴾؛ أي: كاليهود والمنافقين. فالمراد بالموصول[2]: المعهودون بمعونة المقام، أو الجنس كائناً من كان من الكفار، أمواتاً أو أحياء. ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ فيه حذف المضاف؛ أي: نسوا حقوقه تعالى، وما قدروه حق قدره، ولم يراعوا مواجب أموره ونواهيه حق رعايتها ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: جعلهم ناسين لها، فلم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها، فالمضي على أصله. أو أراهم يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم، فالمضي باعتبار التحقق.

قال الراغب: النسيان: ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، أو عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره. وكل نسيان من الإنسان ذمّه الله به.. فهو ما كان أصله من تعمد وما عذر فيه، نحو: ما روي عن النبي - ﷺ -: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان». فهو ما لم يكن سببه منه. فقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ هو ما كان سببه عن تعمد منهم وتركه على طريق الإهانة. وإذا نسب ذلك إلى الله.. فهو تركه إياهم استهانة بهم مجازاة لما تركوه، كما قال في «اللباب»: قد يطلق النسيان على الترك ومنه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾؛ أي: تركوا طاعة الله ترك الناسي، فتركهم الله.

وقال بعض المفسرين: إن قيل: النسيان يكون بعد الذِّكر، وهو ضد الذِّكر، لأنه السهو الحاصل بعد حصول العِلم، فهل كان الكفار يذكرون حق الله ويعترفون بربوبيته حتى ينسوا بعد؟

أجيب: بأنهم اعترفوا وقالوا: بلى يوم الميثاق، ثم نسوا ذلك بعدما خلقوا، والمؤمنون اعترفوا بها بعد الخلق، كما اعترفوا قبله بهداية الله، وراعوا حقها قل أو كثر جلّ أو صغر، ثم إن قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا...﴾ إلخ، تنبيه على أن الإنسان بمعرفته لنفسه يعرف الله، فنسيانه هو من نسيانه لنفسه، كما قال في «فتح الرحمٰن»: لفظ هذه الآية على أنه من عرف نفسه ولم ينسها.. عرف ربه. وقد قال علي رضي

---

(1) البحر المحيط.

(2) روح البيان.

الله عنه: (اعرف نفسك تعرف ربك). وقال سهل: معنى الآية: نسوا الله عند الذنوب فأنساهم الله أنفسهم عند الاعتذار وطلب التوبة.

والخلاصة[1]: ولا يكن حالكم كحال قوم تركوا العمل بحقوق الله التي أوجبها على عباده، فران على قلوبهم، وأنساهم العمل الصالح الذي ينجيهم من عقابه، فضلوا ضلالاً بعيداً، فجازاهم بما هم له أهل وما هم له مستحقون جزاءً وفاقاً؛ لما دسّوا به أنفسهم وأوقعوها في المعاصي والآثام.

ومن ثم حكم عليهم بالهلاك، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الناسون المخذولون بالإنساء ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الفسوق والخروج عن طريق الطاعة، و﴿هم﴾ للحصر، فأفاد أن فسقهم كان بحيث أن فسق الغير كأنه ليس بفسق بالنسبة إليه. فالمراد بهم هنا: الكافرون لكن على المؤمن الغافل عن رعاية حق ربوبية الله ومراعاة حظ نفسه من السعادة الأبدية والقربة إلى جنابه تعالى خوف شديد وخطر عظيم.

والمعنى[2]: أي أولئك هم الذين خرجوا عن طاعة الله تعالى فاستحقوا عقابه يوم القيامة، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾.

ثم وازن بين من يعمل الحسنات ومن يجترم السيئات، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسوا الله، فاستحقوا الخلود في النار ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ الذين اتقوا الله، فاستحقوا الخلود في الجنة.

قال في «الإرشاد»[3]: لعل تقديم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبيء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم، فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصاناً وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص، وعليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ﴾ إلى غير ذلك من المواضع. وأما قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ فلعل تقديم

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) أبو السعود.

الفاضل فيه لأن صلته ملكة والأعدام مسبوقة بملكاتها.

وقال بعضهم[1]: قدم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لذكر الذين نسوا الله قبله، ولكثرة أهلها.

ولفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ باللام من أعلام جهنم، كالساعة للقيامة. ولذا كثيراً ما تذكر في مقابلة الجنة، كما في هذا المقام. وجاء في الشعر:

الْجَنَّةُ ٱلدَّارُ فَٱعْلَمْ إنْ عَمِلْتَ بِمَا يُرَضِي ٱلإِلَهَ وَإنِ فرَّطْتَ فَٱلنَّارُ

هُمَا مَحَلاَّنِ مَا لِلنَّاسِ غَيْرُهُمَا فَٱنْظُرْ لِنَفْسِكَ مَاذَا أَنْتَ تَخْتَارُ

والصحبة في الأصل: اقتران الشيء بالشيء، في زمان ما، قل أو كثر. وبذلك يكون كل منهما صاحب الآخر. وإن كانت على المداومة والملازمة.. يكون كمال الصحبة، ويكون الصاحب المصاحب عرفاً، وقد يطلق على الطرفين حينئذٍ صاحب ومصاحب أيضاً. ومن ذلك يكنى عن الزوجة بالصاحبة. وقد يطلق الصاحب على المالك؛ لكثرة صحبته بمملوكه كما قيل له: الربّ؛ لوقوع تربية المالك على مملوكه، فيقال: صاحب المال كما يقال: رب المال. فإطلاق ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ و﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ على أهلهما إما باعتبار الصحبة الأبدية والاقتران الدائم، حتى لا يقال للعصاة المعذبين بالنار مقدار ما شاء الله تعالى: أصحاب النار. أو باعتبار الملك، مبالغة ورمزاً إلى أنهما جزاء لأهلهما، باعتبار كسبهما بأعمالهم الحسنة أو السيئة.

ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾، وقوله: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

والمعنى[2]: أي لا يستوي الذين نسوا الله فاستحقوا الخلود في النار، والذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود في الجنة.

ثم بين عدم استوائهما، فقال: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بكل مطلوب الناجون من كل مكروه. وهو استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بين الفريقين.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

فالفوز: الظفر مع حصول السلامة، فهم أهل الكرامة في الدارين. وأصحاب النار هم أهل الهوان فيهما.

وفي هذا تنبيه[1] للناس بأنهم لفرط غفلتهم ومحبتهم العاجلة واتباع الشهوات.. كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار، وبين أصحابهما حتى احتاجوا إلى الإخبار بعدم الاستواء، كما تقول لمن يعق أباه: هو أبوك، تجعله بمنزلة من لا يعرفه، فتنبه بذلك على حق الأبوة الذي يقتضي البرّ والتعطف، فكذا نبه الله تعالى الناس بتذكير سوء حال أهل النار وحسن حال أهل الجنة، على الاعتبار والاحتراز عن الغفلة، ورفع الرأس عن المعاصي، والتحاشي من عدم المبالاة. وروي عن النبي ـ ﷺ ـ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة: من ينظر إلى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله: من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾. وقال ـ ﷺ ـ: «إن أهون أهل النار عذاباً، من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً».

ولما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر أهل الجنة وأهل النار، وبين عدم استوائهم في شيء من الأشياء.. ذكر تعظيم كتابه الكريم وأخبر عن جلالته وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفئدة، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ العظيم الشأن المنزل عليكم أيها الناس، المنطوي على فنون القوارع أو المنزل عليك يا محمد، أو على محمد، بحسب الالتفات في الخطاب. ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال، وهو كل وتد للأرض عظم وطال، كما سيأتي.

ثم إنه لا يلزم في الإشارة وجودُ جملة المشار إليه ذي الأبعاض المترتبة وجوداً، بل يكفي وجود بعض الإشارة حقيقة ووجود بعض آخر حكماً. ويحتمل أن يكون المشار إليه هنا الآية السابقة من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ. فإن لفظ القرآن كما يطلق على المجموع.. يطلق على البعض منه حقيقة، بالاشتراك، أو باللغة، أو مجازاً بالعلاقة، فيكون التذكير باعتبار تذكير المشار إليه.

---

(١) روح البيان.

﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾؛ أي: لرأيت ذلك الجبل - يا محمد، أو يا من يتأتى منه الرؤية - مع كونه علماً في القسوة وعدم التأثر مما يصادمه. ﴿خَٰشِعًا﴾؛ أي: خاضعاً ذليلاً. وهو حال من الضمير المنصوب في قوله: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾؛ لأنه من الرؤية البصرية. ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾؛ أي: متشققاً ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وخوفه أن يعصيه فيعاقبه.

أي[1]: من شأنه وعظمته، وجودة ألفاظه وقوة مبانيه، وبلاغته، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب، أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض.. لرأيته - مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم - خاشعاً متصدعاً؛ أي: متشققاً من خشية الله سبحانه، حذراً وخوفاً من أن لا يؤدّي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله تعالى. وقرأ طلحة ﴿مصدعاً﴾ بإدغام التاء في الصاد.

والخلاصة[2]: لو ركب في الجبل عقل وشعور كما ركب فيكم أيها الناس، ثم أنزل عليه القرآن ووعد وأوعد حسب حالكم.. لخشع وخضع وتذلل وتصدع من خشية الله تعالى، حذراً من أن لا يؤدّي حق الله تعالى، في تعظيم القرآن والامتثال لما فيه من أمره ونهيه، والكافر المنكر أقسى منه، ولذا لا يتأثر أصلاً. قال العلماء: وهذا بيان وتمثيل وتصوير لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ، أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه.

ويدل على هذا قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ إشارة إلى هذا المثل المذكور هنا وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل؛ أي: هذا القول الغريب في بيان عظمة القرآن ودناءة حال الإنسان وبيان صفتهما العجيبة، وسائر الأمثال الواقعة في القرآن. فإن لفظ المثل حقيقة عرفية في القول السائر، ثم يستعار لكل أمر غريب وصفة عجيبة الشأن، تشبيهاً له بالقول السائر في الغرابة؛ لأنه لا يخلو عن غرابة. ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾؛ أي: نبيّنها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتدبرون فيما يجب عليهم التفكر فيه، ليتعظوا بالمواعظ، وينزجروا بالزواجر. وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن، ولا اتعظوا بمواعظه، ولا انزجروا بزواجره.

أي: نبينها لمصلحة التفكر ومنفعة التذكر. ولا يقتضي كون الفعل معللاً

---

(1) الشوكاني.
(2) روح البيان.

بالحكمة والمصلحة أن يكون معللاً بالغرض حتى تكون أفعاله تعالى معللة بالأغراض؛ إذ الغرض من الاحتياج والحكمة: اللطف بالمحتاج، وبينهما فرق.

فإن قلت[1]: قال في سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ بصيغة المضي والإخبار عن الماضي مع أنها مكية، وقال هنا: ﴿نَضْرِبُهَا﴾ بصيغة المضارع والاستقبال مع أن السورة مدنية.

قلت: لعل الأول من قبيل عد ما سيحقق مما حقق لتحققه بلا خلف، والثاني من قبيل التعبير عن الماضي بالمضارع؛ لإحضار الحال الماضية، أو لإرادة الاستمرار على الأحوال، بمعنى: أن شأننا أن نضرب الأمثال للناس.

وفي الحديث: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة »قالوا: ما حظها من العبادة يا رسول الله؟ قال: «النظر في المصحف، والتفكر فيه، والاعتبار عند عجائبه». وعن ابن عباس رضي عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب. وعن الحسن البصري رحمه الله: من لم يكن كلامه حكمة.. فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً.. فهو سهو، ومن لم يكن نظره عبرة.. فهو لهو. وعن أبي سليمان رحمه الله: الفكرة في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتحيي القلب. وكثيراً ما ينشد سفيان بن عيينة، ويقول:

إِذَا ٱلْمَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ فَفِيْ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ

وعن بعضهم أنه قال: من عجز عن ثمانية.. فعليه بثمانية أخرى لينال فضلها. من أراد فضل صلاة الليل، وهو نائم.. فلا يعص بالنهار، ومن أراد فضل صيام التطوع وهو مفطر.. فليحفظ لسانه عما لا يعنيه، ومن أراد فضل العلماء.. فعليه بالتفكر، ومن أراد فضل المجاهدين والغزاة وهو قاعد في بيته.. فليجاهد الشيطان، ومن أراد فضل الصدقة وهو عاجز.. فليعلم الناس ما سمع من العلم، ومن أراد فضل الحجّ وهو عاجز.. فليلتزم الجمعة، ومن أراد فضل العابدين.. فليصلح بين الناس ولا يوقع العداوة، ومن أراد فضل الأبدال.. فليضع يده على صدره ويرضى لأخيه ما يرضى لنفسه.

---

(١) روح البيان.

واعلم[1]: أن التفكر إما أن يكون في الخالق أو في الخلق:

والأول: إما في ذاته، أو في صفاته، أو في أفعاله. أما في ذاته.. فممنوع؛ لأنه لا يعرف الله إلا الله، إلا أن يكون التفكر في ذاته باعتبار عظمته وجلاله وكبريائه، من حيث وجوب الوجود ودوام البقاء، وامتناع الإمكان والفناء، والصمدية التي هي الاستغناء عن الكل. وأما في صفاته: فهو فيها باعتبار كمالها بحيث يحيط علمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع الأشياء، وإرادته بجميع الكائنات وسمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، ونحو ذلك. وأما في أفعاله: فهو فيها بحسب شمولها، وكثرتها، ومتانتها، ووقوعها على الوجه الأتم، كل يوم هو في شأن.

والثاني: إما أن يكون فيما كان من العلويات والسفليات، أو فيما سيكون من أهوال يوم القيامة وأحوال الآخرة إلى أبد الآباد.

والمعنى: أي وهذه الأمثال التي أودعناها القرآن، وذكرناها في مواضعها التي ضربت لأجلها واقتضاها الحال، من نحو قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ...﴾ الآية.. جعلناها تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فمن الناس من وفقه الله واهتدى بها إلى سواء السبيل، وفاز بما يرضي ربه عنه، ومنهم من أعرض عنها ونأى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، وأدخله في سقر، وما أدراك ما سقر؟ لا تبقي ولا تذر.

وقيل[2]: الخطاب في الآية للنبي - ﷺ - والمعنى عليه أي: لو أنزلنا هذا القرآن - يا محمد - على جبل لَمَا ثبت، ولتصدع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له، وقويناك عليه. فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي - ﷺ -، لأن

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

الله سبحانه ثبته لما لا تثبت له الجبال الرواسي.

ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود بحق في الوجود، هو الإله ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه. وفي هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك. هو سبحانه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: عالم ما غاب عن الإحساس وما حضر. وقيل: عالم السرّ والعلانية، وقيل: عالم ما كان وما سيكون. وقيل: الآخرة والدنيا. وقدم الغيب على الشهادة لكونه متقدماً وجوداً. وتعلق العلم القديم به من حيث كونه موجوداً. قال الراغب: ما غاب عن حواس الناس وأبصارهم وما شهدوه بهما.

واعلم[1]: أن ما ورد من إسناد الغيب إلى الله فهو الغيب بالنسبة إلينا، لا بالنسبة إليه تعالى؛ لأنه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء، وإذا انتفى الغيب بالنسبة إليه تعالى.. انتفى العلم به أيضاً، وأيضاً لما سقطت جميع الغيب والإضافات في مرتبة الذات البحت والهوية الصرفة.. انتفت النسبة العلمية مطلقاً، فانتفى العلم بالغيب، فافهم.

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: كثير الرحمة لعباده بجلائل النعم. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: كثير الرحمة لعباده بدقائق النِّعم.

كرر ﴿هُوَ﴾ لأن له شأناً شريفاً، ومقاماً منيفاً؛ لدلالته على التوحيد. من اشتغل به.. ملك، ومن أعرض عنه.. هلك. والله تعالى رحمته الدنيوية عامة لكل إنسي وجني، مؤمناً كان أو كافراً، على ما قال - ﷺ -: «أيها الناس! إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل قادر، يحق فيها الحق ويبطل الباطل، كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها ولدها»، ولذلك يقال: يا رحمٰن الدنيا؛ لأن ما فيه زيادة حرف يراد به زيادة في المعنى. ورحمته الأخروية خاصة بالمؤمنين، ولذا يقال: يا رحيم الآخرة. فعلى هذا في معنى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ زيادة باعتبار المنعم عليه، ونقصان باعتبار الأنواع والأفراد. وفي تخصيص هذين الاسمين المنبئين، عن وفور

---

(١) روح البيان.

رحمته في الدارين تنبيه على سبق رحمته، وتبشير للعاصين أن لا يقنطوا من رحمة الله، وتنشيط للمطيعين بأنه يقبل القليل، ويعطي الجزيل.

وحظ العبد من اسم الرحمٰن الرحيم أن يكون كثير الرحمة، بأن يرحم نفسه أولاً ظاهراً وباطناً، ثم يرحم غيره بتحصيل مراده وإرشاده والنظر إليه بعين الرحمة، كما قال بعضهم:

وَٱرْحَمْ بُنَيَّ جَمِيعَ ٱلْخَلْقِ كُلِّهِمِ وَٱنْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ ٱللُّطْفِ وَٱلشَّفَقَهْ
وَقِّرْ كَبِيْرَهُمُ وَٱرْحَمْ صَغِيْرَهُمُ وَرَاعِ فِيْ كُلِّ خَلْقٍ حَقَّ مَنْ خَلَقَهْ

ومعنى الآية[1]: أي إنه تعالى لا رب غيره، ولا إله في الوجود سواه، فكل ما يعبد من دونه من شجر أو حجر أو صنم أو ملك.. فهو باطل. وهو يعلم جميع الكائنات الشاهدة لنا والغائبة عنا، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماوات، وهو ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات،فهو رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واعلم[2]: أن لفظ ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في أصل وضعه كناية عن المفرد المذكر الغائب، وهي: كناية عن المفردة المؤنثة الغائبة. وكثيراً ما يكنى به عمن لا يتصور فيه الذكورة والأنوثة، كما هو ههنا، فإنه راجع إلى الله تعالى للعلم به. ولك أن تقول: هو: موضوع لمفرد ليس فيه تأنيث حقيقة وحكماً، وهي: لمفرد يكون فيه ذلك. و﴿هُوَ﴾: مبتدأ، خبره لفظة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ بمعنى: هو المعبود بالحق، المسمى بهذا الاسم الأعظم، الدال على جلال الذات وكمال الصفات، فلا يلزم أن يتحد المبتدأ أو الخبر بأن يكون التقدير: الله الله؛ إذ لا فائدة فيه. أو ﴿ٱللَّهُ﴾ بدل من ﴿هُوَ﴾، والموصول مع صلته خبر المبتدأ، أو ﴿هُوَ﴾ إشارة إلى الشأن، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره، والجملة خبر عن ضمير الشأن. و﴿لَآ﴾ في كلمة التوحيد لنفي أفراد الجنس على الشمول والاستغراق. و﴿إِلَٰهَ﴾ مبني على الفتح بها، مرفوع المحل على الابتداء، والمراد به: جنس المعبود بالحق، لا مطلق جنس المعبود، حقاً أو باطلاً، وإلا.. فلا يصح في

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

نفسه؛ لتعدد الآلهة الباطلة، ولا يفيد التوحيد الحق. و﴿إِلَّا هُوَ﴾ مرفوع على: البدلية في محل المنفي، أو من ضمير الخبر المقدر لـ﴿لَآ﴾والخبر قد يقدر: موجود، فيتوهم أن التوحيد يكون باعتبار الوجود لا الإمكان، فإن نفي وجود إله غير الله لا يستلزم نفي إمكانه. وقد يقدر: ممكن، فيتوهم أن إثبات الإمكان لا يقتضي الوقوع، فكم من شيء ممكن لم يقع. وقد يقدر: لنا، فيتوهم أنه لا بد من مقدر، فيعود الكلام أيضاً.

والجواب: أنه إذا كان المراد بالإله المعبود بالحق كما ذكر.. فهو لا يكون إلا رب العالمين مستحقاً لعبادة المكلفين، فإذا نفيت الألوهية على هذا المعنى عن غيره تعالى، وأثبتت له سبحانه.. يندفع التوهم على التقادير كلها.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره للتأكيد والتقرير، ولإبراز الاعتناء بالتوحيد؛ لكونه حقيقاً بذلك. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: المتصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه، المالك لهم، فهم تحت ملكه وقهره وإرادته. ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾؛ أي: الطاهر عن كل عيب، المنزه عما لا يليق به. وقيل: هو الذي كثرت بركته، أو البليغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً ما.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ بضم القاف. وقرأ أبو السمال، وأبو دينار الأعرابي بفتحها. وكان سيبويه يقول: سبوح قدوس بفتح أولهما، وحكى أبو حاتم عن يعقوب، أنه سمع عند الكسائي أعرابياً فصيحاً يقرأ: القَدوس بفتح القاف. قال ثعلب: كل اسم على فعول.. فهو مفتوح الأول إلا السبوح، القدوس، فإن الضم فيهما أكثر، وقد يفتحان. وقال بعضهم: المفتوح قليل في الصفات كثير في الأسماء، مثل التنور والسمور والسفود وغيرها.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾؛ أي: الذي سلم من كل النقائص، وكل آفة تلحق الخلق. فإن قلت[2]: على هذا التفسير لا يبقى بين القدوس والسلام فرق، فيكون كالتكرار، وذلك لا يليق بفصاحة القرآن؟.

قلت: الفرق بينهما: أن القدوس إشارة إلى براءته عن جميع العيوب

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

(٢) الخازن.

والنقائص، في الماضي والحاضر، والسلام إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب والنقائص في المستقبل، فإن الذي يطرأ عليه شيء من ذلك تزول سلامته ولا يبقى سليماً. وقيل: السلام هو المسلم على عباده في الجنة، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ وقيل: الذي سلم الخلق من ظلمه، وبه قال الأكثر. وقيل: المسلم لعباده، وهو مصدر وصف به مبالغة.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾؛ أي: الذي وهبَ لعباده الأمن من عذابه. وقيل: المصدق لرسله بإظهار المعجزات. وقيل: المصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، والمصدق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب.. وقال مجاهد: المؤمن الذي وحد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ بكسر الميم على صيغة اسم الفاعل من آمن؛ بمعنى: أمن. وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين - وقيل: أبو جعفر المدائني -: بفتحها؛ بمعنى: المؤمن به، على الحذف. وقال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة؛ لأن معناه: أنه كان خائفاً فأمنه غيره.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قال ابن عباس: أي الشهيد على عباده بأعمالهم، الرقيب عليهم الذي لا يغيب عنه شيء. وقيل[2]: هو القائم على خلقه برزقه، وأنشد في معناه:

أَلاَ إِنَّ خَيْرَ ٱلنَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِ ... مُهَيْمِنُهُ ٱلتَّالِيهِ فِيْ ٱلْعُرْفِ وَٱلنُّكْرِ

يقال: هيمن يهيمن، فهو مهيمن إذا كان رقيباً على الشيء. قال الواحدي: وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله: مؤيمن، بوزن مفيعل، من آمن يؤمن، فقلبت همزته هاء، فيكون بمعنى المؤمن. والأول أولى. وقيل: المهيمن اسم من أسماء الله تعالى، هو أعلم بتأويله، وأنشدوا في معناه:

جَلَّ ٱلْمُهَيْمِنُ عَنْ صِفَاتِ عَبِيْدِهِ ... وَلَقَدْ تَعَالَى عَنْ عُقُولِ أُوْلِي ٱلنُّهَىٰ
رَامُوا بِزَعْمِهِمُ صِفَاتِ مَلِيْكِهِمْ ... وَٱلْوَصْفُ يَعْجَزُ عَنْ مَلِيْكٍ لاَ يُرَى

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي لا يوجد له نظير، وقيل: القاهر، وقيل: الغالب الذي لا يغالب، وقيل: القوي. ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: قال ابن عباس: الجبار هو العظيم،

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

وجبروت الله: عظمته. فعلى هذا[1]: هو صفة ذات. وقيل: هو من الجبر، وهو الإصلاح، يقال: جبرت العظم أصلحته بعد الكسر، يعني: الذي يغني الفقير ويجبر الكسير. فعلى هذا هو صفة فعل. وهو سبحانه وتعالى كذلك، يجبر كل كسير ويغني كل فقير، وقيل: هو الذي يجبر الخلق ويقهرهم على ما أراد. قال الفراء: من أجبره على الأمر.. قهره، قال: ولم أسمع فعالاً من أفعل إلا في جبار من أجبر، ودراك من أدرك. وسئل بعضهم عن معنى الجبّار، فقال: هو القهار الذي إذا أراد أمراً.. فعله، لا يحجزه عنه حاجز. وقيل: الجبار هو الذي لا ينال ولا يداني. والجبار في صفة الله تعالى صفة مدح، وفي صفة الناس صفة ذم. وكذلك ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ في صفة الناس صفة ذم؛ لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر والعلو، وذلك نقص في حقه؛ لأنه ليس له كبر وعلو، بل له الحقارة والذلة، فإذا أظهر الكبر.. كان كذاباً في فعله، فكان مذموماً في حق الناس. وأما المتكبر في صفة الله تعالى.. فهو صفة مدح، لأن له جميع صفات العلو والعظمة، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عما يشركون به أو عن إشراكهم، فكأنه قيل: إن بعض الخلق يتكبر فيكون ذلك نقصاً في حقه، أما الله تعالى.. فله العلو والعظمة والعزة والكبرياء، فإن أظهر ذلك.. كان ضم كمال إلى كمال. قال ابن عباس: المتكبر هو الذي تكبر بربوبيته فلا شيء. وقيل: هو الذي تكبر عن كل سوء. وقيل: هو المتعظم عما لا يليق بجماله وجلاله. وقيل: هو المتكبر عن ظلم عباده. وقيل: الكبر والكبرياء: الامتناع. وقيل: هو ذو الكبرياء. وهو الملك سبحان الله عما يشركون؛ أي: من ادعاء الكبر لأنفسهم.

ومعنى الآية[2]: أي هو الله سبحانه، المالك لجميع الأشياء، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، المنزه عن كل عيب ونقص، الذي أمن خلقه أن يظلمهم، وهو الرقيب عليهم كما قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، وقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾. والذي عزّ على كل شيء فقهره، وغلب الأشياء بعظمته وجبروته، فلا تليق الجبروتية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته، كما ورد في «الصحيح»: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي. فمن نازعني واحداً منهما عذّبته». تنزه ربنا عما

(١) الخازن.
(٢) المراغي.

يقوله المشركون من الصاحبة والولد، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

ومعنى ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ[1]: سبحوا الله تسبيحاً، ونزهوه تنزيهاً عما يشركه الكفار به من المخلوقات. فالله تعالى أورده لإظهار كمال كبريائه، أو للتعجب من إثبات الشريك بعد ما عاينوا آثار اتصافه بجلال الكبرياء وكمال العظمة.

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود بحق في الوجود، كرره اعتناء بشأن التوحيد كما مر. ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾؛ أي: المقدر[2] للأشياء على مقتضى حكمته ووفق مشيئته. فإن أصل معنى الخلق: التقدير، يقال: خلق النعل إذا قدرها وسواها بمقياس، وإن شاع في معنى الإيجاد على تقدير واستواء، سواء كان من مادة، كخلق الإنسان من نطفة ونحوه، أو من غير مادة؛ كخلق السماوات والأرض. وخاصية هذا الاسم: أن يذكر في جوف الليل ساعة فما فوقها فيتنور قلب ذاكره ووجهه.

﴿ٱلْبَارِئُ﴾؛ أي: الموجد للأشياء بريئةً من التفاوت، فإن البرء: الإيجاد على وجه يكون الموجد بريئاً من التفاوت والنقصان، عما يقتضيه التقدير على الحكمة البالغة والمصلحة الكاملة. وخاصية هذا الاسم: أن يذكره سبعة أيام متوالية، كل يوم مئة مرة للسلامة من الآفات. قال السهروردي: يفتح لذاكره أبواب الغنى والعز والسلامة من الآفات.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾؛ أي: الموجد لصور الأشياء وكيفياتها وأشكالها وألوانها كما أراد، كما يصور الأولاد في الأرحام، بالشكل واللون المخصوص. فإن معنى التصوير: تخصيص الخلق بالصور المتميزة، والأشكال المتعينة، والألوان المتفرقة.

قال الراغب: الصورة ما تتميز به الأعيان عن غيرها. وهي: إما محسوسة؛ كصورة الإنسان وألوانه، وإما معقولة؛ كالعقل وغيره من المعاني، انتهى.

وقوله - ﷺ -: «إن الله خلق آدم على صورته» أي: على صورة آدم؛ أي: على

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الصورة المختصة به، أراد بالصورة: ما خص الإنسان به من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة، وبها فضله على كثير من خلقه.

يقول الفقير: الضمير المجرور في صورته يرجع إلى الله سبحانه لا إلى آدم، والصورة الإلهية عبارة عن الصفات السبع المرتبة، وهي: الحياة والعلم، والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام. وآدم مظهر هذه الصفات بالفعل، بخلاف سائر الموجودات. وإضافته إلى الله على سبيل الملك لا على سبيل البعضية والتشبيه بل على سبيل التشريف له كقوله: بيت الله، وناقة الله وروح الله.

وحاصل ما في المقام: أن الخالق هنا المقدر على الحكمة الملائمة لنظام العالم والبارىء الموجد على ذلك التقدير، والمصور المبدع لصور الكائنات وأشكال المحدثات بحيث يترتب عليها خواصهم ويتم بها كمالهم. وبهذا ظهر وجه الترتيب بينها. واستلزام التصورِ البَرءَ، والبرء: الخلق، استلزام الموقوف للموقوف عليه، كما قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: قد يظن أن هذه الأسماء مترادفة، وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع. ولا ينبغي أن يكون كذلك، بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود يفتقر إلى التقدير أولاً، وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً. والله سبحانه وتعالى خالق من حيث إنه مقدر وباريء من حيث إنه مخترع موجد، ومصور من حيث إنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب. وهذا كالبناء مثلاً، فإنه محتاج إلى مقدر يقدر ما لا بد منه من الخشب واللبن ومساحة الأرض وعدد الشقق والغرف وطولها وعرضها. وهذا يتولاه المهندس، فيرسمه ويصوره، ثم يحتاج إلى بنّاء يتولى الأعمال التي عندها تحدث وتحصل أصول الأبنية، ثم يحتاج إلى مزيِّن ينقش ظاهره، ويزين صورته، فيتولاه غير البناء. هذه العادة في التقدير والبناء والتصوير، وليس كذلك في أفعال الله تعالى، بل هو المقدر والموجد والمزين، فهو الخالق الباريء المصور.

فقدم ذكر[1] الخالق على الباريء؛ لأن الإرادة والتقدير متقدمة على تأثير القدرة، وقدم الباريء على المصور؛ لأن إيجاد الذات متقدم على إيجاد الصفات والألوان. وخاصية الاسم المصور: الإعانة على الصنائع العجيبة وظهور الثمار

---

(١) روح البيان.

ونحوها، حتى إن العاقر إذا ذكرته في كل يوم إحدى وعشرين مرة على صوم بعدَ الغروب وقبل الإفطار سبعة أيام.. زال عقمها، وتصور الولد في رحمها بإذن الله تعالى.

وقرأ عليٌّ وحاطب بن أبي بلتعة، والحسن وابن السميفع[1]: ﴿المصوَّر﴾ بفتح الواو ونصب الراء، على أنه مفعول به للبارىء، وأراد به جنس المصور؛ أي: الذي برأ المصور؛ أي: ميزه. وروي عن علي: فتح الواو وكسر الراء، على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول، ونحو: الضارب الغلام.

﴿لَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: الأسماء الدالة على المعاني الحسنة والصفات الكاملة. و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ صيغة تفضيل؛ لأنها تأنيث الأحسن؛ كالعليا، في تأنيث الأعلى. وتوصيف الأسماء بها للزيادة المطلقة، إذ لا نسبة لأسمائه إلى أسماء الغير، كما لا نسبة لذاته إلى ذوات الغير، وأسماء الله تعالى تسعة وتسعون على ما ورد في الحديث، كما سردها الترمذي في «صحيحه».

واعلم: أنه قال العلماء: الاسم هو اللفظ الدال على المعنى بالوضع. والمسمى: هو المعنى الموضع له، والتسمية: وضع اللفظ له أو إطلاقه عليه. وإطلاق الاسم على الله تعالى توقيفي عند البعض، بحيث لا يصح إطلاق شيء منه عليه تعالى إلا بعد أن كان وارداً في القرآن أو الحديث الصحيح. وقال آخرون: كل لفظ دل على معنى يليق بجلال الله وشأنه.. فهو جائز الإطلاق، وإلا.. فلا.

ومن أدلة الأولين[2]: أن الله عالم بلا مرية، فيقال له: عالم، وعليم، وعلام؛ لوروده في الشرع، ولا يقال له: عارف أو فقيه أو متيقن، إلى غير ذلك مما يفيد معنى العلم.

ومن أدلة الآخرين: أن أسماء الله تعالى وصفاته مذكورة بالفارسية والتركية والهندية والأرُمية وغيرها، مع أنها لم ترد في القرآن والحديث ولا في الأخبار، وأن المسلمين أجمعوا على جواز إطلاقها عليه بتلك اللغة، ومنها: أن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾. والاسم لا يحسن إلا لدلالته على صفات

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

الكمال ونعوت الجلال، فكل اسم دل على هذه المعاني.. كان اسماً حسناً، وأنه لا فائدة في الألفاظ إلا رعاية المعاني، فإذا كانت المعاني صحيحة.. كان المنع من إطلاق اللفظ المفيد غير لائق به تعالى.

والمعنى: أي هو الله الخالق لجميع الأشياء، المبرز لها إلى عالم الوجود على الصفة التي أرادها، كما قال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾. وله الصفات التي وصف بها نفسه، لا يشركه فيها أحد سواه.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾؛ أي: ينزهه سبحانه وتعالى من جميع النقائص ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما فيهما، إما بلسان المقال أو بلسان الحال. أي: ينطق بتنزهه تعالى تنزهاً ظاهراً عن جميع النقائص، وقد مر الكلام على هذا التسبيح مراراً كثيراً. وجمهور المحققين على أنه تسبيح عبارة،وهو لا ينافي تسبيح الإشارة، وكذا العكس.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب لغيره الذي لا يغالبه مغالب. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل ما دبره في الأمور التي يقضي بها، وإنما مدح الله سبحانه نفسه بهذه الصفات العظام تعليماً لعباده المدح له بصفاته العلى بعد فهم معانيها ومعرفة استحقاقه بذلك، طلباً لزيادة تقربهم إليه.

قال أبو الليث في «تفسيره»: فإن قال قائل: قد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فما الحكمة في أن الله تعالى نهى عباده عن مدح أنفسهم ومدح نفسه؟ قيل له: عن هذا السؤال جوابان:

أحدهما: أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فهو ناقص، وإذا كان ناقصاً.. لا يجوز له أن يمدح نفسه، والله تعالى تام الملك والقدرة فيستوجب بهما المدح، فمدح نفسه ليعلم عباده فيمدحوه.

والجواب الآخر: أن العبد وإن كان فيه خصال الخير، فتلك إفضال من الله تعالى وإحسان منه، ولم يكن ذلك بقوة العبد وقدرته؛ فلهذا لا يجوز أن يمدح نفسه، ونظير هذا: أن الله تعالى نهى عباده أن يمنوا على أحد بالمعروف، وقد منّ على عباده للمعنى الذي ذكر في المدح.

قال بعض الكبار: تزكية الإنسان لنفسه سم قاتل، وهي من باب شهادة الزور؛

لجهله بمقامه عند الله، إلا أن يترتب على ذلك مصلحة دينية.. فللإنسان ذلك، كما قال - ﷺ -: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، أي: لا أفتخر عليكم بالسيادة، إنما الفخر بالعبودية، والفخر بالذات لا يكون إلا لله وحده، وأما الفخر في عباده.. فإنما للرتب، فيقال: صفة العلم أفضل من صفة الجهل، ونحو ذلك.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التعجبي، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد أو على أي مخاطب، مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه: حذف حرف العلة، ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿تَرَ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما جرى بين المنافقين واليهود. والرؤية هنا نظرية تتعدى بإلى ﴿نَافَقُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة لبيان المتعجب منه، والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة القول وتجدده. ﴿لِإِخْوَانِهِمُ﴾: متعلق بـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿الَّذِينَ﴾: صفة ﴿لِإِخْوَانِهِمُ﴾ وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة ﴿الَّذِينَ﴾، ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: حال من ﴿إخوانهم﴾، ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم بصيغة اسم الفاعل؛ أي: مؤذنة وممهدة للقسم، لأنها آذنت بأن ما بعدها جواب للقسم لا جواب للشرط وممهدته له. ﴿إنْ﴾ حرف شرط جازم، ﴿أُخْرِجْتُمْ﴾: فعل ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، دلّ عليه جواب القسم، جرياً على القاعدة المشهورة عندهم من أنه إذا اجتمع شرط وقسم.. فالجواب للمتقدم منهما، وجواب المتأخر محذوف، تقديره: إن أخرجتم.. نخرج معكم. وجملة الشرط مع جوابه معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿لَنَخْرُجَنَّ﴾: ﴿اللام﴾ لام القسم مؤكدة للأولى، ﴿نخرجن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً يعود على المنافقين، تقديره: نحن. ﴿مَعَكُمْ﴾: ظرف مضاف متعلق

بـ﴿نخرجن﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿نُطِيعُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر يعود على المنافقين، ﴿فِيكُمْ﴾: متعلق بـ﴿نُطِيعُ﴾ ولكنه على حذف مضاف؛ أي: في خذلانكم. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به، ﴿أَبَدًا﴾: ظرف للنفي، متعلق بـ﴿نُطِيعُ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية معطوفة على ﴿نخرجن﴾ على كونها جواب القسم. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم، ﴿قُوتِلْتُمْ﴾: فعل، ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: ننصركم. وجملة الشرط ـ أيضاً ـ معترضة بين القسم المقدر قبلها وجوابه، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿ننصرن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على المنافقين، و﴿الكاف﴾: مفعول به، والجملة جواب للقسم المقدر قبل ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على القسم المذكور قبله على كونه مقولاً لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَشْهَدُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَاذِبُونَ﴾: خبره، و﴿اللام﴾ لام الابتداء مزحلقة عن محلها، ولأجلها كسرت همزة ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مفعول ﴿يَشْهَدُ﴾؛ لأنه في معنى القول.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَئِنْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿أُخْرِجُوا﴾: فعل ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: إن أخرجوا.. لا يخرجون معهم. وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَخْرُجُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مَعَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا

محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إنْ﴾ حرف شرط ﴿قُوتِلُوا﴾: فعل ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن قوتلوا.. لا ينصرونهم. وجملة الشرط معترضة. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَنصُرُونَهُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول، والجملة جواب القَسم، وجملة القَسم معطوفة على القَسم المذكور قبله. ﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿نَّصَرُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: وإن نصروهم.. يولون الأدبار، وجملة الشرط معترضة، ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿يولن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، ﴿ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم المذكور قبله. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُنصَرُونَ﴾: فعل مضارع، ونائب فاعل مرفوع بالنون، معطوف على ﴿يولن﴾.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَأَنتُمْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿أنتم﴾ مبتدأ، ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، ﴿رَهْبَةً﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، ﴿فِى صُدُورِهِم﴾ صفة لرهبة، أو متعلق به، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أَشَدُّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿قَوْمٌ﴾: خبره، وجملة ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب عدم فقههم لمصالحهم الدينية والدنيوية.

﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل ومفعول به، وضمير الفاعل يعود على اليهود، والجملة مستأنفة. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل ﴿يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾؛ أي:

مجتمعين. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿فِي قُرًى﴾: متعلق بـ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾: صفة لقرى، ﴿أو﴾ حرف عطف وتفصيل، ﴿مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على قوله: ﴿فِي قُرًى﴾. ﴿بَأۡسُهُم﴾: مبتدأ، ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: ظرف متعلق بـ﴿شَدِيدٌ﴾، و﴿شَدِيدٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حالهم. ﴿تَحۡسَبُهُمۡ﴾: فعل مضارع من أخوات ظن، وفاعل مستتر يعود على محمد مثلاً، ومفعول أول، ﴿جَمِيعًا﴾: مفعول ثان، والجملة مستأنفة، ﴿وَقُلُوبُهُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قلوبهم﴾: مبتدأ، ﴿شَتَّىٰ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من الهاء في ﴿تَحۡسَبُهُمۡ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿أنهم﴾: ناصب واسمه، ﴿قَوۡمٌ﴾ خبره، وجملة ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾: صفة قوم، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾، تقديره: ذلك كائن بسبب عدم عقلهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٥﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: مثلهم كائن كمثل الذين إلخ. والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿قَرِيبًاۖ﴾: ظرف متعلق بالاستقرار المحذوف الذي تعلق به ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾. ولك أن تعلقه بـ﴿ذَاقُواْ﴾ المذكور بعده. وعلقه الزمخشري بمضاف مقدر في الخبر؛ أي: كوجوه مثل الذين من قبلهم. أي: مثل اليهود من بني النضير فيما وقع لهم من الإجلاء والذل كمثل أهل مكة فيما وقع لهم يوم بدر قريباً من الهزيمة والقتل والأسر. ﴿ذَاقُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو من الضمير المستكن في الصلة. ﴿وَلَهُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لهم﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كائن ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، والجملة مستأنفة ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ولك أن تعلقه بمحذوف على أنه

حال من ﴿مثل الشيطان﴾ كأنه بيان له. وجملة ﴿قَالَ﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليه، ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿ٱكْفُرْ﴾ مقول لـ﴿قال﴾، ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فكفر، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الشيطان، والجملة جواب الشرط لـ﴿لما﴾. وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿مِّنكَ﴾: متعلق بـ﴿بَرِىٓءٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ﴾: خبره ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة أو بدل منه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ أيضاً.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَكَانَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، ﴿عَٰقِبَتَهُمَآ﴾: خبرها المقدم؛ أي: عاقبة الغاوي والمغوي. ﴿أَنَّهُمَا﴾: ناصب واسمه، ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: خبره، ﴿خَٰلِدَيْنِ﴾: حال من الضمير المستكن في خبر ﴿أن﴾. أعني: الجار والمجرور. وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مرفوع على أنه اسم كان مؤخر، تقديره: فكان كونهما في النار خالدين فيها عاقبتهما، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾. وقرىء ﴿عاقبتُهما﴾ بالرفع على أنه هو الاسم. و﴿أن﴾ وما في حيزها هو الخبر. ﴿فِيهَا ۚ﴾ متعلقان بـ: خالدين ﴿وَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ذلك﴾: مبتدأ، ﴿جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: خبر، ومضاف إليه. والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة أي، وجملة النداء مستأنفة. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَلْتَنظُرْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿تنظر﴾:

فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿نَفْسٌ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿تنظر﴾ وجملة ﴿قَدَّمَتْ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما قدمته. ﴿لِغَدٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدَّمَتْ﴾، وأطلق الغد على يوم القيامة تقريباً له. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على اتقوا الأول. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿خَبِيرٌ﴾: خبره، ﴿بِمَا﴾: متعلق بخبير، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالتقوى.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُونُوا﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿كَالَّذِينَ﴾: خبر تكونوا، وجملة النهي معطوفة على جملة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وجملة ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: صلة الموصول، ﴿فَأَنْسَاهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أنساهم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهَ﴾ ومفعول به أول، ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾. ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، أو مبتدأ ثان، ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿هُمُ﴾، والجملة خبر ﴿أُولَئِكَ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَسْتَوِي﴾: فعل مضارع، ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فاعل، ومضاف إليه ﴿وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ معطوفة على ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ ثان، ﴿الْفَائِزُونَ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿هُمُ﴾. والجملة مستأنفة.

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾.

﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم ﴿أَنْزَلْنَا﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾. ﴿هَذَا﴾: مفعول به، ﴿الْقُرْآنَ﴾: بدل منه، ﴿عَلَى جَبَلٍ﴾: متعلق بـ﴿أَنْزَلْنَا﴾، ﴿لَرَأَيْتَهُ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿رأيته﴾، فعل وفاعل ومفعول، ﴿خَاشِعًا﴾: مفعول ثان أو حال؛ لأن الرؤية تحتمل القلبية والبصرية.

﴿مُّتَصَدِّعًا﴾: نعت لـ﴿خَٰشِعًا﴾ أو حال ثانية ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾، وجملة رأى جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَتِلْكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿تلك﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْأَمْثَٰلُ﴾: بدل، وجملة ﴿نَضْرِبُهَا﴾: خبر، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿نَضْرِبُهَا﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر أول، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلَّذِى﴾: نعت للجلالة، ﴿لَآ﴾: نافية لجنس الخبر تعمل عمل إن، ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً، تقديره: موجود، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع، بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾ المحذوف، وجملة ﴿لا﴾ من اسمها، وخبرها صلة الذي. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: خبر ثان لـ﴿هو﴾. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْغَيْبِ﴾، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: خبر أول له، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان به. والجملة مستأنفة.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. والجملة الابتدائية مستأنفة، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صلة ﴿ٱلَّذِى﴾. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾: خبر ثان لـ﴿هو﴾، ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: خبر ثالث، ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: خبر رابع، ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: خبر خامس، ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: خبر سادس، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر سابع، ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: خبر ثامن، ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: خبر تاسع، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: أسبّح الله سبحاناً، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿سُبْحَٰنَ﴾، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: عن الذي يشركونه به، أو لما المصدرية. أي: عن إشراكهم. ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر،

والجملة مستأنفة. كرره اعتناءً بالتوحيد، ﴿ٱلۡخَٰلِقُ﴾: خبر ثان لـ﴿هُوَ﴾ ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾: خبر ثالث، ﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾: خبر رابع، ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: صفة للأسماء. والحسنى ضد السوءى. والجملة مستأنفة. ﴿يُسَبِّحُ﴾: فعل مضارع، ﴿لَهُ﴾ متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوفة على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: خبر أول له، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾؛ أي: أظهروا غير ما أضمروا، وبالغوا في إخفاء عقائدهم. قال الراغب: النفق: الطريق النافذ، والسرب في الأرض النافذ، ومنه: نافقاء اليربوع، وقد نافق اليربوع، ونفق، ومنه: النفاق، وهو: الدخول في الشرع في باب والخروج عنه من باب نبه على هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن الشرع.

﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾: جمع أخ في الدِّين، أو الصداقة، أو المعاملة. وأما الأخ من النسب فجمعه: إخوة. ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ﴾: و﴿اللام﴾: فيه موطئة للقسم بصيغة اسم الفاعل المؤنث؛ أي: مؤذنة بأن الجواب بعدها مبني على قسم مقدر قبلها، لا مبني على الشرط المذكور تقديره: والله لئن أخرجتم إلخ. ومن ثم تسمى: اللام المؤذنة، والموطئة، والممهدة؛ لأنها وطأت الجواب للقسم؛ أي: مهدته وهيأته له. ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ﴾: أصله، وإن قاتلوكم، ولما ضم أول الفعل لبنائه للمجهول قلبت الألف واواً. ﴿لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾: أي لنعاوننكم. ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ﴾: الواو فيه مبدلة من ألف فاعل، أصله: قاتلوا. فلما بني الفعل للمجهول وضم أوله قلبت الألف واواً لمناسبة الضمة. ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾: أصله ليوليونن، بثلاث نونات: الأولى نون الرفع، ثم نون التوكيد الثقيلة التي بمنزلة نونين، فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، فصار اللفظ: ليوليون، فالتقى ساكنان، فحذفت الواو، فصار: ليولين، فاستثقلت الضمة على الياء، ثم نقلت إلى ما قبلها، فالتقى ساكنان، فحذفت فصار وزنه: يفعن؛ أي: ليفرن هاربين. ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ﴾ والرهبة: مخافة مع تحزن واضطراب،

وهي هنا مصدر من رهب المبني للمفعول. أي: أشد مرهوبية. وذلك لأن ﴿أنتم﴾ خطاب للمسلمين، والخوف ليس واقعاً منهم بل من المنافقين، فالمخاطبون مرهوبون غير خائفين.

﴿إِلَّا فِي قُرًى﴾: جمع قرية، وهي مجتمع الناس للتوطن، وأصله: قري، بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف وصلاً لالتقائها ساكنة بنون التنوين. ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾؛ أي: محكمة بالدروب، والأبواب الواسعة، والخنادق، وما أشبه ذلك. أو محفوظة بالسوْر. ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾: جمع جدار، وهو كما مر كالحائط إلا أن الحائط يقال اعتباراً بالإحاطة بالمكان، والجدار يقال اعتباراً بالنتو والارتفاع، ولذا قيل: جدر الشجر، إذا خرج ورقه كأنه حمص، وجدر الصبي إذا خرج جدريه، تشبيهاً بجدر الشجر.

﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾: جمع شتيت، كمرضى جمع مريض. يقال: شت يشت شتاً، وشتاتاً وشتيتاً: فرق وافترق كانشت وتشتت، وجاؤوا أشتاتاً؛ أي: متفرقين في النظام، والعامة في ﴿شَتَّىٰ﴾ بلا تنوين؛ لأنها ألف تأنيث. ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ ﴿ذَاقُوا۟﴾ فيه القلب، أصله: ذوقوا، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. قال الراغب: الوبل والوابل: المطر الثقيل القطار، ولمراعاة الثقل قيل للأمر الذي يخاف ضرره: وبال. وطعام وبيل. ﴿أَمْرِهِمْ﴾: والأمر واحد الأمور لا الأوامر. أي: ذاقوا سوء عاقبة كفرهم. ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ يقال: برىء يبرأ فهو بريء، وأصل البرء والبراءة، والتبري: التقصي مما يكره مجاورته.

﴿لِغَدٍ﴾؛ أي: ليوم القيامة سمي بذلك لقربه، فكل آت قريب، كما قال:

وَإِنَّ غَــداً لِـنَــاظِــرِهِ قَــرِيْــبُ

وأصله: غدو، حذفوا الواو بلا عوض، واستشهد عليه بقول لبيد:

وَمَـا ٱلـنَّـاسُ إِلاَّ كَـٱلـدِّيَـارِ وَأَهْـلِـهَـا بِـهَـا يَـوْمَ حَـلُّـوُهـا وَغَـدْواً بَـلاقِـعُ

إذ جاء به على أصله، والبيت من أبيات العبرة.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أصل ﴿تَكُونُوا۟﴾: تكونون، بوزن تفعلون، نقلت حركة الواو إلى الكاف فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مد. ثم حذفت نون الرفع

للجازم. ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾: أصله: نسيوا، بوزن فعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم حذفت لما التقت ساكنة بواو الجماعة، وضمت السين لمناسبة الواو. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ﴾: فيه إعلال بالقلب، أصله: أنسيهم، بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾: الألف في ﴿ٱلنَّارِ﴾ منقلبة عن واو لتصغيرها على نويرة.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾: جمع فائز، وفيه إعلال بالإبدال، أصله: الفاوزون، أبدلت الواو همزة في الوصف حملاً له على الفعل فاز في الإعلال، حيث أعلّ فاز بقلب الواو ألفاً. ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال، وهو محركاً كل وتد للأرض عظم وطال، فإن انفرد.. فأكمة وقنة ـ بضم القاف ـ قيل: عدد جبال الدنيا ستة آلاف وست مئة وثلاثة وسبعون جبلاً سوى التلال، كما في «زهرة الرياض» ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾؛ أي: خاضعاً منقاداً متذللاً. قال بعضهم: الخشوع: انقياد الباطن للحق، والخضوع: انقياد الظاهر له. وقال بعضهم: الخضوع في البدن، والخشوع في الصوت والبصر. قال الراغب: الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل فيما يوجد في الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب. ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب.. خشعت الجوارح. ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾؛ أي: متشققاً ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من خوفه أن تعصيه فيعاقبه. والصدع: شق في الأجسام الصلبة، كالزجاج والحديد ونحوها، ومنه استعير الصداع، وهو: الانشقاق في الرأس من الوجع.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾: ما غاب عن الحس من العوالم التي لا نراها. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ما حضر من الأجرام المادية التي نشاهدها. ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: المنزه عن النقص. قال بعضهم: حقيقة القدس: الاعتلاء عن قبول التغير، ومنه: الأرض المقدسة؛ لأنها لا تتغير بملك الكافر كما يتغير غيرها من الأرضين. وأتبع هذا الاسم اسم الملك لما يعرض للملوك من تغير أحوالهم بالجور والظلم والاعتداء في الأحكام وفيما يترتب عليها. فإن ملكه تعالى لا يعرض له ما يغيره؛ لاستحالة ذلك في وصفه. ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾؛ أي: الذي سلم الخلق من ظلمه، إذ جعلهم على نظم كفيلة برقيهم. ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾؛ أي: واهب الأمن. فكل مخلوق يعيش في أمن، فالطائر في جوه، والحية في وكرها، والسمك في البحر تعيش كذلك، ولا يعيش قوم على الأرض ما

لم يكن هناك حراس يحرسون قراهم، وإلا . . هلكوا. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب على أمره. قال بعضهم: مِنْ عز، إذا غلب، فمرجعه القدرة المتعالية عن المعارضة والممانعة. أو من عز عزازة، إذا قل، فالمراد: عديم المثل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾؛ أي: الذي جبر خلقه على ما أراد وقسرهم عليه أي: قهرهم وأكرههم عليه. أو جبر أحوالهم أي: أصلحها. فعلى هذا يكون الجبار من الثلاثي لا من الإفعال. وجبر بمعنى أجبر لغة تميم وكثير من الحجازيين. واستدل بورود الجبار من يقول: إن أمثلة المبالغة تأتي من المزيد على الثلاثي، فإنه من أجبره على كذا أي: قهره. وقال الفراء: لم أسمع فعالاً من أفعل إلا في جبار ودراك، فإنهما من أجبر وأدرك.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾؛ أي: الذي تكبر وتعظم عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً، أو البليغ الكبرياء والعظمة. يعني: أن صيغة التفعل للتكلف بما لم يكن، فإذا قيل: تكبر وتسخى. . يدل على أنه يري ويظهر الكبر والسخاء، وليس بكبير ولا سخي. والتكلف بما لم يكن كان مستحيلاً في حق الله تعالى، وحمل على لازمه، وهو: أن يكون ما قام به من الفعل على أتم ما يكون وأكمله من غير أن يكون هناك تكلف واعتمال حقيقة. ومنه: ترحمت على إبراهيم؛ بمعنى: رحمته كمال الرحمة وأتممتها عليه. فإذا قيل: إنه تعالى متكبر. . كان المعنى: إنه البالغ في الكبر والعظمة أقصى المراتب.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تنزه ربنا عما يصفه به المشركون. ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾؛ أي: المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة. ﴿ٱلْبَارِئُ﴾؛ أي: المبرز لها على صفحة الوجود بحسب السنن التي وضعها والغرض الذي خلقت له. ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾؛ أي: الموجد للأشياء على صورها، ومختلف أشكالها، وألوانها كما أراد. فالتصوير آخراً، والتقدير أولاً، والبرء بينهما. اهـ. «كرخي». وفي «المختار»: وبرأ الله الخلق، من باب قطع؛ أي: خلقها. وفي «المصباح»: وأصل الخلق: التقدير، يقال: خلقت الأديم للسقاء، إذا قدرته له.اهـ.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الأسماء الدالة على محاسن المعاني التي تظهر في مظاهر هذا الوجود. فنظم هذه الحياة وبدائع ما فيها دليل على كمال صفاته،

وكمال الصفة يرشد إلى كمال الموصوف. ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: مؤنث الأحسن، الذي هو أفعل تفضيل، لا مؤنث أحسن المقابل لامرأة حسناء. وفي «القاموس»: ولا تقل رجل أحسن في مقابلة امرأة حسناء، وعكسه غلام أمرد، ولا يقال: جارية مرداء وإنما يقال: هو الأحسن على إرادة أفعل التفضيل، وجمعه: أحاسن. و﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: بضم الحاء والقصر: ضد السوءى. ا هـ. وفي «البحر» في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ ما نصه: قال الزمخشري: ولله الأسماء الحسنى التي هي أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة، من تحميد وتقديس وغير ذلك. ا هـ. فالحسنى هنا تأنيث الأحسن، ووَصَفَ الجَمْعَ الذي لا يَعقِلُ بما توصف به الواحدة، كقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، وهو فصيح، ولو جاء على المطابقة للجمع.. لكان التركيب: الحُسَنَ، على وزن الأُخَرَ؛ كقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. لأن جمع ما لا يعقل يخبر عنه، ويوصف بجمع المؤنث وإن كان المفرد مذكراً. ا هـ.

تتمة: ونقل صاحب «اللباب» عن الإمام الرازي أنه قال: رأيت في بعض كتب الذِّكر أن لله تعالى أربعة آلاف اسم: ألف منها في القرآن والأخبار الصحيحة وألف منها في التوراة، وألف منها في الإنجيل، وألف منها في الزبور. ا هـ. فلعل كونها تسعة وتسعين بالنظر إلى الأشهر الأشرف الأجمع. وتعدد الأسماء لا يدل على تعدد المسمى، لأن الواحد يسمى أباً من وجه، وجداً من وجه، وخالاً من وجه، وعالماً من وجه، وكريماً من وجه، وشجاعاً من وجه وذاته متحدة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التقريري التعجبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ للدلالة على استمرار قولهم، أو لاستحضار صورته الماضية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾؛ لأنه كناية عن الانهزام الملزوم لتولية الأدبار.

ومنها: الإطناب، بتكرار القسم في قوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ إلى آخر القسمات المذكورة هنا لغرض تأكيد الكلام.

ومنها: حذف جواب الشرط في كل القسمات المذكورة اختصاراً لدلالة جواب القسم عليه.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ لما فيه من إسناد ما للمفعول إلى الفاعل؛ لأن المخاطبين ـ وهم المسلمون ـ مرهوبون لا راهبون.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾؛ لأن الظرف متعلق بـ﴿شَدِيدٌ﴾، فتقديم المعمول على عامله يفيد الحصر.

ومنها: الطباق بين ﴿جَمِيعًا﴾ و﴿شَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

ومنها: ما في هذه الآية من اللطائف والنكت، وهو تشجيع قلوب المؤمنين على قتالهم، وتجسير لهم، وأن اللائق بهم الاتفاق والاتحاد صورة ومعنى، كما كان المؤمنون متفقين في عهد النبي ـ ﷺ ـ.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾؛ لأن الكفر مجاز عن الإغواء والإغراء، ففيه إطلاق المسبب وإرادة السبب؛ لأن الإغواء سبب للكفر.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، حيث استعار الغد الذي هو اسم لليوم الذي بعد يومك ليوم القيامة بجامع القرب في كل، وإن كان القرب في يوم القيامة مجازياً، لأن كل آتٍ قريب.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ وجه الشبه منتزع من أمور متعددة.

ومنها: الإتيان بضمير الفصل في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ إفادة للحصر؛ لأنه يستفاد منه: أن فسقهم كان بحيث إن فسق الغير كأنه ليس بفسق بالنسبة إليه.

ومنها: تقديم أصحاب النار في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ على أصحاب الجنة للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبىء عنه عدم الاستواء

من جهتهم لا من جهة مقابليهم، كما مر في مبحث التفسير مبسوطاً.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: نسوا حقوق الله تعالى، فأنساهم حظوظ أنفسهم.

ومنها: الطباق بين أصحاب النار وأصحاب الجنة في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ إلخ، وبين الجنة والنار أيضاً، وبين الغيب والشهادة في قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾؛ لأن لفظ المثل صار حقيقة عرفية في القول السائر، ثم استعير هنا لكل أمر غريب وصفة عجيبة الشأن تشبيهاً له بالقول السائر في الغرابة، لأنه لا يخلو عن غرابة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة من المقاصد والأغراض

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ تنزيه الله لنفسه عن كل نقص.

٢ ـ ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه.

٣ ـ تقسيم الفيء الذي أخذ من بني النضير مع ذكر المصارف التي يوضع فيها.

٤ ـ أخلاق المنافقين المضلين، وأخلاق أهل الكتاب الضالين مع ضرب المثل لهم.

٥ ـ ذكر نصائح للمؤمنين.

٦ ـ إعظام شأن القرآن، وإجلال قدره.

٧ ـ وصف الله سبحانه نفسه بأوصاف الجلال والكمال.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تم تفسير هذه السورة الكريمة بعون الله وتوفيقه قبيل صلاة المغرب من اليوم التاسع والعشرين من شهر شوال، يوم الخميس من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمسة عشر من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الممتحنة

سورة الممتحنة مدنية، نزلت بعد الأحزاب، قال القرطبي: في قول الجميع، وأخرج[1] ابن الضريس والنحاس وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الممتحنة بالمدينة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. والممتحنة ـ بكسر الحاء ـ اسم فاعل، أضيف الفعل إليها مجازاً، كما سميت: سورة براءة، والفاضحة؛ لكشفها عن عيوب المنافقين. وقيل: الممتحَنة ـ بفتح الحاء ـ اسم مفعول، أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، لقوله: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ . . .﴾ الآية. وهي امرأة عبد الرحمٰن بن عوف، والدة إبراهيم بن عبد الرحمٰن. ا هـ. «قرطبي». وفي «زاده»: الممتحِنة ـ بكسر الحاء ـ: المختبرة، أضيفت السورة إلى الجماعة الممتحنة من حيث إنه ذكر فيها أمر جماعة المؤمنين بالامتحان، وإن فتحت الحاء.. يكون المعنى: سورة المرأة المهاجرة التي نزلت فيها آية الامتحان. ا هـ.

وآياتها: ثلاث عشرة آية، وكلماتها: ثلاث مئة وثمان وأربعون كلمة، وحروفها: ألف وخمس مئة وعشر.

تسميتها: تسمى سورة الممتحنة كما مرّ لذكر الامتحان فيها. وتسمى[2] سورة براءة، وسورة المبعثرة، وسورة الفاضحة.

مناسبتها لما قبلها من وجهين[3]:

١ ـ أنه ذكر في السابقة موالاة الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب، وذكر هنا نهي المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء لئلا يشبهوا المنافقين.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

٢ ـ أنه ذكر في السابقة المعاهدين من أهل الكتاب، وذكر هنا المعاهدين من المشركين.

وعبارة أبي حيان هنا[١]: ومناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه لما ذكر فيما قبلها حالة المنافقين والكفار افتتح هذه بالنهي عن موالاة الكفار والتودد إليهم. انتهت.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال ابن حزم[٢]: سورة الممتحنة فيها من المنسوخ ثلاث آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ. . .﴾ الآية (٨)، نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ. . .﴾ الآية (٩). وهذا مما نسخ فيه العموم بتفسير الخصوص.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ. . .﴾ الآية (١٠)، فنسخت بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ. . .﴾ الآية (١٠). وقيل: نسخت بقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ. . .﴾ الآية.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ. . .﴾ إلى قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ. . .﴾ الآية (١١)، نسخت بآية السيف.

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما روي[٣] عن النبي ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة الممتحنة.. كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاءَ يوم القيامة». ذكره «البيضاوي» ولكن هذا حديث لا أصل له.

فائدة: في ذكر تسمية هذه السورة بالممتحنة ـ بكسر الحاء ـ على صيغة اسم الفاعل: لعل[٤] هذا الاسم مأخوذ من قوله تعالى فيما بعد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾. أمر الله المؤمنين هناك بالامتحان، فهم الممتحنون ـ بكسر الحاء ـ حقيقة، وأضيف الامتحان إلى السورة مجازاً، فسميت بسورة الممتحنة للمبالغة. ويحتمل أن يكون المراد الجماعة

---

(١) البحر المحيط.
(٢) ابن حزم.
(٣) البيضاوي.
(٤) روح البيان بتصرف.

الممتحنة؛ أي: المأمور بامتحانها. ويؤيده ما روي: أنه قد تفتح الحاء، فيكون المراد النساء المختبرة، فالإضافة بمعنى اللام التخصيصية؛ أي: السورة التي تذكر فيها النساء الممتحنة؛ أي: المختبرة، مثل: سورة البقرة وأمثالها. ويحتمل أن يكون مصدراً ميمياً بمعنى الامتحان، على ما هو المشهور من أن المصدر الميمي وأسماء المفعول والزمان والمكان فيما زاد على الثلاثي تكون على صيغة واحدة؛ أي: سورة الامتحان، مثل سورة الإسراء وغيرها. انتهى من «الروح».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣﴾ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

المناسبة

قد سبق لك قريباً بيان المناسبة بين هذه السورة والسابقة. وأما قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ...﴾ الآيات، فمناسبتها لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى لما أنكر عليهم موالاتهم للكافرين، وذكر لهم الموانع التي تمنع من ذلك؛ كإخراجهم من الديار، وتمني الكفر لهم، وصدهم عن هداية الدِّين، وكفرهم بالرسول وبما جاء به، وأنهم متى وجدوا سبيلاً لأذاهم بقول أو فكر سلكوه غير آبهين لصلة رحم ولا قربى.. أكد هنا ذلك فأمرهم أن يأتسوا بإبراهيم

(١) المراغي.

وأصحابه؛ إذ تبرؤوا من قومهم وعادوهم، وقالوا لهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾. قال الفراء فكأنه يقول: أفلا تأسيت ـ يا حاطب ـ بإبراهيم حين تبرأ من أهله، ولتعلم أن الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرا الإيمان.

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهاهم عن موالاة الكفار وإلقاء المودة إليهم، وضرب لهم المثل بإبراهيم وقومه حملهم ذلك على أن يظهروا براءتهم من أقربائهم والتشدد في معاداتهم ومقاطعتهم، وكان ذلك عزيزاً على نفوسهم ويتمنون أن يجدوا المخلص منه.. أردف ذلك سبحانه أنه سيغير من طباع المشركين ويغرس في قلوبهم محبة الإسلام، فيتم التواد والتصافي بينكم وبينهم، وفي ذلك إزالة الوحشة من قلوب المؤمنين، وتطييب لقلوبهم. وقد أنجز الله وعده، فأتاح للمسلمين فتح مكة، فأسلم قومهم وتمّ لهم ما كانوا يريدون من التحاب والتواد. ثم رخص لهم في صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: أن سارة ـ التي كانت مغنية ونائحة بمكّة ـ أتت المدينة تشكو الحاجة، فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بني عبد المطلب أن يعطوها ما يدفع حاجتها، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها، فجاءها حاطب بن أبي بلتعة ـ مولى عبد الله بن حميد بن عبد العزى ـ فأعطاها عشرة دنانير، وكتب معها كتاباً ـ إلى أهل مكة، هذا صورته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: إن رسول الله ـ ﷺ ـ يريدكم، فخذوا حذركم. فأخبره جبرئيل به، فبعث إليها علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرشد ـ وكانوا فرساناً ـ وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ـ موضع ـ فإن بها ظعينة امرأة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلوها، فإن أبت.. فاضربوا عنقها. فأدركوها، فجحدت وحلفت فهموا بالرجوع، فقال علي: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ـ ﷺ ـ، وسل سيفه وقال لها: أخرجي الكتاب أو ألقي ما معك من الثياب، فأخرجته من

عقاص شعرها، فأحضر رسول الله ـ ﷺ ـ حاطباً وقال له: ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله! لا تعجل عليَّ، ما كنتُ كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرأً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني. فصدقه رسول الله ـ ﷺ ـ وقبل عذره. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال ـ ﷺ ـ: إنه شهد بدراً، وما يدريك؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآيات.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: أتتني أمي راغبة، فسألت النبي ـ ﷺ ـ: أأصِلها. قال: «نعم». فأنزل الله سبحانه فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

وأخرج أحمد والبزار والحاكم، وصححه عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قُتيلة ـ مصغراً ـ بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية، فقدمت بهدايا صنابٍ ـ صباغ يتخذ من الخردل أو الزبيب وأقط وسمن ـ وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخل بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن تسأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن هذا، فسألت، فأنزل الله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ...﴾ الآية، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها.

وقال الحسن وأبو صالح: نزلت الآية في خزاعة، وبني الحارث بن كعب، وكنانة، ومزينة، وقبائل من العرب كانوا صالحوا رسول الله ـ ﷺ ـ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾؛ أي: لا تجعلوا ﴿عَدُوِّى﴾ في الدين، مفعول أول، ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ في القتل، معطوف عليه، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي:

أصدقاء لأنفسكم، مفعول ثان. وأضاف[1] سبحانه العدوّ إلى نفسه تعظيماً لجرمهم. والعدو مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة. والآية تدل على النهي عن موالاة الكفار ومصادقتهم بوجه من الوجوه. وقد تقدم ذكر القصة التي نزلت فيها الآية، وفي تلك القصة إشارة[2] إلى جواز هتك ستر الجواسيس وهتك أستار المفسدين إذا كان فيه مصلحة أو في ستره مفسدة، وأن من تعاطى أمراً محظوراً ثم ادعى له تأويلاً محتملاً.. قبل منه، وأن العذر مقبول عند كرام الناس.

روي: أن حاطباً ـ رضي الله عنه ـ لما سمع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان، لما علم أن الكتاب المذكور ما أخرجه عن الإيمان؛ لسلامة عقيدته. ودل قوله: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ على إخلاصه؛ فإن الكافر ليس بعدو للمنافق بل للمخلص.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم﴾؛ أي: توصلون إلى أولئك الأعداء ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: بالمحبة بالكتاب. والمودة: محبة الشيء وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين. أي: توصلون محبتكم بالمكاتبة ونحوها من الأسباب التي تدل على المودة، على أن الباء زائدة في المفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾. أو تلقون إليهم أخبار النبي ـ ﷺ ـ وأسراره بسبب المودة، التي بينكم وبينهم. فيكون المفعول محذوفاً للعلم به، والباء للسببية، والجملة حال من فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾؛ أي: لا تتخذوهم أولياء حال كونكم ملقين المودة إليهم. ويجوز[3] أن تكون الجملة مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته، أو لتفسير موالاتهم إياهم. ويجوز أن تكون في محل نصب صفة لأولياء. وفي «فتح الرحمٰن»: بدأه هنا بـ﴿تُلْقُونَ﴾ وفيما سيأتي بـ﴿تُسِرُّونَ﴾ تنبيهاً بالأول على ذم مودة الأعداء جهراً وسراً، وبالثاني على تأكيد ذمها سراً، وخص الأول بالعموم لتقدمه.

فإن قلت[4]: قد نهوا عن اتخاذهم أولياء مطلقاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾، والتقييد بالحال يوهم جواز اتخاذهم أولياء إذا

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

انتفى الحال.

قلت: عدم جوازه مطلقاً لما علم من القواعد الشرعية تبين أنه لا مفهوم للحال هنا ألبتة.

فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ والعداوة والمحبة لكونهما متنافيين لا يجتمعان في محل واحد، والنهي عن الجمع بينهما فرع إمكان اجتماعهما؟

قلت: إنما كان الكفار أعداء للمؤمنين بالنسبة إلى معاداتهم لله ورسوله، ومع ذلك يجوز أن يتحقق بينهم الموالاة والصداقة بالنسبة إلى الأمور الدنيوية والأغراض النفسانية، فنهى الله عن ذلك.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿تُلْقُونَ﴾ أو من فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار. و﴿الْحَقِّ﴾ هو القرآن، أو دين الإسلام، أو الرسول - ﷺ -.

وقرأ الجمهور[1] ﴿بِمَا جَاءَكُمْ﴾ بالباء الموحدة. وقرأ الجحدري والمعلى عن عاصم ﴿لما جاءكم﴾ باللام مكان الباء. أي: لأجل ما جاءكم من الحق، على حذف المكفور به. أي: كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سبباً للكفر توبيخاً لهم.

والمعنى[2]: يا أيها الذين آمنوا لا تجعلوا الكفار أنصاراً وأعواناً وأصدقاء لكم، حال كونكم توصلون إليهم أخبار الرسول - ﷺ - التي لا ينبغي لأعدائه أن يطلعوا عليها، من خطط حربية أو أعمال نافعة في نشر دِينه وبث دعوته، بسبب ما بينكم وبينهم من مودة.

ثم ذكر مما يمنع هذا الاتخاذ أمرين:

١ - ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ...﴾ إلخ. أي: والحال أنهم قد كفروا بالله ورسوله، وكتابه الذي أنزله عليكم، فكيف بكم بعد هذا تجعلونهم أنصاراً وتسرون إليهم بما ينفعهم ويضر رسولكم ويعوق نشر دينكم!؟

---

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.

٢ - ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ حال من فاعل كفروا؛ أي: كفروا مخرجين الرسول وإياكم من مكة. والمضارع لاستحضار الصورة الماضية.

وقوله تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليل للإخراج. أي: يخرجونكم لأجل إيمانكم، أو كراهة أن تؤمنوا. وفيه[١] تغليب المخاطب على الغائب. أي: على الرسول. والالتفات من التكلم إلى الغيبة، حيث لم يقل: أن تؤمنوا بي للإشعار بما يوجب الإيمان من الألوهية والربوبية؛ أي: يخرجون الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، ولم يكن لهم جريمة سوى ذلك. وفي هذا تهييج لهم على عداوتهم وعدم موالاتهم.

ثم زادهم تهييجاً بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ من مكة إلى المدينة ﴿جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ ونشر ديني ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾؛ أي: وطلباً لمرضاتي. وهذا مرتبط بـ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾، وجواب الشرط محذوف؛ أي: إن كنتم كذلك.. فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، فكأنه قيل: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي. وانتصاب ﴿جِهَـٰدًا﴾. ﴿وَٱبْتِغَآءَ﴾ على أنهما مفعولان لأجله لـ﴿خَرَجْتُمْ﴾. أي: إن كنتم خرجتم عن أوطانكم لأجل هذين.. فلا تتخذوهم أولياء، ولا تلقوا إليهم بالمودة. أو على الحال؛ أي[٢]: إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين مرضاتي عنكم.. فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم. والجهاد - بالكسر -: القتال مع العدو، كالمجاهدة، كما سيأتي بسطه. والمرضاة: مصدر كالرضا. وفي عطف ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ على ﴿جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ تصريح بما علم التزاماً. فإن الجهاد في سبيل الله إنما هو لإعلاء دين الله لا لغرض آخر. وإسناد الخروج إليهم معللاً بالجهاد والابتغاء يدل على أن المراد من إخراج الكفرة كونهم سبباً لخروجهم بأذيتهم لهم، فلا ينافي تلك السببية كون إرادة الجهاد والابتغاء علة له.

وقوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ والنصيحة، استئناف وارد على[٣] نهج العتاب والتوبيخ، كأنهم سألوا: ماذا صدر عنا حتى عوتبنا؟ فقيل: تلقون إليهم بالمودة سراً على أن الباء صلة جيء بها لتأكيد التعدية، أو الإخبار بسبب المودة، ويجوز أن يكون تعدية الإسرار بالباء لحمله على نقيضه الذي هو الجهر. وقيل: هو بدل من

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

قوله: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم﴾ بدل بعض لأن إلقاء المحبة يكون سراً وجهراً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ﴾ حال من فاعل ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ أي: تسرون إليهم بالمودة والنصيحة، والحال أني أعلم منكم ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾؛ أي: بما أضمرتم في صدوركم من مودة الأعداء ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾؛ أي: وما أظهرتم بألسنتكم من الاعتذار وغير ذلك. فإذا علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي.. فأي فائدة في الإسرار والاعتذار. والباء في ﴿بِمَآ﴾ زائدة، يقال: علمت كذا، وعلمت بكذا. وهذا على أن ﴿أَعْلَمُ﴾ مضارع. وقيل: هو أفعل تفضيل. أي: أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون.

ثم توعد من يفعل ذلك، وشدد النكير عليه، وذكر ما فيه أعظم الزجر، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ﴾؛ أي: يفعل الاتخاذ المنهي عنه. أي: ومن يفعل ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ما نهيت عنه من موالاتهم. والأقرب عَوْدُ الضمير إلى الإسرار. أي: ومن يفعل إسرار النصيحة للكفار ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: طريق الحق والصواب الموصل إلى الفوز بالسعادة الأبدية. وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف. و﴿ضَلَّ﴾ متعد، و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مفعوله. ويجوز أن يجعل قاصراً وينتصب ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ على الظرفية.

قال القرطبي[1]: هذا كله معاتبة لحاطب وهو يدل على فضله ونصيحته لرسول الله - ﷺ - وصدق إيمانه، فإن المعاتبة لا تكون إلا من حبيب لحبيب كما قيل من الوافر:

إِذَا ذَهَبَ ٱلْعِتَابُ فَلَيْسَ وُدٌّ ... وَيَبْقَى ٱلْوُدُّ مَا بَقِيَ ٱلْعِتَابُ

والعتاب: إظهار الغضب على أحد لشيء مع بقاء المحبة بالترك. وقال بعضهم: العتاب: لوم الحبيب حبيبه على أمر غير لائق به، كما في الدمنهوري في العروض.

وفي الآية[2] إشارة إلى عداوة النفس والهوى والشيطان، فإنها تبغض عبادة الله، وتبغض عباد الله أيضاً إذا لم يكونوا مطيعين لها في إنفاذ شهواتها وتحصيل

---

(١) قرطبي.
(٢) روح البيان.

مراداتها. وأصل عداوة النفس: أن تقطعها من مألوفاتها، وتحبسها في مجلس المجاهدة. وعلامة حب الله: بغض عدو الله. وقال - ﷺ -: «أفضل الإيمان: الحب في الله والبغض في الله».

والمعنى[1]: .ومن يفعل هذه الموالاة، ويبلغ أخبار الرسول - ﷺ - لأعدائه.. فقد جار عن قصد الطريق التي توصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى.

ثم ذكر أموراً أخرى تمنع موالاتهم، فقال:

١ - ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾؛ أي: يظفروا بكم، ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً﴾؛ أي: يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة، ويرتبوا عليها أحكامها، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم. أو إن يلقوكم ويصادفوكم.. يظهروا لكم العداوة. والمعنيان متقاربان. والثَّقَفُ[2]: الحذق في إدراك الشيء وفعله، ومنه: المثاقفة: وهي: طلب مصادفة الغرة في المسابقة؛ أي: إن يظفر بكم هؤلاء الذين تسرون إليهم بالمودة.. يكونوا حرباً عليكم ويفعلوا بكم الأفاعيل.

٢ - ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ﴾ يمدوا ويطيلوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالسوء. أي: بالقتل والأسر والضرب. ﴿و﴾ يبسطوا إليكم ﴿ألسنتهم بالسوء﴾؛ أي: بالشتم والسب والطعن في دينكم.

والمعنى: أي ويمدوا أيديهم وألسنتهم لقتالكم وأذاكم وسبكم وشتمكم، فكيف ترونهم على هذه الحال، وتتخذونهم أصدقاء وأولياء؟!. ﴿وَوَدُّواْ﴾؛ أي: تمنوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ بربكم؛ أي: ارتدادكم وكونكم مثلهم في الكفر الذي هم عليه، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾. فكلمة ﴿لَوْ﴾ هنا مصدرية وصيغة الماضي للإيذان بتحقق ودادتهم قبل أن يثقفوهم أيضاً، فهو معطوف على ﴿يبسطوا﴾.

والخلاصة: أن هؤلاء يودون لكم كل ضرر وأذى في دينكم ودنياكم، فكيف بكم بعد هذا تمدون إليهم حبال المودة وتوثقون عرا الإخاء؟ فهذا مما لا يرشد إليه عقل، ولا يهدي إليه دين.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ثم ذكر أن ما جعلوه سبباً من المحافظة على الأهل والأولاد لا ينبغي أن يقدم على شؤون الدِّين، فقال: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾؛ أي: قراباتكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين توالون المشركين لأجلهم. وتتقربون إليهم محاماة عليهم. جمع ولد، بمعنى: المولود، يعم الذكر والأنثى. وخصهم بالذِّكر[1] مع دخولهم في الأرحام لمزيد المحبة لهم والحنو عليهم. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بجلب نفع أو دفع ضر. ظرف لقوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾، فيوقف عليه ويبتدأ بما بعده.

ثم بين السبب في عدم نفعهم، فقال: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ استئناف لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد يومئذ. أي: يفرق الله بينكم بما اعتراكم من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر. حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ الآية. فما لكم ترفضون حق الله تعالى أي فكيف ترفضون أوامر الله تعالى لمراعاة حق من يفر منكم غداً؟. وقيل: يفرق بين الوالد وولده وبين القريب وقريبه، فيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار.

والمعنى[2]: أن هؤلاء لا ينفعونكم حتى توالوا الكفار لأجلهم، كما وقع في قصة حاطب بن أبي بلتعة، بل الذي ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار وترك موالاتهم. وقيل: الظرف متعلق بما بعده؛ أي: يفصل بينكم يوم القيامة.

ثم أوعد من يفعل ذلك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتقولون: ﴿بَصِيرٌ﴾ سميع، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأقوالكم فيجازيكم على ذلك. وهو أبلغ من خبير؛ لأنه جعله كالمحسوس بحاسة البصر، مع أن المعلوم هنا أكثره المبصرات من الكتاب والإتيان بمن يحمل الكتاب وإعطاء الأجرة للحمل وغيرها، فهو تعالى محيط بأعمالكم جميعها ومجازيكم عليها إن خيراً.. فخير وإن شراً فشر، فاتقوا الله في أنفسكم واحذروه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿يُفْصَلُ﴾ بالياء مخففاً مبنياً للمفعول. وقرأ الأعرج، وعيسى، وابن عامر كذلك، إلا أنه مشدد، والمرفوع إما: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وهو مبني على الفتح لإضافته إلى مبني، وإما ضمير المصدر المفهوم من ﴿يَفْصِلُ﴾؛ أي: يفصل

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

هو؛ أي: الفصل. وقرأ عاصم والحسن والأعمش ﴿يَفصِلُ﴾ بالياء مخففاً مبنياً للفاعل. وحمزة والكسائي وابن وثاب مبنياً للفاعل بالياء المضمومة مشدداً. وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة كذلك إلا أنه بالنون مشدداً. وهما أيضاً وزيد بن علي بالنون المفتوحة مخففاً مبنياً للفاعل، وأبو حيوة أيضاً بالنون المضمومة. فهذه ثمان قراءات.

ولما نهى عن موالاة الكفار.. ذكر قصة إبراهيم عليه السلام،وأن من سيرته: التبرؤ من الكفار؛ ليقتدوا به في ذلك، ويتأسوا، فقال: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾؛ أي: خصلة حميدة ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام، تقتدون بها وتتبعونه فيها. وقرأ الجمهور[1]: ﴿إسوة﴾ بكسر الهمزة في الموضعين. وقرأ عاصم بضمها كذلك. وهما لغتان. قال الراغب: الإسوة والأسوة بالضم والكسر كالقدوة والقدوة، هي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، إن حسناً وإن قبيحاً، وإن ساراً وإن ضاراً. والأسى ـ بالقصر ـ: الحزن، وحقيقته: إتباع الفائت بالغم. وقوله: ﴿أُسۡوَةٌ﴾: اسم كانت و﴿لَكُمۡ﴾ خبرها، و﴿حَسَنَةٞ﴾: صفة أسوة، مقيدة إن عمت الأسوة المحمودة والمذمومة، وكاشفة مادحة إن لم تعم. و﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: صفة ثانية لأسوة، أو متعلق بأسوة أو بحسنة، أو حال من الضمير المستتر في ﴿حَسَنَةٞ﴾، أو خبر كان، و﴿لَكُمۡ﴾: للبيان. ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾؛ أي: مع إبراهيم. معطوف على إبراهيم، وهم أصحابه المؤمنون. وقال ابن زيد: هم الأنبياء. قال الفراء: فكأنه يقول: أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم فتتبرأ من أهلك كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه.

وفي «كشف ما يلتبس من القرآن»[2]: قاله هنا بتأنيث الفعل مع الفاصل لقربه وإن جاز التذكير، وأعاده في قوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ بتذكيره مع الفاصل لكثرته وإن جاز التأنيث. وإنما كرر ذلك لأن الأول في القول والثاني في الفعل، وقيل: الأول في إبراهيم والثاني في محمد ـ ﷺ ـ. انتهى.

والمعنى[3]: قد كانت خصلة حميدة حقيقة بأن يؤتسى ويقتدى بها، ويتبع أثرها في إبراهيم والذين معه. وقولهم: لي في فلان أسوة؛ أي: قدوة، من باب

---

(١) الشوكاني. (٢) فتح الرحمن. (٣) روح البيان.

التجريد، لا أن فلاناً نفسه هو القدوة. ويجوز أن يكون على حذف المضاف؛ أي: لي في سنته وأفعاله وأقواله. وقيل: المراد بالذين معه الأنبياء الذين كانوا في عصره وقريباً منه. وقال ابن عطية: وهذا القول أرجح؛ لأنه لم يرد أن إبراهيم كان له أتباع مؤمنون في مكافحة نمرود. وفي البخاري: أنه قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً بلاد نمرود: ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ ظرف[1] لخبر كان، ومعمول له أو لكان نفسها عند من جوّز عملها في الظرف، وهو الأصح. أو بدل اشتمال من إبراهيم والذين معه. أي: وقت قولهم ﴿لِقَوْمِهِمْ﴾ أي: لقرابتهم الكفار مع أنهم أكثر من عدوكم وأقوى، وقد كان من آمن بإبراهيم أقل منكم وأضعف. ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾: جمع بريء مثل: شركاء وشريك، وظريف وظرفاء. أي: بريئون من صحبتكم وقرابتكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام؛ أي: من عبادتها معكم. أظهروا البراءة أولاً من أنفسهم مبالغة، وثانياً من عملهم الشرك، إذ المقصود من البراءة أولاً من معبودهم هو البراءة من عبادته. ويحتمل أن تكون البراءة منهم أن لا يصاحبوهم، ولا يخالطوهم، ومن معبودهم أن لا يقربوا منه ولا يلتفتوا نحوه. ويحتمل أن تكون البراءة منهم بمعنى البراءة من قرابتهم؛ لأن الشرك يفصل بين القرابات ويقطع الموالاة.

والمعنى[2]: أي قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمٰن، تقتدون به وبالذين معه من أتباعه المؤمنين حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله وعبدوا الطاغوت: أيها القوم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد.

وحاصل معنى الآية: هلاَّ فعلتم كما فعل إبراهيم، حيث تبرأ هو والمؤمنون معه من أبيه وقومه لكفرهم بالله وآياته؟

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بُرَءَٰٓؤُا۟﴾ بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين، جمع بريء، كظريف وظرفاء. وقرأ عيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق: ﴿براء﴾ بكسر

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

الباء وهمزة واحدة بعد ألف، جمع بريء أيضاً، كظريف وظراف، وكريم وكرام. وقرأ أبو جعفر: ﴿براء﴾ بضم الباء وهمزة بعد ألف كتؤام وظؤار. وهم اسم جمع، الواحد: بريء، وتؤم، وظئر. ورويت عن عيسى، قال أبو حاتم: زعموا أن عيسى الهمداني رووا عنه ﴿بَرَاء﴾ على وزن فعال كالذي في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ في الزخرف. وهو مصدر على فعال، يوصف به المفرد والجمع.

ثم فسر هذه البراءة بقوله: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾؛ أي: أنكرنا دينكم فلا نعتد بشأنكم وبآلهتكم، فهو على حذف المضاف. والكفر مجاز عن عدم الاعتداد والجحد والإنكار، فإن الدِّين الباطل ليس بشيء؛ إذ الدِّين الحق عند الله هو الإسلام. ﴿وَبَدَا﴾؛ أي: ظهر ﴿بَيۡنَنَا﴾ ظرف لـ﴿بدا﴾ ﴿وَبَيۡنَكُمُ﴾: معطوف عليه ﴿ٱلۡعَدَٰوَةُ﴾ الظاهرة، وهي: المباينة في الأفعال والأقوال. ﴿وَٱلۡبَغۡضَآءُ﴾؛ أي: العداوة الباطنة. وهي: المباينة بالقلوب. ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: على الدوام. أي: هذا دأبنا معكم لا نتركه. والبغض: ضد الحب. ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لـ ﴿بدا﴾. ﴿تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فتنقلب العداوة حينئذٍ ولاية، والبغضاء محبة، والمقت مِقة، والوحشة ألفة. فالبغض: نفور النفس من الشيء الذي ترغب عنه. والحب: انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه.

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ ولا بدّ في الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؟

قلت: الإيمان بالله في حال وحدته يستلزم الإيمان بالجميع، مع أن المراد الوحدة الإلٰهية رداً للأصنام.

قال بعض المشايخ: أسوة إبراهيم: خلة الله، والتبرؤ مما سوى الله، والتخلق بخلق الله، والتأوه والبكاء من شوق الله. وقال ابن عطاء رحمه الله تعالى: الأسوة القدوة بالخليل في الظاهر من الأخلاق الشريفة، وهو: السخاء، وحسن الخلق، واتباع ما أمر به على الكرب، وفي الباطن: الإخلاص في جميع الأفعال، والإقبال عليه في كل الأوقات، وطرح الكل في ذات الله تعالى. وأسوة رسول الله - ﷺ - في الظاهر العبادات، دون البواطن والأسرار؛ لأن أسراره لا يطيقها أحد من الخلق؛ لأنه باين الأمة بالمكان ليلة المعراج ووقع عليه تجلي الذات. انتهى.

أمر الله سبحانه وتعالى أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقتدوا بسيدنا إبراهيم عليه السلام ومن معه من الأنبياء والأولياء. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يا أبي، فليس لكم الاقتداء بإبراهيم في ذلك الاستغفار، لأنه إنما استغفر لأبيه لأجل موعدة وعدها إياه؛ لأنه ظن أنه أسلم، فلما مات على الكفر.. تبرأ منه، وأنتم لا تظنون إسلام الكفار الذين اتخذتموهم أولياء، فهو استثناء متصل من قوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وصح ذلك؛ لأن القول من جملة الأسوة، كأنه قيل: قد كانت أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله وأفعاله إلا قوله لأبيه. أو من قوله: ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بتقدير مضاف محذوف ليصحّ الاستثناء؛ أي: قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم، إلا قوله لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾. أو من التبرؤ والقطيعة التي ذكرت؛ أي: لم يواصله إلا قوله. ذكر هذا ابن عطية. أو منقطع؛ أي: لكن قول إبراهيم لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فلا تتأسوا به فتستغفرون للمشركين، فإنه كان من موعدة وعدها إياه. أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظنّ أنه قد أسلم، فلما تبين له أنه عدو الله.. تبرأ منه، كما تقدم آنفاً.

والمعنى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: جحدنا ما أنتم عليه من الكفر، وأنكرنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله. فلا نعتد بكم ولا بآلهتكم، فإن ما أنتم عليه لا تقره العقول الراجحة ولا الأحلام الحصيفة، فما قيمة الأحجار والأصنام التي تتخذونها معبودات ترجون منها النفع والضرّ؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ...﴾ إلخ.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ أي[1]: وها نحن أولاء قد أعلنا الحرب عليكم، فلا هوادة بيننا وبينكم، وسيكون هذا دأبنا معكم لا نترككم بحال حتى تتركوا ما أنتم عليه من الشرك فتنقلب العداوة ولاية والبغضاء محبة. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ إلخ؛ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو الله.. تبرأ منه.

وقد كان بعض المؤمنين يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه.. فأنزل الله عز وجلّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ

---

(١) المراغي.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ...﴾ الآيتين في سورة براءة.

والخلاصة: لا تجاملوهم ولا تبدوا لهم الرأفة، وتستغفروا لهم كما فعل إبراهيم لأبيه؛ لأنه إنما استغفر له قبل أن يتبين له أنه عدو الله، فلما مات على الكفر.. تبين له ذلك فترك الاستغفار، وأنتم قد استبانت لكم عداوتهم بكفرهم بالرسول وإخراجكم من الديار فلا ينبغي أن تستغفروا لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ من تمام القول المستثنى، فمحله النصب على أنه حال من فاعل لأستغفرن لك؛ أي: أستغفر لك، وليس في طاقتي إلا الاستغفار دون منع العذاب إن لم تؤمن. فمورد الاستثناء نفس الاستغفار لا قيده الذي هو في نفسه من خصال الخير؛ لكونه إظهاراً للعجز وتفويضاً للأمر إلى الله تعالى.

وفي هذه الآية[1] دلالة بينة على تفضيل نبينا محمد - ﷺ - وذلك أنه حين أمر بالاقتداء به أمر على الإطلاق ولم يستثن، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾، وحين أمر بالاقتداء بإبراهيم استثنى، وأيضاً قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾﴾. فأطلق الاقتداء ولم يقيده بشيء.

والخلاصة: أي وليس في وسعي إلا الاستغفار لك، ولا أستطيع أن أنفعك بأكثر من هذا، فإن أراد الله عقوبتك على كفرك.. فلا أدفعها عنك.

ثم أخبر عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم، ولجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه، فقال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا﴾ إلخ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان من دعاء إبراهيم وأصحابه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا﴾ واعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ بالتوبة عن المعصية والإقبال على الطاعة؛ أي: المرجع في الآخرة. وتقديم الجار والمجرور في الثلاثة لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله تعالى. وهذا من دعاء إبراهيم وأصحابه، ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها. وقيل: هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول. والتوكل: هو تفويض الأمورإلى

---

(١) روح البيان.

الله. والإنابة: الرجوع إليه بالتوبة. والمصير: المرجع إليه في الآخرة للمجازاة.

وعبارة «الكشّاف»: فإن قلت: بم اتصل به قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾؟

قلت: بما قبل الاستثناء، وهو من جملة الأسوة الحسنة. ويجوز أن يكون المعنى: قولوا ربنا ـ أمراً من الله تعالى للمؤمنين بأن يقولوه وتعليماً منه لهم ـ تتميماً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار، والاستئساء بإبراهيم وقومه في البراءة منهم، وتنبيهاً على الإنابة إلى الله، والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر، والاستغفار مما فرط منهم. أي: فهو مقول لقول محذوف. انتهى.

والمعنى[1]: أي ربنا اعتمدنا عليك في قضاء أمورنا، ورجعنا إليك بالتوبة مما تكره إلى ما تحب وترضى، ومصيرنا إليك يوم تبعثنا من قبورنا وتحشرنا إلى موقف العرض والحساب.

قالوه بعد المجاهدة وشق العصا التجاءً إلى الله تعالى في جميع أمورهم، لا سيما في مدافعة الكفرة وكفاية شرورهم، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا﴾ بدل من الأول، وكذا قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ فيما بعده. ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾؛ أي: مفتونين ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: بأيديهم بأن تسلطهم علينا فيفتونا بعذاب لا نطيقه، فالفتنة بمعنى المفعول، وقال الزجاج[2]: لا تظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا، وقال بعضهم: ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا فتقتر علينا الرزق وتبسطه عليهم فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل. ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا من الذنوب وإلا كان سبباً لظهور العيوب وباعثاً للابتلاء المهروب ﴿رَبَّنَا﴾ تكرير النداء للمبالغة في التضرع والجؤار، فيكون لاحقاً بما قبله، ويجوز أن يكون سابقاً لما بعده توسلاً إلى الثناء بإثبات العزة والحكمة، والأول أظهر وعليه ميل السجاوندي حيث وضع علامة الوقف الجائز على ﴿رَبَّنَا﴾ وهو في اصطلاحه ما يجوز فيه الوصل، والفصل باعتبارين، وتلك العلامة الجيم بمسماه وهو «ج». ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه، ولا يخيب رجاء من توكل عليه. ﴿الْحَكِيمُ﴾ لايفعل إلا ما فيه حكمة بالغة.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

والمعنى: واستر لنا ذنوبنا بعفوك عنها، إنك أنت الذي لا يضام من لاذ بجنابه، الحكيم في تدبير خلقه وصرفه إياهم فيما فيه صلاحهم.

ثم أعاد ما تقدم مبالغة في الحث على الائتساء بإبراهيم عليه السلام، ومن معه، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في إبراهيم ومن معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وقدوة حميدة. وكرر[1] هذا للمبالغة في الحث على الائتساء به عليه السلام، ولذلك صدر بالقسم. وجعله الطيبي من التعميم بعد التخصيص. وفي «برهان القرآن»: كرر لأن الأول في القول والثاني في الفعل. وفي «فتح الرحمٰن»: الأولى أسوة في العداوة، والثانية في الخوف والخشية. وفي «كشف الأسرار»: الأولى متعلقة بالبراءة من الكفار ومن فعلهم، والثانية أمر بالائتساء بهم لينالوا من ثوابهم ما نالوا وينقلبوا إلى الآخرة كانقلابهم. ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ سبحانه بالإيمان بلقائه ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بالتصديق بوقوعه. وقيل: يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة. أو يطمع في الخير من الله في الدنيا والآخرة؛ لأن الرجاء والخوف يتلازمان. والرجاء[2]: ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة. وفي «المفردات»: الرجاء والطمع: توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة. والخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، كما سيأتي.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ...﴾ إلخ: بدل من ﴿لَكُمْ﴾ بدل بعض من كل، وفائدته: الإيذان بأن من آمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم، وإنَّ تَرْكَه مِنْ مخايل عدم الإيمان بهما كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾؛ أي: يعرض عن الائتساء بهم، ويمل إلى مودة الكفار، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿الْغَنِيُّ﴾ عنه وعن سائر خلقه ﴿الْحَمِيدُ﴾؛ أي: المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله، فإنه مما يوعد بأمثاله الكفرة.

أي: ومن يعرض عن الاقتداء بهم في التبرؤ من الكفار ومن والاهم.. فإن الله هو الغني وحده عن خلقه وعن موالاتهم ونصرتهم لأهل دينه، لم يتعبدهم لحاجته إليهم، بل هو ولي دينه وناصر حزبه، وهو الحميد المستحق للحمد في ذاته.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وحاصل معنى الآية[1]: أي لقد كان لكم - أيها المؤمنون - قدوة حسنة في إبراهيم ومن آمن معه من أتباعه المؤمنين، لمن كان منكم يرجو لقاء الله وجزيل ثوابه والنجاة في اليوم الآخر. ومن أعرض عما ندبه الله إليه منكم وأدبر واستكبر ووالى أعداء الله وألقى إليهم بالمودة.. فلا يضرن إلا نفسه، فإن الله غني عن إيمانه وطاعته، بل عن جميع خلقه، محمود بأياديه وآلائه عليهم. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

وقال مقاتل[2]: لما أمر الله تعالى المؤمنين بعداوة الكفار شددوا في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقاربهم.. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: حقق الله سبحانه وتعالى ﴿أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أيهاالمؤمنون ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ من كفار مكة ﴿مَّوَدَّةً﴾؛ أي: محبة وصلة بمخالطتهم من أهل الإسلام، وذلك بأن أسلموا فيصيروا من أهل دينكم، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة، وحسن إسلامهم، ووقعت بينهم وبين من تقدمهم في الإسلام مودة، وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقربة إلى الله سبحانه، منهم: أبو سفيان بن حرب، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام. ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾؛ أي[3]: مبالغ في القدرة، فيقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: فيغفر لمن أسلم من المشركين. ﴿رَّحِيمٌ﴾: فيرحمهم بقلب معاداة قلوبهم موالاة. وقيل: غفور لما فرط منكم في موالاتهم من قبل، ولما بقي في قلوبكم من ميل رحيم.

والمعنى[4]: حقق الله أن يجعل بينكم وبين أعدائكم من كفار مكة محبة بعد البغض، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة، والله قدير على ما يشاء، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة، غفور لخطيئة من ألقى إليهم بالمودة إذا تابوا منها، رحيم بهم أن يعذبهم بعد التوبة. وقد تم ذلك بفتح مكة حين دخل المشركون في دين الله أفواجاً، وتم بينهم التصافي والتصاهر، وكان بينهم أتم ما يكون من وثيق الصلات. كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾. وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

ثم أباح لهم صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار، فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ﴾ صلة ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ أي: على الدين، أو في حق الدِّين وإطفاء نوره ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وأوطانكم؛ أي: لا ينهاكم الله سبحانه عن مبرة هؤلاء، فإن قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ وتحسنوا إليهم بدل من[1] الموصول بدل اشتمال. لأن بينهم وبين البرّ ملابسة بغير الكلية والجزئية، فكان المنهي عنه برهم بالقول وحسن المعاشرة، والصلة، بالمال لا أنفسهم. وقوله: ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ تفسير لتبروا معطوف عليه. وضمن تقسطوا معنى الإفضاء، فعدي تعديته. أي: تفضوا إليهم بالقسط والعدل ولا تظلموهم، وناهيك بتوصية الله المؤمنين أن يستعملوا القسط مع المشركين ويتحاموا ظلمهم مترجمة عن حال مسلم يجترىء على ظلم أخيه المسلم كما في «الكشاف». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ أي: العادلين في المعاملات كلها.

ومعنى الآية[2]: أن الله سبحانه لا ينهر عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل. قال ابن زيد: كان هذا في أول الإسلام، عند الموادعة وترك الأمر بالقتال، ثم نسخ. قال قتادة: نسختها آية: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾. وقيل: هذا الحكم كان باقياً في الصلح بين النبي - ﷺ - وبين قريش، فلما زال الصلح بفتح مكة.. نسخ الحكم. وقيل: هي خاصة في حلفاء النبي - ﷺ - ومن بينه وبينه عهد، قاله الحسن. وقال الكلبي: هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف. وقال مجاهد: هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا. وقيل: هي خاصة بالنساء والصبيان. وحكى القرطبي - عن أكثر أهل التأويل - أنها محكمة.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

وعبارة المراغي: ومعنى الآية[1]: أي لا ينهاكم الله عن الإحسان إلى الكفار الذين لم يقاتلوكم في الدِّين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يعاونوا على إخراجكم، وهم: خزاعة وغيرهم ممن كانوا عاهدوا رسول الله ـ ﷺ ـ على ترك القتال والإخراج من الديار، فأمر الله رسوله ـ ﷺ ـ بالبر والوفاء لهم إلى مدة أجلهم.

وفي الآية مدح للعدل؛ لأن المرء به يصير محبوباً لله سبحانه. ومن الأحاديث الصحيحة: قوله ـ ﷺ ـ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمٰن وكلتا يديه يمين». والمراد بهم الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا عليه.

ثم زاد الأمر إيضاحاً وبياناً، فقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وإطفاء نوره ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وهم عتاة أهل مكة وجبابرتهم ﴿وَظَٰهَرُوا۟﴾؛ أي: عاونوا الذين قاتلوكم ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم في عهدهم ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ وتناصروهم. بدل اشتمال من الموصول، كما سبق. أي: إنما ينهاكم أن تتولوهم. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾؛ أي: ومن يحبهم ويناصرهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ﴾ لا غيرهم ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بإقبالها على العذاب. أي: الكاملون في الظلم؛ لأنهم تولوا من يستحق المعاداة لكونه عدواً لله ولرسوله ولكتابه، فوضعوا المحبة موضع العداوة، فظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب. وحساب المتولي أكبر وفساد التولي أكثر، ولذلك أورد كلمة الحصر تغليظاً، وجمع الخبر باعتبار معنى المبتدأ.

والخلاصة[2]: أي إنما ينهاكم عن موالاة الذين ناصبوكم العداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم، أو عاونوا على إخراجكم كمشركي مكة؛ فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين، وبعضهم أعان المخرجين. وأكد الوعيد على موالاتهم بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنهم تولوا غير الذين يجوز لهم أن يتولوهم، ووضعوا ولايتهم في غير موضعها، وخالفوا أمر الله في ذلك.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿ها﴾: حرف تنبيه، جملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أي﴾، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، و﴿الواو﴾: فاعل، وجملة النهي جواب النداء. ﴿عَدُوِّي﴾: مفعول أول، ومضاف إليه، ﴿وَعَدُوَّكُمۡ﴾: معطوف على ﴿عَدُوِّي﴾، ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: مفعول ثان، ﴿تُلۡقُونَ﴾: فعل، وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾. ويجوز أن تكون في موضع نصب، صفةً لأولياء ويجوز أن تكون تفسيرية، لا محل لها من الإعراب؛ لموالاتهم إياهم. وقيل: هي مستأنفة للإخبار بذلك. ﴿إِلَيۡهِم﴾: متعلق بـ﴿تُلۡقُونَ﴾. ﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾: متعلق بـ﴿تُلۡقُونَ﴾ أيضاً، ﴿وَقَدۡ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة حال من ضمير ﴿إِلَيۡهِم﴾ أو من ﴿عَدُوِّي﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾، وجملة ﴿جَآءَكُم﴾ من الفعل والفاعل المستتر صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿جَآءَكُم﴾.

﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾: معطوف على الرسول. والجملة مستأنفة أو مفسرة لكفرهم، فلا محل لها من الإعراب على الحالين. ويجوز أن تكون حالاً من فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾، ﴿رَبِّكُمۡ﴾: بدل من الجلالة، وجملة ﴿أَن﴾: المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله؛ أي: يخرجون الرسول وإياكم لإيمانكم بالله ربكم. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه

فعل شرط لها، وجملة ﴿خَرَجْتُمْ﴾ خبر ﴿كنتم﴾، و﴿جِهَٰدًا﴾: مفعول لأجله؛ أي: لأجل الجهاد، أو حال من فاعل خرجتم؛ أي: حال كونكم مجاهدين في سبيلي. ﴿فِي سَبِيلِي﴾: متعلق بـ﴿جِهَٰدًا﴾، ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾: معطوف على جهاداً، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أي: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، وابتغاء مرضاتي.. فلا تتخذوهم أولياء. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿تُسِرُّونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْهِم﴾: متعلق به، ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾: متعلق به أيضاً، والمفعول محذوف؛ أي: تسرون إليهم النصيحة، أو ﴿الباء﴾: زائدة في المفعول، والجملة الفعلية إما مستأنفة أو بدل من ﴿تُلْقُونَ﴾ بدل بعض من كل، لأن إلقاء المودة أعم من السرّ والجهر، ﴿وَأَنَا۠﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿أنا﴾: مبتدأ، ﴿أَعْلَمُ﴾: خبر على أنه اسم تفضيل، و﴿بِمَآ﴾ متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿أَخْفَيْتُمْ﴾ صلة ﴿ما﴾ والعائد محذوف تقديره: بما أخفيتموه ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ معطوف على ﴿أَخْفَيْتُمْ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿تُسِرُّونَ﴾. ويجوز أن يكون ﴿أَعْلَمُ﴾ فعلاً مضارعاً. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَفْعَلْهُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً لاقتران الجواب بـ﴿قد﴾ الحرفية، ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: مفعول به، وقيل: منصوب على الظرفية إن قلنا: إن ﴿ضَلَّ﴾: لازم، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿يَكُونُوا۟﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿لَكُمْ﴾: حال من أعداء؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿أَعْدَآءً﴾: خبر ﴿يَكُونُوا۟﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَكُونُوا۟﴾. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يبسطوا﴾، ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾: مفعول به، ﴿وَأَلْسِنَتَهُم﴾: معطوف عليه، ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: متعلق بمحذوف حال

من الأيدي والألسنة، أي: حالة كونها متلبسة بالسوء. ﴿وَوَدُّوا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ودوا﴾: فعل ماض وفاعل، ﴿لَوْ﴾: مصدرية، وجملة ﴿تَكْفُرُونَ﴾ صلتها، وجملة ﴿لَوْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ أي: وودوا كفركم. والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ③﴾.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾: فعل، ومفعول به ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾: فاعل، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾: معطوف على أرحامكم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تَنفَعَكُمْ﴾؛ أي: لن تنفعكم يوم القيامة أرحامكم، فيوقف عليه. أو متعلق بما بعده؛ أي: يفصل بينكم يوم القيامة. والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿يَفْصِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿بَيْنَكُمْ﴾ متعلق بـ: يفصل ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية، و﴿بَصِيرٌ﴾: خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لَكُمْ﴾: خبرها المقدم، ﴿أُسْوَةٌ﴾: اسمها المؤخر، ﴿حَسَنَةٌ﴾: نعت لـ﴿أُسْوَةٌ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: نعت آخر لـ﴿أُسْوَةٌ﴾، أو حال منها؛ لأنها وصفت، أو حال من الضمير المستكن في ﴿حَسَنَةٌ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على إبراهيم، ﴿مَعَهُۥٓ﴾: ظرف صلة ﴿الذين﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، بدل اشتمال من قوله: ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وجملة ﴿قَالُوا۟﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها، ﴿لِقَوْمِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾. وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه ﴿بُرَءَٰٓؤُا۟﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق بـ﴿بُرَءَٰٓؤُا۟﴾، ﴿وَمِمَّا﴾: معطوف على ﴿مِنكُمْ﴾ وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من العائد المحذوف، أو

من ﴿ما﴾، ﴿كَفَرْنَا﴾ فعل وفاعل، و﴿بِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرْنَا﴾، والجملة مفسرة للتبرؤ منهم ومما يعبدون، أو حال من الضمير المستكن في ﴿بُرَءَٰٓؤُا﴾؛ أي: تبرأنا منكم حال كوننا كافرين بكم. ﴿وَبَدَا﴾: فعل ماض، ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف متعلق بـ﴿بَدَا﴾، ﴿وَبَيْنَكُمُ﴾: معطوف على ﴿بَيْنَنَا﴾، ﴿ٱلْعَدَٰوَةُ﴾: فاعل، ﴿وَٱلْبَغْضَآءُ﴾: معطوف عليه، ﴿أَبَدًا﴾: متعلق بـ﴿بَدَا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كَفَرْنَا﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿تُؤْمِنُوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ: أن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُؤْمِنُوا﴾، ﴿وَحْدَهُۥٓ﴾: حال من الجلالة. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾؛ أي: إلى إيمانكم بالله وحده، الجار والمجرور متعلق بكل من ﴿كَفَرْنَا﴾ ﴿وَبَدَا﴾.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل، ﴿قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: مستثنى من ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: منصوب، لأن القول من جملة الأسوة، فكأنه قيل: لكم فيه أسوة حسنة في جميع أحواله، من قول وفعل إلا قوله كذا. وقيل: هو استثناء منقطع، والمعنى: لكن قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرن لك، فلا تتأسوا فيه. ﴿لِأَبِيهِ﴾: متعلق بـ﴿قَوْلَ﴾، ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أستغفرن﴾: فعل مضارع، في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنا. والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿أستغفرن﴾، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: حالية أو عاطفة؛ لأن الجملة من تمام قول إبراهيم. ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَمْلِكُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم ﴿لك﴾: متعلق بـ﴿أَمْلِكُ﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بمحذوف حال ﴿مِن شَىْءٍ﴾؛ لأنه في الأصل صفة لشيء، ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿شَىْءٍ﴾: مفعول أملك، وجملة ﴿أَمْلِكُ﴾: في محل النصب حال من فاعل ﴿أستغفرن﴾؛ أي: لأستغفرن لك حالة كوني غير مالك لك من الله شيئاً غير استغفاري، أو معطوفة على ﴿أستغفرن﴾. ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا . . .﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾؛ لأنه من تتمة مقول إبراهيم ومن معه، فهو من جملة المستثنى منه، فيتأسى بهم فيه، فهو من المعنى مقدم على الاستثناء، وجملة الاستثناء اعتراضية في خلال المستثنى منه. وإن شئت

قلت: ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف، وجملة النداء، وما بعدها في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿تَوَكَّلْنَا﴾، و﴿تَوَكَّلْنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿وَإِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَنَبْنَا﴾ وجملة ﴿أَنَبْنَا﴾ معطوف على ﴿تَوَكَّلْنَا﴾. ﴿وَإِلَيْكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إليك﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف أيضاً، ﴿لَا﴾: ناهية؛ أي: دعائية، سلوكاً مسلك الأدب مع الباري سبحانه، ﴿تَجْعَلْنَا﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به أول، مجزوم بـ﴿لَا﴾ الدعائية، ﴿فِتْنَةً﴾: مفعول ثان، وهو مصدر بمعنى المفعول كما قاله «البيضاوي»؛ أي: لا تجعلنا مفتونين بهم، بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا طاقة لنا باحتماله، أو بمعنى الفاعل؛ أي: لا تجعلنا فاتنين لهم بأن ينتصروا علينا، وتسول لهم أنفسهم أنهم على حق. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿فِتْنَةً﴾ على الحالين، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها جواب النداء، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، كرره للتأكيد. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنتَ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾ أو خبر ﴿أَنتَ﴾ والجملة خبر ﴿إنَّ﴾. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان على كل حال.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم لها، ﴿فِيهِمْ﴾: حال من ﴿أُسْوَةٌ﴾ أو متعلق بـ﴿كَانَ﴾. ﴿أُسْوَةٌ﴾: اسمها مؤخر، ﴿حَسَنَةٌ﴾: صفة ﴿أُسْوَةٌ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة مؤكدة للأولى. ﴿لِّمَن﴾: جار ومجرور بدل بعض من كل من قوله: ﴿لَكُمْ﴾ بإعادة الجار. وقيل: بدل اشتمال ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾، وجملة ﴿يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾: خبر كان، ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول، ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَتَوَلَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾

على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة للجواب، والجواب محذوف تقديره: فإن وبال توليه على نفسه. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ، ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾: خبر لـ﴿إن﴾ أو لـ﴿هُوَ﴾، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾ مسوقة لتعليل الجواب المحذوف.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾.

﴿عَسَى﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء، ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب، ﴿يَجْعَلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف في موضع المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾، ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿عَادَيْتُم﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف؛ أي: وبين الذين عاديتموهم، ﴿مِّنْهُم﴾: حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أو من العائد المحذوف، ﴿مَّوَدَّةً﴾: مفعول أول لـ﴿يَجْعَلَ﴾، وجملة ﴿يَجْعَلَ﴾: صلة ﴿أَنْ﴾ المصدرية ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونها خبر ﴿عَسَى﴾، ولكنه على تأويل المشتق؛ أي: عسى الله جاعلاً، أو على حذف مضاف؛ أي: ذا جعل، أو عسى، بمعنى: حق، والمصدر المؤول مفعول به؛ أي: حقق الله جَعْلَ مودة بينكم وبينهم. وجملة ﴿عَسَى﴾ مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان للجلالة.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾.

﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل، ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَنْهَىٰكُمُ﴾، وجملة ﴿لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ صلة الموصول، ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم﴾: معطوف على ﴿لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، ﴿مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يُخْرِجُوكُم﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب، ﴿تَبَرُّوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ﴿أَنْ﴾، وعلامة نصبه حذف النون، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور على أنه بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل اشتمال؛ أي: لا ينهاكم عن برهم وصلتهم. ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تَبَرُّوهُمْ﴾، ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تقسطوا﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَنْهَىٰكُمُ﴾، وجملة ﴿قَٰتَلُوكُمْ﴾ صلة الموصول، ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿قَٰتَلُوكُمْ﴾، ﴿وَأَخْرَجُوكُم﴾: معطوف على ﴿قَٰتَلُوكُمْ﴾، ﴿مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أخرجوكم﴾، ﴿وَظَٰهَرُوا۟﴾: معطوف على ﴿قاتلوكم﴾ أيضاً، ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿ظاهروا﴾، وجملة ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ في تأويل مصدر مجرور على أنه بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل اشتمال مثل ما مر آنفاً. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَتَوَلَّهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول به، مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿هُمُ﴾ والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التي بينكم وبينهم. وأصله: تلقيون بوزن تفعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت.. التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت القاف لمناسبة الواو. ﴿تسرون﴾: أصله: تسررون بوزن تفعلون، نقلت حركة الراء الأولى إلى السين، فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾: الود: محبة الشيء وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين. ﴿جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾: والجهاد ـ بالكسر ـ: القتال مع العدو كالمجاهدة، وفي «التعريفات»: هو الدعاء إلى الدِّين الحق. وفي «المفردات»: الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، وهو جهاد العدو الظاهر، وجهاد الشيطان، وجهاد النفس، ويكون باليد واللسان. والمرضاة مصدر كالرضا. ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾: أفعل تفضيل؛ أي: من كل أحد. ويصح أن يكون فعلاً مضارعاً عدي بالباء؛ لأنك تقول: علمت بكذا. ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ في «المصباح»:

ثقفت الشيء ثقفاً من باب تعب: أخذته، وثقفت الرجل في الحرب: أدركته، وثقفته: ظفرت به، وثقفت الحديث: فهمته بسرعة، والفاعل: ثقيف. ا هـ. وفي «الروح»: الثقف: الحذق في إدراك الشيء وفعله، وثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر، ثم قد تجوز به فاستعمل في الإدراك وإن لم يكن معه ثقافة كما في هذا الموضع ونحوه. ا هـ.

﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾؛ أي: يظهروا العداوة لكم. وفيه إعلال بالإبدال، أصله: أعداو أبدلت الواو همزة لتطرفها إثر ألف أفعال الزائدة. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: أخطأ طريق الحق والصواب، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، و﴿ضَلَّ﴾: متعد، و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: مفعوله كما مر. ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: أصله، وددوا، أدغمت الدال الأولى بعد تسكينها في الثانية، فهو من باب فعل، بكسر العين في الماضي، وفتحها في المستقبل. ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾؛ أي: قراباتكم. قال الراغب: الرحم: رحم المرأة، وهي في الأصل: وعاء الولد في بطن أمه. ومنه: استعير الرحم للقرابة، لكونهم خارجين من رحم واحد. ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾: جمع ولد، بمعنى المولود، يعم الذكر والأنثى. ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال الراغب: الإسوة: بالكسر والأسوة بالضم كالقدوة والقدوة وزنا ومعنى، وهي: الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. يجمع على أسى، بضم الهمزة وكسرها. والأسى: الحزن. وحقيقته: إتباع الفائت بالغم. ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾: جمع بريء، كظريف وظرفاء. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا﴾ يقال: بدا الشيء بدوا وبداءً؛ أي: ظهر ظهوراً بيناً، والبادية: كل مكان يبدو ما يعن فيه؛ أي: يعرض. ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ وفي «المفردات»: الرجاء والطمع: توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة. والخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة. وفي بعض كتب التفاسير: الرجاء يجيء بمعنى توقع الخير، وهو الأمل، وبمعنى توقع الشر، وهو الخوف، وبمعنى التوقع مطلقاً. وهو في الأول حقيقة، وفي الأخيرين مجاز، وفي الثاني من قبيل ذكر الشيء وإرادة ضده، وهو جائز، وفي الثالث من قبيل ذكر الخاص وإرادة العام، وهو كثير.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾: فيه إعلال بالقلب، أصله: ينهيكم بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿تَبَرُّوهُمْ﴾: أصله: تبررونهم، حذفت نون الرفع للناصب

﴿أن﴾ ثم نقلت حركة الراء الأولى إلى الباء فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. فهو مضارع بر، من باب فعل بكسر العين، يفعل بفتحها. ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أصله: تتوليونهم، حذفت نون الرفع لدخول الناصب، وحذفت إحدى التاءين للتخفيف، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم لما التقت ساكنة مع واو الجماعة.. حذفت.

﴿يَتَوَلَّهُمْ﴾: أصله: يتولي بوزن يتفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وحذفت للجازم، فوزنه يتفع.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: صيغة المضارع في قوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ لاستحضار الصورة الماضية.

ومنها: تغليب المخاطب على الغائب أي: على الرسول في قوله: ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، حيث لم يقل؛ أن تؤمنوا بي، للإشعار بما يوجب الإيمان من الألوهية والربوبية.

ومنها: عطف ﴿وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ على ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾ تصريحاً بما علم التزاماً. فإن الجهاد في سبيل الله إنما هو لإعلاء كلمة الله ودينه، لا لغرض آخر.

ومنها: إسناد الخروج إليهم في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾ إلخ. معللاً بالجهاد والابتغاء للدلالة على أن المراد من إخراج الكفرة كونهم سبباً لخروجهم بأذيتهم لهم، فلا ينافي تلك السببية كون إرادة الجهاد والابتغاء علة له.

ومنها: الطباق بين ﴿أَخْفَيْتُمْ﴾ و﴿أَعْلَنتُمْ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ للإيذان بتحقق ودادتهم قبل أن يثقفوهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾. لأن

الرحم حقيقة في وعاء الولد في بطن أمه، ثم استعير للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة.

ومنها: تقديم الجار والمجرور على عامله في قوله: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله تعالى.

ومنها: تكرير المنادى في قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ للمبالغة في التضرع والجؤار، فيكون لاحقاً بما قبله. ويجوز أن يكون سابقاً لما بعده توسلاً إلى الثناء بإثبات العزة والحكمة لله، والأول أظهر.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ...﴾ الآية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

المناسبة

واعلم: أن الكافر المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة:

١ ـ أن يستمر على عناده، وإلى مثله أشار بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ. . .﴾ الآية.

٢ ـ أن يرجى منه أن يترك العناد، وإلى مثله أشار بقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾.

٣ ـ أن يترك العناد ويستسلم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ . . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين.. اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام خوفاً من موالاة الكفار، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة فبين أحكام المهاجرات من النساء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن موالاة المشركين وذكر الموانع التي تمنع من موالاتهم ثم أوعد على ذلك. ولما كان الأمر

في ذلك جد خطير في سياسة الدولة الإسلامية ونشر الملة... كرر النهي عن موالاة الكافرين مرة أخرى، يهوداً كانوا أو نصارى؛ ليكون عظة وذكرى لحاطب بن أبي بلتعة ومن نحا نحوه ممن يفضلون توثيق الصلات الدنيوية على مصلحة الدعوة الدينية ويجعلون شؤون الدنيا مقدمة على شؤون الدين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: أنه لما جرى الصلح مع مشركي مكة عام الحديبية على أن من أتى النبي - ﷺ - من أهل مكة يرده إليهم وإن كان مسلماً، جاءت سُبيعة - بصيغة التصغير - بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي بالحديبية، فأقبل زوجها - وكان كافراً، وهو صيفي بن الراهب، وقيل: مسافر المخزومي - فقال: يا محمد! أردد عليّ امرأتي فأنت شرطت ذلك، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد. فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ...﴾ الآية، ا هـ. «خطيب». فاستحلفها رسول الله - ﷺ - فحلفت، فأعطى زوجها ما أنفق، وتزوجها عمر بن الخطاب. ا هـ. «بيضاوي».

وأخرج البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: أن رسول الله - ﷺ - لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. وأخرجه أيضاً من حديثهما بأطول من هذا، وفيه: وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله - ﷺ -، وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون رسول الله - ﷺ - برجعها إليهم حتى أنزل الله في المؤمنات ما أنزل.

وقد اختلف العلماء في المرأة التي كانت سبباً لنزول هذه الآية على ثلاثة أقوال[1]:

أحدها: أنها سبيعة، وقد ذكرناه عن ابن عباس.

والثاني: أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وقد ذكرناه عن جماعة من أهل

---

(١) زاد المسير.

العلم، وهو المشهور.

والثالث: أميمة بنت بشر، من بني عمرو بن عوف، ذكره أبو نعيم الأصبهاني.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن منيع من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب فتأخرت امرأته في المشركين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر، ومحمد بن إسحاق، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عبد الله بن عمر وزيد بن حارثة يودان رجالاً من يهود، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا...﴾ الآية.

وقيل: إن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين يتقربون إليهم بذلك ليصيبوا من ثمارهم وطعامهم فنزلت هذه الآية، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (٣١٨) بغير سند، ولم يعزه لأحد، وكذلك البغوي والخازن في «تفسيرهما».

التفسير وأوجه القراءة

ولما ذكر سبحانه حكم فريقي الكافرين في جواز البرّ والإقساط للفريق الأول دون الفريق الثاني.. ذكر حكم من يظهر الإيمان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾؛ أي[1]: بدلالة ظاهر حالهن وإقرارهن بلسانهن، أو المشارفات للإيمان. ولا بعد أن تكون التسمية بالمؤمنات لكونهن كذلك في علم الله، وذلك لا ينافي امتحان غيره تعالى حال كونهن ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ من بين الكفار، متنقلات إليكم. فهو حال من المؤمنات. وذلك أن النبي - ﷺ - لما صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاءهم من المسلمين، فلما هاجر إليه النساء.. أبى الله أن يردن إلى المشركين وأمر بامتحانهن، فقال: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾؛ أي: فاختبروهن بما يغلب به على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن في

(١) روح البيان.

الإيمان. قيل: إنه من أرادت إضرار زوجها.. قالت سأهاجر إلى محمد - ﷺ -، فلذلك أمر النبي - ﷺ - بامتحانهن. وقرىء: ﴿مهاجرات﴾ بالرفع على البدل من المؤمنات، ذكره في «البحر».

وقد اختلف فيما كان يمتحن به[1]:

فقيل: يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج، ولا رغبة من أرض إلى أرض،ولا لالتماس دنيا، بل حباً لله ولرسوله ورغبة في دينه. وكان رسول الله - ﷺ - يقول للممتحنة: بالله الذي لا إلٰه إلا هو ما خرجت من بغض زوج، بالله ما خرجت رغبة من أرض إلى أرض، بالله ما خرجت التماس دنيا، بالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله ورغبة في الإسلام، بالله ما خرجت عشقاً لرجل من المسلمين؟ فإذا حلفت كذلك.. أعطى النبي - ﷺ - زوجها مهرها وما أنفق عليها، ولا يردها على زوجها.

وقيل: الامتحان: هو أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقيل: ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله - ﷺ - الآية، وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلى آخرها.

واختلف العلماء: هل دخل النساء في عهد الهدنة أم لا، على قولين فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد، وبه قال الأكثر، وعلى القول بعدمه لا نسخ ولا تخصيص.

والمعنى[2]: أي إذا جاءكم - أيها المؤمنون - النساء اللاتي نطقن بالشهادة، ولم يظهر منهن ما يخالف ذلك، مهاجرات من بين الكفار.. فاختبروا حالهن، وانظروا هل توافق قلوبهن ألسنتهن، أو هن منافقات؟

ثم ذكر جملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ليتبين أن الامتحان يفيد معرفة الظاهر فحسب، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾؛ لأنه المطلع على ما في قلوبهن، فلا حاجة له إلى الامتحان، وليس ذلك للبشر فيحتاج إليه. وفي هذا بيان أنه لا سبيل إلى الإحاطة بحقيقة إيمانهن، فإن ذلك مما استأثر الله

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

بعلمه.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ بعد الامتحان الذي أمرتم به ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾ العلم الذي يمكنكم تحصيله، وهو: الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات. وإنما سماه علماً إيذاناً بأنه جار مجرى العلم في وجوب العمل به، ففي ﴿عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ استعارة كما سيأتي. ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: من الرجع[1]، بمعنى الرد، لا من الرجوع، ولذلك عدي إلى المفعول. وهذا هو الحكم الأول.

أي: فإن غلب على ظنكم إيمانهن بالحلف وغيره مما يورث اطمئنان قلوبكم على إسلامهن.. فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين.

ثم بيّن العلة في النهي عن رجعهن إليهم بقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾؛ أي: لا المؤمنات حلاً للكفار. وقرأ طلحة: ﴿لا هن يحللن لهم﴾. ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾؛ أي: ولا الكفار يحلون للمؤمنات، يعني: لا تحل مؤمنة لكافر لشرف الإيمان، ولا نكاح كافر لمسلمة لخبث الكفر. والتكرير إما لتأكيد الحرمة، وإلا.. لكفى نفي الحل عن أحد الجانبين، أو لأن الأول لبيان زوال النكاح الأول، والثاني لبيان امتناع النكاح الجديد. ﴿وَءَاتُوهُم﴾: وهذا هو الحكم الثاني. أي: وأعطوا أزواجهن ﴿مَّآ أَنفَقُوا۟﴾؛ أي: مثل ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك[2] - أي: بيان أن المراد بـ﴿مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ هو المهور - أن النبي - ﷺ - صالح عام الحديبية كفار مكة على ترك الحرب، فأمر علياً - رضي الله عنه - أن يكتب بالصلح، فكتب: باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحوا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيه الناس على أنفسهم وأموالهم، ويكف بعضهم عن بعض، على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه.. رده إليه، ومن جاء قريشاً من محمد.. لم يردوه إليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأن لا إسلال ولا إغلال، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده.. دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم.. دخل فيه. فرد رسول الله - ﷺ - أبا جندل بن سهيل، ولم يأتِ رسول الله - ﷺ - أحد من الرجال إلا ردّه في مدة العهد وإن كان مسلماً، ثم جاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أولاهن: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

فقدم أخواها عمار والوليد فكلماه في أمرها ليردها إلى قريش، فنزلت الآية، فلم يردها - ﷺ - ثم أنكحها زيد بن حارثة.

ومن هذا تعلم: أن الآية بينت أن العهد الذي أعطي كان في الرجال دون النساء، ومن ثم لم يردهن حين جئن مؤمنات.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا هو الحكم الثالث؛ أي: لا ذنب ولا إثم عليكم أيها المؤمنون في ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ أي: تنكحوا المهاجرات وتتزوجوهن بعد الاستبراء والعدة، وإن كان لهن أزواج كفار في دار الكفر. فإن إسلامهن حال بينهن وبين أزواجهن الكفار، وقد صرن من أهل دينكم ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: أعطيتموهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: مهورهن. وذلك بعد انقضاء عدتهن، كما تدل عليه أدلة وجوب العدة.

﴿إِذَآ﴾[1]: ظرفية محضة، أو شرطية جوابها محذوف دل عليه ما تقدمها، وشرط إيتاء المهر في نكاحهن إيذاناً بأن ما أعطي أزواجهن لا يقوم مقام المهر؛ لأن ظاهر النظم يقتضي إيتاءين: إيتاء إلى الأزواج، وإيتاء إليهن على سبيل المهر. وفي «التيسير»: إذا التزمتم مهورهن، ولم يرد حقيقة الأداء، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾؛ أي: يلتزموها.

والمعنى[2]: أي ولا إثم عليكم ولا حرج في نكاح هؤلاء المؤمنات المهاجرات بشرط أن تتعهدوا بالمهور، وتلتزموا بأدائها. وإنما جاز لأن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار فكان من المصلحة أن يكون لهن عائل من المؤمنين يكفل أمر أرزاقهن.

﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾: وهذا هو الحكم الرابع؛ أي: ولا تأخذوا بعقود الكافرات غير الكتابيات؛ أي: لا يكن بينكم وبين المشركات عصمة ولا علاقة زوجية. والعصم: جمع عصمة، وهي ما يعتصم به، من عقد وسبب، والمراد بها هنا: النكاح. والكوافر: جمع كافر. والكوافر[3]: طائفتان من النساء، طائفة قعدت عن الهجرة وثبتت على الكفر في دار الحرب، وطائفة ارتدت عن الهجرة ولحقت

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

بأزواجها الكفار. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من كانت له امرأة كافرة بمكة.. فلا يُعدَّنَّ بها من نسائه؛ أي: لا ينبغي أن تبقى علاقة من علاقات الزوجية بين المؤمنين ونسائهم المشركات الباقيات في دار الشرك؛ لأن اختلاف الدين قطع عصمتها منه، فجاز له أن يتزوج بأربع سواها وبأختها من غير تربص وعدة؛ أي: لا تعتدوا بما كان بينكم وبينهن من العقد الكائن قبل حصول اختلاف الدين. وقال النخعي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر، فيكون قوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ﴾ بمقابلة قوله: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ يعني أن قوله: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ إلخ، إشارة إلى حكم اللاتي أسلمن وخرجن من دار الكفر، وقوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ﴾ إلخ إشارة إلى حكم المسلمات اللاتي ارتددن وخرجن من دار الإسلام إلى دار الكفر. انتهى.

وكان[1] الكفار يزوجون المسلمين، والمسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية. وهذا خاص[2] بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب. وقيل: عامة في جميع الكوافر، مخصصة بإخراج الكتابيات منها. وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثني أو كتابي... لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدة. وقال بعض أهل العلم: يفرق بينهما بمجرد إسلام الزوج. وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولاً بها. وأما إذا كانت غير مدخول بها.. فلا خلاف بين أهل العلم في انقطاع العصمة بينهما بالإسلام؛ إذ لا عدة عليها.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿تُمۡسِكُواْ﴾ بضم أوله مخففاً من أمسك الرباعي، كأكرم، واختار هذه القراءة أبو عبيد؛ لقوله: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾. وقرأ أبو عمرو، ومجاهد بخلاف عنه، والحسن، وأبو العالية، وابن جبير، والأعرج: ﴿تُمسِّكوا﴾ مشدد، مضارع مسَّك المضعف. وقرأ الحسن أيضاً، وابن أبي ليلى، وابن عامر في رواية عبد الحميد، وأبو عمرو في رواية معاذ: ﴿تَمَسَّكُوا﴾ بفتح الثلاثة، مضارع تمسَّك الخماسي، من باب تفعل، حذفت منه إحدى التاءين، والأصل: تتمسكوا. وقرأ الحسن أيضاً: ﴿تمسِكوا﴾ بكسر السين، مضارع مسك الثلاثي.

﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ وهذا هو الحكم الخامس؛ أي: واسألوا ـ أيها المؤمنون ـ الكفار، واطلبوا منهم ما أنفقتم على نسائكم المرتدات اللاحقات بالكفار من

---

(١) الشوكاني. (٢) الشوكاني. (٣) البحر المحيط.

المهور. أي: إذا ارتدت امرأة أحدكم ولحقت بدار الكفر.. فاسألوا مهرها ممن تزوجها. ولعل[1] هذا لتطرية قلوب بعض المؤمنين بالمقابلة والمعادلة وإلا.. فظاهر حال الكرام الاستغناء. ﴿وَلْيَسْأَلُوا﴾؛ أي: وليسأل الكفار وليطلبوا منكم ﴿مَا أَنفَقُوا﴾ من مهور أزواجهم المهاجرات إليكم. أي: وليسأل كل معاهد أسلمت امرأته وهاجرت إليكم ممن تزوجها منكم مهرها، والمراد: أن عليكم أن تؤدوا لهم ذلك.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْأَلُوا﴾ يدل على أن الكفار مخاطبون بالأحكام، وهو أمر للمؤمنين بالأداء مجازاً من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، كما في قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ فإنه بمعنى: واغلظوا عليهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي ذُكر في هذه الآية من الأحكام، أو ما ذكر من إرجاع المهور من الجهتين ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: ما حكم الله سبحانه لأن يراعى. وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلام مستأنف للتأكيد والحث على الرعاية والعمل به، أو في محل النصب على الحال. قال في «فتح الرحمن»: ثم نسخ هذا الحكم بعد ذلك، إلا قوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه لكم، يشرع ما تقتضيه المصلحة والحكمة البالغة. قال ابن العربي: حكم الله هذا كان مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين. وقال الزهري: ولولا هذه الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله - ﷺ - وبين قريش يوم الحديبية.. لأمسك النساء ولم يردَّ الصداق، وكذا كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد.

وروي[2]: أنه لما نزلت هذه الآية.. أدى المؤمنون ما أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين، وأبى المشركون أن يؤدوا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين، وقالوا: نحن لا نعلم لكم عندنا شيئاً، فإن كان لنا عندكم شيء.. فوجهوا به، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ الفوت: بُعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه. وتعديته بإلى لتضمنه معنى السبق أو الانفلات، دل عليه قوله تعالى: ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم﴾؛ أي: إلى الكفار.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

والمعنى: وإن سبقكم وانفلت منكم؛ أي: خرج وفر منكم فجأة من غير تردد ولا تدبر. ﴿شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾؛ أي: أحد من أزواجكم ﴿إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾؛ أي: إلى دارهم. وإيقاع شيء موقع أحد للتحقير والإشباع في التعميم؛ لأن النكرة في سياق الشرط تفيد العموم، والشيء لكونه أعم من الأحد أظهر إحاطة لأصناف الزوجات؛ أي: أي نوع وصنف من النساء؛ كالعربية، أو العجمية، أو الحرة، أو الأمة، أو نحوها. أو فاتكم شيء من مهور أزواجكم على حذف المضاف ليتطابق الموصوف وصفته. والزوج هنا هي المرأة. روي: أنها نزلت في أمّ الحكم بنت أبي سفيان، فرت فتزوجها ثقفي، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها، وأسلمت مع قريش حين أسلموا. ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: من العقبة، وهي النوبة، والمعاقبة: المناوبة، يقال: عاقب الرجل صاحبه في كذا. أي: جاء فعل كل واحد منهما بعقب فعل الآخر.

والمعنى: وجاءت عقبتكم ونوبتكم من أداء المهر، بأن هاجرت امرأة الكافر مسلمة إلى المسلمين، ولزمهم أداء مهرها إلى زوجها الكافر بعدما فاتت امرأة المسلم إلى الكفار، ولزم أن يسأل مهر زوجته المرتدة ممن تزوجها منهم. شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب ونحوه؛ أي: يتناوب، وإلا.. فأداء كل واحد من المسلمين والكفار لا يلزم أن يعقب أداء الآخر؛ لجواز أن يتوجه الأداء لأحد الفريقين مراراً متعددة من غير أن يلزم الفريق الآخر شيء وبالعكس فلا يتعاقبون في الأداء..

﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾؛ أي: فأعطوا من ذهبت زوجته إلى المشركين فكفرت ولم يرد عليه المشركون مهرها كما حكم الله تعالى ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾؛ أي: مثل ذلك المهر الذي أنفقه عليها.

يعني[1]: إن فاتت امرأة مسلم إلى الكفار ولم يعط الكفار مهرها، فإذا فاتت امرأة كافر إلى المسلمين؛ أي: هاجرت إليهم.. وجب على المسلمين أن يعطوا المسلم الذي فاتت امرأته إلى الكفار مثل مهر زوجته الفائتة من مهر هذه المرأة المهاجرة؛ ليكون كالعوض لمهر زوجته الفائتة، ولا يجوز لهم أن يعطوا مهر هذه

(١) روح البيان.

المهاجرة زوجها الكافر. أو المعنى[1]: وإن ذهبت أزواجكم مرتدات إلى دار الشرك ولم يعطوكم المهور اللاتي دفعتم لهن ثم ظفرتم بالمشركين وانتصرتم عليهم.. فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم من الغنيمة مثل ما أنفقوا. روي عن ابن عباس: أنه يعطي الذي ذهبت زوجته من الغنيمة قبل أن تخمس، أي: قبل أن تقسم أخماساً، كما هي القاعدة في تقسيم الغنائم كما تقدم في سورة الأنفال.

قيل: جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان، كانت تحت عياض بن شداد الفهري. وفاطمة بنت أمية، كانت تحت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وهي أخت أم سلمة، وبروع بنت عقبة، كانت تحت شماس بن عثمان، وعبدة بنت عبد العزى بن نضلة، وزوجها عمرو بن عبدور. وهند بنت أبي جهل، كانت تحت هشام بن العاص، وكلثوم بنت جرول، كانت تحت عمر ـ رضي الله عنه ـ. وأعطاهم رسول الله ـ ﷺ ـ مهور نسائهم من الغنيمة كما في «الكشاف».

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ﴾ لا بغيره من الجبت والطاغوت ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان به تعالى يقتضي التقوى منه تعالى. أي: وخافوا الله الذي أنتم به مصدقون، فأدوا فرائضه واجتنبوا نواهيه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ بألف. وقرأ مجاهد، والزهري، والأعرج، وعكرمة، وحميد، وأبو حيوة، والزعفراني بشد القاف وحذف الألف، والنخعي والأعرج أيضاً وأبو حيوة أيضاً، والزهري أيضاً، وابن وثاب بخلاف عنه بتخفيف القاف مفتوحة. ومسروق النخعي أيضاً، والزهري أيضاً بكسرها، ومجاهد أيضاً: ﴿فأعقبتم﴾ على وزن أفعل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾: نداء تشريف وتعظيم ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ حالة كونهن ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾؛ أي: مبايعات لك؛ أي: قاصدات لمبايعتك على الإسلام، فهي حال مقدرة. نزلت يوم الفتح. فإنه ـ ﷺ ـ لما فرغ من بيعة الرجال شرع في بيعة النساء. سميت[3] البيعة لأن المبايع يبيع نفسه بالجنة، فالمبايعة مفاعلة من البيع. ومن عادة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

الناس حين المبايعة: أن يضع أحد المتبايعين يده على يد الآخر لتكون معاملتهم محكمة مثبتة. فسميت المعاهدة بين المعاهدين مبايعة تشبيهاً لها بها في الإحكام والإبرام.

فمعنى مبايعة الأمة رسولهم: التزام طاعته، وبذل الوسع في امتثال أوامره وأحكامه، والمعاونة له، ومبايعته إياهم الوعد بالثواب، وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم في الغلبة على أعدائهم الظاهرة والباطنة، والشفاعة لهم يوم الحساب إن كانوا ثابتين على تلك المعاهدة قائمين بما هو مقتضى المواعدة، كما يقال: بايع الرجل السلطان، إذا أوجب على نفسه الإطاعة له، وبايع السلطان الرعية، إذا قبل القيام بمصالحهم وأوجب على نفسه حفظ نفوسهم وأموالهم من أيدي الظالمين.

أي: إذا جاءك المؤمنات قاصدات مبايعتك على الإسلام و﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء كائناً ما كان، من حَجَر أو شجر، أو ملك أو إنس أو جن، أو شيئاً من الإشراك ظاهراً أو خفياً. والظاهر: أن المراد الشرك الأكبر. ويجوز التعميم له وللشرك الأصغر الذي هو الرياء.

فالمعنى: يبايعنك على أن لا يتخذن إلٰهاً غير الله، ولا يعملن إلا خالصاً لوجهه. وهذا كان يوم فتح مكة؛ فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله ـ ﷺ ـ يبايعنه، فأمره الله تعالى أن يأخذ عليهن أن لا يشركن ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾؛ أي: ولا يأخذن مال أحد بغير حق. ويكفي في قبح السرقة أن النبي ـ ﷺ ـ لعن السارق. والسرقة لغة: أخذ ما ليس له خفية، وشرعاً: أخذ مال مخصوص، من موضع مخصوص، على وجه مخصوص، كما سيأتي. ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾: والزنا: وطء المرأة من غير عقد شرعي. قال مُظهر الدِّين: الزنا في اللُّغة: عبارة عن المجامعة في الفرج على وجه الحرام. ويدخل فيه اللواطة، وإتيان البهائم، انتهى. قال ـ ﷺ ـ: «يقتل الفاعل والمفعول به». وثبت أن علياً رضي الله عنه أحرقهما، وأن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ هدم عليهما حائطاً. وذلك بحسب ما رأيا من المصلحة. وقال ـ ﷺ ـ: «ملعون من أتى امرأته في دبرها». وأما الإتيان من دبرها في قبلها.. فمباح.

قال في «اللباب»: اتفق المسلمون على حرمة الجماع في زمن الحيض، واختلفوا في وجوب الكفارة على من جامع فيه.

فذهب أكثرهم إلى أنه لا كفارة عليه، فيستغفر.

وذهب قوم إلى وجوب الكفارة عليه. انتهى.

وقال ـ ﷺ ـ: «من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه». وقيل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما شأن البهيمة؟ قال: ما سمعت فيها من رسول الله شيئاً، ولكن أكره أن يحل لحمها وينتفع بها كذلك. ولعل إسناد الفعل إليها باعتبار تمكينها للزاني ومطاعتها له.

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ بأي سبب. وأريد به هنا: ما تفعله الجاهلية من وأد البنات؛ أي: دفنهن أحياء خوف العار والفقر. وقال ـ ﷺ ـ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي». ولعل[1] إسناد الفعل إلى النساء إما باعتبار الرضا به أو بمباشرته بأمر زوجها. وقيل: معناه: ولا يشربن دواء فيسقطن حملهن كما في «تفسير أبي الليث». وفي «نصاب الاحتساب»: تمنع القابلة من المعالجة لإسقاط الولد بعدما استبان خلقه ونفخ فيه الروح. ومدة الاستبانة والنفخ مقدرة بمئة وعشرين يوماً، وأما قبله.. فقيل: لا بأس به كالعزل، وقيل: يكره؛ لأن مآل الماء الحياة، كما إذا أتلف مُحرم بيضة صيد الحرم.. ضمن؛ لأن مآلها الحياة، فلها حكم الصيد، بخلاف العزل؛ لأن ماء الرجل لا ينفخ فيه الروح إلا بعد صنع آخر، وهو الإلقاء في الرحم، فلا يكون مآله الحياة. وقرأ علي والحسن والسلمي: ﴿ولا يُقَتِّلْنَ﴾ مشدداً.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾ وكذب ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾؛ أي: يختلقنه ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ أي: بسبب صبي ملتقط من غير أزواجهن يحملنه بين أيديهن وأرجلهن؛ أي: ولا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهم. والباء للتعدية. والبهتان: الكذب الذي يبهت المكذوب عليه؛ أي: يدهشه ويجعله متحيراً، فيكون أقبح أنواع الكذب. والافتراء: الاختلاق، وقوله: ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾ إما في موضع جر على أنه صفة لبهتان، أو نصب على أنه حال من فاعل ﴿يَأْتِينَ﴾، وقوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من الضمير المنصوب في ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾؛ أي: يختلقنه، مقدراً وجوده بين أيديهن وأرجلهن، على أن يكون المراد بالبهتان: الولد المبهوت به، كما ذهب إليه جمهور

(١) روح البيان.

المفسرين.

وليس المعنى على نهيهن عن أن يأتين بولد من الزنا فينسبنه إلى الأزواج؛ لأن ذلك نهى عنه بقوله: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ بل المراد: نهيهن عن أن يلحقن بأزواجهن ولداً التقطنه من بعض المواضع. وكانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك في بطني الذي بين يدي ووضعته من فرجي الذي هو بين رجلي، فكنى عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها؛ لأن بطنها الذي تحمله فيه بين يديها ومخرجه بين رجليها.

والمعنى: ولا يجئن بصبي ملتقط من غير أزواجهن، فإنه افتراء وبهتان لهم. والبهتان من الكبائر التي تتصل بالشرك.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؛ أي: ولا يخالفن أمرك فيما تأمرهن به وتنهاهن عنه، على أن المراد من المعروف: الأمور الحسنة التي عرف حسنها في الدين فيؤمر بها، والشؤون السيئة التي عرف قبحها فيه فينهى عنها. كما قيل: كل ما وافق طاعة الله فعلاً أو تركاً.. فهو معروف، وكما روي عن بعض أكابر المفسرين من أنه هو: النهي عن النياحة والدعاء بالويل، وتمزيق الثوب وحلق الشعر ونتفه ونشره، وخمش الوجه، وأن تحدث المرأة الرجال إلا ذا رحم محرم، وأن تخلو برجل غير محرم، وأن تسافر إلا مع ذي رحم محرم. فيكون هذا للتعميم بعد التخصيص. ويحتمل أن يكون المراد من المعروف: ما يقابل المنكر، ويكون ما قبله للنهي عن المنكر، وهذا للأمر بالمعروف لتكون الآية جامعة لهما.

والتقييد بالمعروف مع أن الرسول ـ ﷺ ـ لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا تجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق، فإذا شرط ذلك في طاعة النبي ـ ﷺ ـ.. فكيف في حق غيره؟ وهو كقوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، كما في «عين المعاني» فدل على أن طاعة الولاة لا تجب في المنكر. ولم يقل: ولا يعصين الله؛ لأن من أطاع الرسول.. فقد أطاع الله، ومن عصاه.. فقد عصى الله. وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في حقهن لكثرة وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن. ووجه الترتيب بين هذه المنهيات: أنه قدم الأقبح على ما هو أدنى قبحاً منه ثم كذلك إلى آخرها، ولذا قدم ما هو الأظهر والأغلب فيما بينهن.

وقال صاحب «اللباب»: ذكر الله تعالى في هذه الآية لرسول الله - ﷺ - في صفة البيعة خصالاً ستاً هنّ أركان ما نهي عنه في الدين، ولم يذكر أركان ما أمر به، وهي أيضاً ست: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، والاغتسال من الجنابة. وذلك لأن النهي عنها دائم في كل زمان وفي كل حال، فكان التنبيه على اشتراط الدائم أهم وآكد.

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾: جواب لـ﴿إِذَا﴾ الشرطية، فهو العامل فيها، فإن الفاء لا تكون مانعة. وهو أمر من المبايعة. أي: إذا بايعنك على ما ذكر، وما لم يذكر؛ لوضوح أمره وظهور أصالته في المبايعة من الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام.. فبايعهن بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء. فإن المبايعة من جهة الرسول هو الوعد بالثواب، ومن جهة الآخر التزام طاعته كما سبق. وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن إليها. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: واطلب من الله سبحانه المغفرة لهن زيادة على ما في ضمن المبايعة من ضمان الثواب. والاستغفار: طلب المغفرة للذنوب والستر للعيوب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: مبالغ في المغفرة والرحمة، فيغفر لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه.

والمعنى[1]: أي أيها النبي: إذا جاءك النساء المؤمنات مقدمات لك الطاعة، ملتزمات أن لا يشركن بالله شيئاً من صنم أو حجر، ولا يسرقن من مال الناس شيئاً، ولا يزنين، ولا يئدن البنات كما كن يفعلن ذلك في الجاهلية، ولا يلصقن أولاد الأجانب بأزواجهن كذباً وبهتاناً، ولا يعصينك فيما تأمرهن به أو تنهاهن عنه؛ كالنوح وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيوب وخمش الوجوه، وأن لا تخلو امرأة بغير ذي رحم محرم.. فبايعهن على ذلك، والتزم لهن الوفاء بالثواب إن هنّ أطعنكم في كل ذلك، واطلب لهن المغفرة من الله، إنه هو الغفور الرحيم لهن إذا وفين بما بايعن عليه.

قال ابن الجوزي: وجملة من أحصي من المبايعات: أربع مئة وسبع وخمسون امرأة. وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (كان رسول الله - ﷺ - يبايع النساء

---

(١) المراغي.

بالكلام بهذه الآية على أن لا يشركن بالله شيئاً وما مست يد رسول الله ـ ﷺ ـ يد امرأة لا يمكلها). متفق عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا﴾؛ أي: لا تتخذوا قوماً من الكفار أولياء وأصدقاء وأحباء وأودّاء. وقوله: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه، وسخط ﴿عَلَيْهِمْ﴾ صفة قوماً. وهم[1] جميع طوائف الكفرة، وقيل: اليهود خاصة، وقيل: المنافقون خاصة. وقال الحسن: اليهود والنصارى. والأول أولى؛ لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليهم.

أي: لا تتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم واستحقوا الطرد من رحمته أولياء لكم وأصدقاء، تسرون إليهم بما يضر نشر الدعوة ويحول دون تقدم شؤون الملة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ صفة ثانية لـ﴿قَوْمًا﴾. و﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية؛ أي: إنهم لا يوقنون بالآخرة ألبتة بسبب كفرهم ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾؛ أي: كيأسهم من بعث موتاهم؛ لاعتقادهم عدم البعث؛ لأنهم لا يوقنون بالآخرة البتة بسبب كفرهم، فـ﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية.

أي: قد يئسوا من خير الآخرة وثوابها؛ لعنادهم رسول الله ـ ﷺ ـ المبشر به في كتابهم المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهم قد أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم له،وعلموا أن لا سبيل لهم إلى نيل نعيمها كما يئس الكفار من بعث موتاهم؛ لأنهم لا يعتقدون ببعث ولا نشور. وقيل: كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة؛ لأنهم قد وقفوا على الحقيقة، وعلموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة. فـ﴿مِنَ﴾ بيانية على هذا المعنى. والأول أولى.

والخلاصة[2]: يا أيها الذين آمنوا: لا تتولوا قوماً مغضوباً عليهم، قد يئسوا من أن يكون لهم حظ في الآخرة؛ لعنادهم رسول الله ـ ﷺ ـ وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة، كما يئس الكفار من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء.

---

(١) الشوكاني. (٢) النسفي.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة، و(الهاء): حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أي﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: صلته. وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾: حال من ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾، ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً، ﴿امتحنوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿الهاء﴾: مفعول به. والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿أَعْلَمُ﴾: خبر، ﴿بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، والجملة معترضة. ﴿فَإِنْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾: مفعول ثان، والجملة في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿ترجعوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿الهاء﴾: مفعول به، ﴿إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: متعلق بـ﴿تَرْجِعُوهُنَّ﴾. والجملة في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿هُنَّ﴾: مبتدأ، ﴿حِلٌّ﴾: خبر، ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق بـ﴿حِلٌّ﴾، والجملة الاسمية جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها علة لقوله: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحِلُّونَ﴾: خبره. والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها على كونها معللة للنهي المذكور قبلها. ﴿لَهُنَّ﴾: متعلق بـ﴿يَحِلُّونَ﴾. ﴿وَءَاتُوهُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿آتوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مَّآ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿لا ترجعوهن﴾، وجملة ﴿أَنفَقُواْ﴾: صلة لـ﴿مَّآ﴾ الموصولة، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية للجنس، ﴿جُنَاحَ﴾: في محل

النصب اسمها، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبرها، وجملة ﴿لا﴾ النافية معطوفة على ما قبلها، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية. ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في نكاحهن، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جُنَاحَ﴾. ﴿إِذَآ﴾: ظرف مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾ أو بـ﴿جُنَاحَ﴾، ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول ثان. والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها.

﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تُمْسِكُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُمْسِكُواْ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَسْـَٔلُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ما قبله، ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿أَنفَقْتُمْ﴾: صلته، والعائد محذوف، ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿يسألوا﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿أَنفَقُواْ﴾: صلة لـ﴿مَآ﴾، والعائد محذوف. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿يَحْكُمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَحْكُمُ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، أو حال من الجلالة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أول، ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾: حرف شرط ﴿فَاتَكُمْ﴾: فعل ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿شَىْءٌ﴾: فاعل، ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾: صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾، ﴿إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: متعلق بـ﴿فَاتَكُمْ﴾، ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: ﴿الفاء﴾:

عاطفة، ﴿عاقبتم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿فَاتَكُمْ﴾، ﴿فَآتُوا﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ وجوباً، ﴿أتوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول أول، والجملة الطلبية في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾: الشرطية معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية على كونها جواباً للنداء، ﴿ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم﴾: فعل وفاعل والجملة صلة ﴿الَّذِينَ﴾، ﴿مِّثْلَ﴾: مفعول ثان لـ﴿آتوا﴾ وهو مضاف ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿أَنفَقُواْ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف. ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿آتوا﴾، ﴿الَّذِيَ﴾: صفة للجلالة، ﴿أَنتُم﴾: مبتدأ، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُؤْمِنُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، (أي): منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: بدل منه، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف مضمن معنى الشرط، ﴿جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من المؤمنات. أي: حالة كونهن طالبات منك المبايعة. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يُشْرِكْنَ﴾: فعل مضارع في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية، مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، والنون فاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُشْرِكْنَ﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق. والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره: على عدم إشراكهن بالله شيئاً، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾: فعل وفاعل في محل النصب معطوف على ﴿يُشْرِكْنَ﴾، ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿يُشْرِكْنَ﴾. ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يُشْرِكْنَ﴾، ﴿وَلَا يَأْتِينَ﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿يُشْرِكْنَ﴾، ﴿بِبُهْتَٰنٍ﴾: متعلق بـ﴿يَأْتِينَ﴾، ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿بهتان﴾، ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿يفترين﴾،

﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: معطوف على ﴿أَيْدِيهِنَّ﴾، ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿يُشْرِكْنَ﴾، ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾: متعلق بـ﴿يَعْصِينَكَ﴾.

﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية وجوباً، ﴿بايعهن﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على النبي، ومفعول به، والجملة الفعلية جواب: ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾: فعل وفاعل مستتر، معطوف على ﴿بايعهن﴾، ﴿لَهُنَّ﴾: متعلق بـ﴿استغفر﴾. ﴿اللَّهَ﴾: مفعول به: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿غَفُورٌ﴾: خبره، ﴿رَحِيمٌ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿الَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أي﴾، والجملة مستأنفة. وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَتَوَلَّوْا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿غَضِبَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿يَئِسُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَئِسُوا﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿قَوْمًا﴾. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه ﴿ما﴾ مصدرية، ﴿يَئِسَ الْكُفَّارُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾: متعلق بـ﴿يَئِسَ﴾ أو حال من ﴿الْكُفَّارِ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، أي: كيأسهم من أصحاب القبور، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: يئسوا من الآخرة يأساً كائناً كيأسهم من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾؛ أي: فاختبروهن بما يغلب به على ظنكم موافقة قلوبهن لألسنتهن في الإيمان. ﴿عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾: ظننتموهن بالحلف وظهور الأمارات. ﴿فَلَا

﴿تَرْجِعُوهُنَّ﴾؛ أي: لا تردوهن، من الرجع بمعنى: الرد، لا من الرجوع، كما مر. ﴿حِلٌّ لَّهُمْ﴾: وزنه فعل بكسر الفاء، فهو لفيف، وهو ما كان عينه ولامه من جنس واحد. ﴿يَحِلُّونَ﴾ أصله: يحللون، بوزن يفعلون، نقلت حركة اللام الأولى إلى الحاء، فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أصله: أأتيوهم، بوزن أفعلوهم، نظير: أكرموهم، أبدلت الهمزة الثانية الساكنة ألفاً حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى، ثم حذفت حركة الياء للتخفيف، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين، وضمت التاء لمناسبة الواو، فصار آتوهم، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يقال: جنحت السفينة؛ أي: مالت إلى أحد جانبيها، وسمي الإثم المائل بالإنسان عن الحق جُناحاً، ثم سمي كل إثم جُناحاً. ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ والعصم: جمع عصمة، وهي: ما يعتصم به، من عقد وسبب، وهي هنا عقد النكاح. والكوافر: جمع كافرة، كضوارب في ضاربة.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾: فيه إعلال بالقلب، أصله: فوتكم، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. والفوت: بُعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه. ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: من العقبة، وهي النوبة، والمعاقبة: المناوبة. يقال: عاقب الرجل صاحبه في كذا؛ أي: جاء فعل كل واحد منهما بعقب فعل الآخر. والمعنى: وجاءت عقبتكم ونوبتكم من أداء المهر. ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ والسرقة: أخذ ما ليس له أخذه خفية. ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ والزنا: وطء المرأة من غير عقد شرعي أو ملك يمين، يقصر، وإذا مد.. يصح أن يكون مصدر المفاعلة. ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾ والبهتان: الكذب الذي يبهت المكذوب عليه؛ أي: يدهشه ويجعله متحيراً، فيكون أقبح أنواع الكذب. وهو في الأصل مصدر، يقال: بهت زيد عمراً بهتاً وبهتاً وبهتاناً؛ أي: قال عليه ما لم يفعله، فزيد باهت وعمرو مبهوت، والذي بهت به مبهوت به. وإذا قالت لزوجها: هذا ولدي منك، لصبي التقطته.. فقد بهتته به؛ أي: قالت عليه ما لم يفعله، جعله نفس البهتان ثم وصفه بكونه مفترى مبالغة في وصفهن بالكذب. ﴿يَفْتَرِينَهُ﴾ الافتراء: الاختلاق. يقال: فرى فلان كذباً إذا خلقه، وافتراه اختلقه. ﴿فِى مَعْرُوفٍ﴾ والمعروف: ما عرف حسنه من قبل الشرع، وفي «النهاية»: المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والإحسان إلى الناس، وكل ما أمر به الشرع ونهى عنه. ا هـ. «شهاب».

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾ والاستغفار: طلب المغفرة للذنوب والستر للعيوب، كما مر.

﴿لَا تَتَوَلَّوْا﴾ أصله: تتوليون، حذفت منه نون الرفع لدخول أداة الجزم ﴿لَا﴾ الناهية، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، فوزنه: تتفعوا. ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ اليأس: انقطاع الطمع ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ والقبور: جمع قبر، والقبر: مقر الميت، والمقبرة: موضع القبور.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجملة الاعتراضية في قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ الإشارة إلى أن للإنسان الظاهر، والله يتولى السرائر.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾، لأنه استعار العلم للظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات. وسماه علماً إيذاناً بأنه جار مجرى العلم في وجوب العمل به.

ومنها: العكس والتبديل في قوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. وهو من المحسنات البديعية، وفيه التكرير أيضاً إما لتأكيد الحرمة، وإلا فيكفي نفي الحل من أحد الجانبين، وإما لأن الأول لبيان زوال النكاح الأول، والثاني لبيان امتناع النكاح الجديد، كما مر.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾؛ لأنه مجاز عن أمر المؤمنين بالأداء من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ فإنه بمعنى: واغلظوا عليهم.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

ومنها: إيقاع شيء موقع أحد في قوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ للتحقير والإشباع في التعميم؛ لأن النكرة في سياق الشرط تفيد العموم، كما مر.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾. شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء

أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب ونحوه. أي: يتناوب، كما مرّ بسطه.

ومنها: النداء للتشريف والتعظيم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

ومنها: الكناية اللطيفة في قوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ﴾. كنّى بذلك عن اللقيط.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾. وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى ردّ العجز على الصدر، حيث ختم السورة بمثل ما ابتدأها به ليتناسق البدء مع الختام.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ للإشعار بعلة يأسهم، وهو الكفر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ النهي عن موالاة المشركين مع ذكر أسباب ذلك.

٢ ـ ضرب المثل بقصص إبراهيم وقومه.

٣ ـ امتحان النساء المؤمنات المهاجرات، وعدم إرجاعهن إلى دار الكفر.

٤ ـ مبايعة النساء المؤمنات في دار الإسلام.

٥ ـ تأكيد النهي عن موالاة المشركين، حرصاً على شؤون الملة ونشر الدعوة[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وقد تم تفسير هذه السورة الكريمة بعون الله سبحانه وتعالى يوم الأحد قبيل غروب اليوم الثالث والعشرين من شهر الله الحرام ذي القعدة، من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

سورة الصف

سورة الصف مدنية، قال الماوردي: في قول الجميع. نزلت بعد التغابن.

وأخرج ابن الضريس[1]، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بالمدينة. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بمكة. ولعل هذا لا يصح عنه. ويؤيد كونها مدنيَّة: ما أخرجه أحمد، عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله - ﷺ - فيسأله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول الله - ﷺ - رجلاً، فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة؛ يعني: سورة الصف كلها. وأخرجه ابن أبي حاتم، وقال في آخره: فنزلت فيهم هذه السورة. وأخرجه أيضاً الترمذي وابن حبان والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في «الشعب» و«السنن».

وآيها[2]: أربع عشرة. وكلماتها: مئتان وإحدى وعشرون كلمة. وحروفها: تسع مئة.

ومناسبتها لما قبلها[3]: أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه، وفي ذلك تأكيد للنهي الذي تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار من دون المؤمنين.

وقال أبو حيان[4]: مناسبتها لآخر السورة قبلها: أن في آخر تلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فاقتضى ذلك إثبات العداوة بينهم، فحض تعالى على الثبات إذا لقي المؤمنون في الحرب أعداءهم.

تسميتها: سميت سورة الصف لذكر الصف فيها. وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة الصف كلها محكمة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله أعلم

* * *

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ...﴾ الآيات، قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به؟ فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه: إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به، وإقرار برسالة نبيه. فلما نزل الجهاد.. كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي...﴾ الآية، مناسبة

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما أنّب التاركين للقتال الهاربين منه بقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ذكر هنا أن حالهم يشبه حال بني إسرائيل مع موسى حين ندبهم إلى قتال الجبارين بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. فلم يمتثلوا، وعصوه أشد العصيان، و﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا...﴾ الآية. وقالوا أيضاً: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وأصروا على ذلك، وآذوه أشد الإيذاء. فوبخهم على ذلك بما جاء في الآية الكريمة، وقد صرفهم الله سبحانه عن قبول الحق، وألحق بهم الضيم والذل في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى. ومثلهم أيضاً في عصيانهم مثل بني إسرائيل حين قال لهم عيسى بن مريم: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾، وجاءهم بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه، وقال: إني مبشر برسول يأتي من بعدي يسمى: أحمد، فعصوه وكذبوه، ولم يمتثلوا أمره.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف أن الجاحدين لنبوته - ﷺ - من المشركين وأهل الكتاب لما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مفترى.. أردف ذلك ببيان أنهم دعوا إلى الإسلام والخضوع لخالق الخلق ومبدع العالم، وأقيمت لهم على ذلك الأدلة ونصب لهم المنار، لكنهم ظلموا أنفسهم وجحدوا النور الواضح والبرهان الساطع:

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعَيْنُ ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ ٱلْفَمُ طَعْمَ ٱلْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

ثم بين أن السبب في ذلك هو سوء استعدادهم وتدسيتهم لأنفسهم، وأن مثلهم في صد الدعوة عن الدين مثل من يريد إطفاء نور الشمس بالنفخ بفيه، وأنى له ذلك؟ فالله متم نوره ومكمل دينه مهما جد المشركون في إطفائه. فالرسول - ﷺ - ما جاء إلا بما فيه هداية البشر وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، وبالدين الحق الذي لا تجد العقول مطعناً فيه ولا طريقاً إلّا الاعتراف بما جاء به من حكم وأحكام.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾

---

(١) المراغي.

الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما حث في الآيات السابقة على الجهاد في سبيله، ونهاهم عن أن يكونوا مثل قوم موسى في التواكل والتخاذل - إذ قالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ - ونهاهم أيضاً عن أن يكونوا مثل قوم عيسى في العصيان بعد أن أتى لهم بالأدلة الباهرة على صدق نبوّته.. ذكر هنا أن الإيمان بالله والجهاد بالمال والنفس في سبيله تجارة رابحة، فإن المجاهد ينال الفوز العاجل والثواب الآجل، فيظفر بالنصرة في الدنيا والغلبة على العدوّ وأخذ الغنائم وكرائم الأموال، ويحظى في الآخرة بغفران الذنب ورضوان الرب والرضوان في جنات الخلود، والإقامة ولا فوز أعظم من هذا.

ثم ضرب لهم مثلاً بقوم عيسى، فقد انقسموا فرقتين: فرقة آمنت به، وهم حواريوه، وفرقة كفرت به، وهم البقية الباقية منهم. فأمد الله المؤمنين بروح من عنده، فتم لهم الفوز والنصر على الكافرين، وغلبوهم بإذن الله، كما هي سنة الله في البشر، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾، وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ إلى آخر السورة، سبب نزول هذه السورة: ما أخرجه الدارمي في «سننه» قال: أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله - ﷺ - فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا﴾ حتى ختمها، قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله - ﷺ - حتى ختمها، فقرأها علينا ابن سلام. قال يحيى: قرأها علينا أبو سلمة، وقرأها علينا يحيى، وقرأها علينا الأوزاعي، وقرأها علينا محمد.

قال ابن الجوزي[1]: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ في سبب

(١) زاد المسير.

نزولها خمسة أقوال:

أحدها: ما روى أبو سلمة عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عزّ وجل عملناه؟ فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ إلى آخر السورة.

والثاني: أن الرجل كان يجيء إلى النبي - ﷺ - فيقول: فعلت كذا وكذا، وما فعل، فنزلت: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. رواه عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وكذلك قال الضحاك: كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل، وطعنت ولم يطعن، وصبرت ولم يصبر. فنزلت هذه الآية.

والثالث: أن ناساً من المسلمين كانوا يقولون قبل أن يفرض الجهاد: لوددنا أن الله تعالى دلنا على أحب الأعمال إليه، فلما نزل الجهاد.. كرهه ناس من المؤمنين، فنزلت هذه الآية. رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والرابع: أن صهيباً قتل رجلاً يوم بدر، فجاء رجل فادعى أنه قتله وأخذ سلبه، فقال صهيب: أنا قتلته يا رسول الله، فأمره أن يدفع سلبه إلى صهيب. ونزلت هذه الآية، رواه سعيد بن المسيب عن صهيب.

والخامس: أن المنافقين كانوا يقولون للنبي وأصحابه: لو خرجتم.. خرجنا معكم ونصرناكم، فلما خرج النبي - ﷺ -.. نكصوا عنه. فنزلت هذه الآية، قاله ابن زيد.

وقال الكلبي[1]: قال المؤمنون: يا رسول الله، لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليها؟ فنزلت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فمكثوا زماناً يقولون: لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين؟ فدلهم الله تعالى عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ...﴾ الآية. فابتلوا يوم أحد ففروا، فنزلت تعيرهم بترك الوفاء.

(١) القرطبي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾؛ أي: نزه[1] الله سبحانه عن كل ما لا يليق بجنابه العلي العظيم ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع؛ أي: جميع ما فيها من العلويات الفاعلة. ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ من السفليات القابلة آفاقاً وأنفساً؛ أي: سبحه جميع الأشياء من غير فرق بين موجود وموجود، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾. وقد تقدم الكلام على وجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة، وفي بعضها بلفظ المضارع، وفي بعضها بلفظ الأمر، إرشاداً إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات، ماضيها ومستقبلها وحالها. وأعاد الموصول في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ هنا وفي الحشر وفي الجمعة والتغابن جرياً على الأصل، وأسقطه في الحديد موافقة لقوله فيها: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾. ا هـ. من «المتشابه».

وفي «الخطيب»: فإن قلت: فإن قلت: هلاً قيل: سبح لله السماوات والأرض وما فيهما، فيكون أكثر مبالغة؟

أجيب: بأن المراد بالسماء جهة العلو، فيشمل السماء وما وفيها، وبالأرض جهة السفل، فيشمل الأرض وما فيها.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغالب، ولا يكون إلا ما يريد. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، الذي لا يفعل إلا بالحكمة، فلا عزيز ولا حكيم على الإطلاق غيره تعالى، فلذا يجب تسبيحه.

والمعنى: أي شهد له تعالى بالربوبية والوحدانية والقدرة وغيرها من صفات الكمال جميع ما في السماوات والأرض وهو الغالب على أمره القاهر فوق عباده، الحكيم في تدبير خلقه وفق ما سنّه من السنن وأرشد إليه من ضروب الهداية.

وبعد أن وصف نفسه بصفات الكمال.. ذكر ما يلحق المخلوقين من صفات النقص، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إيماناً رسمياً ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ وتعدون ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ من الخير. روي: أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا؟ فلما نزل الجهاد.. كرهوه، فنزلت تعييراً لهم بترك

---

(١) روح البيان.

الوفاء. و﴿لِمَ﴾[1] مركبة من اللام الجارة و﴿مَا﴾ الاستفهامية قد حذفت ألفها تخفيفاً لكثرة استعمالها، كما في عمَّ وفيم ونظائرها. معناها: لأي شيء، ولأي غرض تقولون: نفعل ما لا تفعلون من الخير.

قال الزمخشري: ﴿لِمَ﴾ لام الجر داخلة على ﴿مَا﴾ الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم، فيم، ومم، وعم وإلام، وعلام، وحتام. وإنما حذفت الألف لأن ﴿مَا﴾ وحروف الجر كشيء واحد، ووقع استعمالها كثيراً في كلام المستفهم محذوفة الألف، وجاء استعمال الأصل قليلاً. ا هـ. «خطيب».

وعبارة «البيضاوي»: و﴿لِمَ﴾ مركبة من لام الجر و﴿مَا﴾ الاستفهامية، والأكثر على حذف ألفها مع حرف الجر؛ لكثرة استعمالها معاً، فلذا استحقت التخفيف، ولاعتناقهما في الدلالة على المستفهم عنه. ا هـ.

والمعروف على أن مدار التعيير والتوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم، وإنما وجهه إلى قولهم تنبيهاً على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد به أيضاً، وقد كانوا يحسبونه معروفاً. ولو قيل: لم لا تفعلون ما تقولون.. لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود. فليس المراد من ﴿مَا﴾ حقيقة الاستفهام؛ لأن الاستفهام من الله محال؛ لأنه عالم بجميع الأشياء، بل المراد الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان من نفسه ما لا يفعله من الخير؛ لأنه إن أخبر أنه فعل في الماضي والحال، ولم يفعله.. كان كاذباً، وإن وعد أن يفعله في المستقبل ولا يفعله.. كان خلفاً، وكلاهما مذموم. كما قال في «الكشاف»: هذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الوعد، وهذا بخلاف ما إذا وعد فلم يفِ بميعاده لعذر من الأعذار، فإنه لا إثم عليه.

والمعنى[2]: أي لأي غرض تقولون: لوددنا أن نعمل كذا وكذا من أفعال الخير، حتى إذا طلب منكم ذلك كرهتم ولم تفعلوا؟ والتوبيخ والإنكار موجه إلى عدم فعلهم ما وعدوا به، وإنما وجه إلى القول لبيان أن معصيتهم مزدوجة إذ هم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

تركوا فعل الخير وقد وَعدوا بفعله، كما مرّ آنفاً. وبهذه الآية وبما ثبت في السنة من نحو قوله - ﷺ -: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان». استدل السلف على وجوب الوفاء بالوعد.

ثم بيّن شدة قبح ذلك، وأنه بلغ الغاية في بغض الله له، فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾؛ أي: عظم جرماً ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ذاك أن الوفاء بالوعد دليل على كريم الشيم، وجميل الخصال، وبه تكون الثقة بين الجماعات، فترتبط برباط المودة والمحبة حين يتعامل بعض أفرادها مع بعض، ويكونون يداً واحدة فيما انتووا من الأعمال، والعكس بالعكس، فإذا فشا في أمة خلف الوعد.. قلت الثقة بين أفرادها وانحلت عرا الروابط بينهم، وأصبحوا عقداً متناثراً لا ينتفع به ولا يخاف منهم عدوّ إذا اشتدت الأزمات وعظمت الخطوب؛ لما يكون بينهم من التواكل وعدم ائتمان بعضهم بعضاً.

و﴿كَبُرَ﴾ من[1] باب نعم وبئس، فيه ضمير مبهم مفسر بالنكرة بعده، و﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ هو المخصوص بالذم، ويجيء الخلاف فيه، هل رفعه على الابتداء، وخبره الجملة المتقدمة عليه أو خبره محذوف، أو هو خبر مبتدأ محذوف؟ والمقت: البغض الشديد لمن يراه متعاطياً لقبيح، وكان يسمى تزوُّج امرأة الأب: نكاح المقت. و﴿مَقْتًا﴾ منتصب على التمييز و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف للفعل، بمعنى: في علمه وحكمته. والكلام بيان لغاية قبح ما فعلوه. أي: عظم بغضاً في علمه تعالى وحكمته هذا القول المجرد، فهو أشد ممقوتية ومبغوضية، فمن مقته الله.. فله النار، ومن أحبه الله.. فله الجنة. وقيل: إنه قصد بقوله: ﴿كَبُرَ﴾ التعجب، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب. وقيل: إنه ليس من أفعال الذم ولا من أفعال التعجب بل هو مسند إلى ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾. و﴿مَقْتًا﴾: تمييز محول عن الفاعل.

فائدة: وأوحى الله تعالى إلى عيسى بن مريم عليهما السلام: يا ابن مريم، عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحيي مني.

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

---

(1) روح البيان.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾. وقد ورد الوعيد في حق من يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضاً؛ أي: كما ورد في حق من يترك العمل. فالخوف إذا كان على كل منهما في درجة متناهية فكيف على من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف؟! أكثر الناس في هذا الزمان هكذا، والعياذ بالله تعالى. انتهى.

وبعد أن ذمّ الذين وعدوا بالقتال ونحوه من أفعال الخير ولم يفعلوا.. مدح الذين قاتلوا في سبيله وبالغوا فيه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾ أعداء الله ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: في طريق مرضاته وإعلاء دينه؛ أي: يرضى عنهم ويثني عليهم. و﴿صَفًّا﴾: مصدر وقع موقع الفاعل أو المفعول، ونصبه على الحالية من فاعل يقاتلون؛ أي: حال كونهم صافين أنفسهم أو مصفوفين، أو منصوب على المصدرية بعامل محذوف، والمفعول محذوف؛ أي: يصفون أنفسهم صفاً. والصفّ: أن يجعل الشيء على خط مستوٍ كالناس والأشجار. هذا بيان لما هو مرضي عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوت عنده، وهذا صريح في أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال. وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ على البناء للفاعل. وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول. وقرىء ﴿يقتلون﴾ بالتشديد.

وجملة ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ أو من الضمير المستكن في الحال الأولى. قال الزمخشري: حالان متداخلان. وقال الحوفي: ﴿كَأَنَّهُم﴾ في موضع النعت لـ﴿صَفًّا﴾ انتهى؛ أي: كأنهم في تراصهم وتلاصقهم من غير فرجة ولا خلل بنيان رصّ بعضه إلى بعض. والظاهر: تشبيه الذوات في التحام بعضها ببعض بالبنيان المرصوص. وقيل: المراد: استواء نياتهم في الثبات، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص.

والبنيان: الحائط، وهو واحد لا جمع، دل عليه تذكير ﴿مَّرْصُوصٌ﴾. وقال بعضهم: بنيان جمع بنيانة، على حدّ نخل ونخلة، وهذا النحو من الجمع يصح تأنيثه

---

(١) الشوكاني.

وتذكيره. والرص: اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يوضع الحجر على الحجر ثم يرص بأحجار صغار ثم يوضع اللبن عليه، فيسميه أهل مكة المرصوص.

والمعنى: حال كونهم مشبهين في تراصهم من غير فرجة ولا خلل ببنيان رصّ بعضه إلى بعض، ورصف حتى صار شيئاً واحداً. وقال الراغب: بنيان مرصوص؛ أي: محكم كأنما بني بالرصاص، وهو قول الفراء. وتراصوا في الصلاة؛ أي: تضايقوا فيها، كما قال ـ ﷺ ـ: «تراصوا بينكم في الصلاة، لا يتخللكم الشيطان» فالزحمة في مثل هذا المقام رحمة، فلا بد من سدّ الخلل أو المحاذاة بالمناكب كالبنيان المرصوص.

ففي الآية زجر عن التباطؤ، وحث على التسارع، ودلالة على فضيلة الجهاد.

والمعنى: إن الله سبحانه يحب الذين يصفُّون أنفسهم حين القتال، ولا يكون بينهم فُرَجٌ فيه، كأنهم بنيان متلاحم الأجزاء، كأنه قطعة واحدة قد صبت صباً، وعلى هذه الطريقة تسير الجيوش في العصر الحاضر، وسر هذا أنهم إذا كانوا كذلك.. زادت قوتهم المعنوية، وتنافسوا في الطعان والنزال والكرّ والفرّ إلى ما في ذلك من إدخال الروع والفزع في نفوس العدوّ؛ إلى ما لحسن النظام من إمضاء العمل والدقة والإحكام، ومن ثم أمرنا بتسوية الصفوف في الصلاة، وأن لا يجلس المصلي في صف خلفيّ إلا إذا اكتمل ما في الصف الأمامي، وهكذا تراعي الأمم في عصرنا الحاضر النظام في كل أعمالها، في أكلها ونومها، ورياضتها وتربية أولادها، بحيث لا يطغى عمل على عمل، فللجد وقت لا يعدوه، وللرياضة وقت آخر، وللنوم كذلك؛ ولهذا لا يوجد تواكل، ولا تراخ في الأعمال ولا تخاذل فيها، ومن ثم جاء الأثر: «أفضل الأعمال إلى الله: أدومها، وإن قل».

ولما ذكر سبحانه أنه يحب المقاتلين في سبيله أراد أن يبين أن موسى وعيسى عليهما السلام أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وحل العقاب بمن خالفهما، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال. ﴿وَإِذْ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به ـ ﷺ ـ بطريق التلوين.

أي[1]: اذكر لهؤلاء المؤمنين المتقاعدين عن القتال وقت قول موسى ـ عليه

السلام ـ لبني إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾. فلم يمتثلوا بأمره، وعصوه أشد عصيان، حيث قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وأصروا على ذلك، وآذوه ـ عليه السلام ـ كل الأذية، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أصله، يا قومي، ولذا كسرت الميم، ولولا تقدير الياء.. لقيل: يا قوم بالضم؛ لأنه يكون حينئذ مفرداً معرفة. وهو نداء رفق وشفقة، كما هو شأن الأنبياء ومن يليهم. ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم. والأذى: ما يصل إلى الإنسان من ضرر، إما في نفسه أو في جسمه أو في أسرته، دنيوياً كان أو أخروياً، كما سيأتي بسطه.

يقول الفقير: لا شك أن قتل الأعداء من باب التسبيح؛ لأنهم الذين قالوا: اتخذ الله ولداً، وعبدوا معه الأصنام، فكان في مقابلتهم توسيع ساحة التنزيه، ولذا بدأ الله تعالى في عنوان السورة بالتسبيح، وأشار بلفظ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ إلى أن القتال من باب الحكمة، وأنه من باب دفع القضاء بالقضاء، على ما يُعرِّفه أهل المعرفة، وبلفظ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، إلى غلبة المؤمنين المقاتلين. ثم إنهم كرهوا ذلك كأنهم لم يثقوا بوعد الله بالغلبة، ووقعوا من حيث لم يحتسبوا في ورطة نسبة العجز إلى الله تعالى، ولذا تقاعدوا عن القتال، وبهذا التقاعد حصلت الأذية له عليه السلام، لأن مخالفة أولي الأمر أذية لهم، فأشار الحق سبحانه بقصة موسى إلى أن الرسول حق، وأن الخروج عن طاعته فسق، وأن الفاسق مغضوب لله تعالى؛ لأن الهداية من باب الرحمة وعدمها من باب السخط، والعياذ بالله تعالى من سخطه وغضبه وأليم عقابه وعذابه.

وجملة النداء مع ما بعدها مقول القول؛ أي[1]: إذ قال موسى: يا قوم، لم تؤذونني بمخالفة ما أمرتكم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم؛ أو: لم تؤذونني بالشتم والانتقاص، ومن ذلك رميه بالأدرة، وقد تقدم بيان هذا في سورة الأحزاب.

وجملة قوله: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ جملة[2] حالية مؤكدة

---

(١) روح البيان.	(٢) الشوكاني.

لإنكار الأذية ونفي سببها. ﴿وَقَد﴾ لتحقيق العلم، لا للتوقع، ولا للتقريب ولا للتقليل. فإنهم قالوا: إن (قد) إذا دخلت على الحال تكون للتحقيق، وإذا دخلت على الاستقبال تكون للتقليل. وصيغة المضارع للدلالة على استمرار العلم؛ أي: كيف تؤذونني والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً مستمراً بمشاهدة ما ظهر بيدي من المعجزات أني مرسل من الله إليكم لأرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة، ومن قضية علمكم بذلك: أن تبالغوا في تعظيمي، وتسارعوا إلى طاعتي، فإن تعظيمي تعظيم لله وإطاعتي إطاعة له. وفيه تسلية للنبي - ﷺ - بأن الأذية قد كانت من الأمم السالفة أيضاً لأنبيائهم والبلاء إذا عم.. خفّ.

وحاصل المعنى[1]: واذكر - يا محمد - لقومك خبر عبده ورسوله موسى بن عمران كليم الله، حين قال لقومه: لم تؤذونني وتخالفون أمري، فتتركوا القتال وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من رسالة ربي؟ وفي هذا تسلية لرسوله - ﷺ - على ما أصابه من قومه الكافرين ومن غيرهم، وأمر له بالصبر، ولهذا قال - ﷺ -: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر». كما أن فيه نهياً للمؤمنين أن ينالوا من النبي - ﷺ - أو يوصلوا إليه أذى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾. وذلك أنه ﷺ - لما قسم غنائم الطائف.. قال بعض المنافقين: هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله، فتغير وجهه الشريف وقال ذلك.

ثم بيّن عاقبة عصيانهم ومخالفة أمره بقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾؛ أي: أصروا على الزيغ والميل عن الحق الذي جاء به موسى، واستمروا عليه ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قُلُوبَهُمْۚ﴾؛ أي: صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب؛ لصرف اختيارهم نحو الغي والضلال. وقال الراغب في «المفردات»؛ أي: لما فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك، وقال جعفر: لما تركوا أوامر الخدمة نزع الله من قلوبهم نور الإيمان، وجعل للشيطان إليهم طريقاً، فأزاغهم عن طريق الحق وأدخلهم في مسالك الباطل. وقال الواسطي: لما زاغوا عن القربة في العلم أزاغ الله قلوبهم في الخلقة. وقال بعضهم: لما زاغواعن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة. يقول

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الفقير: لما زاغوا عن رسالة موسى ونبوته أزاغ الله قلوبهم عن ولايته. فهم رأوا موسى على أنه موسى لا على أنه رسول نبي، فحرموا من رؤية الحق تعالى.

والمعنى: أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، وأصروا على ذلك.. صرف الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الحيرة والشك، جزاء وفاقاً لما دسوا به أنفسهم من الذنوب والآثام ومخالفة أوامر رسوله وانهماكهم في الطغيان والمعاصي، فران على قلوبهم، وطمس على أعينهم فلم تنظر إلى ما تشاهد من دليل ولا تبصر ما ترى من برهان، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم أكد إزاغته لقلوبهم وبيّن علتها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها من الإزاغة، وتذييل مؤذن بعليته؛ أي[1]: لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة إلى البغية، لا هداية موصلة إلى ما يوصل إليها، فإنها شاملة للكل. والمراد: جنس الفاسقين، وهم داخلون في حكمهم دخولاً أولياً. ووصفهم بالفسق نظراً إلى قوله تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. قال الإمام: وهذه الآية تدل على عظم أذى الرسول، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى، انتهى. ويتبعه أذى العالمين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، فأذاهم في حكم أذاهم.

والمعنى: أي والله لا يوفق لإصابة الحق من اختار الكفر ونبذ طاعة الله ورسوله بما يرين على قلبه من الضلالة، فيحرمه النظر إلى الأدلة التي نصبت في الكون، وجعلت مناراً للعقول، وشفاء للصدور.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ إما معطوف على ﴿إذ﴾ الأولى معمول لعاملها، وإما معمول لمضمر معطوف على عاملها. ولفظ ﴿ٱبْنُ﴾ هنا وفي ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بإثبات الألف خطاً لندرة وقوعه بين رب وعبد وذكر وأنثى. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: ناداهم بذلك استمالة لقلوبهم إلى تصديقه في قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. فإن تصديقه عليه السلام إياها من أقوى الدواعي إلى

---

(١) روح البيان.

تصديقهم إياه؛ أي: أرسلت إليكم لتبليغ أحكامه التي لا بدّ منها في صلاح أموركم الدينية والدنيوية؛ لأني لم آتكم بشيء يخالف التوراة، بل هي مشتملة على التبشير بي، فكيف تنفرون عني وتخالفوني؟.

وقال أبو الليث: يعني أقرأ عليكم الإنجيل موافقاً للتوراة في التوحيد وبعض الشرائع. قال القاضي في «تفسيره»: ولعله لم يقل: يا قوم، كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم. إذ النسب إلى الآباء، وإلا فمريم من بني إسرائيل؛ لأن إسرائيل لَقَبُ يعقوب ومريم من نسله، ثم إن هذا يدل على أن تصديق المتقدم من الأنبياء والكتب من شعائر أهل الصدق، ففيه مدح لأمة محمد - ﷺ - حيث صدقوا الكل. وانتصاب ﴿مُّصَدِّقًا﴾ على الحال.

﴿و﴾ كذا ﴿مبشراً﴾ والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال.

والمعنى: إني أرسلت إليكم حال كوني مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ وهذا أيضاً داع إلى تصديقه عليه السلام من حيث إن البشارة به واقعة في التوراة. أي: وحالة كوني مبشراً بمن يأتي من بعدي من رسول، وكان بين مولده وبين الهجرة ست مئة وثلاثون سنة. وقال: بشرهم به ليؤمنوا به عند مجيئه، أو ليكون معجزة لعيسى عند ظهوره. والتبشير به تبشير بالقرآن أيضاً، وتصديق له كالتوراة.

﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾؛ أي: محمد - ﷺ - يريد عيسى عليه السلام: أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر، فذكر أول الكتب المشهورة الذي يحكم به النبيون والنبي الذي هو خاتم النبيين. وقال القشيري: بشر كل نبي قومه بنبينا محمد - ﷺ -، والله أفرد عيسى بالذِّكر في هذا الموضع؛ لأنه آخر نبي قبل نبينا - ﷺ -، فبيّن أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام.

وقال بعضهم[1]: كان بين رفع المسيح ومولد النبي - ﷺ - خمس مئة وخمس وأربعون سنة تقريباً. وعاش المسيح إلى أن رفع ثلاثاً وثلاثين سنة، وبين رفعه والهجرة الشريفة خمس مئة وثمان وتسعون سنة، وأمته النصارى على اختلافهم،

---

(١) روح البيان.

ونزل عليه جبرائيل عشر مرات، ونزل على نبينا محمد - ﷺ - أربعةً وعشرين مرة، وأمته أمة مرحومة جامعة لجميع المسلكات الفاضلة. قيل: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: يا روح الله! هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم، أمة محمد، حكماء علماء، أبرار أتقياء؛ كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله عنهم باليسير من العمل.

وأحمد اسم نبينا ﷺ، ويحتمل أن يكون منقولاً من المضارع المبدوء بالهمزة، وأن يكون منقولاً من صفة. وهي أفعل التفضيل، وهو الظاهر. قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

صَلَّىٰ الإِلٰهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَىٰ ٱلْمُبَارَكِ أَحْمَدِ

وكذا محمد، فإنه منقول من الصفة أيضاً، وهو في معنى: محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فإنه محمود في الدنيا بما هدي إليه ونفع به من العلم والحكمة، ومحمود في الآخرة بالشفاعة. ومعنى أحمد: أحمد الحامدين لربه، ومعنى محمد: محمود عند ربه وعند الخلائق. وخص أحمد بالذكر هنا لتقدمه على محمد في المعنى؛ لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له. وقال الراغب: أحمد إشارة للنبي - ﷺ - باسمه تنبيهاً على أنه كما وجد اسمه أحمد يوجد جسمه، وهو محمود في أخلاقه وأفعاله وأقواله. وخص لفظ أحمد فيما بشر به عيسى تنبيهاً على أنه أحمد منه ومن الذين قبله، انتهى. وقيل: خصه بالذكر لأنه في الإنجيل مسمى بهذا الاسم؛ ولأن اسمه في السماء أحمد فذكر باسمه السماوي. وقال الشوكاني: وأحمد اسم نبينا - ﷺ -، وهو عَلَم منقول من الصفة، وهي تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل، فيكون معناها: أنه أكثر حمداً لله من غيره، أو من المفعول، فيكون معناها: أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبوعمرو، والسلمي، وزر بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم[1]: ﴿مِنۢ بَعۡدِي﴾ بفتح الياء. وقرأ الباقون بإسكانها.

قال في «فتح الرحمٰن»: لم يسم بأحمد أحد غيره - ﷺ - ولا دعي به مدعو

---

(١) الشوكاني.

قبله، وكذلك محمد أيضاً لم يسم به أحد من العرب، ولا غيرهم، إلى أن شاع قبيل وجوده - ﷺ - وميلاده؛ أي: من الكهان والأحبار أن نبينا يبعث اسمه محمد، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو، وهم: محمد بن أحيحة بن الجلاح بن سفيان، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومحمد بن البراء البكراوي، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن حمدان الجعفي، ومحمد بن خزاعة السلمي. فهم ستة لا سابع لهم. ثم حمى الله سبحانه كل من تسمى به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره حتى تحققت السمتان له - ﷺ - ولم ينازع فيهما، انتهى.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾؛ أي[1]: الرسول المبشر به الذي اسمه أحمد، كما تدل عليه الآيات اللاحقة. وأما إرجاعه إلى عيسى كما فعله بعض المفسرين، كـ«الشوكاني» و«البيضاوي» و«الخازن» وغيرهم.. فبعيد جداً، وكون ضمير الجمع راجعاً إلى بني إسرائيل لا ينافي ما ذكرنا، لأن نبينا - ﷺ - مبعوث إلى الناس كافة. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الظاهرة كالقرآن، ونحوه، والباء للتعدية، ويجوز أن تكون للملابسة. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا﴾ مشيرين إلى ما جاء به، أو إليه - ﷺ - ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر سحريته بلا مرية، وتسميته - ﷺ - سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءة من قرأ: ﴿هذا ساحر﴾.

والمعنى: أي فحين جاءهم أحمد المبشر به بالأدلة الواضحة والمعجزات الباهرة.. فاجؤوه بالتكذيب والإعراض عنه استكباراً وعناداً، وقالوا: إن ما جئت به ما هو إلا ترهات وأباطيل وسحر واضح لا شك. ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ...﴾ الآية.

وقرأ الجمهور: ﴿سِحْرٌ﴾؛ أي: ما جاء به من البينات سحر. وقرأ[2] عبد الله، وطلحة، والأعمش، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي: ﴿ساحر﴾؛ أي: هذا الجائي ساحر.

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: والفرق[1] بين الكذب والافتراء: هو أن الافتراء افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه. وقاله هنا بتعريف الكذب إشارة إلى قول اليهود: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقاله في مواضع بالتنكير، كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ جرياً على الأكثر من استعمال المصدر منكراً.

والاستفهام فيه للإنكار؛ أي: وأي الناس من المفترين أشد ظلماً وأكثر جرماً ممن اختلق على الله الكذب بنسبة الشريك والولد والصاحبة إليه؟ ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾؛ أي: والحال أنه يدعى إلى الإسلام الذي يوصله إلى سعادة الدارين، فيضع موضع الإجابة الافتراء على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق: هذا سحر. فاللام في ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ للعهد؛ أي: لا أحد من المفترين أظلم منه؛ أي: وهو أظلم من كل ظالم، وإن لم يتعرض ظاهر الكلام لنفي المساويء. ومن الافتراء على الله: الكذب في دعوى النسب، والكذب في الرؤيا، والكذب في الإخبار عن رسول الله - ﷺ -.

واعلم: أن الداعي في الحقيقة هو الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ بأمره الرسول - ﷺ -، كما قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

قرأ الجمهور[2]: وهو ﴿يُدْعَىٰٓ﴾ مبنياً للمفعول، من الدعاء. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿يدعي﴾ مبنياً للفاعل، بفتح الياء وتشديد الدال، من الادعاء، وادعى يتعدى بنفسه إلى المفعول به، لكنه لما ضمن معنى الانتماء والانتساب.. عدي بإلى.

أي: ومن[3] أشد ظلماً وعدواناً ممن اختلق على الله الكذب، وجعل له أنداداً وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص.

وتلخيص المعنى: أيُّ الناس أشد ظلماً ممن يُدعى إلى الإسلام والخضوع فلا يجيب الداعي، بل يفتري على الله الكذب بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحراً. والمراد: أنه أظلم من كل ظالم؛ لأنه قد أهدر عقله، وركب هواه، وألقى الأدلة

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

وراءه ظهرياً.

ثم بين سبب ظلمهم وفساد عقائدهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها؛ أي: والله لا يرشد الظالمين لأنفسهم إلى ما فيه صلاحهم ورشادهم؛ لعدم توجههم إليه؛ لأنهم دسوها باجتراح السيئات وارتكاب الموبقات، فختم على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة فلا تفهم الأدلة المنصوبة في الكون وتهتدي بهدى العقل، بل تسير في عماية وتمشي في ظلام دامس لا تلوي على شيء.

ثم ذكر جدهم واجتهادهم في إبطال الدين، واستهزأ بما اتخذوه من الوسائل، فقال: ﴿يُرِيدُونَ﴾؛ أي: يريد المفترون ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ ودينه ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ وأقوالهم الباطلة. والإطفاء: الإخماد، وأصله في النار، واستعير لما يجري مجراها من الظهور والضياء؛ أي: يريدون أن يطفئوا دينه، أو كتابه، أو حجته النيرة. و﴿اللام﴾[1]: مزيدة لما فيها من معنى الإرادة، تأكيداً لها، كما زيدت لما فيها من معنى الإضافة تأكيداً لها في: (لا أبا لك). أو لام علة، والمفعول محذوف.

والمعنى: يريدون الافتراء ليطفئوا نور الله. وقيل: إنها بمعنى أن الناصبة وأنها ناصبة بنفسها. قال الفراء: العرب تجعل لام كي في موضع أن.. في أراد وأمر، وإليه ذهب الكسائي. ومثل هذا قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾. قال الراغب في «المفردات»: الفرق بين زيادة اللام وعدمها: أن المعنى في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾: يقصدون إخفاء نور الله، وفي قوله: ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟﴾: يقصدون أمراً يتوصلون به إلى إطفاء نور الله. وقال الشوكاني: والمراد بنور الله: القرآن؛ أي: يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول، أو الإسلام، أو محمداً - ﷺ -، أو الحجج والدلائل، أو جميع ما ذكر. ومعنى ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمنة للطعن. مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس ليطفئه.

وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ جملة حالية من مفعول ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يريدون إطفاءه، والله متمه ومبلغه إلى غايته بنشره في الآفاق وإعلائه ﴿وَلَوْ كَرِهَ

---

(١) روح البيان.

﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ إتمامه، إرغاماً لهم وزيادة في مرض قلوبهم. و﴿لو﴾ بمعنى: إن، وجوابه محذوف؛ أي: وإن كرهوا ذلك، فالله يفعله لا محالة.

وقرأ العربيان[1] - أبو عمرو وابن عامر - ونافع وأبو بكر والحسن وطلحة والأعرج وابن محيصن: ﴿متمٌ...﴾ بالتنوين، ﴿نورَه﴾ بالنصب. وباقي السبعة والأعمش بالإضافة.

ومعنى الآية: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ؛ أي[2]: إن مثلهم في مقاومتهم لدعوة الدين وجدهم في إخماد نوره مثل من ينفخ في الشمس بفيه ليطفىء نورها ويحجب ضياءها، وأنى له ذلك؟ فما هو إلا كمن يضرب في حديد بارد، أو كمن يريد أن يضرم النار في الرماد، أو كمن يريد أن يصطاد العنقاء:

أَرَىٰ ٱلْـعَـنْـقَـاءَ تُـكْـبُـرُ أَنْ تُـصَـادَا ... فَـعَـانِـدْ مَـنْ تُـطِـيْـقُ لَـهُ عِـنَـادَا

والله معلن الحق، ومظهر دِينه، وناصر محمداً - ﷺ - على من عاداه ولو كره ذلك الكافرون. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوحي أبطأ أربعين يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود! أبشروا، أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان الله ليتم نوره، فحزن الرسول - ﷺ -، فنزلت: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

ثم بيّن العلة في إخماد دعوتهم، وأنه لا سبيل لقبولها لدى العقول، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه الإله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً - ﷺ -. وقرىء: ﴿نبيه﴾. ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: بالقرآن أو بالمعجزة. فالهدى بمعنى: ما به الاهتداء إلى الصراط المستقيم. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: وبالملة الحنيفية التي اختارها لرسوله ولأمته. وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، مثل: عذاب الحريق. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك الإظهار فيظهره. ولقد أنجز الله سبحانه، وعده؛ حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام، فليس المراد أنه لا يبقى دين آخر من الأديان، بل العلو والغلبة. والأديان[3] خمسة: اليهودية والنصرانية والمجوسية والشرك، والإسلام. كما في «عين المعاني» للسجاوندي.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

والمعنى[1]: أي هو الله الذي أرسل محمداً - ﷺ - بالقرآن والملة الحنيفية ليعليه على جميع الأديان المخالفة له، وإنما قال أولاً: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. وقال ثانياً: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لأنه ذكر أولاً النور وإطفاءه فاللائق به الكفر؛ لأنه ستر وتغطية؛، وذكر ثانياً الحاسدين للرسول - ﷺ - وأكثرهم من قريش، فناسب ذكر المشركين.

وعبارة «الخطيب»: أجيب عنه: بأنه تعالى أرسل رسوله وهو من نعم الله تعالى والكافرون كلهم في كفران النعم سواء؛ فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. لأن لفظ الكافر أعمّ من المشرك. فالمراد بالكافرين هنا: اليهود والنصارى والمشركون، فلفظ الكافر أليق به. وأما قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ فذلك عند إنكارهم التوحيد وإصرارهم عليه؛ لأنه - ﷺ - في ابتداء الدعوة أمر بالتوحيد بلا إله إلا الله، فلم يقولوها، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾. انتهى.

وقيل[2]: إيراد الكافرين أولاً لما أن إتمام الله نوره يكون بنسخ غير الإسلام، والكافرون كلهم يكرهون ذلك، وإيراد المشركين ثانياً لما أن إظهار دين الحق يكون بإعلاء كلمة الله وإشاعة التوحيد المنبىء عن بطلان الآلهة الباطلة، وأشد الكارهين لذلك المشركون، والله أعلم بأسرار كلامه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ سيأتي بيان معناها ﴿تُنجِيكُم﴾؛ أي: تكون سبباً لإنجاء الله إياكم وتخليصه. وأفادت الصفة المقيدة أن من التجارة ما يكون على عكسها، كما أشار إليها قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾. فإن بوار التجارة وكسادها يكون لصاحبها عذاباً أليماً، كجمع المال وحفظه ومنع حقوقه، فإنه وبال في الآخرة؛ فهي تجارة خاسرة. وكذا الأعمال التي لم تكن على وجه الشرع والسنة أو أريد بها غير الله، فجعل العمل الآتي بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيه كما يربحون في التجارة. وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار. ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: مؤلم جسماني، وهو ظاهر وروحاني، وهو: التحسر والتضجر.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿تُنجِيكُم﴾ مخففاً، من الإنجاء وقرأ الحسن، وابن أبي

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

إسحاق، والأعرج، وابن عامر، وأبو حيوة مشدداً، من التنجية.

ثم بيّن سبحانه هذه التجارة التي دل عليها، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾. وهذا[1] كلام مستأنف واقع في جواب سؤال مقدر، فكأنهم قالوا: كيف نعمل، أو ماذا نصنع؟ فقيل: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلخ. وقدم الأموال على الأنفس لأنها هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز إلى الجهاد، أو لأن الإنسان ربما يضن بنفسه أو للترقي من الأدنى إلى الأعلى، أو لأنه إذا كان له مال فإنه يؤخذ به النفس لتغزو. وهذا خبر بمعنى الأمر، جيء به للإيذان بوجوب الامتثال، فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه، كما تقول: غفر الله لهم، ويغفر الله لهم، جعلت المغفرة حاصلة لقوة الرجاء كأنها كانت ووجدت. وقس عليه نحو: سلمكم الله، وعافاكم الله، وأعاذكم الله.

وفي الحديث: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم». ومعنى الجهاد بالألسنة: إسماعهم ما يكرهونه ويشق عليهم سماعه، من هجو وكلام غليظ ونحو ذلك. وأخَّرَ الجهاد بالألسنة لأنه أضعف الجهاد وأدناه. ويجوز أن يقال: إن اللسان أحد وأشد تأثيراً من السيف والسنان. قال علي ـ رضي الله عنه ـ:

جِرَاحَاتُ ٱلسِّنَانِ لَهَا ٱلْتِئَامُ   وَلاَ يَلْتَامُ مَا جَرَحَ ٱللِّسَانُ

فيكون من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى. وكان حسان ـ رضي الله عنه ـ يجلس على المنبر فيهجو قريشاً بإذن رسول الله ـ ﷺ ـ. ثم إن التجارة: التصرف في رأس المال طلباً للربح، والتاجر هو الذي يبيع ويشتري، وليس في كلام العرب تاء بعدها جيم غير هذه اللفظة. وأما تجاه: فأصله وجاه، وتجوب، وهي قبيلة من حمير، فالتاء للمضارعة.

قال ابن الشيخ: جعل ذلك تجارة تشبيهاً له في الاشتمال على معنى المبادلة والمعاوضة، طلباً لنيل الفضل والزيادة، فإن التجارة هي معاوضة المال بالمال لطمع الربح، والإيمان والجهاد شبها بها من حيث إن فيهما بذل النفس والمال طمعاً لنيل رضى الله تعالى والنجاة من عذابه.

---

(١) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾، فوجه المبرد هذه القراءة على أنه خبر بمعنى الأمر، بمعنى: آمنوا وجاهدوا. ولذلك جاء ﴿يَغْفِرْ﴾ مجزوماً، فصورته صورة الخبر، ومعناه: الأمر. ويدل عليه قراءة عبد الله. وقرأ عبد الله: ﴿آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا﴾ بصيغة الأمر. وقرأ زيد بن علي: ﴿تؤمنوا بالله ورسوله وتجاهدوا﴾ بالتاء فيهما مع حذف النون. فتوجه هذه القراءة على حذف لام الأمر، والتقدير: لتؤمنوا وتجاهدوا، كقول الشاعر:

قُلْتُ لِبَوَّابٍ عَلَىٰ بَابِهَا   تَأْذَنْ لِي إِنِّي مِنْ أَحْمَائِهَا

يريد: لتأذن لي.

واعلم[2]: أن الجهاد له ضروب شتى: جهاد للعدو في ميدان القتال لنصرة الدين، وجهاد للنفس بقهرها ومنعها عن شهواتها التي ترديها، وجهاد بين النفس والخلق بترك الطمع في أموالهم والشفقة عليهم والرحمة بهم، وجهاد بين المرء والدنيا بأن لا يتكالب على جمع حطامها وأن لا ينفق المال إلا فيما تجيزه الشرائع وتقره العقول السليمة.

والمعنى[3]: يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله.. ألا أدلكم على صفقة رابحة وتجارة نافعة، تنالون بها الربح العظيم. والنجح الخالد الباقي؟ اثبتوا على إيمانكم، وأخلصوا لله العمل، وجاهدوا بالأنفس والأموال في سبيل الله بنشر دينه وإعلاء كلمته. وهذا أسلوب يفيد التشويق والاهتمام بما يأتي بعده، كما تقول: هل أدلك على عالم عظيم ذي خلق حسن وعلم فياض؟ هو فلان. فيكون ذلك أروع في الخطاب وأجلب لقَبوله.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من الإيمان والجهاد بقسميه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على الإطلاق، أو من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي[4]: إن كنتم من أهل العلم، فإن الجهلة لا يعتد بأفعالهم. أو إن كنتم تعلمون أنه خير لكم حينئذٍ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه.. أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

فتخلصون وتفلحون. فعلى العاقل تبديل الفاني بالباقي، فإنه خير له. وروي: أنه جاء رجل بناقة مخطومة وقال: هذه في سبيل الله، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة، كلها مخطومة».

أي: هذا الإيمان والجهاد خير لكم من كل شيء، من نفس ومال، وولد، إن كنتم من أهل الإدراك والعلم بوجوه المنافع وفهم المقاصد، فإن الأمور إنما تتفاضل بغاياتها ونتائجها، ولهذه التجارة فوائد عاجلة وأخرى آجلة، وقد فصّل كلا الأمرين، وقدم الثانية فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ في الدنيا، وهو جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخير، ويجوز أن يكون جواباً لشرط أو لاستفهام دل عليه الكلام، تقديره: إن تؤمنوا وتجاهدوا.. يغفر لكم، أو هل تقبلون وتفعلون ما دللتكم عليه. وقال الفراء: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جواب الاستفهام، فجعله مجزوماً لكونه جواب الاستفهام. وقد غلطه بعض أهل العلم؛ لأن مجرد الدلالة لا يوجب المغفرة. وقال الرازي في توجيه قول الفراء: إن ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ في معنى الأمر عنده، يقال: هل أنت ساكت؛ أي: اسكت. وبيانه: أن ﴿هَلْ﴾ بمعنى الاستفهام، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً بمعنى: ألا، والحث كالإغراء، والإغراء أمر.

وقرأ بعضهم بالإدغام[1] في ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾. والأولى ترك الإدغام؛ لأن الراء حرف متكرر فلا يحسن إدغامه في اللام.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: كل واحد منكم جنّة. ولا بعد من لطفه تعالى أن يدخله جنات؛ بأن يجعلها خاصة له داخلة تحت تصرفه. والجنة في اللغة: البستان الذي فيه أشجار متكاثفة مظللة تستر ما تحتها. ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها. بمعنى[2] تحت أغصان أشجارها في أصولها على عروقها، أو من تحت قصورها وغرفها. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة في الجنة؛ من اللبن، والعسل، والخمر، والماء الصافي ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾؛ أي: ويدخلكم مساكن طيبة ومنازل نزهة كائنة ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؛ أي: إقامة وخلود، بحيث لايخرج منها من دخلها بعارض من العوارض. وهذا ظرف صفة مختصة بـ﴿مساكن﴾.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

قال الراغب: أصل الطيب: ما تستلذه الحواس. ومعنى ﴿مساكن طيبة﴾؛ أي: طاهرة زكية مستلذة. وقال بعضهم: طيبتها: سعتها ودوام أمرها.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنات المذكورة بما ذكر من الأوصاف الجميلة ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، والظفر الذي لا ظفر يماثله.

والمعنى[1]: إن فعلتم ذلك، فآمنتم بالله وصدقتم رسوله، وجاهدتم في سبيله.. ستر لكم ذنوبكم ومحاها، وأدخلكم فراديس جنانه، وأسكنكم مساكن تطيب لدى النفوس وتقرّ بها العيون في دار الخلد الأبدي، وهذا منتهى ما تسمو إليه النفوس من الفوز الذي لا فوز بعده. قال[2] بعض المفسرين: الفوز يكون بمعنى النجاة من المكروه، وبمعنى الظفر بالبغية، والأول يحصل بالمغفرة، والثاني بإدخال الجنة والتنعيم فيها، وعظمه باعتبار أنه نجاة لا ألم بعده، وظفر لا نقصان فيه، شأناً وزماناً ومكاناً؛ لأنه في غاية الكمال على الدوام في مقام النعيم.

واعلم: أن الآية الكريمة أفادت أن التجارة دنيوية وأخروية، فالدنيا موسم التجارة والعمر مدتها، والأعضاء والقوى رأس المال، والعبد هو المشتري من وجه والبائع من وجه، فمن صرف رأس ماله إلى المنافع الدنيوية التي تنقطع عند الموت.. فتجارته دنيوية كاسدة خاسرة، وإن كان تحصيل علم دين أو كسب علم صالح فضلاً عن غيرهما، فإن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى، ومن صرفه إلى المقاصد الأخروية التي لا تنقطع أبداً.. فتجارته رائجة رابحة، حرية بأن يقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾. وذلك هو الفوز العظيم.

ولعل المراد من التجارة هنا[3]: بذل المال والنفس في سبيل الله، وذكر الإيمان لكونه أصلاً في الأعمال ووسيلة في قبول الآمال. وتوصيف التجارة بالإنجاء لأن النجاة يتوقف عليها الانتفاع، فيكون قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببيان سبب الإنجاء، وقوله: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ بما يتعلق به بيان المنفعة الحاصلة من التجارة، مع أن التجارة الدنيوية تكون سبباً للنجاة من الفقر المنقطع، والتجارة الأخروية تكون سبباً

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

للنجاة من الفقر الغير المنقطع. وقال النبي - ﷺ -: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». يعني: أن نعمتي الصحة والفراغ كرأس المال للمكلف، فينبغي أن يعامل الله سبحانه بالإيمان به وبرسوله، ويجاهد مع النفس لئلا يغبن، ويربح في الدنيا والآخرة، ويجتنب معاملة الشيطان؛ لئلا يضيع رأس ماله مع الربح.

ثم ذكر الفوز العاجل في الدنيا، فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾؛ أي: ولكم مع هذه النعمة العظيمة نعمة أخرى عاجلة. فـ﴿أخرى﴾ مبتدأ خبره محذوف، والجملة معطوفة على: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ على المعنى، أو في محل خفض معطوفة على ﴿تِجَارَةٍ﴾؛ أي: وهل أدلكم على خصلة أخرى ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وترغبون فيها في العاجل مع ثواب الآخرة. وقيل: في محل نصب؛ أي: ويعطيكم خصلة أخرى. وفي قوله: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل، وتوبيخ على محبته، وهو صفة بعد صفة لذلك المحذوف.

ثم بيّن سبحانه هذه الأخرى، فقال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: هي نصر من الله لكم على عدوكم قريش وغيرهم. وقيل: ﴿نَصْرٌ﴾ بدل، أو عطف بيان لتلك النعمة الأخرى على تقدير كونها في محل رفع؛ أي: ولكم نصر من الله. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾؛ أي: عاجل. معطوف على ﴿نَصْرٌ﴾. قال الكلبي: يعني النصر على قريش، وفتح مكة. وقال عطاء: يريد فتح فارس والروم. وقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: قل - يا محمد -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ...﴾ إلخ، وبشرهم بأنواع البشارة الدنيوية والأخروية، فلهم فضل من الله وإحسان في الدارين. أو معطوف على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، لأنه في معنى الأمر.

والمعنى[1]: أي وبشر - يا محمد - المؤمنين بالنصر والفتح، أو: وبشرهم بالنصر في الدنيا والفتح وبالجنة في الآخرة، أو: وبشرهم بالجنة في الآخرة.

وفي هذا[2]: دلالة على صدق النبي - ﷺ -؛ لأنه أخبر عما يحصل ويقع في المستقبل من الأيام على ما أخبره.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والخلاصة: أي ولكم مع هذا المذكور فوز آخر في الدنيا بنصركم على عدوكم، وفتحكم للبلاد، وتمكينكم منها حتى تدين لكم مشارق الأرض ومغاربها. وقد أنجز الله سبحانه وعده، فرفعت الراية الإسلامية على جميع المعمور من العالم في زمن يسير لم يعهد التاريخ نظيره، وامتلكوا بلاد القياصرة والأباطرة، وساسوا العالم سياسة شهد لهم بفضلها العدو قبل الصديق.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَصْرٌ﴾ بالرفع، وكذا، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. وقرأ ابن أبي عبلة[2] بالنصب فيها ثلاثتها، ووصف أخرى بـ﴿تُحِبُّونَهَا﴾؛ لأن النفس قد وكلت بحب العاجل.

ثم أمرهم بأن يكونوا أنصار الله في كل حين، فلا يتخاذلوا ولا يتواكلوا، فيكتب لهم النصر على أعدائهم كما فعل حواريو عيسى، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿كُونُوٓا۟﴾ جميعاً ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنصار دِينه. جمع نصير، كشريف وأشراف.

وقرأ الحرميان[3] ـ نافع وابن كثير ـ وأبو عمرو والأعرج وعيسى ﴿أنصاراً لله﴾ بالتنوين وترك الإضافة. وقرأ الحسن، والجحدري، وباقي السبعة بالإضافة إلى الله وترك التنوين، والرسم يحتمل القراءتين معاً، واختار أبو عبيدة قراءة الإضافة؛ لقوله؛ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ بالإضافة؛ أي: دوموا على نصرة دين الله وإعلاء كلمته، وقولوا: نحن أنصار الله إذا قال لكم نبيكم محمد ـ ﷺ ـ: من أنصاري إلى الله ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: إذا قال لكم قولاً مثل قول عيسى ﴿لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: من جندي وأعواني متوجهاً إلى نصرة دين الله. فـ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وأعوان دِينه. وفي «فتح الرحمٰن»: ظاهره تشبيه كونهم أنصار الله بقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وليس مراداً.

قلت: التشبيه محمول على المعنى، تقديره: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصاراً لعيسى حين قال لهم: من أنصاري إلى الله. وإنما قلنا في الحل: مَنْ جندي متوجهاً إلى نصرة الله كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأن[1] قول عيسى لا يطابق جواب الحواريين بحسب الظاهر، فإن ظاهر قول عيسى يدل على أنه يسأل من ينصره، فكيف يطابقه جواب الحواريين بأنهم ينصرون الله وأيضاً لا وجه لبقاء قول عيسى على ظاهره؛ لأن النصرة لا تتعدى بإلى، فحمل الأنصار في سؤاله على الجند؛ لأنهم ينصرون ملكهم ويعينونه في مراده، ومراده عليه السلام نصرة دين الله، فسأل من يتبعه ويعينه في ذلك المراد، ويشاركه فيه. فقولنا: (متوجهاً) حال من ياء المتكلم في جندي، و﴿إِلَى﴾ متعلق به لا بالنصرة، والإضافة الأولى إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لما بينهما من الاختصاص، أعني: الملابسة المصححة للإضافة المجازية، لظهور أن الاختصاص الذي تقتضيه الإضافة حقيقة غير متحقق في إضافة ﴿أَنصَارِىٓ﴾. والإضافة الثانية إضافة الفاعل إلى المفعول، والتشبيه باعتبار المعنى. أي: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: من أنصاري إلى الله، أو قل لهم كما قال عيسى للحواريين. وقيل: التقدير: من أنصاري فيما يقرب إلى الله؟

وقصارى ذلك[2]: كونوا أنصار الله في جميع أعمالكم وأقوالكم وأنفسكم وأموالكم كما استجاب الحواريون لعيسى. والحواريون هم أنصار عيسى، وخلص أصحابه، وأول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً. قال بعض العلماء: إنما سموا حواريين لصفاء عقائدهم عن التردد والتلوين، أو لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدِّين والعلم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من الحَوَرِ، وهو البياض الخالص.

﴿فَـ﴾ لمّا بلّغ عيسى عليه السلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من الحواريين من وازره ﴿آمنت﴾ واهتدت ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: جماعة منهم بما جاءهم به؛ أي: آمنوا بعيسى وأطاعوه فيما أمرهم به من نصرة الدين ﴿وَكَفَرَت﴾؛ أي: ضلت ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى، وجحدوا به، وقاتلوه. وهم الذين أضلهم بولس. وذلك[3] أنه لما رفع عيسى إلى السماء.. تفرق قومه ثلاث فرق:

فرقة تقول: كان عيسى هو الله، فارتفع.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) المراح.

وفرقة تقول: كان ابن الله، فرفعه إليه.

وفرقة تقول: كان عبد الله ورسوله، فرفعه إليه. فاقتتلوا، وظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث الله محمداً - ﷺ -، فظهرت الفرقة المؤمنة على الفرقة الكافرة. فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: قوينا مؤمني قومه بالحجة، أو بالسيف ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾؛ أي: على الذين كفروا، وهو الظاهر، فإيراد العدو إعلام منه أن الكافرين عدو للمؤمنين عداوة دينية. ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾؛ أي: فصار الذين آمنوا ﴿ظَٰهِرِينَ﴾؛ أي[1]: غالبين عليهم عالين، من قولهم: ظهرت على الحائط، علوته. وقال قتادة: فأصبحوا ظاهرين بالحجة والبرهان كما سبق؛ لأنهم قالوا فيما روي: ألستم تعلمون أن عيسى عليه السلام كان ينام، والله تعالى لا ينام، وأنه يأكل ويشرب، والله منزه عن ذلك.

وقيل المعنى[2]: فأيدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين جميعاً.

والمعنى[3]: أي فنصرنا المؤمنين على من عاداهم، وأمددناهم بروح من عندنا على مقتضى سنتنا. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فغلبوا أعداءهم، وظهروا عليهم، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وعبارة «الخطيب» هنا: أي صاروا بعدما كانوا فيه من الذلّ ظاهرين، أي: غالبين قاهرين في أقوالهم وأفعالهم، لا يخافون أحداً، ولا يستخفون منه.

الإعراب

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿سَبَّحَ﴾: فعل ماض، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول فاعل، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلته، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه. والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية. ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من المنادى، وجملة النداء مستأنفة.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل والجملة صلة ﴿الَّذِينَ﴾. ﴿لِمَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، ﴿م﴾: اسم استفهام يفيد الإنكار والتوبيخ، في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين الموصولة، الجار والمجرور متعلق، بـ﴿تَقُولُونَ﴾. ﴿تَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة الاستفهامية جواب النداء، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿تَقُولُونَ﴾، ﴿لا﴾: نافية، وجملة ﴿تَفْعَلُونَ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾، والعائد محذوف؛ أي: ما لا تفعلونه.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

﴿كَبُرَ﴾: فعل ماض، ﴿مَقْتًا﴾: تمييز محول عن الفاعل، ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿مَقْتًا﴾ أو حال، و﴿أَن تَقُولُوا﴾: في تأويل مصدر مرفوع على أنه فاعل ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: كبر قولكم مقتاً عند الله. أي: كبر مقت قولكم؛ أي: المقت المترتب على قولكم ما لا تفعلون. ويجوز أن يكون ﴿كَبُرَ﴾ من باب نعم وبئس، فيكون الفاعل ضميراً مستتراً مفسراً بالتمييز النكرة، و﴿أَن تَقُولُوا﴾: مبتدأ خبره الجملة قبله؛ لأنه المخصوص بالذم. ﴿مَا﴾: مفعول به، وجملة ﴿لَا تَفْعَلُونَ﴾ صلته. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُحِبُّ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿يُقَاتِلُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿صَفًّا﴾: حال من فاعل ﴿يُقَاتِلُونَ﴾، ﴿كَأَنَّهُم﴾: ناصب واسمه، ﴿بُنْيَانٌ﴾: خبره، ﴿مَّرْصُوصٌ﴾: صفة ﴿بُنْيَانٌ﴾، وجملة ﴿كأن﴾ حال ثانية من الضمير في ﴿صَفًّا﴾، لأنه بمعنى: صافين أنفسهم. فهي حال متداخلة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة ﴿إذ قال موسى لقومه﴾. والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية نبينا محمد ـ ﷺ ـ، وتوطينه على الصبر. ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ﴿لِقَوْمِهِ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه

لـ﴿إِذْ﴾، ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول قال: ﴿لِمَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، ﴿م﴾ اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الجرّ باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُؤْذُونَنِي﴾، ﴿تُؤْذُونَنِي﴾: فعل مضارع مرفوع بثبات النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿النون﴾ للوقاية، و﴿الياء﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قال على كونها جواب النداء. ﴿وَقَد﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿تَّعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿تؤذون﴾. ﴿أَنِّي﴾: ناصب واسمه ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبره ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق برسول الله، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تَّعْلَمُونَ﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم ﴿زَاغُوٓا﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾، ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة. ﴿قُلُوبَهُمْ﴾: مفعول به، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر إذ قال عيسى، والجملة المحذوفة معطوفة على الجملة المحذوفة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾. ﴿قَالَ عِيسَى﴾: فعل وفاعل ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: صفة لـ﴿عِيسَى﴾ أو بدل، أو عطف بيان منه، والجملة في محل الخفض مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول قال. ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمهُ وخبره ﴿إِلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول قال على كونه جواب النداء. ﴿مُّصَدِّقًا﴾: حال من الضمير المستكن في رسول؛ لأنه بمعنى: مرسل ﴿لِّمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مُّصَدِّقًا﴾، ﴿بَيْنَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ ﴿بَيْنَ﴾ مضاف، ﴿يَدَىَّ﴾: مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنه مثنى. ﴿وَمُبَشِّرًۢا﴾: معطوف على ﴿مُّصَدِّقًا﴾، ﴿بِرَسُولٍ﴾: متعلق بـ﴿مبشراً﴾، ﴿يَأْتِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ متعلق بـ﴿يَأْتِى﴾. والجملة في محل الجر صفة لـ﴿رَسُولٍ﴾. ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صفة ثانية لـ﴿رسول﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿جَآءَهُم﴾: فعل

ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على الرسول المبشر به، والجملة فعل شرط لـ﴿لمَّا﴾، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿جاء﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، جواب ﴿لمَّا﴾، وجملة ﴿لمَّا﴾ مستأنفة. ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿سِحْرٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾.

﴿وَمَنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم استفهام للإنكار في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَظْلَمُ﴾: خبر، ﴿مِمَّنِ﴾: متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول به، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُدْعَىٰٓ﴾: خبر ﴿هو﴾. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾: متعلق بـ﴿يُدْعَىٰٓ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: خبر عن الجلالة. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبوت النون، والجملة مستأنفة، ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟﴾: ﴿اللام﴾: زائدة للتأكيد ﴿يطفئوا﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام الزائدة، وعلامة نصبه: حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، والجملة صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريدون إطفاء نور الله ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يطفئوا﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿مُتِمُّ﴾: خبره. ﴿نُورِهِۦ﴾: مضاف إليه. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُرِيدُونَ﴾. أو ﴿يطفئوا﴾، أو من ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾، وهو الأوضح كما مر. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، وجوابها محذوف تقديره: ولو كره الكافرون.. أتمه وأظهره. وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب حال من ﴿نُورِهِۦ﴾؛ أي: والله متم نوره حالة كون الكافرين كارهين

إتمامه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلَ﴾ أو حال من ﴿رَسُولَهُۥ﴾، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: معطوف على ﴿الهدى﴾، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يظهر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعودعلى ﴿الله﴾، و﴿الهاء﴾: مفعول به، ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿يظهر﴾، ﴿كُلِّهِۦ﴾: تأكيد للدين، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام وتقديره: لإظهاره على الدين كله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَرْسَلَ﴾. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، وجوابها محذوف، تقديره: أظهره. وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب حال من مفعول يظهره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل منه، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، وجملة النداء مستأنفة. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام بمعنى: ألا، فتكون للعرض، وهو الطلب برفق ولين. ﴿أَدُلُّكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول به، وجملة الاستفهام جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾: متعلق بـ﴿أَدُلُّكُمْ﴾، وجملة ﴿تُنجِيكُم﴾ صفة ﴿تِجَٰرَةٍ﴾، ﴿مِّنْ عَذَابٍ﴾: متعلق بـ﴿تُنجِيكُم﴾، ﴿أَلِيمٍ﴾: صفة ﴿عَذَابٍ﴾.

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾.

﴿تُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي تؤمنون، أو مستأنفة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ما هي التجارة؟. ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾: معطوف على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تجاهدون﴾، أو بمحذوف حال،

﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تجاهدون﴾، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾: معطوف على ﴿أموالكم﴾، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبر كان، ومفعوله محذوف، تقديره: إن كنتم تعلمون أنه خير لكم، وجوابه محذوف أيضاً، تقديره: إن كنتم تعلمون ذلك فافعلوه. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَغْفِرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بالطلب المفهوم من قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنه في تأويل آمنوا بالله ورسوله يغفر لكم ذنوبكم. أو جواب لشرط مقدر تقديره: إن تؤمنوا يغفر لكم. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَغْفِرْ﴾، ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: مفعول به، ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يَغْفِرْ﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على السعة لـ﴿يدخلكم﴾، ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾. معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿طَيِّبَةً﴾: صفة لـ﴿مساكن﴾، ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: صفة ثانية لـ﴿مساكن﴾. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة للفوز. والجملة مستأنفة.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة، ﴿أخرى﴾: مبتدأ مؤخر لخبر مقدم محذوف، تقديره: ولكم نعمة أخرى أو مثوبة أخرى، وجملة ﴿تُحِبُّونَهَا﴾: صفة لأخرى، والجملة الاسمية مستأنفة أو معطوفة على ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ على المعنى. ﴿نَصْرٌ﴾: بدل من ﴿أخرى﴾، أو خبر لمحذوف؛ أي: وتلك الأخرى ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾. و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: صفة لنصر، ﴿وَفَتْحٌ﴾: معطوف على ﴿نَصْرٌ﴾، ﴿قَرِيبٌ﴾: صفة لـ﴿فتح﴾، ﴿وَبَشِّرِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿بشر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: وقل يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ...﴾ إلخ. وبشرهم بأنواع البشارات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل منه وجملة النداء مستأنفة، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿كُونُوٓاْ﴾: فعل أمر ناقص، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: اسمها: ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾: خبرها، والجملة الطلبية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾ مصدرية مدخولها محذوف، تقديره: كما كان الحواريون أنصار الله. وجملة كان المحذوفة صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: كونوا أنصار الله كوناً كائناً ككون الحواريين أنصار الله. ﴿قَالَ عِيسَى﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾: بدل من عيسى، ﴿لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾ في محل الخفض بإضافة الظرف المقدر، تقديره: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله، حين قال لهم عيسى ابن مريم: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والظرف المقدر متعلق بكان المحذوفة. ﴿مَنۡ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَنصَارِيٓ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ياء المتكلم. أي: حالة كوني متوجهاً إلى الله. ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿قَالَ عِيسَى﴾؛ أي: حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله وقال الحواريون: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ﴿نَحۡنُ﴾: مبتدأ، ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول قال. ﴿فَـَٔامَنَت﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿آمنت طائفة﴾: فعل وفاعل، ﴿مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: صفة لـ﴿طَّآئِفَةٞ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾، أو معطوفة على محذوف، تقديره: فلما رفع عيسى إلى السماء.. افترق الناس فيه فرقتين ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ﴾، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿فَـَٔامَنَت﴾. ﴿فَأَيَّدۡنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف أيضاً، تقديره: فاقتتلت الطائفتان، ﴿أيدنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلته، ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿أيدنا﴾، ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾: فعل ناقص،

واسمه معطوف على ﴿أيدنا﴾، ﴿ظَٰهِرِينَ﴾: خبره.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ أصله: لما؛ لأن ما الاستفهامية إذا جرت.. حذفت ألفها فرقاً بينها وبين الموصولة، كما مر، وإن وقف عليها.. وقف بهاء السكت. قال ابن مالك:

وَمَا فِي ٱلاسْتِفْهَامِ إِنْ جُرَّتْ حُذِفْ أَلِفُهَا وَأَوْلِهَا ٱلْهَا إِنْ تَقِفْ

وقد وقف عليها البزي عن ابن كثير بخُلف عنه بالهاء هي ونظائرها. قال الشاطبي:

وَفِيمَهْ وَمِمَّهْ قِفْ وَعَمَّهْ لِمَهْ بِمَهْ بِخُلْفٍ عَنِ ٱلْبَزِّيِّ وَٱدْفَعْ مُجَهِّلاً

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ والمقت: البغض الشديد لمن يراه متعاطياً لقبيح، يقال: مقته، فهو مقيت وممقوت، إذا كان يبغضه كل أحد. ﴿صَفًّا﴾ والصف: أن يجعل الشيء على خط مستوٍ، كالناس والأشجار والأعمدة. ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ﴾ والبنيان: الحائط. وفي «القاموس»: البناء ضد الهدم، يقال: بناه بنياً، وبناء وبنياناً، وبنية وبناية، والبناء: المبني. والبنيان واحد لا جمع دل عليه تذكير مرصوص كما مرّ بسطه مع ذكر الخلاف فيه. ﴿مَّرْصُوصٌ﴾؛ أي: ملزق بعضه على بعض، كأنما بني بالرصاص. وقيل: المرصوص: المتلاحم الأجزاء المستويها، وقيل: المعقود بالرصاص، وقيل: المتضام، من تراص الأسنان، مأخوذ من الرصّ. وفي «المصباح»: الرصّ: اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه، وبابه: رد، والمرصوص: المحكم. قال المبرد: تقول: رصصت البناء إذا لأمت بين أجزائه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة.

﴿يَٰقَوْمِ﴾ الأصل: يا قومي، حذفت ياء المتكلم منه، ومن أمثاله اجتزاء عنها بالكسرة. ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾؛ أي: لم تخالفون أمري بترك القتال مع الجبابرة، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا﴾؛ أي: أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذي جاء به موسى عليه السلام. أصله: زيغوا بوزن فَعَلُوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وكذلك القول في قوله: ﴿أَزَاغَ﴾ أصله: أَزْيَغَ، قلبت ياؤه ألفاً بعد نقل حركتها إلى الزاي لتحركها

في الأصل وفتح ما قبلها في الحال.

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ والفرق بين الكذب والافتراء: أن الافتراء افتعال الكذب واختلاقه من قبل نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه. ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أصله: يدعي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد الفتح، والأصل في يائه الواو، قلبت ياء حملاً للفعل على اسم الفاعل. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أصله: يرودون، بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى الراء، فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء حرف مدّ. والإطفاء: الإخماد. ويستعملان في النار، ويستعملان فيما يجري مجراها من الضياء والظهور. ويفترق الإطفاء والإخماد من وجه، وهو: أن الإطفاء يستعمل في القليل، فيقال: أطفأت السراج ولا يقال: أخمدت السراج. ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أصله: متمم، بوزن مفعل: اسم فاعل من أتم الرباعي، نقلت حركة الميم الأولى إلى التاء فسكنت، فأدغمت في الميم الثانية. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ أصله: أدللكم بوزن أفعل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الدال فسكنت فأدغمت في الثانية. والتجارة: التصرف في رأس المال طلباً للربح، والتاجر الذي يبيع ويشتري، وليس في كلام العرب تاء بعدها جيم إلا هذه اللفظة كما مرّ. ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى﴾ جمع جنة، والجنة في اللغة: البستان الذي فيه أشجار متكاثفة مظلة تستر ما تحتها. ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ جمع مسكن بمعنى المقام. والسكون: ثبوت الشيء بعد التحرك، ويستعمل في الاستيطان، يقال: سكن فلان في مكان كذا، استوطنه، واسم المكان مسكن، فمن الأول يقال: سكنت، ومن الثاني: سكنته. قال الراغب: أصل الطيب: ما يستلذه الحواس، وزنه: فيعلة، أدغمت ياء فيعل في ياء عين الكلمة.

﴿تُحِبُّونَهَا﴾ الأصل: تحببونها، بوزن تفعلون، نقلت حركة الباء الأولى إلى الحاء فسكنت فأدغمت في الباء الثانية. ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ جمع نصير، كأشراف وشريف. وأنصار الله هم الناصرون لدينه. ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ جمع حواري من الحور وهو البياض الخالص، وحواري الرجل: صفيه وخليله. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة، وهي أقل من الفرقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ من ظهرت على الحائط إذا عَلوت عليه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي التعييري في قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

ومنها: الإطناب بتكرار قوله: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وهو لفظ واحد في كلام واحد، ومن فوائد التكرار: التهويل والإعظام، وإلا فقد كان الكلام مستقلاً لو قيل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ذلك فما إعادته إلا لمكان هذه الفائدة.

ومنها: التشبيه المرسل المفصل في قوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾؛ أي: في المتانة والتراص.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للدلالة على استمرار العلم.

ومنها: الإتيان بالجملة الاعتراضية التذييلية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ لتقرير مضمون ما قبلها من الإزاغة، وإيذاناً بعليته.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾. مثل حالهم في اجتهادهم في إبطال الحق بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئها، تهكماً وسخرية بهم. وقيل: الاستعارة تصريحية، شبه شرع الله ودينه بالنور الحسي بجامع الإضاءة في كل. والإطفاء ترشيح.

ومنها: التورية في قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي: بأقوالهم: إنه سحر، وشعر، وكهانة، والتورية: أن يكون للكلمة معنيان بعيد وقريب، ويراد البعيد دون القريب، وهو من المحسنات اللفظية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾؛ أي: مظهر دينه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾.

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته في قوله: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ لغرض الإيضاح،

مثل: عذاب الحريق.

ومنها: الاستفهام للترغيب والتشويق في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾. حيث شبّه الإيمان والعمل الصالح بالتجارة بجامع الربح والخسران في كل، فاستعار له لفظ التجارة.

قال ابن الشيخ: جعل ذلك تجارة، تشبيهاً له في الاشتمال على معنى المبادلة والمعاوضة، طمعاً لنيل الفضل والزيادة، فإن التجارة هي معاوضة المال بالمال لطمع الربح. والإيمان والجهاد شبها بها من حيث إن فيهما بذل النفس والمال طمعاً لنيل رضى الله تعالى والنجاة من عذابه انتهى.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾، لأن فيه تعريضاً بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل، وتوبيخاً على محبته.

ومنها: إضافة الوصف إلى مفعوله في ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنصار دِينه.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ﴾، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾.

ومنها: إيراد العدو في قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ إعلاماً بأن الكافرين عدو للمؤمنين عداوة دينية أياً كان.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ اللوم والتعنيف على مخالفة القول للعمل.

٢ ـ البشارة بمحمد ـ ﷺ ـ على لسان عيسى عليه السلام.

٣ ـ إرسال محمد ـ ﷺ ـ بالهدى ودين الحق.

٤ ـ التجارة الرابحة عند الله تعالى هي الإيمان والجهاد في سبيله.

٥ ـ الأمر بنصرة الدين كما نصر الحواريون دينهم[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وكان الفراغ من تفسير هذه السورة في يوم الاثنين وقت الضحوة اليوم الثالث من شهر ذي الحجة من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية في تاريخ ٣/١٢/ ١٤١٥ هـ. وصلَّى الله وسلم على محمد وآله وصحبه أجمعين آمين.

سورة الجمعة

سورة الجمعة مدنية، قال القرطبي: في قول الجميع، نزلت بعد الصف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (نزلت سورة الجمعة بالمدينة). وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله.

وآيها: إحدى عشرة آية. وكلماتها: مئة وثمانون كلمة. وحروفها: سبع مئة وثمانية[1] وأربعون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ أنه ذكر في السورة قبلها حال موسى مع قومه بإيذائهم له ناعياً عليهم ذلك، وذكر في هذه حال الرسول ـ ﷺ ـ وفضل أمته تشريفاً لهم ليعلم الفرق بين الأمتين.

٢ ـ أنه حكى في السورة قبلها قول عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وذكر هنا ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أنه هو الذي بشر به عيسى عليه السلام.

٣ ـ أنه لما ختم السورة قبلها بالأمر بالجهاد وسماه تجارة.. ختم هذه السورة بالأمر بالجمعة، وأخبر أن ذلك خير من التجارة الدنيوية.

وعبارة أبي حيان[3]: مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر تأييد من آمن على أعدائهم.. أتبعه بذكر التنزيه لله تعالى وسعة ملكه وتقديسه، وذكر ما أنعم به على أمة محمد ـ ﷺ ـ من بعثته إليهم وتلاوته عليهم كتابه وتزكيتهم، فصارت أمته غالبة على سائر الأمم قاهرة لها منتشرة الدعوة كما انتشرت دعوة الحواريين في زمانهم، انتهى.

---

(١) المراح. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

تسميتها: سميت سورة الجمعة لذكر يوم الجمعة فيها. وقال محمد بن حزم: سورة الجمعة كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضائلها: ومن فضائلها: ما أخرجه مسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة قال: (سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ في الجمعة سورة الجمعة، وإذا جاءك المنافقون). وأخرج مسلم وأهل السنن عن ابن عباس نحوه.

ومنها: ما أخرجه ابن حبان، والبيهقي في «سننه» عن جابر بن سمرة قال: (كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون).

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة». وعنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له ـ قال: يوم الجمعة ـ فاليوم لنا وغداً لليهود وبعد غدٍ للنصارى».

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك ذكر مناسبة هذه السورة لما قبلها آنفاً، وأما قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ...﴾ الآيات، مناسبته لما قبله: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] أثبت التوحيد والنبوة وذكر أنه بعث محمداً - ﷺ - للأميين، وقال اليهود: إن الرسول لم يبعث لنا.. رد عليهم مقالهم بأنهم لو فهموا التوراة حق الفهم، وعملوا بما فيها لرأوا فيها نعت الرسول - ﷺ - والبشارة به، وأنه يجب عليهم اتّباعه، وما مثلهم في حملهم للتوراة وتركهم العمل بها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يجديه حملها نفعاً.

ثم رد عليهم مقالاً آخر، إذ قالوا: نحن أحباء الله وأولياؤه، وأنه لن يدخلنا

---

(١) المراغي.

النار إلا أياماً معدودات؛ بأنه لو كان ما تقولونه حقاً، لتمنيتم الموت حتى تخلصوا من هذه الدار دار الأكدار وتذهبوا إلى دار النعيم، وإنكم لن تفعلوا ذلك، فأنتم كاذبون فيما تدعون، ولم تفرون منه وهو ملاقيكم ولا محالة، وهناك ترجعون إلى ربكم فينبئكم بما قدمتم من عمل ويجازيكم عليه إن خيراً وإن شراً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ . . .﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نعى على اليهود فرارهم من الموت حباً في الدنيا والتمتع بطيباتها.. ذكر هنا أن المؤمن لا يمنع من اجتناء ثمار الدنيا، وخيراتها مع السعي لما ينفعه في الآخرة؛ كالصلاة يوم الجمعة في المسجد مع الجماعة، فعليه أن يعمل للدنيا والآخرة معاً، فما الدنيا إلا مزرعة الآخرة، كما ورد في الأثر: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

ثم نعى على المسلمين في عهد الرسول ـ ﷺ ـ تشاغلهم عن سماع عظاته ـ وهو يخطب على المنبر ـ بأمور الدنيا، من تجارة وضرب دف وغناء بالمزامير ونحو ذلك. وأبان لهم أن ما عند الله تعالى من الثواب والنعيم المقيم خير لهم من خيرات الدنيا والتمتع بلذاتها الفانية.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الشيخان عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان النبي ـ ﷺ ـ يخطب يوم الجمعة، إذ أقبلت عير قد قدمت، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه ـ ﷺ ـ إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزل ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾.

وفي «الدر المنثور» (٦/ ٢٢١): أن النبي ـ ﷺ ـ يخطب يوم الجمعة، فإذا كان نكاح.. لعب أهله وعزفوا ومروا باللهو على المسجد، وإذا نزلت بالبطحاء جلب ـ قال: وكانت البطحاء مجلساً بفناء المسجد الذي يلي بقيع الغرقد، وكانت

---

(١) لباب النقول.

الأعراب إذا جلبوا الخيل والإبل، والغنم وبضائع الأعرابِ.. نزلوا البطحاء، فإذا سمع ذلك من يقعد للخطبة.. قاموا للهو والتجارة وتركوه قائماً. فعاتب المؤمنين لنبيه - ﷺ - فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾.

وإنما نقلته من «الدر المنثور» لأن فيه الجمع بين السببين، ولأن عبارته أوضح من عبارة غيره كالطبري.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: ينزهه تعالى عن كل النقائص، ويذكره بلسان المقال وبلسان الحال بأنواع الذكر، من التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ جميعاً، من حي وجامد، تسبيحات مستمرة لا تنقطع، أداء لحقّ الألوهية وقياماً بحق الربوبية. فما في السماوات هي البدائع العلوية، وما في الأرض هي الكوائن السفلية، فلكل نسبة إلى الله تعالى بالحياة والتسبيح.

أي[1]: كل ما في السماوات والأرض إذا نظرت إليه.. دلت على وحدانية خالقه وعظيم قدرته، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

﴿الْمَلِكِ﴾؛ أي: المالك لما في السماوات والأرض، المتصرف فيهما بقدرته وحكمته. ﴿الْقُدُّوسِ﴾؛ أي: المنزه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله، من شريك وولد وصاحبة. ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب في ملكه بالنقمة لمن لا يؤمن به، أو الغالب على عباده المسخر لهم بقدرته على ما يشاء. ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبير شؤونهم فيما هو أعلم به من مصالحهم الموصلة إلى سعادتهم في معاشهم ومعادهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿الْمَلِكِ﴾ وما بعده من الصفات بالجر، على أنها نعت للجلالة،وقيل: على البدل، والأول أولى. وقرأ أبو وائل، ومسلمة بن محارب، ورؤبة، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، وأبو الدينار الأعرابي بالرفع على أنه خبر مبتدأ تقديره: هو، وحسنه الفصل الذي فيه طول بين الموصوف والصفة، وكذلك جاء عن يعقوب. وقرأ أبو الدينار، وزيد بن علي: ﴿القدوس﴾ بفتح القاف،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

والجمهور بالضم.

ثم وصف الرسول ـ ﷺ ـ بصفات المدح والكمال، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ﴾ وأرسل ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ في الأقوام الذين لا يكتبون ولا يقرؤون، وهم العرب. ﴿رَسُولًا﴾ كائناً ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من جملتهم وجنسهم ونسبهم، عربياً أمياً مثلهم، وما كان حي من أحياء العرب إلا ولرسول الله ـ ﷺ ـ فيهم قرابة. ووجه الامتنان بكونه منهم: أن ذلك أقرب إلى الموافقة؛ لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه. والمراد بالأميين: العرب، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب. والأمي في الأصل: من لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وكان غالب العرب كذلك.

والأميون[1]: جمع أمي، منسوب إلى أمة العرب. وهم قسمان: إسماعيلي ويمني. فعرب الحجاز من عدنان ترجع إلى إسماعيل عليه السلام، وعرب اليمن ترجع إلى قحطان. وكل منهم قبائل كثيرة. والمشهور عند أهل التفسير: أن الأميّ: من لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، كما مرّ، وعند أهل الفقه: من لا يعلم شيئاً من القرآن، كأنه بقي على ما تعلمه من أمه من الكلام الذي يتعلمه الإنسان بالضرورة عند المعاشرة. والنبي الأميّ منسوب إلى الأمة الذين لم يكتبوا؛ لكونه على عاداتهم، كقولك: عاميّ لكونه على عادة العامّة. وقيل: سمي بذلك لأنه لم يكتب ولم يقرأ من كتاب، وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله له عنه بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾. وقيل: سمي بذلك بالنسبة إلى أم القرى. وفي «كشف الأسرار»: سمي العرب أميين لأنهم كانوا على نعت أمهاتهم مذ كانت، بلا خط ولا كتاب نسبوا إلى ما ولدوا عليه من أمهاتهم؛ لأن الخط والقراءة والتعلم دون ما جبل الخلق عليه. ومن يحسن الكتابة من العرب فإنه أيضاً أميّ؛ لأنه لم يكن لهم في الأصل خط ولا كتابة.

قيل: بدئت الكتابة بالطائف، تعلمها ثقيف وأهل الطائف من أهل الحيرة ـ بكسر الحاء وسكون التحتانية ـ بلد قرب الكوفة، وأهل الحيرة أخذوها من أهل الأنبار، وهي مدينة قديمة على الفرات، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. ولم يكن

---

(١) روح البيان.

في أصحاب رسول الله - ﷺ - كاتب إلا حنظلة الذي يقال له: غسيل الملائكة ويسمى حنظلة الكاتب. ثم ظهر الخط في الصحابة بعد في معاوية بن أبى سفيان وزيد بن ثابت، وكانا يكتبان لرسول الله - ﷺ -، وكان له كتّاب أيضاً غيرهما. واختلفوا في رسول الله - ﷺ - أنه هل تعلم الكتابة بآخرة من عمره أو لا؟ لعلمائنا فيها وجهان، وليس فيه حديث صحيح ولا نقل صريح.

ولما[1] كان الخط صنعة ذهنية وقوة طبيعية صدرت بالآلة الجسمانية.. لم يحتج إليه من كان القلم الأعلى منبعه واللوح المحفوظ مصحفه ومرجعه، وعدم كتابته مع علمه بها معجزة باهرة له - ﷺ -؛ إذ كان يعلم الكتاب علم الخط وأهل الحرف حرفتهم، وكان أعلم بكل كمال أخروي أو دنيوي.

ومعنى الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾؛ أي: في العرب؛ لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون من بين الأمم، فغلب الأكثر، وإنما قلنا: أكثرهم لأنه كان فيهم من يكتب ويقرأ وإن كانوا على قلة. رسولاً من جنسهم ونسبهم. والبعث في الأميين لا ينافي عموم دعوته - ﷺ -، فالتخصيص بالذكر لا مفهوم له. ولو سلم.. فلا يعارض منطوق قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ على أنه فرق بين البعث في الأميين والبعث إلى الأميين، فبطل احتجاج أهل الكتاب بهذه الآية على أنه - ﷺ - كان رسول الله إلى العرب خاصة، ورد الله بذلك ما قال اليهود للعرب طعناً فيه: نحن أهل الكتاب وأنتم أميون لا كتاب لكم.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القرآنية، مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا تعلم ذلك من أحد. والجملة[2] صفة لـ﴿رَسُولًا﴾، وكذا قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن جريج ومقاتل؛ أي: يطهرهم من دنس الكفر والذنوب. وقال السدي: يأخذ زكاة أموالهم. وقيل: يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هذه صفة ثالثة لـ﴿رَسُولًا﴾. والمراد بالكتاب: القرآن وبالحكمة: السنة، كذا قال الحسن. وقيل: الكتاب: الخط بالقلم، والحكمة: الفقه في الدين، كذا قال مالك بن أنس. ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾؛ أي: وقد كانوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثه فيهم ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وخطأ ظاهر، وشرك بيّن، وذهاب عن الحق.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ والفرق بين التلاوة والقراءة: أن التلاوة قراءة القرآن متتابعة كالدراسة، والقراءة أعم؛ لأنها جمع الحروف باللفظ لا إتباعها. وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي: يحملهم على ما يصيرون به أزكياء من خبائث العقائد والأعمال. وفيه إشارة إلى قاعدة التشريع، فإن المزكي في الحقيقة وإن كان هو الله تعالى كما قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، إلا أن الإنسان الكامل مظهر الصفات الإلٰهية جميعاً، ويؤيد هذا المعنى: إطلاق نحو قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾. قال بعضهم: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: الشريعة، وهي ما شرع الله لعباده من الأحكام. وقيل: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: لفظه، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: معناه. وإنما وسط بين التلاوة والتعليم بالتزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب قوتها العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصلة بالعلم المترتب على التلاوة، مع أن التعليم مترتب في الوجود على التلاوة للإيذان بأن كلاً من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر، فلو روعي ترتيب الوجود.. لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة، وهو السر في التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب والحكمة رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: ﴿إِنْ﴾[1] ليست شرطية ولا نافية، بل هي المخففة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية.

والمعنى: وإن الشأن: كان الأميون من قبل بعثه ومجيئه لفي ضلال مبين من الشرك وخبث الجاهلية، لا ترى ضلالاً أعظم منه. وقيل: ﴿إن﴾ بمعنى: قد، كما مرت الإشارة إليه.

وهو بيان لشدة افتقارهم إلى من يرشدهم، وإزاحة لما عسى يتوهم من تعلمه - ﷺ - من الغير، فإن المبعوث فيهم إذا كانوا في ضلال قبل البعثة.. زال توهم أنه تعلم ذلك من أحد منهم. قال سعدي المفتي: والظاهر: أن نسبة الكون في الضلال إلى الجميع من باب التغليب، وإلا.. فقد كان فيهم مهتدون، مثل: ورقة بن نوفل، وزيد بن نفيل، وقس بن ساعدة وغيرهم ممن قال رسول الله - ﷺ - في كل منهم

---

(١) روح البيان.

يبعث أمة وحده.

يقول الفقير: هو اعتراض على معنى لإزاحة المذكور، لكنه ليس بشيء، فإن اهتداء من ذكره من نحو ورقة إنما كان في باب التوحيد فقط، فقد كانوا في ضلال من الشرائع والأحكام، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ مع أنه - ﷺ - لم يصدر منه قبل البعثة شرك ولا غيره من السرقة والزنا واللغو واللهو، فكونهم مهتدين من وجه لا ينافي كونهم ضالين من وجه آخر، دلّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ إلخ. فإن التلاوة وتعليم الأحكام والشرائع حصَّل تزكية النفس والنجاة من الضلال مطلقاً، فتدبر.

ومعنى الآية[1]: هو الذي أرسل رسوله محمداً - ﷺ - إلى الأمة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب، وهم العرب. أخرج البخاري، ومسلم وأبو داود، والنسائي، عن ابن عمر، عن النبي - ﷺ - قال: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»، وهذا الرسول من جملتهم؛ أي: مثلهم، ومع ذلك يتلو عليهم آيات الكتاب ليجعلهم طاهرين من خبائث العقائد والأعمال، ويعلمهم الشرائع والأمور العقلية التي تكمل النفوس وتهذبها.

وتخصيص الأميين بالذكر لا يدل على أنه لم يرسل إلى غيرهم، فقد جاء العموم في آيات أخرى، كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾. ومن حكمته تعالى أنه أرسله عربياً مثلهم ليفهموا ما أرسل به إليهم، ويعرفوا صفاته وأخلاقه، ليسهل اقتناعهم بدعوته.

وخلاصة ما سلف[2]: أنه ذكر الغرض من بعثة هذا الرسول وأجملها في أمور ثلاثة:

١ - أنه يتلو عليهم آيات القرآن التي فيها هدايتهم وإرشادهم لخير الدارين مع كونه أمياً لا يكتب ولا يقرأ؛ لئلا يكون هناك مطعن في نبوته بأن يقولوا: إنه نقله من كتب الأولين، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

﴿تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

٢ ـ أنه يطهرهم من أدناس الشرك وأخلاق الجاهلية، ويجعلهم منيبين إلى الله مخبتين له في أعمالهم وأقوالهم، لا يخضعون لسلطة مخلوق غيره من ملك أو بشر أو حجر.

٣ ـ أنه يعلمهم الشرائع والأحكام وحكمتها وأسرارها، فلا يتلقون عنه شيئاً إلا وهم يعلمون الغاية منه والغرض الذي يفعله لأجله، فيقبلون إليه بشوق واطمئنان، وقد تقدم مثل هذا في سورة آل عمران: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ذاك أن العرب قديماً كانوا على دين إبراهيم فبدلوا وغيروا واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله تعالى، فكان من الحكمة أن يبعث سبحانه محمداً ـ ﷺ ـ بشرع عظيم، فيه هداية للبشر، وبيان ما هم في حاجة إليه من أمور معاشهم ومعادهم، ودعوتهم إلى ما فيه رضوان ربهم، والتمتع بنعيم جناته، ونهيهم عما يوجب سخطه ويقربهم إلى النار.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ جمع[1] آخر، بمعنى غير، وهومعطوف على ﴿ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾؛ أي: بعثه في الأميين الذين في عهده وفي آخرين من الأميين. أو على المنصوب في ﴿يعلمهم﴾؛ أي: يعلمهم ويعلم آخرين منهم، أو في ﴿يزكيهم﴾؛ أي: يزكيهم ويزكي آخرين منهم. وهم الذين جاؤوا من العرب، فـ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بالصفة لآخرين؛ أي: وآخرين كائنين منهم مثلهم في العربية والأمية. وإن كان المراد العجم. . فـ﴿مِنْهُمْ﴾ يكون متعلقاً بـ﴿آخرين﴾؛ أي: ويعلم أقواماً مغايرين لهم؛ أي: للعرب، وهم العجم.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ صفة لآخرين؛ أي: لم يلحقوا بالأميين بعد ولم يكونوا في زمانهم، وسيلحقون بهم، ويكونون بعدهم عرباً وعجماً. وذلك أن منفيَّ (لمَّا) لا بدّ أن يكون مستمر النفي إلى الحال، وأن يكون متوقع الثبوت بخلاف منفي (لَمْ) فإنه يحتمل الاتصال، نحو: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، والانقطاع مثل: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾. ولهذا: جاز لم يكن ثم كان، ولم يجز لما

---

(١) روح البيان.

يكن ثم كان، بل يقال: لما يكن وقد يكون، كما هو مبسوط في محله.

وقيل[١]: لما يلحقوا بهم في الفضل والمسابقة؛ لأن التابعين لا يدركون شيئاً مع الصحابة، وكذلك العجم مع العرب. ومن شرائط الدِّين: معرفة فضل العرب عن العجم، وحبهم، ورعاية حقوقهم. وفي الآية دليل على أن رسول الله - ﷺ - رسول نفسه وبلاغه حجة لأهل زمانه ومن بلغ، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

وقال الشوكاني: والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ و﴿بِهِمْ﴾ راجع إلى الأميين، وهذا يؤيد أن المراد بـ﴿الآخرين﴾ هم من يأتي بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة، وهو - ﷺ - وإن كان مرسلاً إلى جميع الثقلين فتخصيص العرب ههنا لقصد الامتنان عليهم، وذلك لا ينافي عموم الرسالة. ويجوز أن يراد بالآخرين العجم؛ لأنهم وإن لم يكونوا من العرب فقد صاروا بالإسلام منهم، والمسلمون كلهم أمة واحدة، وإن اختلفت أجناسهم. انتهى.

والمعنى: أي وبعثه في آخرين أي: في غيرهم من المؤمنين إلى يوم القيامة. وهم من جاؤوا بعد الصحابة إلى يوم الدين، من جميع الأمم، كالفرس والروم والترك والتكرور، والأرميا والأفارقة، أو يعلم آخرين غير الصحابة من التابعين فمن بعدهم، قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة، لكن بواسطة ورثة أمته وكمل أهل دينه وملته.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: المبالغ في العزة والغلبة، ولذلك مكن رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: المبالغ في الحكمة ورعاية المصلحة، ولذلك اصطفاه من بين كافة البشر. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي امتاز به محمد - ﷺ - من بين سائر الأفراد. وهو أن يكون نبي أبناء عصره ونبي أبناء العصور الغوابر. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وإحسانه ﴿يُؤْتِيهِ﴾؛ أي: يعطي فضله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إعطاءه من عباده، تفضلاً وتكرماً، وعطية لا تأثير للأسباب فيه، فكان الكرم منه صرفاً لا تمازجه العلل، ولا تكسبه الحيل. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والعطاء الجسيم

---

(١) روح البيان.

الذي يستحقر دونه نعم الدنيا ونعم الآخرة. وفي «كشف الأسرار»: والله ذو الفضل العظيم على محمد وذو الفضل العظيم على الخلق بإرسال محمد - ﷺ - إليهم وتوفيقهم لمبايعته، انتهى.

يقول الفقير: وأيضاً: والله ذو الفضل العظيم على أهل الاستعداد من أمة محمد - ﷺ - بإرسال ورثة محمد في كل عصر إليهم وتوفيقهم للعمل بموجب إرشادهم، ولولا أهل الإرشاد والدلالة والدعوة.. لبقي الناس كالعميان، لا يدرون أين يذهبون، وإنما كان هذا الفضل عظيماً لأن غايته الوصول إلى الله العظيم.

وعبارة المراغي هنا: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: وهو ذو العزة والسلطان، القادر أن يجعل هذه الأمة المستضعفة صاحبة النفوذ والقوة التي تنشر في غيرها من الأمم روح العدل والنظام، بإرسال رسول من أبنائها ينقذ الناس من الضلالة إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور. وهو الحكيم فيما يفعل من تدبير أمور الخلق لما فيه خيرهم وفلاحهم.

ثم ذكر سبحانه أن إرسال هذا الرسول فضل منه ورحمة فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إرسال هذا الرسول إلى البشر مزكياً مطهراً لهم هادياً معلماً ﴿فَضْلُ﴾ من ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وإحسان منه إلى عباده، يعطيه من يشاء ممن يصطفيه من خلقه بحسب ما يعلمه من استعداده وصفاء نفسه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته. وهو سبحانه ذو الفضل العظيم عليهم في جميع أمورهم، في دنياهم وآخرتهم، في معاشهم ومعادهم، فلا يجعلهم في حيرة من أمرهم، تنتابهم الشكوك والأوهام ولا يجدون للخلاص منها سبيلاً، ولا يجعل قويهم يبطش بضعيفهم ويغتصب أموالهم، ويسعى في الأرض بالفساد، ويهلك الحرث والنسل، فيكون العالم ككرة تتقاذفها أكف اللاعبين، فهو أرحم بعباده من أن يتركهم سدًى هملاً ولا صلاح لهم في دين ولا دنيا، انتهى.

ثم ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ أي: كلفوا القيام بها والعمل بما فيها، وهم اليهود ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾؛ أي: لم يعملوا بما في تضاعيفها من الآيات التي من جملتها الآيات الناطقة بنبوة محمد - ﷺ -، واقتنعوا بمجرد قراءتها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾:

﴿الكاف﴾: فيه زائدة كما في «الكواشي». والحمار: حيوان معروف يعبر به عن الجاهل، كقولهم: هو أكفر من الحمير؛ أي: أجهل، لأن الكفر من الجهالة. فالتشبيه لزيادة التحقير والإهانة، ولنهاية التهكم والتوبيخ بالبلادة؛ إذ الحمير تذكر بها. والبقر وإن كان مشهوراً بالبلادة إلا أنه لا يلائم الحمل. ولقد أجاد من قال:

تَـعَـلَّـمْ يَـا فَـتَـىٰ فَـٱلْـجَـهْـلُ عَـارٌ   وَلاَ يَـــرْضَـــىٰ بِـــهِ إِلاَّ حِـــمَـــارُ

أي: صفتهم العجيبة كصفة الحمار حال كونه ﴿يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾؛ أي: كتباً كباراً من العلم، يتعب بحملها ولا ينتفع بها. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبل، فهكذا اليهود. والأسفار: جمع سفر - بكسر السين - وهو: الكتاب الكبير، كشبر وأشبار. وجملة ﴿يَحۡمِلُ﴾ في محل نصب على الحال أو صفة للحمار، إذ ليس المراد به حماراً معيناً فهو في حكم النكرة، كما في قول الشاعر:

وَلَـقَـدْ أَمُـرُّ عَـلـىٰ ٱلـلَّـئِـيـمِ يَـسُـبُّـنِـيْ   فَـمَـضَـيْـتُ ثُـمَّـتَ قُـلْـتُ لاَ يَـعْـنِـيْـنِـيْ

والأصح: أن قولهم: الجمل بعد المعارف أحوال، وبعد النكرات صفات ليس مطرداً كما قدمنا بسطه. قال الراغب: السفر: الكتاب الذي يسفر عن الحقائق؛ أي: يكشف. وخص[1] لفظ الأسفار في الآية تنبيهاً على أن التوراة وإن كانت تكشف عن معانيها إذا قرئت وتحقق ما فيها فالجاهل لا يكاد يستبينها كالحمار الحامل لها. وفي هذا تنبيه من الله على أنه ينبغي لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه ويعمل به؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء.

يقول[2] سبحانه ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها: ما مثل هؤلاء إلا كمثل الحمار، يحمل الكتب لا يدري ما فيها ولا كنه ما يحمل، بل هم أسوأ حالاً من الحمر، لأن الحمر لا فهم لها، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها فيما ينفعهم، إذ حرفوا التوراة فأولوها وبدلوها، فهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾.

وصفوة القول: أن هذا النبي الذي تقولون: إنه أرسل إلى العرب خاصة هو

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

ذلك النبي المنعوت في التوراة والمبشر به فيها، فكيف تنكرون نبوته وكتابكم يحض على الإيمان به؟!. فما مثلكم في حملكم للتوراة مع عدم العمل بما فيها إلا مثل الحمار، يحمل الكتب ولا يدري ما فيها، فأنتم إذ لم تعملوا بما فيها وهي حجة عليكم إلا مثل الحمار ليس له إلا ثقل الحمل من غير انتفاع له بما حمل.

والخلاصة[١]: أي صفة الذين أمروا بأن يعملوا بما في التوراة ثم لم يعملوا بما أمروا فيها كصفة الحمار، يحمل كتباً كباراً في عدم انتفاعه بها. وقال أهل المعاني: هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن ولم يعمل به وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه.

ثم بين قُبح هذا المثل وشديد وقعه على من يعقله ويتدبره، فقال: ﴿بِئْسَ﴾ وقبح مثلاً ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، على[٢] أن التمييز محذوف، والفاعل المفسر به مضمر و﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾: هو المخصوص بالذم، أو ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾: فاعل ﴿بِئْسَ﴾، والمخصوص بالذم: الموصول بعده على حذف مضاف؛ أي: مثل الذين كذبوا. ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم، فيكون في محل جرّ، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء، وهؤلاء هم اليهود الذين كفروا بما في التوراة من الآيات الشاهدة بصحة نبوة محمد - ﷺ -.

والمعنى[٣]: أي ما أقبح هذا مثلاً لهم، لتكذيبهم بآيات الله التي جاءت على لسان رسوله، لو كانوا يتدبرون ويتفكرون؛ إذ لم يكن لهم ما يشبههم من ذوي العقول والحجا من ملك أو إنس، بل لا شبيه لهم إلا ما هو أحقر الحيوان وأذلّه، وهو الحمار:

وَلاَ يُقِيمُ عَلَىٰ ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إلاَّ الأذَلاَّنِ: عَيرُ ٱلْحَيِّ وَٱلْوَتَدُ
هَذَا عَلَىٰ ٱلْخَسْفِ مَرْبُوطٍ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِي لَهُ أَحَدُ

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضعين[٤] للتكذيب في موضع التصديق، أو

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد، باختيار الضلالة على الهداية، والشقاوة على السعادة، والعداوة على الولاية، كاليهود ونظائرهم. وفيه تقبيح لهم بتشبيه حالهم بحال الحمار، والمشبه بالقبيح قبيح، فصوت الجاهل والمدعي منكراً كصوت الحمار وأضل وأنزل، فهو ضار محض، وفي الحمار نفع؛ لأنه يحمل الأثقال ويركبه النساء والرجال.

والمعنى[1]: والله لا يهدي القوم الظالمين لأنفسهم، إذ هم دسوها حتى أحاطت بهم خطيئتهم وأعمت أبصارهم ورانت على قلوبهم فلم تر نور الحق ولم تشعر بحجة ولا برهان، بل هي في ظلام دامس، لا تهتدي لطريق ولا تصل إلى غاية.

ولما كان من شأن من لم يعمل بالكتاب الذي أنزل إليه أن يكون محباً للحياة تاركاً لكل ما ينفعه في الآخرة.. قال آمراً رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾؛ أي: تهودوا وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. من هاد يهود، بمعنى: تهود؛ أي: تمسك بدين اليهود. وقال بعضهم: أي: مالوا عن الإسلام والحق إلى اليهودية، وهي من الأديان الباطلة.

ثم إن الله سبحانه خاطب الكفار في أكثر المواضع بالواسطة، ومنها: هذه الآية؛ لأنهم أدخلوا الواسطة بينهم وبين الله تعالى، وهي الأصنام. وأما المؤمنون فإن الله تعالى خاطبهم في أغلب المواضع بلا واسطة، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لأنهم أسقطوا الوسائط فأسقط الله بينه وبينهم الواسطات. ﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾ وقلتم، والزعم: هو القول بلا دليل. ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ وأحباؤه، جمع ولي، بمعنى حبيب. ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ صفة أولياء؛ أي: من دون الأميين وغيرهم ممن ليس من بني إسرائيل. وقال بعضهم: من دون المؤمنين من العرب والعجم، يريد بذلك ما كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، ويدعون أن الدار الآخرة لهم عند الله خالصة، وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾، فأمر رسوله - ﷺ - بأن يقول لهم إظهاراً لكذبهم: إن زعمتم ذلك ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: فتمنوا من الله واطلبوا منه أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى دار الكرامة، وقولوا: اللهم أمتنا

---

(١) المراغي.

﴿إن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنتم صادقين في زعمكم واثقين بأنه حق فتمنوا الموت، فإن من أيقن أنه من أهل الجنة، أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي قرارة أكدار، ولا يصل إليها أحد إلا بالموت.

روي: أنه لما ظهر رسول الله ﷺ.. كتبت يهود المدينة ليهود خيبر: إن اتبعتموه.. أطعناكم وإن خالفتموه.. خالفناه. فقالوا لهم: نحن أبناء خليل الرحمٰن، ومنا عزير ابن الله والأنبياء، ومتى كانت النبوة في العرب؟ نحن أحق بها من محمد، ولا سبيل إلى اتباعه. فنزلت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ...﴾ الآية.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ بضم الواو. وقرأ ابن السميفع، وابن يعمر وابن أبي إسحاق بكسرها، وعن ابن السميفع أيضاً: فتحها تخفيفاً. وحكى الكسائي عن بعض الأعراب: أنه قرأ بالهمز مضمومة بدل الواو، وهذا كقراءة من قرأ ﴿تلؤون﴾ بالهمز بدل الواو.

والمعنى[2]: قل لهم يا محمد: أيها اليهود، إن كنتم تزعمون أنكم على هدى من ربكم وأن محمداً وأصحابه على ضلالة.. فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين فيما تزعمون. وقد تقدم الكلام في مثل هذه المباهلة - الملاعنة - لليهود في سورة البقرة في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾، كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران في قوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ...﴾ الآية، ومباهلة المشركين في سورة مريم: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

ثم أخبر بأنهم لن يتمنوه أبداً؛ لما يعلمون من سوء أفعالهم وقبيح أعمالهم، فقال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾: إخبار بما سيكون منهم. و﴿أَبَدًا﴾: ظرف بمعنى الزمان المتطاول، لا بمعنى مطلق الزمان. والمراد به: ما داموا في الدنيا. وفي البقرة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾؛ لأن دعواهم في البقرة بالغة قاطعة، وهي: كون الجنة لهم بصفة الخلوص، فبالغ في الرد عليهم بـ﴿لن﴾، وهو أبلغ ألفاظ النفي. ودعواهم في

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الجمعة قاصرة مترددة، وهي: زعمهم أنهم أولياء لله، فاقتصر على ﴿لا﴾ كما في برهان القرآن. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: و﴿الباء﴾: سببية متعلقة بما يدل عليه النفي. أي: يأبون التمني بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي، والتحريف والتبديل وتغيير النعت النبوي، الموجبة لدخول النار، وهم يعرفون أنهم بعد الموت يعذبون بمثل هذه المعاصي.

ولما[1] كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناط عامة أفاعيله.. عبر بها تارة عن النفس كما هنا، وأخرى عن القدرة. يعني: أن الأيدي هنا بمعنى الذوات، استعملت فيها لزيادة احتياجها إليها، فكأنها هي.

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم في كل أمورهم؛ أي: عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي المفضية إلى أفانين العذاب، وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدي إلى ذلك. فوقع الأمر كما ذكر، فلم يتمن منهم أحد موته، ولا يخفى ما في هذا من شديد التهديد والوعيد.

روي عنه - ﷺ - في حق اليهود: «لو تمنوا الموت.. لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودي». وروي: أنه - ﷺ - قال لهم: «والذي نفسي بيده لا يتمناها أحد منكم إلا غص بريقه» فلم يتمن أحد منهم لعلمهم بصدقه، وأيقنوا أنهم لو تمنوه لماتوا لساعتهم وحق عليه الوعيد وحل بهم العذاب الشديد.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تجسرون على أن تتمنوه مخافة أن تؤخذوا بوبال كفركم. ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه. و﴿الفاء﴾[2]: لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف. أي: باعتبار كون الموصوف بالموصول في حكم الموصول. أي: إن فررتم من الموت.. فإنه ملاقيكم، كأن الفرار سبب لملاقاته وسرعة لحوقه، إذ لا يجد الفارّ بركة في عمره بل يفرّ إلى جانب الموت فيلاقيه الموت ويستقبله. وقيل: إذا أدبر الأمر.. كان

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

العطب في الحيلة. ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت الاضطراري الطبيعي ﴿تُرَدُّونَ﴾ من الردّ، وهو: صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله، يقال: رددته فارتد. والآية من الرد بالذات، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، ومن الرد إلى حالة كان عليها قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾. ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ الذي لا تخفى عليه أحوالكم؛ أي: ترجعون إلى حيث لا حاكم ولا مالك سواه. وإنما وصف ذاته بكونه عالم الغيب والشهادة باعتبار أحوالهم الباطنة وأعمالهم الظاهرة. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فيخبركم سبحانه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي، والفواحش الظاهرة والباطنة بأن يجازيكم بها.

ومعنى الآية[1]: وماذا يجديكم الفرار من الموت؟ ولماذا تمتنعون من المباهلة خوفاً على الحياة؟ فإنه سيلاقيكم البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه، فإن كنتم على الحق.. فلا تحفلوا بالحياة، فإن أيام الحياة مهما طال أمدها لا بد من نفاذها، ثم ترجعون بعد مماتكم إلى عالم غيب السماوات والأرض. فيخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من حسن وسيء، ثم يجازيكم على كل بما تستحقون. ولا يخفى ما في هذا من شديد التهديد، وعظيم الوعيد لو كانوا يعقلون.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ بالفاء الرابطة، لتضمن الاسم معنى الشرط كما مرّ آنفاً. وقد منع هذا قوم منهم: الفراء، وجعلوا الفاء زائدة. وقرأ زيد بن علي ﴿إنه ملاقيكم﴾ بغير فاء، وخرّجه الزمخشري عى الاستئناف، وخبر ﴿إنّ﴾: هو الذي، كأنه قال: قل إن الموت هو الذي تفرون منه، انتهى. ويحتمل أن يكون خبر ﴿إنّ﴾ هو قوله: إنه ملاقيكم، فالجملة خبر ﴿إنّ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿إنه﴾ توكيداً لـ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ﴾، و﴿مُلَـٰقِيكُمْ﴾ خبر ﴿إن﴾، لما طال الكلام أكد الحرف مصحوباً بضمير الاسم الذي لـ﴿إن﴾، ذكره أبو حيان. وفي قراءة[3] ابن مسعود: ﴿تفرون منه ملاقيكم﴾ من غير ﴿فإنه﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ﴾ وأذن ﴿لِلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: لصلاة الجمعة. والنداء: رفع الصوت وظهوره، ونداء الصلاة مخصوص في الشرع بالألفاظ المعروفة. والمراد بالصلاة: صلاة الجمعة، والمراد بالأذان عند الجمهور: الأذان

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) المراح.

إذا جلس الإمام على المنبر؛ لأنه لم يكن على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ نداء سواه. وقد كان لرسول[1] الله ـ ﷺ ـ مؤذن واحد، فكان إذا جلس على المنبر.. أذّن على باب المسجد، فإذا نزل.. أقام الصلاة، ثم كان أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ على ذلك، حتى إذا كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ وكثر الناس وتباعدت المنازل.. زاد مؤذناً آخر، فأمر بالتأذين الأول على دار له بالسوق يقال لها: الزوراء؛ ليسمع الناس، فإذا جلس على المنبر.. أذن المؤذن الثاني، فإذا نزل.. أقام الصلاة، فلم يعب عليه ذلك أحد من الصحابة. والأصح عند الحنفية: أن المراد بالأذان: الأذان الأول؛ لأن الإعلام إنما يحصل به لا بالأذان بين يدي المنبر، والمراد بالصلاة: صلاة الجمعة، كما يدل عليه قوله: ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ و﴿من﴾ بيان لـ﴿إذا﴾ وتفسير لها. أي: لا بمعنى أنها لبيان الجنس على ما هو المتبادر، فإن وقت النداء جزء من يوم الجمعة، فلا يحمل عليه، فكيف يكون بياناً له؟ بل المقصود أنها لبيان أن ذلك الوقت في أي يوم من الأيام، إذ فيه إبهام، فتجامع كونها بمعنى (في) كما ذهب إليه بعضهم، وكونها (للتبعيض) كما ذهب إليه البعض الآخر. وقال أبو البقاء: إن ﴿من﴾ هنا بمعنى (في) كما في قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: في الأرض.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلۡجُمُعَةِ﴾ بضم الميم[2]. وقرأ ابن الزبير، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وأبو عمرو في رواية، وزيد بن علي، والأعمش بسكونها تخفيفاً، وهي لغة تميم، ولغة بفتحها لم يقرأ بها، وهي لغة عقيل. وجمعها: جمع وجمعات. وإنما سمي جمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة، فهو على هذا اسم إسلامي. وقيل: سميت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم. وقيل: لأن الله فرغ فيها من خلق كل شيء، فاجتمعت فيها جميع المخلوقات. وقيل: أول من سماه جمعة كعب بن لؤي ـ بالهمزة تصغير لأي ـ سماه بها لاجتماع قريش فيه إليه. وكانت العرب قبل ذلك تسميه العروبة، بمعنى الظهور وعروبة.

وقيل: إن[3] الأنصار قالوا قبل الهجرة: لليهود يوم يجتمعون فيه في كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر ونصلي فيه،

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زراة رضي الله عنه بضم الزاي ـ فصلى بهم ركعتين وذكرهم، فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه. وحين اجتمعوا.. ذبح لهم شاة، فتعشوا وتغدوا منها لقلتهم، وبقي في أكثر القرى التي تقام فيها الجمعة عادة الإطعام بعد الصلاة إلى يومنا هذا، فأنزل الله آية الجمعة. فهي أول جمعة في الإسلام.

وأما أول جمعة جمعها رسول الله ـ ﷺ ـ فهي: أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف، يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين امتد الضحى، ومن تلك السنة يعد التاريخ الإسلامي، فأقام بها يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً، فخطب وصلى الجمعة، وهي أول خطبة خطبها رسول الله ـ ﷺ ـ، وقال فيها:

«الحمد لله، وأستعينه، وأستهديه، وأومن به، ولا أكفره، وأعادي من يكفر به، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة والحكمة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله.. فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله.. فقد غوى وفرط وضلّ ضلالاً بعيداً.

أوصيكم بتقوى الله، فإن خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، وأحذر ما حذركم الله من نفسه، فإن تقوى من عمل به ومخافته من ربه عنوان صدق على ما يبغيه من الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلانية لا ينوي به إلا وجه الله.. يكون له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان مما سوى ذلك.. يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً. ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد، هو الذي صدق قوله، وأنجز وعده، ولا خُلْفَ لذلك، فإنه يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ

---

(١) روح البيان.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾. فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه من يتق الله.. يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله.. فقد فاز فوزاً عظيماً. وإن تقوى الله توقي مقته وتوقي عقوبته وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه وترضي الرب وترفع الدرجة. فخذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم في كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداء الله، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. ولا حول ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإن من يصلح ما بينه وبين الله.. يكفر الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس، ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». انتهت الخطبة النبوية.

ثم إن هذه الآية رد لليهود في طعنهم للعرب، وقولهم: لنا السبت ولا سبت لكم.

﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾؛ أي: فامشوا، واقصدوا وامضوا ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: إلى الخطبة والصلاة، لاشتمال كل منهما على ذكر الله. وما كان من ذكر رسول الله والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير.. فهو في حكم ذكر الله، وأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحقاء بعكس ذلك.. فمن ذكر الشيطان، وهو من ذكر الله على مراحل، كما في «الكشاف» وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: أما والله! ما هو السعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنيات والخشوع والابتكار. ولقد ذكر الزمخشري في الابتكار قولاً وافياً، حيث قال: وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصة؛ أي: مملوءة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج.

وقال الفراء[1]: السعي والمضي والذهاب في معنى واحد، ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب وابن مسعود: ﴿فامضوا إلى ذكر الله﴾. وقيل: السعي هو

---

(١) الشوكاني.

العمل، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾. قال القرطبي: وهذا قول الجمهور: أي: فاعملوا على المضي إلى ذكر الله،واشتغلوا بأسبابه، من الغسل، والوضوء، والتوجه إليه تعالى.

وعبر[1] بالسعي إشارةً إلى النهي عن التثاقل عنها، وحثاً على الذهاب بصفاء قلب وهمة، لا بكسل نفس وغمة. وهذا بالنسبة إلى غير المريض والأعمى، والعبد والمرأة، والمقعد والمسافر، فإنهم ليسوا بمكلفين بها.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾؛ أي: واتركوا المعاملة بالبيع، ويلحق به سائر المعاملات، من الشراء والسلم والإجارة والقراض والمساقاة. قال الحسن: إذا أذن المؤذن يوم الجمعة.. لم يحل الشراء والبيع، ويجوز أن يجعل البيع مجازاً عن المعاملة كلها. وقال بعضهم: النهي عن البيع يتضمن النهي عن الشراء؛ لأنهما متضايفان لا يعقلان إلا معاً، فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر. والمراد: الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا، تجارة وصناعة وحرفة وزراعة وغيرها. وإنما خص البيع والشراء من بينها لأن يوم الجمعة يوم تجتمع فيه الناس من كل ناحية، فإذا دنا وقت الظهيرة.. يتكاثر البيع والشراء، فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول عن ذِكر الله والمضي إلى المسجد.. قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح، وذروا البيع الذي نفعه يسير وربحه قليل.

وقرأ كبراء من الصحابة والتابعين[2]: ﴿فامضوا﴾ بدل ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾ وينبغي أن يحمل على التفسير من حيث إنه لا يراد بالسعي هنا الإسراع في المشي، ففسروه بالمضي، فلا يكون قرآناً؛ لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من السعي إلى ذِكر الله وترك البيع مبتدأ، خبره ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أيها المؤمنون من مباشرته. فإن نفع الآخرة أجلّ وأبقى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر الحقيقيين. فافعلوا ما أمرتكم به، واتركوا ما نهيتكم عنه.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

روي: أنه - ﷺ - خطب، فقال: «إن الله افترض عليكم الجمعة في يومي هذا وفي مقامي هذا، فمن تركها في حياتي وبعد مماتي وله إمام عادل أو جائر من غير عذر.. فلا بارك الله له، ولا جمع شمله، ألا فلا حجّ له، ألا فلا صوم له، ومن تاب.. تاب الله عليه».

ومعنى الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾؛ أي: إذا[1] أذّن المؤذن بين يدي الإمام وهو على المنبر في يوم الجمعة للصلاة.. فاتركوا البيع واسعوا إلى موضع الجمعة، واذهبوا إليه لتسمعوا موعظة الإمام في خطبته، وعليكم أن تمشوا الهوينى، بسكينة ووقار حتى تصلوا إلى المسجد.

روى الشيخان عن أبي هريرة: أن النبي - ﷺ - قال: «إذا أقيمت الصلاة.. فلا تأتوها وأنتم تسعون - تسرعون - وأتوها وأنتم تمشون، وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم.. فصلوا وما فاتكم.. فأتموا».

وعن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي - ﷺ - إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «ما شأنكم»؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: فلا تفعلوا، إذا أتيتم فامشوا، وعليكم السكينة، فما أدركتم.. فصلوا وما فاتكم.. فأتموا». رواه البخاري ومسلم.

ذالكم السعي وترك البيع خير لكم من التشاغل بالبيع وابتغاء النفع الدنيوي، فإن منافع الآخرة خير لكم وأبقى، فهي المنافع الباقية. وأما منافع الدنيا: فهي زائلة. وما عند الله خير لكم إن كنتم من ذوي العلم الصحيح بما يضر وما ينفع.

ثم ذكر ما يفعلون بعد الصلاة، فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ التي نوديتم لها أي: أديت وفرغ منها ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾؛ أي: تفرقوا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لإقامة مصالحكم والتصرف في حوائجكم بأن يذهب كل منكم إلى موضع فيه حاجة من الحوائج المشروعة التي لا بدّ من تحصيلها للمعيشة، من التجارة والصناعة والزراعة.

فإن قلت[2]: ما معنى هذا الأمر، فإنه لو لبث في المسجد إلى الليل يجوز، بل هو مستحبّ؟.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

فالجواب: أن هذا أمر الرخصة لا أمر العزيمة؛ أي: لا جناح عليكم في الانتشار بعد ما أديتم حق الصلاة.

﴿وَٱبْتَغُوا۟﴾؛ أي: واطلبوا لأنفسكم وأهليكم ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وعطائه؛ أي: من الرزق الحلال، بأي وجه يتيسر لكم من التجارة وغيرها من المكاسب المشروعة. دل على هذا المعنى سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً﴾ الخ، كما سيأتي قريباً.

فالأمر بعد الحظر للإطلاق؛ أي: للإباحة لا للإيجاب، كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾. وذكر الإمام السرخسي: أن الأمر للإيجاب؛ لما روي: أنه - ﷺ - قال: «طلب الكسب بعد الصلاة هو الفريضة بعد الفريضة، وتلا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾. وقيل: إنه للندب، فعن سعيد بن جبير: إذا انصرفت من الجمعة.. فساوم بشيء وإن لم تشتره. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة أخ في الله. وعن الحسن، وسعيد بن المسيب: هو طلب العلم. وقيل: صلاة التطوع.

والظاهر(١): أن مثل هذا إرشاد للناس إلى ما هو الأولى، ولا شك في أولوية المكاسب الأخروية مع أن طلب الكفاف من الحلال عبادة، وربما يكون فرضاً عند الاضطرار.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه بالجنان واللسان ﴿كَثِيرًا﴾؛ أي: ذكراً كثيراً أو زماناً كثيراً، ولا تخصوا ذكره تعالى بالصلاة؛ أي: واذكروه بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والدنيوي، واذكروه أيضاً بما يقربكم إليه من الأذكار؛ كالحمد، والتسبيح، والتكبير، والاستغفار ونحو ذلك. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: كي تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به.

والمعنى(٢): أي فإذا أديتم الصلاة.. فتفرقوا لأداء مصالحكم الدنيوية بعد أن أديتم ما ينفعكم في آخرتكم، واطلبوا الثواب من ربكم، واذكروا الله وراقبوه في جميع شؤونكم، فهو العليم بالسر والنجوى، لا تخفى عليه خافية من أموركم،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

لعلكم تفوزون بالفلاح في دنياكم وآخرتكم. وفي هذا إيماء إلى شيئين:

١ ـ مراقبة الله في أعمال الدنيا حتى لا يطغى عليهم حبها بجمع حطامها بأي الوسائل من حلال وحرام.

٢ ـ أن في مراقبته تعالى الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فلأن من راقبه لا يغش في كيل ولا وزن، ولا يغير سلعة بأخرى، ولا يكذب في مساومة، ولا يحلف كذباً، ولا يخلف موعداً، ومتى كان كذلك.. شهر بين الناس بحسن المعاملة وأحبوه، وصار له من حسن الأحدوثة ما يضاعف له الله به الرزق.

وأما في الآخرة: فيفوز برضوان ربه ورضوان من الله أكبر، وبجنات تجري من تحتها الأنهار، ونعم أجر العاملين. وعن عراك بن مالك رضي الله عنه: أنه كان إذا صلى الجمعة.. انصرف فوقف على باب المسجد، وقال: اللهم أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين.

ثم عاتب سبحانه المؤمنين على ما كان منهم من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذٍ، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا﴾؛ أي: وإذا رأى المؤمنون وعلموا ﴿تِجَـٰرَةً﴾؛ أي: عير تجارة، وهي تجارة دحية بن خليفة الكلبي. ﴿أَوْ﴾ سمعوا ﴿لَهْوًا﴾ وهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. يقال: ألهى عن كذا إذا شغله عمّا هو أهمّ. والمراد هنا: صوت الطبل، ويقال له: اللهو الغليظ. وكان دحية إذا قدم.. ضرب الطبل ليعلم الناس بقدومه فيخرجوا ليبتاعوا منه. وقيل: كانوا إذا أقبلت العير استقبلوها؛ أي: أهلها بالطبول والدفوف والتصفيق، وهو المراد باللهو هنا ﴿انفَضُّوٓا﴾؛ أي: انتشروا، وتفرقوا خارجين ﴿إِلَيْهَا﴾؛ أي: إلى التجارة، والذي سوغ لهم الخروج وترك رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب: أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز لانقضاء المقصود، وهو الصلاة؛ لأنه كان ـ ﷺ ـ أول الإسلام يصلي الجمعة قبل الخطبة كالعيدين، فلما وقعت هذه الواقعة ونزلت الآية.. قدم الخطبة وأخّر الصلاة، انتهى. «خطيب».

وأفرد[1] الضمير لأن العطف بـ﴿أو﴾ لا يثنى معه الضمير، وكان المناسب إرجاعه إلى أحد الشيئين من غير تعيين على أن تخصيص التجارة برد الضمير إليها، لأنها المقصودة، أو للدلالة على أن الانفضاض إليها مع الحاجة إليها والانتفاع بها إذا كان مذموماً، فما ظنك بالانفضاض إلى اللهو وهو مذموم في نفسه؟ ويجوز أن يكون الترديد للدلالة على أن منهم من انفضّ لمجرد سماع الطبل، ورؤيته فإذا كان الطبل من اللهو وإن كان غليظاً فما ظنك بالمزمار ونحوه؟. وقد يقال: الضمير للرؤية المدلول عليها بقوله: رأوا.

وقرىء: ﴿إليهما﴾[2] بالتثنية للضمير، كقوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾. وتخريجه على أن يتجوز بـ﴿أو﴾ فتكون بمعنى الواو. وقيل: التقدير على القراءة المشهورة: وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهواً انفضوا إليه. فحذف الثاني لدلالة الأول عليه، كما في قول الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَٱلرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

روي: أن دحية بن خليفة الكلبي قدم المدينة بتجارة من الشام، وكان ذلك قبل إسلامه، وكان بالمدينة مجاعة وغلاء سعر، وكان معه جميع ما يحتاج إليه من برّ ودقيق وزيت وغيرها، والنبي - ﷺ - يخطب يوم الجمعة، فلما علم أهل المسجد ذلك.. قاموا إليه خشية أن يسبقوا إليه، فما بقي معه - ﷺ - إلا ثمانية، أو أحد عشر، أو اثنا عشر، أو أربعون، فيهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمٰن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وبلال بن رباح، وعبد الله بن مسعود، وفي رواية: عمار بن ياسر بدل عبد الله. وذكر مسلم: أن جابراً كان فيهم، وكان منهم سبع نسوة فقال النبي - ﷺ -: «والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعاً.. لأضرم الله عليهم الوادي ناراً». وفي «عين المعاني»: «لولا الباقون لنزلت عليهم الحجارة». وقال الخطيب: فهذه الروايات المختلفة منشأ الخلاف بين الأئمة في العدد الذي تنعقد به الجمعة. ا هـ. من «القرطبي».

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿وَتَرَكُوكَ﴾ حال كونك ﴿قَآئِمًاۚ﴾: أي على المنبر. روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان النبي ـ ﷺ ـ يخطب يوم الجمعة خطبتين قائماً يفصل بينهما بجلوس، ومن ثمة كانت السنة في الخطبة ذلك، وأول من استراح في الخطبة: عثمان، وأول من خطب جالساً: معاوية. وفيه إشعار بأن الأحسن في الوعظ على المنبر يوم الجمعة القيام، وإن جاز القعود فيه؛ لأنه والخطبة من وادٍ واحدٍ لاشتماله على الحمد والثناء والصلاة والنصيحة والدعاء.

ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الجزاء العظيم على استماع الخطبة، ولزوم مجلس الرسول ـ ﷺ ـ، وهو: الجنة. و﴿ما﴾: موصولة. خاطبهم الله سبحانه بواسطة النبي ـ ﷺ ـ لأن الخطاب هنا مشوب بالعتاب. ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ﴿مِّنَ﴾ استماع ﴿ٱللَّهْوِ وَمِنَ﴾ نفع ﴿ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ اللذين ذهبتم إليهما، وتركتم البقاء في المسجد وسماع خطبة النبي ـ ﷺ ـ لأجلهما، فإن نفع ذلك محقق مخلد، بخلاف ما فيهما من النفع المتوهم، فنفع اللهو ليس بمحقق، ونفع التجارة ليس بمخلد، وما ليس بمخلد فمن قبيل الظن. ومنه يعلم وجه تقديم اللهو، فإنَّ للأعدام تقدماً على الملكات. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأفضلهم، فمنه اطلبوا الرزق، وإليه توسلوا بعمل الطاعة، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق، وأعظم ما يجلبه.

قال بعضهم[1]: قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ﴾ وقوله: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ من قبيل الفرض والتقدير: إذ لا خيرية في اللهو ولا رازق غيره فكأن المعنى إن وجد في اللهو خير فما عند الله أشد خيراً منه، وإن وجد رازقون غير الله.. فالله خيرهم وأقواهم وأولاهم عطية. والرزق: هو المنتفع به، مباحاً كان أو محظوراً. قيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: من خزانة ملك لا يدخلها اللصوص، ولا يأكلها السوس.

قال أبو حيان: وناسب ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنهم كانوا قد مسهم شيء من غلاء الأسعار، كما تقدم في سبب النزول.

والمعنى[2]: أي قل لهم ـ مبيناً خطأ ما عملوا ـ: ما عند الله مما ينفعكم في

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الآخرة خير لكم مما يفيدكم في الدنيا، من التمتع بخيراتها وكسب لذاتها، فتلك باقية وهذه فانية، والله خير الرازقين وأفضلهم وأوسعهم رزقاً، فإليه سبحانه فاسعوا ومنه فاطلبوا الرزق، ولن يفوتكم ذلك بسماع عظاته، فالله كفيل برزقكم ولم ينقص بترككم البيع والشراء حين الصلاة وحين سماع العظات والنصائح، والله أعلم.

الإعراب

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾.

﴿يُسَبِّحُ﴾: فعل مضارع، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿ما﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿ٱلْمَلِكِ﴾: صفة للجلالة، أو بدل منه، وكذا قوله: ﴿ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: صفات له، أو بدل منه. ﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿بَعَثَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، صلة الموصول، ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: متعلق بـ﴿بَعَثَ﴾، ﴿رَسُولًا﴾: مفعول به، ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ﴿رَسُولًا﴾، ﴿يَتْلُواْ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الرسول، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَتْلُواْ﴾، ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به، والجملة نعت ثان لـ﴿رَسُولًا﴾ أو حال منه لتخصصه بالصفة. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿يَتْلُواْ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والجملة معطوفة على ﴿يَتْلُواْ﴾ أيضاً. ﴿وَإِن﴾: الواو: حالية، ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: وإنه، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿كَانُواْ﴾ أو حال من الواو، ﴿لَفِي﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿في ضلال﴾: خبر كان، ﴿مُّبِينٍ﴾: نعت ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر لـ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة في محل النصب حال من هاء ﴿يعلمهم﴾ أو مستأنفة.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿آخرين﴾: معطوف على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، مجرور بالياء، أو معطوف على الضمير في ﴿يعلمهم﴾ منصوب بالياء؛ أي: ويعلم آخرين. ﴿مِنۡهُمۡ﴾: حال من آخرين؛ أي: حال كون الآخرين من مطلق الأميين، كذا قالوا. ولكن الأصح أن يكون الجار والمجرور صفة لآخرين؛ أي: كائنين منهم، أو متعلقاً بـ﴿آخرين﴾؛ لأن ﴿آخرين﴾ نكرة. ﴿لما﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَلۡحَقُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لما﴾، وعلامة جزمه حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿بِهِمۡۚ﴾ متعلق بـ﴿يَلۡحَقُواْ﴾، والجملة صفة لـ﴿آخرين﴾. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: خبر أول، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿يُؤۡتِيهِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول أول، والجملة في محل النصب حال من الجلالة، أو خبر ثان عن اسم الإشارة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لآتي، وجملة ﴿يَشَآءُۚ﴾ صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿حُمِّلُواْ﴾: فعل ونائب فاعل والجملة صلة الموصول، ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: مفعول ثان لـ﴿حُمِّلُواْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿لَمۡ﴾: حرف جزم، ﴿يَحۡمِلُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بـ﴿لَمۡ﴾، والجملة معطوفة على ﴿حُمِّلُواْ﴾ على كونها صلة الموصول، ﴿كَمَثَلِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ في محل النصب على الحال من ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾. ويجوز أن تكون في محل جرّ صفة لـ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾ لجريانه مجرى النكرة، أو لأن القاعدة في مثل هذا غير مطردة كما مرّ. ﴿بِئۡسَ﴾: فعل ماض لإنشاء الذم، ﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾: فاعل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿كَذَّبُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾، والمخصوص بالذم محذوف أو خبر عن المخصوص بالذم المحذوف، أي: هذا المثل، وهو مبتدأ خبره جملة ﴿بِئۡسَ﴾، وفيه أوجه أخر. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ـ ﷺ ـ، والجملة مستأنفة. ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أيُّ﴾، وجملة ﴿هَادُوٓاْ﴾: صلة الموصول، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم، ﴿زَعَمْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿أَنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَوْلِيَآءُ﴾: خبر ﴿لِلَّهِ﴾ صفة لـ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ أو متعلق بـ﴿أَوْلِيَآءُ﴾، ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: صفة ثانية لـ﴿أَوْلِيَآءُ﴾، أو حال منه. وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿زَعَمْتُمْ﴾. ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿تمنوا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿ٱلْمَوْتَ﴾: مفعول به، والجملة في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، والجواب محذوف معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت. والجملة الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، مرفوع بثبات النون، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُلْ﴾. ﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾، ﴿بما﴾: جار ومجرور متعلق بما في معنى النفي، لأنه سبب لنفي التمني، أي: يأبون من التمني بسبب ما قدمت أيديهم. ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، والعائد محذوف؛ أي: بسبب ما قدمته أيديهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ﴾: ناصب واسمه، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَوْتَ﴾، ﴿تَفِرُّونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ﴿تَفِرُّونَ﴾، وهو العائد على الموصول، ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالاسم لما في الموصول من معنى الشرط. لأن الصفة والموصوف كالشيء، أو زائدة. ﴿إنه﴾: ناصب واسمه، ﴿مُلَٰقِيكُمْ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الرفع خبر لـ﴿إِنَّ﴾ الأولى. وقد منع هذا قوم، منهم: الفراء، وجعلوا الفاء زائدة. وقيل: الخبر هو نفس ﴿ٱلَّذِى﴾ وما بعده استئناف، كأنه قيل: إن الموت هو الشيء الذي تفرون منه. وإلى هذا نحا الزمخشري، ويؤيده قراءة زيد بن علي بلا فاء. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿تُرَدُّونَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: متعلق بـ﴿تُرَدُّونَ﴾، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْغَيْبِ﴾، وجملة ﴿تُرَدُّونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ينبئكم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾، ﴿الكاف﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُرَدُّونَ﴾، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿ينبئكم﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة كان صلة الموصول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⁽٩⁾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من المنادى، وجملة ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: صلة الموصول، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط، ﴿نُودِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿لِلصَّلَوٰةِ﴾: جار ومجرور، نائب فاعل ﴿مِن﴾: بمعنى في ﴿يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾: مجرور بـ﴿من﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿نُودِىَ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿اسعوا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿اسعوا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾: فعل أمر، وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿اسعوا﴾، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر، ﴿لَّكُمْ﴾:

متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب مقول قل. ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية محذوف معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم تعلمون الخير.. فاسعوا إلى ذكر الله. وجملة الشرط في محل النصب مقول قل.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ﴾: فعل، ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿فَانتَشِرُوا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة، ﴿انتشروا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى. ﴿وَابْتَغُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿انتشروا﴾، ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ابتغوا﴾، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿انتشروا﴾. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: ذكراً كثيراً، أو ظرف محذوف؛ أي: زماناً كثيراً، ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج وتعليل، بمعنى: كي، و﴿الكاف﴾: اسمها، وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾ خبرها، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿رَأَوْا﴾ فعل ماض، وفاعل، ﴿تِجَارَةً﴾: مفعول به، ﴿أَوْ لَهْوًا﴾: معطوف على ﴿تِجَارَةً﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب ﴿انفَضُّوا﴾: فعل ماض وفاعل، ﴿إِلَيْهَا﴾ متعلق به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَتَرَكُوكَ﴾: فعل ماض، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿انفَضُّوا﴾، ﴿قَائِمًا﴾: حال من كاف

المخاطب، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ﴿ما﴾، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿مِّنَ ٱللَّهْوِ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾: معطوف على ﴿مِّنَ ٱللَّهْوِ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على الجملة قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾: بضم القاف وتشديد الدال، من أسماء الله تعالى؛ أي: الطاهر، أو المبارك، أو المنزه عن كل النقائص المتصف بكل كمال. وكل فعول مفتوح الفاء غير القدوس وسبوح وذروح وفروج فبالضمّ ويفتحن.

﴿فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾: هم العرب، جمع أمي، نسبة إلى الأم التي ولدته، لأنه على الحال التي ولد عليها لم يتعلم الكتابة والحساب، فهو على الجبلة الأولى.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ والفرق بين التلاوة والقراءة: أن التلاوة قراءة متتابعة متسلسلة؛ كقراءة القرآن والحديث ودراسة العلم، والقراءة أعم من التلاوة؛ لأنها جمع الحروف باللفظ، ولو في كلمة، لا اتباعها، ذكره في «الروح». ﴿وَءَاخَرِينَ﴾: جمع آخر، بمعنى غير. ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ أي: علموها، وكلفوا العمل بها. ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾؛ أي: لم يعملوا بها، ولم ينتفعوا بها. ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ والحمار: حيوان معروف، يعبر به عن الجهل، كقولهم: هو أكفر من الحمير؛ أي: أجهل، لأن الكفر من الجهالة. قال الشاعر:

تَعَلَّمْ يَا فَتَىٰ فَٱلْجَهْلُ عَارُ ... وَلاَ يَرْضَىٰ بِهِ إِلاَّ ٱلْحِمَارُ

﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾: جمع سفر - بكسر السين - كشبر وأشبار. قال الراغب: السفر: الكتاب الكبير الذي يسفر عن الحقائق؛ أي: يكشف عنها. وخصّ لفظ الأسفار في الآية إشارة إلى أن التوراة وإن كانت تكشف عن معانيها إذا قرئت وتحقق ما فيها فالجاهل لا يكاد يستبينها، كالحمار الحامل لها. وفي «القاموس»: السفر: الكتاب الكبير، أو جزء من أجزاء التوراة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾؛ أي: تهودوا. أي: صاروا يهوداً، من هاد يهود

هوداً، كقال يقول قولاً. قال الراغب: الهود: الرجوع برفق، وصار في التعارف التوبة. قال بعضهم: يهود في الأصل من قولهم: إنا هدنا إليك، أي: تبنا. وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح، كما أن النصارى في الأصل من قولهم: نحن أنصار الله، ثم صار لازماً لهم بعد نسخ شريعتهم. وفي «هادوا» إعلال بالقلب، أصله: هودوا قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾: من التمني، وهو: تقدير الشيء في النفس وتصويره فيها. قال بعضهم: الفرق بين التمني والاشتهاء: أن التمني أعم من الاشتهاء؛ لأنه يكون في الممتنعات دون الاشتهاء، لأن التمني طلب أمر مستحيل؛ كـ:

لَـيْـتَ ٱلـشَّـبَـابَ يَـعُـوْدُ يَـوْمـاً

أو مستبعد الحصول؛ كقول الفقير: ليت لي مالاً فأحجّ منه. وأصل تمنوا تمنيوا، أمر من التمني، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ أصله: يتمنيونه، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أصله: تفررون بوزن تفعلون، نقلت حركة الراء الأولى إلى الفاء فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. ﴿تُرَدُّونَ﴾: من الرد، وهو صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله، يقال: رددته فارتد، والآية من الردّ بالذات كما مرّ، وأصله: ترددون، بوزن تفعلون، نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء فسكنت فأدغمت في الدال الثانية. ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ النداء: رفع الصوت وظهوره كما مرّ. وأصله: نادي، بوزن فاعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ولما بني الفعل للمجهول.. ضم أوله فقلبت الألف الأولى واواً، ولما كسر ما قبل آخره.. قلبت الأخيرة ياء. ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. قال الراغب: السعي: المشي السريع، وهو دون العدو، وهو هنا بمعنى المشي المعتاد، وأصله: اسعيوا، بوزن افعلوا، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ يقال: فلان يذر الشيء؛ أي: يقذفه لقلة اعتداده به، ولم يستعمل ماضيه، وهو وذر؛ أي: اتركوا المعاملة.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً﴾ أصله: رأيوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقى

ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف. والتجارة: تقليب المال بالبيع والشراء لطلب الربح. ﴿أَوْ لَهْوًا﴾، واللهو: كل ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه؛ كالمزمار والتلفزيون والفيديو، وسائر آلات الملاهي المحرمة. والمراد في هذه الواقعة: صوت الطبل؛ لأنه هو الذي ضربه دحية الكلبي، كما مر. يقال: ألهى عن كذا، إذا شغله عما هو أهم. ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ الفضّ: كسر الشيء وتفريق بين بعضه وبعض، كفض ختم الكتاب، ومنه: استعير انفض القوم؛ أي: تفرقوا وانتشروا. ﴿قَآئِمًا﴾: فيه إعلال بالإبدال، أصله: قاوما بالواو، أبدلت الواو همزة في الوصف حملاً له على فعله في الإعلال، حيث أعل الفعل قوم بقلب الواو ألفاً، فقيل: قام. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ من الرزق، والرزق: كل ما ينتفع به، حلالاً كان أو حراماً، مطعماً كان أو مشرباً أو ملبساً أو مفرشاً، كما قال أحمد بن رسلان في «زبده»:

وَٱلـرِّزْقُ مَـا يَـنْـفَـع وَلَـوْ مُـحَـرّمـاً ... يَـرْزُقُ مَـنْ شَـاءَ وَمَـنْ شَـا أَحْـرَمَـا

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾. فقد شبه اليهود حيث لم ينتفعوا بما في التوراة من الدلالة على الإيمان بمحمد - ﷺ - والإلماع إلى بعثته - ﷺ - بالحمار الذي يحمل الكتب ولا يدري ما فيها. ووجه الشبه: عدم الانتفاع بما هو حاصل وكائن، فالحمار يمشي في طريقه وهو لا يحس بشيء مما يحمله على ظهره إلا بالكدّ والتعب، وكذلك اليهود قرؤوا التوراة أو حفظوها ثم أشاحوا عما انطوت عليه من دلائل، وإرهاصات على نبوة محمد - ﷺ -.

ومنها: تخصيص التشبيه فيه بالحمار لزيادة التحقير والإهانة ولنهاية التهكم والتوبيخ بالبلادة؛ إذ الحمار هو الذي يذكر بالبلادة، والبقر وإن كان مشهوراً بالبلادة إلا أنه لا يلائم الحمل كما مرّ.

ومنها: تأكيد التشبيه بزيادة الكاف كما في «الكواشي».

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾، و﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾.

ومنها: الطباق بين الغيب والشهادة في قوله: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ حيث أطلق الأيدي وأراد الأنفس لعلاقة الكلية والجزئية لكون أكثر الأعمال تزاول بها.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ للتسجيل عليهم بالظلم في كل أمورهم، وكان مقتضى السياق أن يقال: والله عليم بهم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾، حيث أطلق البيع الذي هو تمليك بعوض بلفظ بيع. وأراد جميع أنواع المعاملة، والصناعة والحرف، والزراعة وغيرها لعلاقة الجزئية.

ومنها: التفنن بتقديم الأهم في الذكر في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾؛ لأن المقصود الأساسي في الانفضاض هو التجارة، فقدمها، ثم قال: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾. فقدم اللهو على التجارة؛ لأن الخسارة بما لا نفع فيه أعظم، فقدم ما هو أهم في الموضعين.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾؛ لأن الفض حقيقة في كسر الشيء وفصل بعضه عن بعض، فاستعاره للتفرق والانتشار.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ وصفه تعالى نفسه بصفات الكمال.

٢ ـ صفات النبي الأمي الذي بعثه رحمة للعالمين.

٣ ـ النعي على اليهود لتركهم العمل بأحكام التوراة.

٤ ـ طلب مباهلة اليهود.

٥ ـ الحث على السعي للصلاة يوم الجمعة حين النداء والإمام على المنبر.

٦ ـ الأمر بالسعي على الأرزاق بعد انقضاء الصلاة.

٧ ـ عتاب المؤمنين على تركهم النبي ـ ﷺ ـ وهو يخطب قائماً وتفرقهم لرؤية التجارة واللهو.[1]

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وقد فرغنا من تفسير هذه السورة الكريمة عصر يوم الجمعة، السادس من شهر ذي الحجة، من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمسة عشر، من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ٦/١٢/١٤١٥ هـ. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، واغفر لنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين، آمين.

سورة المنافقون

سورة المنافقون مدنية، قال القرطبي: في قول الجميع، نزلت بعد الحج. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والنحاس والبيهقي: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة المنافقين بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآيها: إحدى عشرة آية، وكلماتها: مئة وثمانون كلمة، وحروفها: تسع مئة، وستة وسبعون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها: أنه ذكر[١] في السورة السابقة حال المؤمنين الذي بعث إليهم النبي الأمي يتلو عليهم كتابه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وأمرهم بالصلاة وترك البيع حين أدائها، وفي هذه ذكر أضدادهم، وهم المنافقون الذين يشهدون كذباً بأن محمداً رسول الله - ﷺ - ويحلفون الأيمان المحرجة على ذلك، ومن ثم كان النبي - ﷺ - يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى بسورة الجمعة، فيحرض بها المؤمنين على العبادة، وفي الركعة الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين.

وعبارة أبي حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها[٢]: أنه لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلاً عن المنافقين واتبعهم ناس كثير من المؤمنين في ذلك، وذلك لسرورهم بالعير التي قدمت بالميرة، إذ كان وقت مجاعة.. جاء ذكر المنافقين، وما هم عليه من كراهة أهل الإيمان، وأتبعه بقبائح أفعالهم وقولهم: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ إذ كانوا هم أصحاب أموال والمهاجرون فقراء، قد تركوا أموالهم ومتاجرهم وهاجروا إلى الله سبحانه وإلى رسوله - ﷺ -، طلباً لمرضاته.

تسميتها: سميت سورة المنافقين لذكرهم فيها.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه[٣] سعيد بن منصور، والطبراني في

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

«الأوسط» ـ قال القرطبي ـ: بسند حسن عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة في الركعة الأولى، فيحرض بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين، فيقرع بها المنافقين. وأخرج البزار والطبراني عن أبي عنبة الخولاني مرفوعاً نحوه. وروي عن النبي ـ ﷺ ـ: أنه قال: «من قرأ سورة المنافقين.. بريء من النفاق».

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة المنافقين كلها محكم ليس فيها منسوخ، وفيها ناسخ، وهو قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ...﴾ الآية (٦). فإنه لما نزلت آية براءة: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾. قال النبي ـ ﷺ ـ: «قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم» فأنزل الله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ الآية نسخاً لقول النبي ـ ﷺ ـ: «لأستغفرن لهم أكثر من سبعين».

سبب نزولها: سبب نزول[1] هذه السورة مذكور في قصة طويلة من مضمونها: أن اثنين من الصحابة ازدحما على ماء، وذلك في غزوة بني المصطلق، فشج أحدهما الآخر، فدعا المشجوج: يا للأنصار، والشاج: يا للمهاجرين، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول، ما حكى الله تعالى، عنه من قوله: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾، وقوله: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ وعنى بالأعز نفسه وكلاماً قبيحاً، فسمعه زيد بن أرقم، ونقل ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فلام رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الله بن أبي، فحلف ما قال شيئاً من ذلك، فاتُّهِمَ زيد، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تصديقاً لزيد وتكذيباً لعبد الله بن أبيّ. هذا خلاصة ما في القصة الطويلة ذكره أبو حيان في «البحر المحيط».

والله أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان مناسبة هذه السورة للسورة المتقدمة قريباً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر كذب المنافقين في قولهم للرسول - ﷺ -: نشهد إنك لرسول الله، وبيّن أنهم يسترون نفاقهم بالأيمان الفاجرة، ثم أعقبه بذكر جبنهم وصلفهم، وأنهم أجسام البغال وأحلام العصافير، ثم أردفه ببيان أنهم أعداء الله حقاً. أعقب هذا بذكر ما صدر منهم مما يثبت كذبهم ونفاقهم بما لا يدع شبهة لمن يلتمس المعاذير ويبرئهم من النفاق، فمن ذلك:

(١) المراغي.

١ ـ أنهم إذا طلب منهم أن يتقدموا إلى الرسول ـ ﷺ ـ ليستغفر لهم على ما فرط منهم من الذنوب.. أمالوا رؤوسهم وأعرضوا استكباراً وأنفة أن يفعلوا.

٢ ـ أنهم قالوا: لئن رجعنا من وقعة بني المصطلق ـ قبيلة من اليهود ـ إلى المدينة.. لنخرجن الأذلاء محمداً وأصحابه منها.

ثم نعى عليهم ما قالوا بأنهم قوم لا حلوم لهم، ولا هم يفقهون جليل قدرة الله وبديع صنعه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى مقال المنافقين من أنهم الأعزاء وأن المؤمنين هم الأذلاء اغتراراً بما لهم من مال ونشب، وأن ذلك هو الذي صدهم عن طاعة الله وجعلهم يعرضون عن الإيمان بالله إيماناً حقاً، ويؤدون فرائضه ويقومون بما يقربهم من رضوانه.. أردف ذلك نهي المؤمنين أن يكونوا مثلهم في ذلك، بل عليهم أن يلهجوا بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، ويؤدوا ما فرض عليهم من العبادات، ولا يشغلهم عن ذلك زخرف هذه الحياة من مال ونشب أولاد وجاه، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. ثم أمرهم أن ينفقوا أموالهم في أعمال البر والخير ولا يؤخروا ذلك حتى يحل الموت فيندموا، حيث لا ينفع الندم، ويتمنوا أن يطيل الله أعمارهم ليعوضوا بعض ما فاتهم، ولكن أنى لهم ذلك؟ ولكل نفس أجل محدود لا تعدوه، والله خبير بما يعملون، وهو مجازيهم على أعمالهم، إن خيراً وإن شراً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه البخاري (ج/١٠ ـ ص/٢٩٦) عن أبي إسحاق، عن زيد بن أرقم قال: كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبيّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت لعمي أو لعمر، فذكره للنبي ـ ﷺ ـ، فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عبد الله بن أبيّ

---

(١) البخاري.

وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ـ ﷺ ـ وصدقه فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ـ ﷺ ـ ومقتك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، فبعث إليَّ النبي ـ ﷺ ـ، فقرأ فقال: إن الله قد صدقك يا زيد.. الحديث. أخرجه مسلم، والترمذي، وأحمد، والحاكم أطول مما ها هنا، وقال: صحيح، وأقرّه الذهبي وابن جرير.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري ـ أيضاً ـ عن محمد بن كعب القرظي قال: سمعت زيد بن أرقم رضي الله عنه لما قال عبد الله بن أبي: لا تنفقوا على من عند رسول الله، وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة، أخبرت به النبي ـ ﷺ ـ، فلامني الأنصار، وحلف عبد الله بن أبي ما قال ذلك، فرجعت إلى المنزل، فنمت، فدعاني رسول الله ـ ﷺ ـ، فأتيته، فقال: إن الله قد صدقك ونزَّل: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ...﴾ الحديث أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا جَآءَكَ﴾ وحضرك ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾؛ أي[1]: حضروا مجلسك ووصلوا إليك. جمع منافق، والمنافق: هو الذي يضمر الكفر اعتقاداً ويظهر الإيمان قولاً. والنفاق: إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر في الجنان. وفي «المفردات»: النفاق: الدخول في الشرع من باب والخروج منه من باب. ﴿قَالُوا۟﴾: مؤكدين كلامهم بـ﴿إن﴾ و﴿اللام﴾: للإيذان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوص اعتقادهم ووفور رغبتهم ونشاطهم.

والظاهر: أنه الجواب؛ لأن الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾. وقيل: جوابه محذوف، و﴿قَالُوا۟﴾ حال، والتقدير: جاؤوك قائلين كيت وكيت، فلا تقبل منهم. وقيل: الجواب ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ وهو بعيد، وقيل: جوابه قوله: ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾، وقيل: استئناف لبيان طريق خدعتهم؛ أي: قالوا:

---

(١) روح البيان.

﴿نَشۡهَدُ﴾ الآن أو على الاستمرار ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ والشهادة قول صادر عن علم حصل بشهادة بصر أو بصيرة. والمراد بالمنافقين: عبد الله بن أبي وأصحابه. ومعنى ﴿نَشۡهَدُ﴾[1]: نحلف، فهو يجري مجرى القسم، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم. ومن هذا: قول قيس بن ذريح:

وَأَشْـهَـدُ عِـنْـدَ ٱلـلَّـهِ إِنِّـي أُحِـبُّـهَـا فَـهَـذَا لَـهَـا عِـنْـدِيْ فَـمَـا عِـنْـدَهَـا لِـيَـا

ومثل نشهد: نعلم، فإنه يجري مجرى القسم، كما في قول الشاعر:

وَلَـقَـدْ عَـلِـمْـتُ لَـتَـأْتِـيَـنَّ مَـنِـيَّـتِـيْ إِنَّ ٱلْـمَـنَـايَـا لاَ تَـطِـيْـشُ سِـهَـامُـهَـا

وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ اعتراض[2] مقرر لمنطوق كلامهم؛ لكونه مطابقاً للواقع، ولإزالة إيهام أن قولهم هذا كذب؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ. . .﴾ إلخ. وفيه تعظيم للنبي - ﷺ -. وقال أبو الليث: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ من غير قولهم: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾.

واعلم: أن كل ما جاء في القرآن بعد العلم من لفظة ﴿أن﴾ فهي بفتح الهمزة لكونها في حكم المفرد، إلا في موضعين:

أحدهما: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ في هذه السورة.

والثاني: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ في سورة الأنعام. وإنما كان كذلك في هذين الموضعين لأنه يأتي بعدهما لام الخبر، فانكسرا.

أي: لأن اللام لتأكيد معنى الجملة، ولا جملة إلا في صورة المكسورة. وقال بعضهم: إذا دخلت لام الابتداء على خبرها.. تكون مكسورة؛ لاقتضاء لام الابتداء الصدارة، كما يقال: لزيدٌ قائم. وأخرت اللام لئلا يجتمع حرفا التأكيد، واختير تأخيرها لترجيح إن في التقديم لعامليته، فكسرت لأجل اللام.

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾ شهادة حقة ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: إنهم لكاذبون فيما أضمروه من أنك غير رسول. والإظهار[3] في موضع الإضمار لذمهم والإشعار بعلية الحكم. أو لكاذبون فيما ضمنوا مقالتهم من أنها صادرة عن اعتقاد وطمأنينة قلب.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

فإن الشهادة وضعت للإخبار الذي طابق فيه اللسان اعتقاد القلب، وإطلاقها على الزور مجاز، كإطلاق البيع على الفاسد. نظيره: قولك لمن يقول: أنا أقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾: كذبت، فالتكذيب بالنسبة إلى قراءته لا بالنسبة إلى المقروء الذي هو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. ومن هنا يقال: إن من استهزأ بالمؤذن لا يكفر، بخلاف من استهزأ بالأذان، فإنه يكفر. قال بعضهم: الشهادة حجة شرعية تظهر الحق ولا توجبه، فهي الإخبار بما علمه بلفظ خاص، ولذلك صدق المشهود به وكذبهم في الشهادة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ...﴾ إلخ.

ودلت الآية على أن العبرة بالقلب وبالإخلاص، وبخلوصه يحصل الخلاص. وكان - ﷺ - يقبل من المنافقين ظاهر الإسلام.

ومعنى الآية[1]: أي إذا حضر مجلسك المنافقون، كعبد الله بن أبي وأصحابه.. قالوا: نشهد شهادة لا نشك في صدقها أنك رسول من عند الله حقاً، أوحى إليك وحيه، وأنزل عليك كتابه رحمة منه بعباده.

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها تحقيقاً لرسالته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً؛ لتنقذهم من الضلال إلى الهدى.

ثم بيّن كذبهم في مقالهم الذي حدثوا به، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما أخبروا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما يقولون، ولا تواطىء قلوبهم ألسنتهم في هذه الشهادة.

ثم ذكر أنهم يحتالون على تصديق الناس لهم بكل يمين محرجة، فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾؛ أي: اتخذ المنافقون ﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الفاجرة، التي من جملتها ما حكي عنهم. لأن الشهادة تجري مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد. جمع يمين، واليمين في الحلف مستعار من اليمين التي بمعنى اليد اعتباراً بما يفعله المحالف والمعاهد عنده. واليمين بالله الصادقة جائزة وقت الحاجة، صدرت من النبي - ﷺ -، كقوله: «والله، والذي نفسي بيده». ولكن إذا لم تكن ضرورة قوية.. يصان اسم الله العزيز عن الابتذال.

---

(١) المراغي.

أي: اتخذوا أيمانهم كلها، من شهادتهم هذه، وكل يمين سواها ﴿جُنَّةً﴾؛ أي: وقاية وترساً عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل والأسر والسبي، أو غير ذلك. واتخاذها جنة عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة، لا عن استعمالها بالفعل، فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية، واتخاذ الجنة لا بدّ أن يكون قبل المؤاخذة. وعن سببها كما يفصح عنه الفاء في قوله: ﴿فَصَدُّوا﴾؛ أي: فمنعوا وصرفوا من أراد الدخول في الإسلام بأنه - ﷺ - ليس برسول، ومن أراد الإنفاق في سبيل الله بالنهي ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سبحانه كماسيحكي عنهم. ولا ريب في أن هذا الصد منهم متقدم على حلفهم بالفعل.

وقرأ الجمهور: ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾: بفتح الهمزة، جمع يمين. وقرأ الحسن بكسرها مصدر آمن، ولما ذكر أنهم كاذبون.. أتبعهم بموجب كفرهم، وهو اتخاذ أيمانهم جنة يستترون بها ويذبون بها عن أنفسهم وأموالهم، كما قال بعض الشعراء:

وَمَا انْتَسَبُوا إِلَى الإِسْلامِ إِلاَّ لِصَوْنِ دِمَائِهِمْ أَنْ لاَ تُسَالاَ

ومن أيمانهم: أيمان عبد الله بن أبيّ ومن حلف معه من قومه أنه ما قال ما نقله زيد بن أرقم إلى رسول الله - ﷺ -. وقال الأعشى الهمداني:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَجْعَلْ لِعِرْضِكَ جُنَّةً مِنَ الْمَالِ سَارَ الْقَوْمُ كُلَّ مَسِيْرِ

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ساء الشيء الذي كانوا يعملونه من النفاق والصد. وفي ﴿سَاءَ﴾ معنى التعجب. ومعنى الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾؛ أي: جعلوا أيمانهم الكاذبة وقاية وستراً لحقن دمائهم وحفظ أموالهم، فيحلفون بالله إنهم لمنكم، ويقولون: نشهد إنك لرسول الله، حتى لا تجري عليهم أحكام الكفار من القتل والأسر وأخذ الأموال غنيمة. قال قتادة: كلما ظهر عليهم ما يوجب مؤاخذتهم.. حلفوا كاذبين، عصمة لدمائهم وأموالهم. وفي هذا تعداد لقبائح أفعالهم، وأن من عادتهم أن يستجنوا بالأيمان الكاذبة كما استجنوا بالشهادة الكاذبة. ثم حكى عنهم جريمة أخرى، وهي إضلال الناس، وصدهم عن الإسلام، فقال: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، أي: منعوا الناس عن الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة، بسبب ما يصدر منهم من

التشكيك والقدح في النبوة. هذا معنى الصد الذي بمعنى الصرف. ويجوز أن يكون من الصدود؛ أي: أعرضوا عن الدخول في سبيل الله وإقامة أحكامه.

وقصارى ذلك[1]: أنهم أجرموا جريمتين:

١ ـ أعدوا الأيمان الكاذبة وهيؤوها لوقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة.

٢ ـ أنهم يمنعون الناس عن الدخول في الإسلام، وينفرونهم منه متى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ثم بيّن قبح مغبة ما يعملون ووبال ما يصنعون، فقال: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: قبح فعلهم؛ إذ آثروا الكفر على الإيمان، وأظهروا خلاف ما أضمروا، وسيلقون نكالاً ووبالاً في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فسيفضحهم على رؤوس الأشهاد، ويظهر نفاقهم للمؤمنين بنحو قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. وأما في الآخرة: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

ثم ذكر ما جرأهم على الكذب والاستخفاف بالأيمان المحرجة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ القول الشاهد بأنهم أسوأ الناس أعمالاً، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من يدخل في الإسلام. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: ظهر كفرهم بما شوهد منهم من شواهد الكفر ودلائل من قولهم: إن كان ما يقوله محمد حقاً.. فنحن حمير! وقولهم في غزوة تبوك: أيطمع هذا الرجل أن يفتح له قصور كسرى وقيصر؟ هيهات. فـ﴿ثمّ﴾ للتراخي، أو: كفروا سراً، فـ﴿ثمّ﴾ للاستبعاد. ويجوز أن يراد بهذه الآية أهل الردة منهم، كما في «الكشاف». والأول أولى.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ختم عليها حتى تمرنوا على الكفر واطمأنوا به، وصارت بحيث لا يدخلها الإيمان، جزاء على نفاقهم ومعاقبة على سوء أفعالهم. ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون حقيقة الإيمان، ولا يعرفون حقيقته أصلاً كما يعرفه المؤمنون. أي: لا يعرفون ما فيه صلاحهم ورشادهم، وهو الإيمان.

---

(١) المراغي.

ودلت الآية[1] على أن ذكر بعض مساوىء العاصي عند احتمال الفائدة لا يعد من الغيبة المنهي عنها، بل قد يكون مصلحة مهمة على ما روي عنه - ﷺ -: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس». وفي «المقاصد الحسنة»: ثلاثة ليست لهم غيبة: الإمام الجائر، والفاسق المعلن فسقه، والمبتدع الذي يدعو الناس إلى بدعته.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَطُبِعَ﴾ بالبناء للمفعول، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور بعده. وقرأ زيد بن علي على البناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه. ويدل على هذا قراءة الأعمش ﴿فطبع الله على قلوبهم﴾.

والمعنى: أي ذلك الذي فعلوه لسوء سريرتهم وقبح طويتهم، فاستهانوا بما يأتون وما يذرون، ولم يكن همهم إلا المحافظة على دمائهم وأموالهم، ومن ثم أظهروا للناس إيماناً وأبطنوا كفراً، وقد ختم على قلوبهم، فلا تهتدي إلى حق ولا يصل إليها خير، ومن جراء ذلك عموا عما نصب من الأدلة على صدق الرسول، وصمّت آذانهم عن سماع ما يوجب الإيمان، فهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ثم ذكر ما لهم من جمال في الصورة واعتدال في القوام، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾؛ أي: رأيت أولئك المنافقين. والرؤية بصرية والخطاب للنبي - ﷺ -، وقيل: لكل من يصلح له. ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿يُسْمَعِ﴾ على البناء للمفعول. ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾؛ أي: هيئآتهم ومناظرهم. يعني: أن لهم أجساماً تعجب من يراها؛ لما فيها من النضارة والرونق وصباحة الوجه. ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ فتحسب أن قولهم حق وصدق؛ لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم. وقد كان عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، وكان يحضر مجلس النبي - ﷺ -، فإذا قال.. سمع النبي - ﷺ - مقالته. قال الكلبي المراد عبد الله بن أبيّ، وجد بن قيس، ومعتب بن قيس، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة. و﴿اللام﴾[3]: في قوله: ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ صلة. وقيل: تصغي إلى قولهم. وكان عبد الله بن أبيّ ونفر من أمثاله - وهم -: رؤساء المدينة - يحضرون مجلس النبي - ﷺ -، وكان النبي - ﷺ

---

(1) روح البيان.　(2) الشوكاني.　(3) روح البيان.

ـ ومن معه يعجبون بهياكلهم، ويسمعون إلى كلامهم. وإن الصباحة وحسن المنظر لا يكون إلا من صفاء الفطرة في الأصل، ولذا قال عليه السلام: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه» أي: غالباً. وكم من رجل قبيح الوجه قضاء للحوائج. قال بعضهم:

يَدُلُّ عَلَىٰ مَعْرُوفِهِ حُسْنُ وَجْهِهِ وَمَا زَالَ حُسْنُ ٱلْوَجْهِ إِحْدَىٰ ٱلشَّوَاهِدِ

وفي الحديث: «إذا بعثتم إليَّ رجلاً.. فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم». ثم لما رأى النبي ـ ﷺ ـ غلبة الرين على قلوب المنافقين، وانطفاء نور استعدادهم، وإبطال الهيئات الدنية العارضية خواصهم الأصلية.. أيس منهم وتركهم على حالهم.

وروي عن بعض الحكماء: أنه رأى غلاماً حسناً وجهه، فاستنطقه لظنه ذكاء فطنته، فما وجد عنده معنى: فقال: ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن!

وجملة قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ مستأنفة لتقرير ما تقدم من أن أجسامهم تعجب الرائي، وتروق الناظر. ويجوز أن تكون في محل الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف. أي: هم كأنهم إلخ. والخشب ـ بضمتين ـ: جمع خشبة وهي ما غلظ من العيدان. والإسناد: الإمالة، ومسندة للتكثير. فإن التسنيد تكثير الإسناد بكثرة المحال؛ أي: كأنها أسندت في مواضع. شبهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ـ ﷺ ـ مستندين فيها بأخشاب منصوبة مسندة إلى الحائط في كونها أشباحاً خالية عن العلم والخير والانتفاع. ولذا اعتبر في الخشب التسنيد؛ لأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، فكما أن مثل هذا الخشب لا نفع فيه فكذا هم لا نفع فيهم.

يقول الفقير: فيه إشارة إلى أن الاستناد في مجالس الأكابر أو في مجالس العلم مِن ترك الأدب؛ ولذا منع الإمام مالك رحمه الله هارون الرشيد من الاستناد حين سمع منه «الموطأ». ودلت الآية وكذا قول النبي ـ ﷺ ـ: إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، على أن العبرة في الكمال والنقصان بالأصغرين: اللسان والقلب، لا بالأكبرين: الرأس والجسد، فإن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأموال، بل إلى القلوب والأعمال، فرب صورة مصغرة، عند الله بمثابة الذهب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَسْمَعْ﴾ بتاء الخطاب. وقرأ عكرمة، وعطية العوفي ﴿يسمع﴾ بالياء مبنياً للمجهول، ولقولهم: الجار والمجرور هو المفعول الذي لم يُسمَّ فاعله، وليست اللام زائدة، بل ضمن ﴿يسمع﴾ معنى يصغ ويمل، تعدى باللام وليست زائدة، فيكون: قولهم هو المسموع. وقرأ الجمهور: ﴿خُشُبٌ﴾ بضمتين والبراء بن عازب والنحويان: أبو عمرو والكسائي، وابن كثير بإسكان الشين مخففة: ﴿خشب﴾ المضموم. وقيل: جمع خشباء، كحمر جمع حمراء، وهي: الخشبة التي نخر جوفها شبهوا بها في فساد بواطنهم. وقرأ ابن المسيب، وابن جبير: ﴿خشب﴾ بفتحتين، اسم جنس، الواحد خشبة، وأنث وصفه، كقوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام.

والمعنى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾؛ أي[2]: لاستواء خلقهم وجمال صورهم، كما وصفهم بالفصاحة وذرابة اللسان فقال: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لحلاوة منطقهم وحسن توقيع حديثهم، فإذا سمعهم سامع.. أحب أن يصغي إليهم وأن يطول حديثهم جهد الاستطاعة. ثم وصفهم بأن أفئدتهم هواء، لا عقول لهم ولا أحلام، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾؛ أي: هم أشباح بلا أرواح، لهم جمال في المنظر وقبح في المخبر، فسدت بواطنهم وحسنت ظواهرهم، فكانت كالخشب الجوفاء التي نخرها السوس، فهي مع حسنها لا ينتفع فيها بعمل ولا يستفاد منها خير. ولله در أبي نواس:

لاَ تَخْدَعَنْكَ اللُّحَىٰ وَلاَ الصُّوَرُ ... تِسْعَةُ أَعْشَارِ مَنْ تَرَىٰ بَقَرُ

تَرَاهُمُ كَالسَّحَابِ مُنْتَشِراً ... وَلَيْسَ فِيهِ لِطَالِبٍ مَطَرُ

فِي شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمُ مَثَلٌ ... لَهُ رُوَاءٌ وَمَا لَهُ ثَمَرُ

ثم وصفهم بالجبن والذلة، فقال: ﴿يَحْسَبُونَ﴾؛ أي: يظنون ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾؛ أي: كل صوت مرتفع. وهو مفعول أول لـ﴿يَحْسَبُونَ﴾، والمفعول الثاني قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واقعة عليهم ضارة لهم. وقال بعضهم: إذا نادى مناد في العسكر لمصلحة، أو انفلتت دابة، أو نشدت ضالة، أو وقعت جلبة بين الناس.. ظنوه

---

(1) البحر المحيط.

(2) المراغي.

إيقاعاً بهم، لجبنهم واستقرار الرعب في قلوبهم، والخائن خائف. وفي هذا زيادة تحقير لهم وتخفيف لقدرهم، كما قيل:

إِذَا رَأَىٰ غَـيْـرَ شَـيْءٍ ظَـنَّـهُ رَجُـلاً

وقيل: كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم. ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾؛ أي: هم الكاملون في العداوة الراسخون فيها. فإن أعدى الأعادي: العدو المكاشر الذي يكاشرك؛ أي: يبتسم، وتحت ضلوعه داء لا يبرح بل يلزم مكانه. ولم يقل: هم الأعداء؛ لأن العدو لكونه بزنة المصادر يقع على الواحد وما فوقه. والجملة[1] مستأنفة لبيان أنهم الكاملون في العداوة.

ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يأخذ حذره منهم، فقال: ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾؛ أي: فاحذر أن تثق بقولهم وتميل إلى كلامهم، أو: فاحذرممايلتهم لأعدائك وتخذيلهم بأصحابك، فإنهم يفشون سرك إلى الكفار. أو: فاحذر أن يتمكنوا من فرصة منك أو يطلعوا على شيء من أسرارك؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار.

ثم دعا عليهم، فقال: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لعنهم وطردهم من رحمته، دعا عليهم وطلب من ذاته تعالى أن يلعنهم ويطردهم ويخزيهم ويميتهم على الهوان والخذلان. قال سعدي المفتي: ولا طلب هناك حقيقة، بل عبارة الطلب للدلالة على أن اللعن عليهم مما لا بد منه. وقال الطيبي: إنه من أسلوب التجريد، كقراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿ومن كفر فأمتعه يا قادر﴾. ويجوز أن يكون تعليماً للمؤمنين بأن يدعو عليهم بذلك. ففيه دلالة على أن للدعاء على أهل الفساد محلاً يحسن فيه، فقاتل الله المبتدعين الضالين المضلين، فإنهم شر الخصماء وأضر الأعداء. وإيراده في صورة الإخبار مع أنه إنشاء معنى للدلالة على وقوعه. وقال بعضهم: أهلكهم الله، وهودعاء يتضمن الاقتضاء والمنابذة وتمني الشر لهم. وقيل: هي كلمة ذم وتوبيخ بين الناس، وقد تقول العرب: قاتله الله ما أشعره! فيضعونه موضع التعجب. وقيل: أحلهم محل من قاتله عدو قاهر لكل معاند يهلكه؛ لأن الله تعالى قاهر لكل معاند، فإذا قاتلهم أهلكهم.

---

(١) روح البيان.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تعجيب من حالهم؛ أي: كيف يصرفون عن الحق والنور إلى ما هم عليه من الكفر والضلال والظلمة بعد قيام البرهان.

والمعنى: قاتلهم الله بالخزي والحرمان والسوء والخذلان، كيف يعدلون عن طريق الدين الصدق وعن سبيل الهدى والرشد؟

ومعنى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ...﴾ إلى آخر الآية؛ أي[1]: كلما نادى مناد في العسكر، أو انفلتت دابة، أو نشدت ضالة.. ظنوا أن العدو قد فاجأهم وأن أمرهم قد افتضح، وأنهم هالكون لا محالة. وقد قالوا: يكاد المريب يقول: خذوني، ويكاد السارق يقول إذا رأى القيد: ضعوه في يدي؛ لما ألقي من الرعب في قلوبهم. فهم يخافون أن تهتك أستارهم وتكشف أسرارهم، ويتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾. وقد نظر المتنبي إلى الآية في قوله:

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّىٰ كَانَ هَارِبُهُمْ ... إِذَا رَأَىٰ غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلاً

﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ الذي بلغ الغاية في العداوة، ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولا تأمنهم على سر، ولا تلتفت إلى ظاهرهم. فقلوبهم متحرقة حسداً وبغضاً، وأعدى الأعادي: العدو والمداجي، الذي يكاشرك - يبتسم لك - وتحت ضلوعه الداء الدوي والشر المستطير.

ثم زاد سبحانه في ذمهم وتوبيخهم وعجب من حالهم، فقال: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: لعنهم الله وطردهم من رحمته، فما أفظع حالهم وما أشدهم غفلة عن مآلهم. وهذا تعليم منه لعباده المؤمنين أن يلعنوهم. فكأنه قال: قولوا: قاتلهم الله. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل؟ وقد كان لهم مدكر فيما حولهم وفيما أمامهم من صدق الداعي بما أتى به من البينات الدالة على أنه مرسل من ربه. وإن تعجب من شيء.. فاعجب من جهالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق، فما أعظمها محنة وأعجب بهم نقمة، جازاهم الله بها على سوء

---

(١) المراغي.

أعمالهم وقبح فعالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عند ظهور جناياتهم بطريق النصيحة؛ أي: قال لهم واحد من المؤمنين: قد نزل فيكم ما نزل فتوبوا إلى الله ورسوله و﴿تَعَالَوْاْ﴾ وأقبلوا إلى رسول الله - ﷺ - ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ - ﷺ -، بالجزم. جواب الأمر. أي: يدع الله لكم ويطلب منه أن يغفر بلطفه ذنوبكم، ويستر عيوبكم. وهو من إعمال الثاني. لأن ﴿تَعَالَوْاْ﴾ يطلب رسول الله مجروراً بـ إلى؛ أي: تعالوا إلى رسول الله، و﴿يَسْتَغْفِرْ﴾: يطلب، فاعلاً، فأعمل الثاني، ولذلك رفعه وحذف من الأول، إذ التقدير: تعالوا إليه. ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾؛ أي: حركوها استهزاء لذلك، وأمالوها وعطفوها رغبة عن الاستغفار.

وقرأ مجاهد ونافع[1]، وأهل المدينة وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والمفضل، وأبان عن عاصم، والحسن ويعقوب بخلاف عنهما: ﴿لووا﴾ بفتح الواو مخففاً. وقرأ أبو جعفر، والأعمش، وطلحة، وعيسى، وأبو رجاء، والأعرج، وباقي السبعة بشدها للتكثير، واختار هذه القراءة أبو عبيد.

﴿ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ من الصدود بمعنى الإعراض؛ أي: يعرضون عن القائل، أو عن الاستغفار. وجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ حال من ضمير الغائبين؛ لأن الرؤية بصرية، وأتت بالمضارع ليدل على استمرارهم. ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن ذلك؛ لغلبة الشيطنة، واستيلاء القوة الوهمية، واحتجابهم بالأنانية وتصور الخيرية. وفي الحديث: «إذا رأيت الرجل لجوجاً معجباً برأيه.. فقد تمت خسارته». والجملة أيضاً حال من فاعل الحالة الأولى، والمعنى: ورأيتهم صادين مستكبرين.

ومعنى الآية: أي وإذا قيل[2] لجماعة المنافقين، كعبد الله بن أبيّ: هلموا إلى رسول الله - ﷺ - يطلب لكم من ربكم غفران ذنوبكم.. صدوا وأعرضوا. قال الكلبي: لما نزل القرآن بصفة المنافقين.. مشى إليهم عشائرهم من المؤمنين وقالوا لهم: ويلكم افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم، فأتوا رسول الله - ﷺ - وتوبوا إليه من النفاق واسألوه أن يغفر لكم، فأبوا ذلك وزهدوا في الاستغفار، فنزلت الآية.

وقال ابن عباس: لما رجع عبد الله بن أبيّ من أحد بكثير من الناس، مقته

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

المسلمون وعنفوه وأسمعوه ما يكره، فقال له بنو أبيه: لو أتيت رسول الله - ﷺ - حتى يستغفر لك ويرضى عنك؟ قال: لا أذهب إليه ولا أريد أن يستغفر لي، وجعل يلوي رأسه، فنزلت.

ثم أيأسهم من جدوى الاستغفار لهم، فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ يا محمد كما[1] إذا جاؤوك معتذرين من جناياتهم. وفي «كشف الأسرار»: كان - ﷺ - يستغفر لهم على معنى سؤاله لهم بتوفيق الإيمان ومغفرة العصيان. و﴿سَوَآءٌ﴾ اسم بمعنى مستو، خبر مقدم، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، وما بعده من المعطوف عليه والمعطوف مبتدأ بتأويل المصدر لإخراج الاستفهام عن مقامه. فالهمزة في ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾ للاستفهام، ولذا فتحت وقطعت، والأصل: ﴿أاستغفرت﴾ فحذفت همزة الوصل التي هي همزة الاستفعال للتخفيف ولعدم اللبس. ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ كما إذا أصروا على قبائحهم واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار؛ أي: استغفارك لهم وعدمه سيان لا ينفعهم ذلك، لإصرارهم على النفاق واستمرارهم على الكفر.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾ بهمزة التسوية التي أصلها همزة الاستفهام وطرح ألف الوصل. وقرأ أبو جعفر بمدة على الهمزة، قيل: هي عوض من همزة الوصل، وهي مثل المدة في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ لكن هذه المدة في الاسم لئلا يلتبس الاستفهام بالخبر، ولا يحتاج إلى ذلك في الفعل؛ لأن همزة الوصل فيه مكسورة. وعن أبي جعفر أيضاً ضم ميم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إذ أصلها الضم ووصل الهمزة. وروى معاذ بن معاذ العنبري عن أبي عمرو كسر الميم على أصل التقاء الساكنين ووصل الهمزة، فتسقط في القراءتين، واللفظ خبر، والمعنى على الاستفهام، والمراد: التسوية. وجاز حذف الهمزة لدلالة ﴿أمْ﴾ عليها، كما دلت على حذفها في قوله:

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

يريد أبسبع.

﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أبداً؛ لإصرارهم على الفسق، ورسوخهم في الكفر، وخروجهم عن دين الفطرة القيم؛ لأن الله كتب عليهم الشقاء بما كسبت أيديهم وبما اجترحت من الفسوق والعصيان، وبما ران على قلوبهم من الجحود والطغيان.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: الكاملين في الفسق، الخارجين عن دائرة الاستصلاح، المنهمكين في الكفر والنفاق، أو الخارجين من دائرة المحقين الداخلين في دائرة الباطلين المبطلين؛ لأن الله لا يهدي من أحاطت به خطيئته، فلم تجد الهداية إلى قلبه سبيلاً تسلكه، ولا المواعظ والنصائح متسعاً في فؤاده، فأنى للقلب أن يهتدي وللعقل أن يرعوي؟ وماذا تفيد الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون؟

ثم ذكر هنة أخرى لهم، فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾؛ أي: للأنصار، وهو استئناف جار مجرى التعليل لفسقهم أو لعدم مغفرته تعالى لهم، وهو حكاية نص كلامهم. ﴿لَا تُنفِقُوا۟﴾؛ أي: لا تعطوا النفقة التي يتعيش بها ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعنون: فقراء المهاجرين. وقولهم: ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، إما للهزء والتهكم، أو لكونه كاللقب له - ﷺ - واشتهاره به، فلو كانوا مقرين برسالته.. لما صدر عنهم ما صدر. ويجوز أن ينطقوا بغيره، لكن الله تعالى عبر به إكراماً له وإجلالاً. ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾؛ أي: يتفرقوا عنه ويرجعوا إلى قبائلهم وعشائرهم. وهذا إشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه. وإنما قالوه لاحتجابهم بأفعالهم عن رؤية فعل الله وبما في أيديهم عما في خزائن الله، فيتوهمون الإنفاق منهم لجهلهم؛ أي: هم الذين يقولون للأنصار: لا تطعموا محمداً وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة فيتركوا نبيهم حين يعضّهم الجوع بنابه.

ثم رد عليهم وخطأهم فيما يقولون، فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولله جميع ما في السماوات والأرض من شيء، وبيده مفاتيح أرزاق العباد، لا يقدر أحد أن يعطي أحداً شيئاً إلاّ بمشيئته.

وهذا رد[1] وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدي إلى انفضاض الفقراء من حوله - ﷺ -، ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله خاصة، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء. ومن تلك الخزائن المطر والنبات. قال الراغب: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة منه إلى قدرته تعالى على ما يريد إيجاده، أو إلى الحالة التي أشير إليها بقوله - ﷺ -: «فرغ ربكم من الخلق والأجل والرزق». والمراد من

---

(١) روح البيان.

الفراغ: إتمام القضاء، فهو مذكور بطريق التمثيل. يعني: أتم قضاء هذه الكليات في علمه السابق. والخزائن: جمع خزانة، وهي: ما يخزن فيه الأموال النفيسة ويحفظ، كما سيأتي.

قرأ الجمهور[1]: ﴿يَنفَضُّواْ﴾ من الانفضاض، وهو التفرق. وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي: ﴿يُنْفِضُوا﴾ من أنفض القوم إذا فنيت أزوادهم، يقال: نَفَضَ الرجل وعاءه من الزاد فأَنْفَضَ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك؛ لجهلهم بالله وبشؤونه، ولذلك يقولون من مقالات الكفر ما يقولون، ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عز وجل، وأنه الباسط القابض المعطي المانع، لجهلهم بسنن الله في خلقه، وأن الله قد كفل الأرزاق لعباده في أي مكان كانوا، متى عملوا وجدوا في الحصول عليها.

ثم ذكر هنة ثالثة لهم، وهي أعظمها، فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول المنافقون ـ عبد الله بن أبيّ وأصحابه ـ: والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ والمراد: رجوعهم من غزوة بني المصطلق، كما مر. وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل واحداً من أفرادهم، وهو عبد الله بن أبيّ لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون. ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ يريد أنفسهم ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من المدينة ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾ يريد النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه. ثم رد الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه لا لغيره ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾ والقدرة التامة والغلبة والقوة ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم، كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من المنافقين والكافرين؛ أي: فالعزة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عباده لا لغيرهم.

قال الواسطي ـ رحمه الله تعالى ـ[2]: عزة الله: أن لا يكون شيء إلا بمشيئته وإرادته، وعزة المرسلين: أنهم آمنون من زوال الإيمان، وعزة المؤمنين: أنهم آمنون من دوام العقوبة. وقال عزة الله: العظمة والقدرة، وعزة الرسول: النبوة والشفاعة، وعزة المؤمنين: التواضع والسخاء والعبودية. دل عليه قوله ـ ﷺ ـ: «أنا سيد ولد

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

آدم ولا فخر»؛ أي: لا أفتخر بالسيادة، بل افتخر بالعبودية، وفيها عزتي، إذ لا عزة إلا في طاعة الله ولا ذل إلا في معصية الله. وقال بعضهم: عزة الله: قهره من دونه، وعزة رسوله: بظهور دينه على سائر الأديان كلها، وعزة المؤمنين: استذلالهم اليهود والنصارى، كما قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وقيل: عزة الله: الولاية، لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾، وعزة رسوله: الكفاية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾، وعزة المؤمنين: الرفعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

يقول الفقير: أشار تعالى بالترتيب إلى أن العزة له بالأصالة والدوام، وصار الرسول مظهراً له في تلك العزة، ثم صار المؤمنون مظاهر له - ﷺ - فيها. فعزة الرسول بواسطة عزة الله وعزة المؤمنين بواسطة الرسول، سواء أعاصروه - ﷺ - أم أتوا بعده، إلى قيام الساعة. وجميع العزة لله، لأن عزة الله له تعالى صفة، وعزة الرسول وعزة المؤمنين فعلاً ومنةً وفضلاً. كما قال القشيري - رحمه الله تعالى -: العز الذي للرسول وللمؤمنين هو لله تعالى خلقاً وملكاً، وعزه سبحانه له وصفاً، فإذا العزة كلها لله. وبهذا يجمع بين قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن أدب مَنْ عرف أنه تعالى هو العزيز: أن لا يعتقد لمخلوق إجلالاً؛ ولهذا قال - ﷺ -: «من تواضع لغني لأجل غناه.. ذهب ثلثا دِينه». قال أبو علي الدقاق - رحمه الله -: إنما قال: «ثلثا دينه» لأن التواضع يكون بثلاثة أشياء: بلسانه، وبدنه، وقلبه. فإذا تواضع له بلسانه وبدنه ولم يعتقد له العظمة بقلبه.. ذهب ثلثا دِينه، فإن اعتقدها بقلبه أيضاً.. ذهب كل دِينه. ولهذا قيل: إذا عظم الرب في القلب.. صغر الخلق في العين. ومتى عرفت أنه معز.. لم تطلب العز إلا منه، ولا يكون العز إلا في طاعته.

والمعنى[1]: أي يقول عبد الله بن أبيّ ومن يلوذ به من صحبه: لئن عدناإلى المدينة.. لنخرجنكم منها أيها المؤمنين، فإننا الأقوياء الأشداء الأعزاء وأنتم الضعفاء الأذلاء، فرد الله عليهم مقالهم، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛

---

(١) المراغي.

أي: ولله الغلبة والقوة ولمن أعزه الله من الرسول والمؤمنين.

روي: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي ـ وكان مؤمناً مخلصاً ـ سل سيفه على أبيه عندما أشرفوا على المدينة. وقال: لله علي أن لا أغمده حتى تقول محمد الأعز وأنا الأذل، فلم يبرح حتى قال ذلك.

وروي: أنه وقف واستل سيفه، وجعل الناس يمرون عليه حتى جاء أبوه، فقال: وراءك، قال: ما لك ويلك؟، قال: والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ـ ﷺ ـ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فرجع حتى لقي رسول الله ـ ﷺ ـ، وكان إنما يسير ساقه ـ في آخر الجيش ـ فشكا إليه ما صنع ابنه، فأرسل إليه النبي ـ ﷺ ـ أن خل عنه يدخل، ففعل. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم، فيهذون ما يهذون. أي: لا يعلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن العاقبة للمتقين، وأن الله ينصر من ينصره، كما قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾. وسننه تعالى لا تبديل فيها ولا تغيير، وهو لا بدّ جاعل عباده المؤمنين هم الأعزاء كما وعد وجعل مخالفيه هم الأذلاء، ولا دخل للمال والنشب، ولا للحسب والنسب في تلك القوة التي يمد بها من يشاء والنصرة التي يمنحها عباده المخلصين، وأن الله منجز وعده لنبيه كما أنجزه لمن قبله من رسله، وقد تم لهم الظفر على أعدائهم الضالين.

ولعل ختم[1] الآية الأولى بـ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾، والثانية بـ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ للتفنن المعتبر في البلاغة، مع أن في الأول بيان عدم كياستهم وفهمهم،وفي الثاني بيان حماقتهم وجهلهم. وفي «برهان القرآن»: الأول متصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفيه غموض يحتاج إلى فطنة، والمنافق لا فطنة له، والثاني متصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله معز أوليائه ومذل أعدائه.

وعبارة «فتح الرحمٰن»: ختم هنا بـ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وفيما مر بـ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾، لأن الأول متصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي معرفتها غموض

---

(١) روح البيان.

يحتاج إلى فطنة وفقه، فناسب نفي الفقه في الأول، والثاني متصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ وفي معرفتها غموض زائد يحتاج إلى علم، فناسب نفي العلم عنهم.

فالمعنى: لايعلمون أن الله معز أوليائه ومذل أعدائه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ بالبناء للفاعل، فالأعز فاعل والأذل مفعول. وقرأ الحسن وابن أبي عبلة: ﴿لَنُخرِجَنَّ﴾ بالنون، ونصب الأعز والأذل، فالأعز مفعول والأذل حال. وقرأ الحسن فيما ذكر أبو عمرو الداني ﴿لنَخرُجَنَّ﴾ بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء، ونصب الأعز على الاختصاص، كما قالوا: نحن العرب أقرى الناس للضيف. ونصب الأذل على الحال، وحكى هذه القراءة أبو حاتم، وحكى الكسائي والفراء: أن قوماً قرأوا: ﴿ليَخرُجَنَّ﴾ بالياء المفتوحة وضم الراء، فالفاعل: الأعز، ونصب الأذل على الحال. وقرىء مبنياً للمفعول وبالياء، الأعز مرفوع به، الأذل نصباً على الحال ومجيء الحال بصورة المعرفة متأول عند البصريين. فما كان منها بأل فعلى زيادتها، لا أنها معرفة.

ولما ذكر سبحانه وتعالى قبائح المنافقين.. رجع إلى خطاب المؤمنين، مرغباً لهم في ذكره فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله إيماناً صادقاً ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾؛ أي: لا تشغلكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾؛ أي: الاعتناء بها والتمتع بها ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: عن أداء فرائضه من الصلاة، والزكاة، والحج وسائر ما أوجبه عليكم. يقال: ألهاه الشيء، إذا شغله؛ أي: لا يشغلكم[2] الاهتمام بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكره تعالى من الصلاة وسائر العبادات المذكرة للمعبود. ففي ذكر الله مجاز، أطلق السبب وأريد المسبب.

قال بعضهم: الذكر بالقلب: خوف الله، وباللسان: قراءة القرآن، والتسبيح والتهليل، والتمجيد والتكبير، وتعلم علم الدين وتعليمه، وغيرها وبالأبدان: الصلاة وسائر الطاعات. **والمراد**: نهيهم عن التلهي بها؛ أي: عن ترك ذكر الله بسبب الاشتغال بها. وتوجيه النهي إليها للمبالغة بالتجوز بالسبب عن المسبب، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾. وقد ثبت أن المجاز أبلغ. وقال بعضهم: هو

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

كناية؛ لأن الانتقال من لا تلهكم إلى معنى قولنا: لا تلهوا.. انتقال من اللازم إلى الملزوم.

وقد كان المنافقون بخلاء بأموالهم؛ ولذا قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ومتعززين بأولادهم وعشائرهم، مشغولين بهم وبأموالهم عن الله، وطاعته وتعاون رسوله - ﷺ - فنهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم في ذلك. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: التلهي بالدنيا عن الدين، والاشتغال بما سواه عنه ولو في أقل حين. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الخسران، حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني. وفي الحديث: «ما طلعت الشمس إلا بجنبيها ملكان يناديان ويسمعان الخلائق غير الثقلين: يا أيها الناس! هلموا إلى ربكم، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

ومعنى الآية[1]: أي لا يشغلكم تدبير أموالكم والعناية بشؤون أولادكم عن القيام بحقوق ربكم وأداء فرائضه التي طلبها منكم، واجعلوا للدنيا حظاً من اهتمامكم وللآخرة مثله. وهذا ما عناه الحديث: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وبهذا امتازت الملة الحنيفية السمحة، فما طلب من المؤمنين أن يكونوا ماديين يتكالبون على جمع حطام الدنيا كما يفعل اليهود، ولا أن يكونوا روحانيين يجردون أنفسهم من لذات هذه الحياة ويتبتلون إلى ربهم كما يفعل المسيحيون، كما يرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾، وقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾. ثم توعد من يفعل ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: ومن تلّه بالدنيا وشغلته عن حقوق الله.. فقد باء بغضب من ربه وخسرت تجارته، إذ باع خالداً باقياً واشترى فانياً زائلاً، وكيف يرضى عاقل بمثل هذه التجارة الخاسرة.

ومن[2] أهم ما يقرب العبد من ربه ويجعله يفوز برضوانه: رحمة البائسين من عباده، وبذل المال في الوجوه التي فيها سعادة الأمة وإعلاء شأن الملة وانتشار

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

الدعوة، ومن ثم قال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾؛ أي: بعض ما أعطيناكم تفضلاً من غير أن يكون حصوله من جهتكم، ادخاراً للآخرة. **فالمراد**[1]: الإنفاق الواجب، نظراً إلى ظاهر الأمر، كما في «الكشاف»، ولعل التعميم أولى وأنسب بالمقام. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بأن يشاهد دلائله ويعاين أماراته ومخايله. وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بما تقدم والتشويق إلى ما تأخر ولم يقل: من قبل أن يأتيكم الموت فتقولوا، إشارة إلى أن الموت يأتيهم واحداً بعد واحد حتى يحيط بالكل. ﴿فَيَقُولَ﴾ عند تيقنه بحلوله: يا ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا ربي ويا مالك أمري ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾؛ أي: هلا أخرتني وأمهلتني، فـ﴿لَوْلَآ﴾ للتحضيض. وقيل: لا زائدة للتأكيد ولو للتمني؛ بمعنى: لو أخرتني؛ أي: هلا أمهلتني وأخرت موتي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وأمد قصير وساعة أخرى قليلة، وقال أبو الليث: يا سيدي! ردني إلى الدنيا وأبقني زماناً غير طويل. وفي «عين المعاني»: مثل ما أجلت لي في الدنيا. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾؛ أي: فأتصدق بمالي. وهو بقطع الهمزة؛ لأنها للتكلم وهمزته مقطوعة، وبتشديد الصاد؛ لأن أصله: أتصدق من التصدق، فأدغمت التاء في الصاد، وبالنصب؛ لأنه مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء في جواب التحضيض. أو التمني في قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾. ﴿وَأَكُن مِّنَ﴾ عبادك ﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ المراعين لحقوق الله وحقوق العباد، بالجزم عطفاً في محل ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، كأنه قيل: إن أخرتني أصدق وأكن من الصالحين. وفيه إشارة إلى أن التصدق من أسباب الصلاح والطاعة، كما أن تركه من أسباب الفساد والفسق.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ بإدغام التاء في الصاد، وانتصابه على أنه جواب التمني. وقرأ أبيّ، وابن مسعود، وسعيد بن جبير: ﴿فأتصدق﴾ بالتاء بدون إدغام على الأصل. وقرأ الجمهور السبعة: ﴿وَأَكُن﴾ بالجزم عطفاً على محل ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، كأنه قيل: إن أخرتني.. أصدق وأكن. وقرأ الحسن وابن جبير، وأبو رجاء، وابن أبي إسحاق، ومالك بن دينار، والأعمش، وابن محيصن وعبد الله بن الحسن العنبري، وأبو عمرو: ﴿وأكون﴾ بالنصب عطفاً على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ وكذا في مصحف عبد الله وأبي، ولكن قال أبو عبيد: رأيت في مصحف عثمان ﴿أكن﴾ بغير

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

واو، وقرأ عبيد بن عمير: ﴿وأكونُ﴾ بضم النون على الاستئناف؛ أي: وأنا أكون، وهو وعد الصلاح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من كان له مال تجب فيه الزكاة فلم يزكه، أو مال يبلغه إلى بيت الله فلم يحج.. يسأل عند الموت الرجعة.

فائدة: والفرق بين التصدق والهدية: أن التصدق للمحتاج بطريق الترحم والهدية للحبيب لأجل المودة. ولذا كان - ﷺ - يقبل الهدية لا الصدقة، فرضاً كانت أو نفلاً.

ومعنى الآية[1]: أي وأنفقوا بعض ما أعطيناكم من فضلنا من الأموال شكراً على النعمة ورحمة بالفقراء من عباده، وادخروا ذلك ليوم العرض والحساب فتجنوا ثمار ما عملتم، ولا تدخروه في صناديقكم لوارثكم فربما أضاعه فيما لا يكسبكم حمداً ولا مدحاً، بل يكسبكم ذماً وقدحاً. وقد جاء في الخبر: «أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»، وجاء أيضاً: «يا ابن آدم»! ليس لك من مالك إلا ما لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت، أو تصدقت فأبقيت». ولا تنتظروا حتى يحين وقت الاحتضار، وتروا الموت رأي العين، ثم تتمنون أن لو مد الله في الأجل وأطال العمر لتتداركوا ما فات وتحسنوا العمل وتساعدوا البائسين، وذوي الحاجة، فهيهات هيهات، فليس ذا وقت الندم:

نَدِمَ ٱلْبُغَاةُ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ   وَٱلْبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيهِ وَخِيمُ

فأنى للعمر أن يطول، وللحياة أن تزيد ولكل نفس أجل لا تعدوه، وعمر لا يزيد ولا ينقص، فماذا يفيد التمني، وماذا ينفع الندم والحسرة؟ وذلك ما عناه سبحانه بقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿نَفْسًا﴾؛ أي: لن يؤخر نفساً ولن يمهلها، مطيعة أو عاصية، صغيرة أو كبيرة ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾؛ أي: آخر عمرها، أو انتهى، إن أريد بالأجل الزمان الممتد من أول العمر إلى آخره. فعليكم أن تستعدوا قبل حلول الأجل، وهيئوا الزاد ليوم المعاد ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا

---

(١) المراغي.

هِيَةْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾. وفي هذا عبرة لمن اعتبر ولم يفرط في أداء الحقوق والواجبات. واستنبط[1] بعضهم عمر النبي - ﷺ - من هذه الآية، فالسورة رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده.

ثم حذرهم وأنذرهم بأنه رقيب عليهم في كل ما يأتون وما يذرون، فقال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء منه، فمجازيكم على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة إعراضاً عنكم وسخطاً وبعداً عن رضوانه. إنك لا تجني من الشوك العنب، فسارعوا في الخيرات، واستعدوا لما هو آت.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالفوقية، خطاباً للناس كلهم. وقرأ أبو بكر عن عامر، والسلمي بالتحتية، خص الكفار بالوعيد، ويحتمل العموم.

الإعراب

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه، ﴿جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿نَشْهَدُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَرَسُولُ اللَّهِ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿رسول الله﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب. لأن معنى ﴿نَشْهَدُ﴾: نحلف فهو جارٍ مجرى القسم. وعبّر عن الحلف بالشهادة؛ لأن كل واحد منهما إثبات لأمر معين. ﴿وَاللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية، ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية اعتراضية لاعتراضها بين قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وبين قوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَرَسُولُهُ﴾: خبره. ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ سادة مسد مفعولي ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾: ﴿الواو﴾:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

عاطفة، ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَشْهَدُ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿كاذبون﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم المعنوي لأن ﴿يَشْهَدُ﴾ بمعنى: يحلف، فيجري مجرى فعل القسم.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان كذبهم وحلفهم عليه. ﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾: مفعول به، ﴿جُنَّةً﴾: مفعول ثان، ﴿فَصَدُّواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿صدوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿صدوا﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿سَآءَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿سَآءَ﴾ فعل ماض بمعنى: قبح ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أنهم﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾: معطوف على آمنوا، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء السببية؛ أي: بسبب إيمانهم ثمَّ كُفرهم. ﴿فَطُبِعَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿طبع﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿طبع﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل، ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿تُعْجِبُكَ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، ﴿أَجْسَامُهُمْ﴾: فاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿يَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إنْ﴾، ﴿تَسْمَعْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها ﴿لِقَوْلِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تَسْمَعْ﴾، وجملة

﴿إنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾: حرف نصب وتشبيه واسمه، ﴿خُشُبٌ﴾: خبره، ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾: صفة ﴿خُشُبٌ﴾، وجملة ﴿كأن﴾ مستأنفة، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم مشبهون بخشب مسندة، أو حال من الضمير في ﴿قولهم﴾، ﴿يَحْسَبُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبوت النون، ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾: مفعول أول لـ﴿حسب﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور في موضع المفعول الثاني لـ﴿حسب﴾؛ أي: كائنة عليهم. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم عدو لك وأردت بيان ماهو الأصلح لك.. فأقول لك: احذرهم. ﴿احذر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، و﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة جملة دعائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أَنَّى﴾: اسم استفهام بمعنى: كيف في محل النصب على الحال، مبني على السكون، ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها. وإن شئت قلت: ﴿تَعَالَوْا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿يَسْتَغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: فاعل. و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: تنازع فيه كل من ﴿تَعَالَوْا﴾، و﴿يَسْتَغْفِرْ﴾؛ لأن ﴿تَعَالَوْا﴾ يطلبه مجروراً بإلى، و﴿يَسْتَغْفِرْ﴾ يطلبه فاعلاً؛ أي: تعالوا إلى رسول الله،

يستغفر لكم رسول الله. ﴿لَوَّوْا﴾: فعل ماض، وفاعل، ﴿رُءُوسَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿ورَأَيْتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿لَوَّوْا﴾. والرؤية بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿رأيتهم﴾، وجملة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل النصب حال من الواو في ﴿يَصُدُّونَ﴾.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَوَآءٌ﴾: خبر مقدم، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾: ﴿الهمزة﴾: حرف تسوية وسبك واستفهام، ﴿أستغفرت﴾: فعل وفاعل، وقد استغني بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أستغفرت﴾، والجملة الفعلية مع همزة التسوية في تأويل مصدر مرفوع، على أنه مبتدأ مؤخر، والتقدير: وسواء عليهم استغفارك لهم وعدمه. والجملة مستأنفة. ﴿أَمْ﴾: هي المعادلة لهمزة التسوية، وهي حرف عطف، ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَسْتَغْفِرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أستغفرت﴾؛ أي: استغفارك لهم وعدم استغفارك لهم سيان. ﴿لَن﴾: حرف نفي ونصب واستقبال. ﴿يَغْفِرَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل منصوب بـ﴿لَن﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿يَقُولُونَ﴾: صلة الموصول، ﴿لَا تُنفِقُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُنفِقُوا۟﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿عَلَىٰ مَنْ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يَنفَضُّوا۟﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن المضمرة وجوباً بعد

حتى الجارة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى اللام، والجار والمجرور متعلق بـ﴿لَا تُنفِقُوا﴾؛ أي: لا تنفقوا عليهم لأجل انفضاضهم. ﴿وَلِلَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لله﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَقُولُونَ﴾، ولكنها حالة سببية؛ أي: قالوا ما ذُكر، والحال: أن الرزق بيده تعالى. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: اسمه، وجملة ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على الجملة الاسمية قبلها.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ⑧﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف بعاطف مقدر على ﴿يَقُولُونَ﴾ الأول؛ لأن سبب القولين وقائلهما واحد. ﴿لَئِن﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿رَّجَعْنَآ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾: متعلق بـ﴿رَّجَعْنَآ﴾، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، تقديره: إن رجعنا إلى المدينة.. يخرج الأعز منها الأذل، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه. ﴿لَيُخْرِجَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى ﴿يخرجن﴾ فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ﴿ٱلْأَعَزُّ﴾: فاعل، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يخرجن﴾، ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾: مفعول به. والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿وَلِلَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لله﴾ خبر مقدم: ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفان على ﴿لله﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل لـ﴿يَقُولُونَ﴾، كما مر نظيره آنفاً؛ أي: قالوا ما ذُكر، والحال: أن كل من له نوع بصيرة يعلم أن العزة لله... إلخ. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن المنافقين﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ⑨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من أي، وجملة النداء مستأنفة. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُلْهِكُمْ﴾: فعل مضارع، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والكاف مفعول به، ﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾: فاعل، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُلْهِكُمْ﴾، ﴿وَمَن يَفْعَلْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يَفْعَلْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعول به، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواب شرط لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة النهي.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَأَنفِقُوا۟﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أنفقوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿مِن مَّا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة أيضاً على جملة النهي، على كونها جواب النداء، ﴿رَزَقْنَٰكُم﴾: فعل، وفاعل ومفعول به، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة والعائد محذوف تقديره: رزقناكموه، ﴿مِّن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿أنفقوا﴾ أو متعلق بـ﴿أنفقوا﴾، ﴿أَن﴾: حرف مصدر ونصب ﴿يَأْتِىَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، ﴿أَحَدَكُمُ﴾: مفعول به، ﴿ٱلْمَوْتُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: أنفقوا من قبل إتيان الموت أحدكم. ﴿فَيَقُولَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يقول﴾: فعل مضارع معطوف على يأتي، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أَحَدَكُمُ﴾، ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء للتخفيف، وياء الإضافة اجتزاء عنها بالكسرة، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾. ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض، أو ﴿لو﴾: حرف تمن، و﴿لا﴾ زائدة كما مر، ﴿أَخَّرْتَنِىٓ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ونون وقاية، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: متعلق به، ﴿قَرِيبٍ﴾: صفة ﴿أَجَلٍ﴾، والجملة التحضيضية في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾ على كونه جواب النداء،

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أصدق﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب التحضيض أو التمني، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنا، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى؛ تقديره: لولا تأخيرك إياي إلى أجل قريب فتصدقي. ﴿وَأَكُن﴾: على قراءة الجزم: مجزوم بالعطف على محل قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾؛ لأنه في تقدير: إن أخرتني.. أصدق وأكن من الصالحين. وعلى قراءة النصب: معطوف على لفظ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾. وعلى قراءة الرفع: فعلى الاستئناف، كما مر جميع ذلك في مبحث القراءة. واسم ﴿أكن﴾ ضمير مستتر يعود على المتكلم ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: خبره.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على مقدر تقديره: فلا يؤخر هذا المتمني ولن يؤخر الله... إلخ. فكأنه عطف علة على معلول؛ أي: لا يؤخر هذا المتمني؛ لأن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها. ﴿يُؤَخِّرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، ﴿نَفْسًا﴾: مفعول به، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿يُؤَخِّرَ﴾، ﴿جَآءَ أَجَلُهَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها؛ أي: لا يؤخرها وقت مجيء أجلها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿خَبِيرٌۢ﴾: خبره، والجملة مستأنفة مسوقة للتهديد، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌۢ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: جمع منافق، اسم فاعل من نافق الرباعي، ينافق نفاقاً، والنفاق: إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب. فالمنافق: هو الذي يضمر الكفر اعتقاداً ويظهر الإيمان قولاً. وفي «المفردات»: النفاق: الدخول في الشرع من باب والخروج منه من باب آخر من النافقاء، إحدى حجرتي اليربوع والثعلب والضب، يكتمها ويظهر غيرها، فإذا أتي من قبل القاصعاء ـ وهو الذي يدخل منه ـ ضرب النافقاء برأسه فانتفق. والنفق: هو السرب في الأرض النافذ. ﴿نَشْهَدُ﴾ والشهادة: قول صادر عن علم حصل بشهادة بصر أو بصيرة. ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقال: صده عن الأمر صداً؛ أي: منعه وصرفه، وصد عنه صدوداً؛ أي:

أعرض. ﴿جُنَّةً﴾؛ أي: وقاية وترساً عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل والسبي. وأصل الجن: ستر الشيء عن الحاسة، يقال: جنه الليل، وأجنه، والجنان ـ بالفتح ـ: القلب لكونه مستوراً عن الحاسة، والمجن والجنة: الترس الذي يجن صاحبه، والجنة بالفتح: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض. ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ساء هذه هي الجارية مجرى بئس في إفادة الذم، ومع ذلك ففيها معنى التعجب وتعظيم أمرهم عند السامعين: كما في «أبي السعود».

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ من الطبع، والطبع: أن يصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة وطبع الدراهم. وهو أعم من الختم وأخص من النقش، كما في «المفردات»؛ أي: ختم على قلوبهم كما يختم بالطابع على ما يراد حفظه حتى لا يؤخذ منه شيء. ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾؛ أي: لصباحتها وتناسب أعضائها، أصله من العجب، والشيء العجيب هو الذي يعظم في النفس أمره لغرابته. والتعجب: حيرة تعرض للنفس بواسطة ما يتعجب منه. ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ والخشب بضمتين: جمع خشبة، كأكم وأكمة، أو جمع خشب محركة، كأسد وأسد. وهو ما غلظ من العيدان. والإسناد: الإمالة، والتعبير بـ﴿مسندة﴾ للتكثير؛ فإن التسنيد تكثير الإسناد بكثرة المَحَالّ؛ أي: كأنها أسندت إلى مواضع. ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ والصيحة: رفع الصوت. وفي «القاموس»: الصيحة. الصوت بأقصى الطاقة. ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: من الأفك بفتح الهمزة، بمعنى الصرف عن الشيء؛ لأن الإفك بالكسر بمعنى الكذب. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ﴾: أصله تعاليوا، فأعل بالقلب والحذف، إلا أن واحد الماضي: تعالى، بإثبات الألف المقلوبة عن الياء المقلوبة عن الواو الواقعة رابعة، وواحد الأمر: تعال، بحذفها وقفاً وفتح اللام. وأصل معنى التعالي: الارتفاع، فإذا أمرت منه قلت: تعال وتعالوا، فتعالوا جمع أمر الحاضر في صورة الماضي، ومعناه: ارتفعوا، فيقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثر واتسع فيه حتى استعمل في كل داع يطلب المجيء في المفرد وغيره، لما فيه من حسن الأدب؛ أي: هلموا وأتوا. ومن الأدب أن لا يقال: تعال فلان، أو تعاليت يا فلان، أو أنا متعال، أو فلان متعال، بأي معنى أريد؛ لأنه مما اشتهر به الله سبحانه، فتعالى الله الملك الحق علواً كبيراً.

﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ يقال: لوى الرجل رأسه، أماله، والتشديد للتكثير لكثرة

المَحالّ، وهي الرؤوس. وأصله: لويوا، بوزن فعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لالتقائها ساكنة بواو الجماعة. ﴿ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾؛ أي: يعرضون، من الصدود بمعنى الإعراض. أصله: يصددون، بوزن يفعلون، نقلت حركة الدال الأولى إلى الصاد فسكنت فأدغمت في الدال الثانية.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ وسواء: اسم بمعنى مستو، والهمزة فيه مبدلة من ياء. وقوله: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾: حذفت منه همزة الوصل للاستغناء عنها بهمزة الاستفهام. ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والخزائن: جمع خزانة - بالكسر - كعصائب وعصابة، وهي ما يخزن فيه الأموال النفيسة وتحفظ، وكذا المخزن - بالفتح - وقد سبق البسط فيه في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾. ﴿ٱلْأَعَزُّ﴾: اسم تفضيل على وزن أفعل، وأصله: الأعزز، نقلت حركة الزاي الأولى إلى العين فسكنت فأدغمت في الثانية. ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾: كذلك أيضاً صيغة تفضيل، أصله: الأذلل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الذال، فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ في «الصحاح»: لهت عن الشيء - بالكسر - ألهى لهياً ولهياناً، إذا سلوت وتركت ذكره وأضربت عنه. وفي «القاموس»: لها كدعا، وسلا، وغفل، وترك ذكره، كتلهى وألهاه شغله، ولهوت بالشيء - بالفتح - ألهو لهواً إذا لعبت به. ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ أصله: فأتصدق، أبدلت التاء صاداً وأدغمت في الصاد. ﴿وَأَكُن﴾ قرىء: ﴿وأكون﴾ بالنصب، وهو معطوف على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ لفظاً، لأن ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ منصوب بإضمار ﴿أن﴾ لوقوعه في جواب التمني؛ لأن ﴿لَوْلَآ﴾ هنا معناها التمني، وقرىء: ﴿وَأَكُن﴾ بالجزم، وهو معطوف على موضع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، لأن موضعه قبل دخول الفاء الجزم؛ لأنه جواب التمني، وجواب التمني إذا كان بغير فاء، ولا واو.. حكمه الجزم؛ لأنه غير واجب، ففيه مشابهة للشرط وجوابه، ولذلك يجزم كما يجزم جواب الشرط؛ لأنه غير واجب، إذ يجوز أن يقع ويجوز أن لا يقع.

فالمعنى على هذا: إن أخرتني.. أصدق وأكن. انظر «الكشف عن وجوه القراءات وعللها» لمكي بن أبي طالب (ج/٢ - ص/٣٢٣) ولكن في قوله: إن ﴿لولا﴾ هنا معناها التمني، فيه نظر، والذي يظهر: أن معناها التحضيض؛ كما مرّ.

قلت: وهذا مما يسميه النحاة عطف التوهم، فكأن المتكلم توهم أن الفاء لم

تدخل فجزم الفعل على الأصل، وأصله: وأكون، فلما جزم الفعل.. صار أكون، فاجتمع ساكنان فحذفت الواو، حكاه سيبويه عن الخليل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تأكيد المنافقين كلامهم بـ﴿إنَّ﴾، و﴿اللام﴾: في قوله: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للإيذان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوص اعتقادهم كما مر.

ومنها: التأكيد بالقسم، و﴿إنَّ﴾ و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

ومنها: الجملة الاعتراضية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾. جاءت معترضة بين الشرط وجوابه؛ لبيان أنهم ما قالوا ذلك عن اعتقاد، ولدفع توهم تكذيبهم في دعواهم الشهادة بالرسالة. والأصل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾. فجاءت الجملة الاعتراضية تقريراً لمنطوق كلامهم لكونه مطابقاً للواقع.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ لغرض ذمهم والإشعار بعلية الحكم، وكان الظاهر أن يقال: إنهم لكاذبون، لسبق المرجع.

ومنها: إطلاق الشهادة التي هي الإخبار عن حق على زورهم مجازاً، كإطلاق البيع على الفاسد.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾، لأن اليمين حقيقة في الجارحة، فاستعير للحلف اعتباراً بما يفعله المحالف عنده من المصافحة.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿جُنَّةً﴾، لأن الجنّة حقيقة فيما يستتر به ويتقى به من المحذور كالترس، ثم استعير لما يجعلونه وقاية لدمائهم

وأموالهم من إظهار الإسلام.

ومنها: الطباق بين ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وبين ﴿الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل التمثيلي في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ فالمشبه: هم، أي: رؤوساء المنافقين من المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ـ ﷺ ـ، ويستندون فيه إلى الجدر، وكان النبي ومن حضر يتعجبون من هياكلهم المنصوبة. والمشبه به هو: الخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط. ووجه الشبه: كون الجانبين أشباحاً خالية عن العلم والنظر، على حدّ قول حسان ـ رضي الله عنه ـ:

لاَ بَأْسَ بِٱلْقَوْمِ مِنْ طُوْلٍ وَمِنْ عِظَمٍ   جِسْمُ ٱلْبِغَالِ وَأَحْلاَمُ ٱلْعَصَافِيرِ

ومنها: التشبيه التمثيلي أيضاً في قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: إنهم لجبنهم وهلع نفوسهم واضطراب قلوبهم إذا نادى مناد في المعسكر، أو انفلتت دابة، أو نشدت ضالّة.. وجفت قلوبهم وزايلهم رشدهم، وحسبوا أن هناك شراً يتربص بهم وكيداً ينتظر الإيقاع بأرواحهم. وقد رمق الأخطل سماء هذا المعنى، فقال:

مَا زِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ   خَيْلاً تَكِرُّ عَلَيْهِمُ وَرِجَالاً

يقول الأخطل: لا زلت يا جرير تظن كل شيء بعد خذلان قومك خيلاً تكر؛ أي: ترجع بسرعة عليهم لكثرة ما يساورك من الخوف. وغلا المتنبي في هذا المعنى، فقال:

وَضَاقَتِ ٱلأَرْضُ حَتَّىٰ صَارَ هَارِبُهُمْ   إِذَا رَأَىٰ غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلاً

ويمكن أن يقال: إن وجه الشبه هو عزوب أحلامهم وفراغ قلوبهم من الإيمان. ولم يكتف بالتشبيه بالخشب بل جعلها مسندة إلى الحائط لعدم الانتفاع بها، لأنها إذا كانت في سقف أو مكان.. ينتفع بها.

ومنها: أسلوب التجريد في قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ كقراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿ومن كفر فأمتعه يا قادر﴾.

ومنها: إيراد اللعنة في صورة الإخبار مع أنه إنشاء معنى في قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ

﴿ٱللَّهِ﴾ للدلالة على وقوعه وتحققه.

منها: طباق السلب في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

ومنها: القول بالموجب في قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، لأن حقيقة القول بالموجب: رد الخصم كلام خصمه من فحوى كلامه، فإن موجب قول المنافقين الآنف ذكره في الآية: إخراج الرسول المنافقين من المدينة، وقد كان ذلك، ألا ترى أن الله تعالى قال على إثر ذلك: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ومن أمثلته قول ابن الحجاج البغدادي:

قُلْتُ ثَقَّلْتُ إذْ أَتَيْتُ مِرَاراً   قَالَ ثَقَّلْتَ كَاهِلِيْ بِالأَيَادِي

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ﴾؛ لأن الانتقال فيه من ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ إلى معنى قولنا: لا تلهوا انتقال من اللازم إلى الملزوم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن المراد بالذكر فرائضه ومأموراته، حيث أطلق المسبب وأريد السبب.

ومنها: تقديم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ للاهتمام بما تقدم والتشويق إلى ما تأخر.

ومنها: العدول عن قول: من قبل أن يأتيكم الموت إلى قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ للإشارة إلى أن الموت يأتيهم واحداً بعد واحد حتى يحيط بالكل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ وصف المنافقين وبيان سيء خصالهم من الكذب والأيمان الفاجرة والجبن.

٢ ـ حث المؤمنين على الطاعة وإنفاق المال قبل انقضاء الأجل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة التغابن

سورة التغابن نزلت بعد التحريم، قال «البيضاوي»: سورة التغابن مختلف فيها. وهي[1] مدنية في قول الأكثرين، وقال الضحَّاك: هي مكية، وقال الكلبي: هي مدنية ومكية. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بمكة، إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله - ﷺ - جفاء أهله وولده، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ...﴾ إلى آخر السورة ثلاث آيات. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه.

وآيها: ثماني عشرة آية، وكلماتها: مئتان وإحدى وأربعون كلمة، وحروفها: ألف وسبعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها من ثلاثة أوجه[2]:

١ - أنه في السورة قبلها ذكر حال المنافقين وخاطب بعد ذلك المؤمنين، وهنا قسم الناس قسمين: مؤمناً وكافراً.

٢ - نهى هناك عن الاشتغال بالأولاد عن ذِكر الله، وهنا ذكر أن الأموال والأولاد فتنة.

٣ - في السورة السابقة حث على الإنفاق في سبيل الله، وفي ذكر التغابن حث عليه أيضاً.

وقال أبو حيان[3]: مناسبة هذه السورة لما قبلها: أن ما قبلها مشتمل على

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

حال المنافقين، وفي آخرها خطاب المؤمنين، فأتبعه بما يناسبه من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾. وهذا تقسيم في الإيمان والكفر بالنظر إلى الاكتساب عند جماعة من المتأولين لقوله - ﷺ -: «كل مولود يولد على الفطرة»، وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ انتهى.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله، محمد بن حزم: سورة التغابن ليس فيها منسوخ وفيها ناسخ، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ...﴾ الآية (١٦) نسخ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، لمَّا اشتكى المسلمون من ذلك.

تسميتها: سميت بلفظ التغابن لِذِكره فيها.

ومن فضائلها: ما أخرجه البخاري في «تاريخه» عن عبد بن عمرو قال: ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن. ومنها: ما روي عن النبي - ﷺ -: «من قرأ سورة التغابن.. دفع عنه موت الفجأة».

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان مناسبة أول هذه السورة لآخر السابقة. وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه لما[1] بسط الأدلة على عظيم قدرته وواسع علمه، وأنه خلق السماوات والأرض

---

(١) المراغي.

وأنه صورهم فأحسن صورهم، وأنه يعلم السر والنجوى.. حذر المشركين من كفار مكة على تماديهم في الكفر والجحود بآياته وإنكار رسالة نبيه محمد - ﷺ -، وبين لهم عاقبة ما يحل بهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وضرب لهم الأمثال بالأمم المكذبة من قبلهم، فقد كذبوا رسلهم وتمادوا في عنادهم وقالوا: أيرسل الله من البشر رسلاً؟ فحلت بهم نقمة ربهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأصبحت ديارهم خراباً يباساً، كأن لم يغنوا بالأمس، فهلا يكون ذلك عبرة لهم فيثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا إلى ربهم لو كانوا من أرباب النهى؟

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف إنكار المشركين للألوهية ثم إنكارهم للنبوة بقولهم: أبشر يهدوننا، ثم أعقبه بأنهم سيلقون الوبال والنكال جزاء ما فعلوا.. أردف ذلك بذكر إنكارهم للبعث، ثم إثبات تحققه، وأنه كائن لا محالة، وأن كل أمرىء سيجازى بما فعل يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد حين يغبن الكفار في شرائهم؛ لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، ويفوز المؤمنون في تجارتهم بالصفقة الرابحة، لأن الله اشترى منهم أموالهم وأنفسهم بالجنة فضلاًمنه ورحمة.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] ذكر فيما سلف أن الناس قسمان: كافر بالله مكذب لرسله لا يألو جهداً في إيصال الأذى بهم، ومؤمن بالله مصدق لرسله، وهو يعمل الصالحات.. أردف ذلك ببيان أن ما يصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره بحسب النظم التي وضعها في الكون، فعلى الإنسان أن يجد ويعمل ثم لا يبالي بعد ذلك بما يأتي به القضاء؛ لعلمه بأن ما فوق ذلك ليس في طاقته ولن يهوله أمره ولن يحزن عليه. ثم أمر بعد ذلك بطاعة الله وطاعة الرسول، وأبان أن تولي الكافرين عن الرسول لن يضيره شيئاً فإنه قد أدى رسالته، وما على الرسول إلا البلاغ، وأن على المؤمن أن يتوكل على الله وحده، وهو يكفيه شر ما أهمه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ...﴾ إلى آخر

---

(١) المراغي.

السورة. مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، وذكر أن المؤمن ينبغي له أن يتوكل على الله تعالى ولا يعتمد إلا عليه.. ذكر هنا أن من الأولاد والزوجات أعداء لآبائهم وأزواجهم، يثبطونهم عن الطاعة ويصدونهم عن تلبية الدعوة لما فيه رفعة شأن الدين وإعلاء كلمته، فعليكم أن تحذروهم ولا تتعبوا أهواءهم حتى لا تكونوا إخوان الشياطين يزينون لكم المعاصي، ويصدونكم عن الطاعة. ثم أردف هذا ببيان أن الإنسان مفتون بماله وولده، فإنه ربما عصى الله تعالى بسببهما فغصب المال أو غيره لأجلهما، فعليه أن يتقي الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ولينفق ذو سعة من سعته، فمن جاد بماله ووقى نفسه الشحّ.. فهو الفائز بخيري الدنيا والآخرة، ومن أقرض الله سبحانه قرضاً حسناً.. فالله يضاعف له الحسنة بعشرة أضعافها إلى سبع مئة ضعف، وهو عالم بما يغيب عن الإنسان وما يشاهد له، وهو العزيز الحكيم في تدبير شؤون عباده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه الترمذي والحاكم، وصححاه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ...﴾ الآية. في قوم من أهل مكة أسلموا فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا المدينة، فلما قدموا على رسول الله ـ ﷺ ـ.. رأوا الناس قد فقهوا، فهمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلها بمكة، إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ...﴾ نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزو.. بكوا إليه ووقفوه، فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق ويقيم. فنزلت هذه الآية وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ سبحانه ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: جميع ما فيهن من الروحانيات ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وجميع ما فيها من الجسمانيات؛ أي: ينزهه سبحانه جميع ما فيهما من المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه وعظمته، تنزيهاً مستمراً، إما بلسان المقال؛ كأن يقول: سبحان الله وبحمده، وإما بلسان الحال، وهو: الدلالة على وجوده وقدرته. ﴿لَهُ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ الدائم الذي لا يزول ولا يحول. والملك: كمال القدرة ونفاذ التصرف. ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه لا لغيره ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ الحقيقي؛ لأنه الصانع المختار؛ أي[1]: له حمد الحامدين، وهو: الثناء بذكر الأوصاف الجميلة والأفعال الجزيلة. وتقديم الجار والمجرور لدلالة على تأكيد الاختصاص، وإزاحة للشبهة بالكلية، فإن اللام مشعر بأصل الاختصاص، قدم أو أخّر؛ أي: له الملك وله الحمد لا لغيره، إذ هو المبدىء لكل شيء، وهو القائم به، والمهيمن عليه المتصرف فيه كيف يشاء، وهو المولي لأصول النعم وفروعها، ولولا أنه أنعم بها على عباده لما قدر أحد على أدنى شيء، فالمؤمنون يحمدونه على نعمه، وله الحمد في الأولى والآخرة. وأما ملك غيره فاسترعاء من جنابه، وتسليط منه، وحمد غيره اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده، فللبشر ملك وحمد من حيث الصورة لا من حيث الحقيقة.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء عما أراد؛ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل سواء، فهو القادر على الإيجاد والإعدام والإسقام والإبراء، والإعزاز والإذلال، والتبييض والتسويد، ونحو ذلك من الأمور الغير المتناهية. قال بعضهم: قدرة الله تصلح للخلق، وقدرة العبد تصلح

---

(١) روح البيان.

ح للكسب، فالعبد لا يوصف بالقدرة على الخلق، والحق لا يوصف بالقدرة على الكسب، فمن عرف أنه تعالى قادر.. خشي من سطوات عقوبته عند مخالفته، وأمل لطائف نعمته ورحمته عند سؤال حاجته، لا بوسيلة طاعته بل بكرمه ومنته.

وكرر[1] ﴿مَا﴾ هنا وفي قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ تأكيداً وتعميماً للاختلاف، فناسب ذكر ما فيهما؛ لأن تسبيح ما في السماوات مخالف لتسبيح ما في الأرض، كثرة وقلة، ووقوعاً من حيوان وجماد، وأسرارنا مخالفة لعلانيتنا فناسب ذكر ﴿مَا﴾ فيهما. ولم يكررها في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لعدم اختلاف علمه تعالى، إذ علمه بما تحت الأرض كعلمه بما فوقها، وعلمه بما سيكون كعلمه بما كان، فناسب حذفها فيه.

والمعنى[2]: إن وجود ما في السماوات والأرض دال على تنزيه الله وكماله، وأن هذه المخلوقات مسخرة منقادة له، فهو المتصرف في جميع الكائنات والمحمود على جميع ما يخلق ويقدر؛ لأنه مصدر الخيرات ومفيض البركات، وهو على كل شيء قدير. فما أراد.. كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ.. لم يكن.

ثم ذكر بعض مقدوراته تعالى، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾؛ أي: هو الذي أوجدكم كما شاء على ما شاء؛ أي: خلقكم أيها الناس خلقاً بديعاً حاوياً لجميع مبادىء الكمالات العلمية والعملية. ثم قسم هذا المخلوق، فقال: ﴿فَمِنْكُمْ﴾؛ أي: فبعضكم، أو فبعض منكم ﴿كَافِرٌ﴾؛ أي: مختار للكفر كاسب به حسبما تقتضيه خلقته. ويندرج فيه المنافق؛ لأنه كافر مضمِر. وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتفرع عليها من سائر النعم. ﴿وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: مختار للإيمان كاسب له، ويندرج فيه مرتكب الكبيرة الغير التائب والمبتدع الذي لا تُفضي بدعته إلى الكفر.

وتقديم الكفر[3] عليه لأنه الأنسب بمقام التوبيخ والأغلب فيما بينهم، ولذا يقول الله سبحانه في موقف القيامة لآدم: «يا آدم أخرج بعث النار» يعني: ميز أهلها

---

(١) كشف ما يلتبس من القرآن.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

المبعوث إليها. قال: وما بعث النار ـ أي: عدده ـ؟ قال الله: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون. وفي التنزيل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. والإيمان أعظم شعب الشكر.

قال في «فتح الرحمٰن»: الكفر فعل الكافر، والإيمان فعل المؤمن، والكفر والإيمان اكتساب العبد؛ لقول النبي ـ ﷺ ـ: «كل مولود يولد على الفطرة» وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار، وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيئته. فالمؤمن بعد خلق الله إياه يختار الإيمان، لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه، والكافر بعد خلق الله إياه يختار الكفر؛ لأن الله تعالى قدر عليه ذلك وعلمه منه. وهذا طريق أهل السنة، انتهى.

ومعنى قوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾؛ أي[1]: فبعضكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ما تقتضيه فطرته، وبعضكم مختار للإيمان كاسب له بحسب ما تدعو إليه الفطرة، كما جاء في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانِه». وقد كانت الأدلة الكونية في الأنفس والآفاق كفيلة أن تردكم إلى الحق، فتختاروا الإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتبعهما من سائر النعم، ولكنكم ما فعلتم ذلك، بل تفرقتم شيعاً وجحدتم الخالق وكفرتم بأنعمه عليكم بعد أن أفصح الصبح لذي عينين.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مطلقاً ﴿بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بذلك، فاختاروا منه ما يجديكم من الإيمان والطاعة وإياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان؛ أي: وهو البصير بمن هو مستعد للهداية لصفاء نفسه وزكاء روحه، فيعطيه ما هوله أهل، ومن خبثت طويته وفسدت سجيته ودسّ نفسه بكبائر الذنوب والآثام.. سيجزى بما هو به حقيق من العذاب الأليم في جهنم ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر نعمة خلق الإنسان.. ذكر النعمة الشاملة بخلق العالم كله على أتم ما يكون من الحكمة والعدل، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أبدعهما وأوجدهما حال كون خلقهما متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمة البالغة المتضمنة

(١) المراغي.

لمنافع الدين والدنيا والمراد: السماوات السبع والأرضون السبع، كما يدل عليه التصريح في بعض المواضع، قال تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

فإن قلت[1]: ما وجه عدم ذكر العرش والكرسي في أمثال هذا الموضع مع عظم خلقهما؟

قلت: إنهما، وإن كانا من السماء لأن السماء هو الفَلك والفَلك جسم شفاف محيط بالعالم، وهما أوسع الأفلاك إحاطة إلا أن آثارهما غير ظاهرة مكشوفة، بخلاف السماوات والأرض وما بينهما، فإنهما أقرب إلى المخاطبين المكلفين ومعلوم حالها عندهم، ومكشوفة آثارها ومنفعتها؛ ولهذا قالوا: إن الشمس تنضج الفواكه والقمر يلونها والكواكب تعطيها الطعم؛ إلى غير ذلك مما لا يتناهى، على أن التغيرات فيها أظهر، فهي على عظم القدرة أدل. وقد قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، وأكثر هذه الشؤون في عالم الكون والفساد الذي هو عبارة عن السماوات والأرض.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ و﴿الفاء﴾ للتفسير؛ أي: صوركم أيها الناس أحسن تصوير وخلقكم في أحسن تقويم، حيث أودع فيكم من القوى، والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نيط به جميع الكمالات البارزة والكامنة، وزينكم بصفوة صفات مصنوعاته، وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته، وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته في هذه النشأة، فلكم جمال الصورة وأحسن الأشكال، ولذا لا يتمنى الإنسان أن تكون صورته على خلاف ما هو عليه لكون صورته أحسن من سائر الصور ومن حسن صورته: امتداد قامته، وانتصاب خلقته. ولا يقدح في حسنه كون بعض الصور قبيحاً بالنسبة إلى البعض الآخر منهم؛ لأن الحُسْن ـ وهو: الجمال في الخلق ـ والخلق على مراتب، فالإنسان يضم روحاً هو من عالم الأرواح وبدناً هو من عالم الأجسام. وأنشدوا:

وَتَــزْعُــمُ أَنَّــكَ جِــرْمٌ صَــغِــيْــرٌ   وَفِــيْــكَ ٱنْــطَــوَىٰ ٱلْــعَــالَــمُ ٱلْأَكْــبَــرُ

(١) روح البيان.

وقرأ الجمهور: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بضم الصاد. وزيد بن علي والأعمش، وأبو رزين بكسرها، والقياس الضم. والتصوير: التخطيط والتشكيل.

﴿وَإِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الله سبحانه وتعالى ﴿الْمَصِيرُ﴾؛ أي: الرجوع في النشأة الأخرى لا إلى غيره استقلالاً أو اشتراكاً، فأحسنوا سرائركم باستعمال تلك القوى والمشاعر فيما خلقن له، حتى يجازيكم بالإنعام لا بالانتقام، فكم من صورة حسناء تكون في العقبى شوهاء بقبح السريرة والسيرة، وكم من صورة قبيحة تكون حسناء بحسنهما. وقد ثبت أن ضرس الكافر يوم القيامة مثل جبل أحد، وأن غلظ جسده مسافة ثلاثة أيام، وأنه يسوء خلقه فتغلظ شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته. وأن أهل الحنة ضوء وجوههم كضوء القمر ليلة البدر أو على أحسن كوكب دري في السماء، وهم جرْد مرْد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين، فطوبى لأهل اللطافة، وويل لأهل الكثافة.

﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الأمور الكلية والجزئية، والأحوال الجلية والخفية، فلا تخفى عليه خافية من أمرها، وهو يدبرها بحسب علمه الواسع وقدرته الشاملة. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم خص بعض يعلمه عناية بأمره، إذ عليه الثواب والعقاب، فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ أي: ما تسرونه فيما بينكم وما تظهرونه من الأمور فاجعلوا أعمالكم ظاهرها وباطنها وفق ما يطلبه منكم الدين والشرع لتنالوا الفوز برضوان الله وجميل مثوبته.

والتصريح[1] به مع اندراجه فيما قبله لأنه الذي يدور عليه الجزاء، ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما. قال في «برهان القرآن»: إنما كرر ﴿مَا﴾ في أول السورة لاختلاف تسبيح أهل الأرض وأهل السماء في الكثرة والقلة والبعد والقرب من المعصية والطاعة، وكذلك اختلاف ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فإنهما ضدان، ولم يكرر ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأن الكل بالإضافة إلى علم الله جنس واحد،

---

(١) روح البيان.

لا يخفى عليه شيء، كما مر لك في أول السورة ذكره.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بتاء الخطاب وعبيد عن أبي عمرو وأبان عن عاصم بالياء.

ثم علل علمه بما ذكر بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: محيط علمه بجميع المضمرات المستكنة في صدور الناس بحيث لا تفارقها أصلاً، فكيف يخفى عليه ما يسرونه وما يعلنونه؟ لأنه تعالى محيط بجميع ما أضمره المرء في صدره واستكن في قلبه، فلا يخفى عليه ما يسر وما يعلن. وهذه الجملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم، وهي تعليلية كما مرّ آنفاً. وإنما قيل لها: ذات الصدور وصاحبتها لملابستها لها وكونها مخزونة فيها. ففي الآية ترق من الأظهر إلى الأخفى؛ لأنه عالم بما في السماوات وما في الأرض وبما يصدر من بني آدم سراً وعلناً، وبما لم يصدر بعد بل هو مكنون في الصدور.

وإظهار الجلالة للإشعار بعلية الحكم وتأكيد استقلال الجملة قبل، وتقديم القدرة على العلم، لأن دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى علمه بما فيها من الاتفاق والاختصاص ببعض الجهات الظاهرة، مثل كون السماء في العلو والأرض في السفل، أو الباطنة؛ مثل: أن تكون السماء متحركة والأرض ساكنة إلى غير ذلك.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها المشركون، و﴿الهمزة﴾ للاستفهام، و﴿لم﴾ للجحد، ومعناه: التحقيق والتقرير. ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: خبر قوم نوح ومن بعدهم من الأمم المصرة على الكفر ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلكم، فيكون متعلقاً بـ﴿كَفَرُوا۟﴾ أو من قبل هذا الوقت أو هذا العصيان والمعاداة، فيكون ظرفاً لـ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾. ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ عطف على ﴿كَفَرُوا۟﴾. والذوق وإن كان في التعارف للقليل لكنه مستصلح للكثير. والوبال: الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور والعقوبة وأمرهم كفرهم فهو واحد الأمور، عبر عنه بذلك للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى[1]: فذاقوا في الدنيا من غير مهلة ما يستتبعه كفرهم من الضرر والعقوبة، وأحسوه إحساس الذائق للطعوم. وفي إيراد الذوق رمز إلى أن ذلك المذوق العاجل شيء حقير بالنسبة إلى ما سيصيرون إليه من العذاب الأليم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم لا يقادر قدره. وفيه إخبار بأن ما أصابهم في الدنيا من الآلام والأوجاع والمصائب لم يكن كفارة لذنوبهم. وإلا.. لم يعذبوا في الآخرة، بخلاف المؤمنين، فإن ما أصابهم في الدنيا من ذلك يكون كفارة لذنوبهم على ما ورد في الأخبار الصحيحة.

ومعنى الآية[2]: ألم يبلغكم أيها المشركون من أهل مكة نبأ الذين كفروا بالرسل من قبلكم؛ كقوم نوح وهود وصالح، وغيرهم من الأمم التي أصرت على الكفر والعناد، كيف حلّ بهم عقاب ربهم وعظيم نقمته، وأرسل عليهم ألواناً من العذاب لا قِبل لهم بها فمن صاعقة من السماء تجتاحهم إلى رجفة في الأرض تهلكهم إلى صيحة تصم الآذان تبيدهم وتجعلهم كأمس الدابر وتمحوهم من صفحة الوجود إلى طوفان يعم الأرض ويبتلعهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وسيكون لهم عظيم النكال والوبال يوم تجزى كل نفس بما كسبت، إن الله سريع الحساب. وفي هذا الأسلوب تعجيب من حالهم، وأنه قد كان لهم في ذلك مدَّكَرٌ لو كانوا يستبصرون، وعبرة لو كانوا يعتبرون.

ثم بيّن أسباب ما حل بهم من النقم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقون في الآخرة. وهو مبتدأ، خبره ﴿بِأَنَّهُۥ﴾؛ أي: بسبب أن الشأن ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الظاهرة، والباء إما للملابسة أو للتعدية. ﴿فَقَالُوٓا۟﴾: عطف على ﴿كَانَت﴾. ﴿أَبَشَرٌ﴾؛ أي: آدمي مثلنا ﴿يَهْدُونَنَا﴾؛ أي: يرشدوننا إلى الله. والاستفهام للإنكار؛ أي[3]: قال كل قوم من المذكورين في حق رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات، منكرين لكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك: أبشر وآدمي مثلنا يهدينا ويرشدنا إلى الدين أو إلى الله، والتقرب منه؟! كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾. أنكروا أن يكون الرسول بشراً، ولم ينكروا أن يكون المعبود حجراً! وقد أجمل في الحكاية فأسند

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.   (٣) روح البيان.

القول إلى جميع الأقوام، وأريد بالبشر الجنس فوصف بالجمع، كما أجمل الخطاب والأمر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ وارتفاع ﴿بشر﴾ عى أنه فاعل فعل مضمر يفسره ما بعده، فيكون من باب الاشتغال، وهو أولى من جعله مبتدأ وما بعده خبراً؛ لأن أداة الاستفهام تطلب الفعل ظاهراً أو مضمراً.

﴿فَكَفَرُواْ﴾؛ أي[1]: بالرسل بسبب هذا القول؛ لأنهم قالوه استصغاراً لهم، ولم يعلموا الحكمة في اختيار الرسل بشراً. ﴿وَتَوَلَّواْ﴾؛ أي: أعرضوا عن التدبر فيما أتوا به من البينات، وعن الإيمان بهم. ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم حيث أهلكهم وقطع دابرهم، ولولا غناه تعالى عنهما.. لما فعل ذلك. وقال سعدي المفتي: هو حال، بتقدير ﴿قد﴾ وهو بمعنى (غني) الثلاثي، وليس استفعل هنا للطلب. والمراد: كمال الغنى، إذ الطلب يلزمه الكمال. وقال مقاتل: ﴿استغنى الله﴾ بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه من المعجزات. وقيل: استغنى بسلطانه عن طاعة عباده.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن العالمين فضلاً عن إيمانهم وطاعتهم، ﴿حَمِيدٌ﴾: يحمده كل مخلوق بلسان الحال ويدل على اتصافه بالصفات الكمالية أو يحمده أولياؤه وإن امتنع أعداؤه. والحمد: هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال. ومن عرف أنه الحميد في ذاته وصفاته وأفعاله.. شغله ذكره والثناء عليه.

والمعنى[2]: إن ما حل بهم من سوء العذاب كان من جراء تكذيبهم بالرسل بعد أن جاؤوهم بالأدلة الواضحة والمعجزات الباهرة. وقالوا: إن من العجب العجاب أن يكون هدينا على يدي بشر منا لا ميزة لهم عنا بعقل راجح ولا بسلطان يتملكون به قيادنا ويجعل لهم بسطة النفوذ علينا، كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾؟! وقد جهلوا أن النبوة رسالة يصطفى بها الله من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وبعد أن طال عنادهم وتمادوا في غيّهم.. أهلكهم الله بسلطانه وجبروته وقطع دابرهم واستغنى عن إيمانهم، وهو الغني عن العالمين جميعاً، والغني عن إيمانهم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وطاعتهم، وهو الحقيق بالحمد على ما أنعم به على عباده من النعم المتظاهرة عليهم ظاهرة وباطنة.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ والزعم[1]: ادعاء العلم، فمعنى أزعمُ زيداً قائماً: أقول إنه كذا، ففي تصدير الجملة بقوله: أزعمُ، إشعار بأنه لا سند للحكم سوى ادعائه إياه وقوله به. ويتعدى إلى مفعولين تعدي العلم وقد قام هنا مقامهما ﴿أنْ﴾ المخففة مع ما في حيزها، فـ﴿إنْ﴾ مخففة لا ناصبة لئلا يدخل ناصب على مثله، والمراد بالموصول كفار مكة؛ أي: زعم كفار مكة وادعوا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم أبداً ولن يقاموا ويخرجوا من قبورهم. وعن شريح: لكل شيء كنية، وكنية الكذب زعموا. وقال بعض المخضرمين لابنه: هب لي من كلامك كلمتين: زعم وسوف، انتهى.

ويكره[2] للرجل أن يكثر لفظ الزعم وأمثاله، فإنه تحديث بكل ما سمع، وكفى بذلك كذباً، وإذا أراد أن يتكلم.. تكلم بما هو محقق، لا بما هو مشتبه. وبذلك يتخلص من أن يحدث بكلِّ ما سمع، فيكون معصوماً من الكذب.. كذا في «المقاصد الحسنة».

ثم أمر سبحانه رسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم ويبطل زعمهم فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد رداً لهم وإبطالاً لزعمهم بإثبات ما نفوه: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: تبعثون. فإن ﴿بَلَىٰ﴾ لإيجاب النفي الذي قبله. ﴿وَرَبِّي﴾؛ أي: أقسمت لكم بربي ومالك أمري؛ أي: أقسمت لكم بربي: بلى تبعثون من قبوركم. وظاهر كلام «اللباب» أن يكون ﴿وَرَبِّي﴾ قسماً متعلقاً بما قبله قد تم الكلام عنده، وحسن الوقف عليه. ويجعل ﴿لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ جواب قسم آخر مقدر مستأنف لتأكيد الأول؛ أي: والله لتبعثن وتخرجن من قبوركم، ثم لتخبرن بما عملتم في الدنيا ثم تجازون عليه في الآخرة لا محالة. و﴿ثُمَّ﴾[3] لتراخي المدة لطول يوم القيامة، أو لتراخي الرتبة. ولعل فائدة الإخبار بالقسم مع أن المشركين ينكرون الرسالة كما ينكرون البعث إبطالٌ لزعمهم بالتشديد والتأكيد؛ ليتأثر من قدر الله له الإنصاف، وتتأكد الحجة على من لم يقدر له وكان محروماً بالكلية. قال بعضهم: ولعل حكمة اختيار لفظ الرب في القَسم

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

ههنا الإشارة إلى أن في البعث إظهار كمال الربوبية المفيدة لتمام المعرفة وإلى دوام التربية بالنعم الجسمانية الظاهرة والنعم الروحانية الباطنة. وقوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ مع ما بعده جملة مستقلة داخلة تحت الأمر، واردة لتأكيد ما أفادته كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ من إثبات البعث، ولبيان تحقق أمر آخر متفرع عليه منوط به، ففيه تأكيد البعث بوجهين؛ أي: قل لهم: والله لتبعثن ثم لتخبرن بأعمالكم وتحاسبون عليها وتجزون بها. وأصل ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ لتبعثونن، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال وواو الجماعة لالتقاء الساكنين، كما سيأتي بسطه في مباحث الصرف.

﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من البعث والجزاء ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿يَسِيرٌ﴾؛ أي: سهل لتحقق القدرة التامة وقَبول المادة. والمعنى؛ أي: ادعى المشركون أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾، وقالوا: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾. فأمر الله رسولَه بالرد عليهم وإبطال زعمهم بقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى. . .﴾ إلخ؛ أي: قل لهم: إن البعث كائن لا محالة وإنكم، وربي الذي برأ الخلق وأنشأهم من العدم، ستحاسبن على أعمالكم وتجزون على الكثير والقليل والنقير والقطمير، وذلك هين على الله يسير.

وبعد أن أبان لهم أدلة التوحيد والنبوة بما لا مجال معه للإنكار. . طالبهم بالإيمان بهما، فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ و﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر هكذا، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم. . فأقول لكم: يا أهل مكة صدقوا بالله الباعث من القبور المجازي على كل عمل ظاهر أو مستور، وبرسوله محمد ـ ﷺ ـ الذي أخبر عن شؤون الله تعالى وصفاته. ولم يقل: وباليوم الآخر على ما هو المناسب لقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إلخ، اكتفاء بقوله: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ فإنه مشتمل على البعث والحساب. ا هـ. «شيخنا». ﴿و﴾ آمنوا بـ﴿النور الذي أنزلنا﴾ على رسولنا محمد ـ ﷺ ـ، وهو القرآن الهادي لكم إلى سواء السبيل إذا تراكمت ظلمات الشبهات، والمنقذ لكم من الضلالة إذا أحاطت بكم الخطيئات. سمي نوراً لأنه بإعجازه بين بنفسه أنه حق نازل من عند الله تعالى، مبين لغيره ومظهر للحلال والحرام، كما أن النور كذلك. والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية.

ثم توعدهم على ما يأتون وما يذرون، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الامتثال

بالأمر وعدمه ﴿خَبِيرٌ﴾ فمجازيكم عليه، فلا تخفى عليه أعمالكم، وسيحاسبكم على ما كسبت أيديكم من خير أو اكتسبت من شر، فراقبوه وخافوا شديد عقابه.

والظرف[1] في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ قاله النحاس. وقال غيره: العامل فيه ﴿خَبِيرٌ﴾. وقيل: العامل فيه محذوف، تقديره: اذكر. وقال أبو البقاء: العامل فيه ما دل عليه الكلام؛ أي: تتفاوتون يوم يجمعكم.

وقرأ الجمهور: ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ بفتح الياء وضم العين. وروي عن أبي عمرو إسكانها، ولا وجه لذلك إلا التخفيف وإن لم يكن هذا موضعاً له. وقرأ زيد بن علي، والشعبي، ويعقوب، ونصر، وابن أبي إسحاق، والجحدري ﴿نجمعكم﴾ بالنون.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ بمعنى في الظرفية، أو بمعنى اللام التعليلية؛ أي: واذكروا يوم يجمعكم الله سبحانه في يوم الجمع، وهو يوم القيامة، يجمع فيه الأولون والآخرون، من الجن والأنس، وأهل السماء وأهل الأرض. أو يجمع فيه الأولين والآخرين لأجل ما فيه من الحساب والجزاء.

﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾؛ أي[2]: يوم ظهور غبن كل كافر بترك الإيمان وغبن كل مؤمن بتقصيره في الطاعات. وفي الحديث: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء؛ ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن، ليزداد حسرة». أو المعنى[3]: يوم يغبن فيه أهل الجنة أهل النار بأخذهم منازلهم التي كانت لهم في الجنة لو آمنوا، ويغبن فيه من ارتفعت منزلته في الجنة من كان دون منزلته، فيظهر في ذلك اليوم غبن كل كافر بتركه الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان. والتغابن: تفاعل، من الغبن، وهو: أن تخسر صاحبك في معاملة بينك وبينه، بضرب من الإخفاء والتدليس. والتغابن: أن يغبن بعضهم بعضاً، ويوم القيامة يوم غبن بعض الناس بعضاً، بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء، وبالعكس. وفيه تهكم؛ لأن نزول الأشقياء منازل السعداء من النار لو كانوا أشقياء ليس غبناً.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح. (٣) الواحدي.

وتخصيص[1] التغابن بذلك اليوم للإيذان بأن التغابن في الحقيقة هو التغابن فيما يتعلق بأمور الآخرة لا فيما يتعلق بأمور الدنيا. فـ اللام فيه للعهد الذي يشار به عند عدم المعهود الخارجي إلى الفرد الكامل؛ أي: ذلك يوم التغابن الكامل العظيم الذي لا تغابن فوقه.

والمعنى[2]: وتذكروا يوم يجمع الأولين والآخرين للحساب والجزاء في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر؛ لتجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم، إن الله سريع الحساب. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ فالكافرون قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فخسرت صفقتهم ولم يربحوا فيها، والمؤمنون باعوا أنفسهم بالجنة فربحت صفقتهم وما كانوا خاسرين.

والخلاصة: أنه لا غبن أعظم من أن قوماً ينعمون وقوماً يعذبون، وأن قوماً مغبونون في الدنيا أصبحوا في الآخرة غابنين لمن غبنوهم فيها.

ثم بيّن هذا التغابن وفصله بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بالصدق والإخلاص بحسب نور استعداده ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ أي: عملاً صالحاً بمقتضى إيمانه، فإن العمل إنما يكون بقدر الإيمان، وهو: أي العمل الصالح ـ ما يبتغى به وجه الله فرضاً أو نفلاً. ﴿يُكَفِّرْ﴾؛ أي: يغفر الله ويمح ﴿عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ يوم القيامة، فلا يفضحه بها. ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ بفضله وكرمه لا بالإيجاب ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين على حسب درجات أعماله ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت قصورها أو أشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة الجارية في الجنة، حال كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك الجنات. حال من الهاء في ﴿يدخله﴾. وَحَّدَ أولاً حملاً على لفظ ﴿من﴾ ثم جمع حملاً على معناه. ﴿أَبَدًا﴾ ظرف متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، وهو تأكيد للخلود. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من تكفير السيئات وإدخال الجنات ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه؛ لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات، والظفر بأجل الطيبات، فيكون أعلى حالاً من الفوز الكبير، لأنه يكون بجلب المنافع، كما في سورة البروج.

وفي «فتح الرحمٰن»: قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ إلى قوله: ﴿أَبَدًا﴾

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

ذكر مثل ما هنا في سورة الطلاق، لكن زاد هنا: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِۦ﴾؛ لأن ما هنا تقدمه ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ الآيات، وأخبر فيها عن الكفار سيئات تحتاج إلى تكفير، فناسب ذكر ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِۦ﴾ بخلاف ما في الطلاق لم يتقدمه شيء من ذلك.

وقرأ الجمهور ﴿يُكَفِّرْ﴾ ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ بالتحتية. وقرأ نافع، وابن عامر، والأعرج، وشيبة، وأبو جعفر وطلحة، والمفضل عن عاصم، وزيد بن علي، والحسن بخلاف عنه: ﴿نكفر﴾ و﴿ندخله﴾ بالنون فيهما.

والمعنى[1]: ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته وينته إلى أمره ونهيه.. يمح عنه ذنوبه ويدخله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار لابثين فيها أبداً، لا يموتون ولا يخرجون منها، وذلك هو الفوز الذي لا فوز بعده؛ لانطوائه على النجاة من أعظم المهالك وأجل المخاطر.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تصريح بما علم التزاماً. والمراد بالآيات: إما القرآن أو المعجزات، فإن كلاً منهما آية لصدق الرسول. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ أي: أهل النار، إما بمعنى مصاحبوها لخلودهم فيها، أو مالكوها تنزيلاً لهم منزلة الملاك للتهكم. حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: أبداً، بقرينة المقابلة ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع. والمخصوص بالذم: النار، كأن هاتين الآيتين الكريمتين بيان لكيفية التغابن، وإنما قلنا: (كأن) لأن الواو يمانع الحمل على البيان كما عرف في فن المعاني، إذ لو كان للبيان.. لقال: من يؤمن بالله؛ أو فمن يؤمن بالله؛ أي: والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا بأدلته وآي كتابه الذي أنزله على عبده محمد - ﷺ - أولئك أصحاب النار خالدين فيها أبداً، وبئس النار مصيراً لهم.

﴿مَا﴾ نافية[2] ولذا زاد ﴿مِن﴾ المؤكدة. ﴿أَصَابَ﴾ الخلق ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ وبلية وشدة من المصائب الدنيوية في الأبدان والأولاد والأموال ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى. استثناء مفرغ منصوب المحل على الحال؛ أي: ما أصابت مصيبة متلبسة بشيء من الأشياء إلا حالة كونها متلبسة بإذن الله تعالى؛ أي: بتقديره وإرادته كأنها

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بذاتها متوجهة إلى الإنسان متوقفة على إذنه تعالى أن تصيبه.

وهذا لا يعارض قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾؛ أي: بسبب معاصيكم، ويتجاوز عن كثير منها ولا يعاقب عليها. أما أولاً: فلأن هذا القول في حق المجرمين، فكم من مصيبة تصيب من أصابته لأمر آخر من كثرة الأجر للصبر وتكفير السيئات لتوفية الأجر، إلى غير ذلك، وما أصاب المؤمنين فمن هذا القبيل. وأما ثانياً: فلأن ما أصاب من ساء بسوء فعله فهو لم يصب إلا بإذن الله وإرادته أيضاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إيجاداً وإيصالاً، فسبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

والمعنى: أي ما أصاب كل أحد مصيبة من المصائب إلا بإذن الله تعالى؛ أي: بقضائه وقدره. قال الفراء: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمر الله. وقيل: إلا بعلم الله.

قيل: سبب نزولها: أن الكفار قالوا[1]: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في أموالهم وأبدانهم في الدنيا. فبين الله سبحانه أن ذلك إنما يصيبهم بتقديره ومشيئته، وفي إصابتها حكمة لا يعرفها إلا هو:

منها: تحصيل اليقين بأن ليس شيء من الأمر في أيديهم، فيبرؤون بذلك من حولهم وقوتهم إلى حول الله وقوته.

ومنها: ما سبق آنفاً من تكفير ذنوبهم وتكثير مثوباتهم بالصبر عليها والرضا بقضاء الله تعالى إلى غير ذلك.

ولو لم يصب الأنبياء والأولياء محن الدنيا وما يطرأ على الأجسام من الآلام والأوجاع.. لافتتن الخلق بما ظهر على أيديهم من المعجزات والكرامات.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يصدق به، ويعلم أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله. والاكتفاء بالإيمان بالله لأنه الأصل ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ أي: يوفق قلبه عند إصابتها للثبات والاسترجاع، فيثبت ولا يضطرب بأن يقول قولاً ويظهر وصفاً يدل على التضجر من قضاء الله وعدم الرضا به، ويسترجع ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. ومن عرف

---

(١) روح البيان.

الله واعتقد أنه رب العالمين. . يرضى بقضائه ويصبر على بلائه، فإن التربية كما تكون بما يلائم الطبع تكون بما يتنفّر عنه الطبع. وقيل: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ أي: يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأ لم يكن ليصيبه، فيرضى بقضائه ويسلم لحكمه. وقيل: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ أي: يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخير.

وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: كيف قال ذلك مع أن الهداية سابقة على الإيمان؟

قلت: ليس المراد يهد قلبه للإيمان، بل المراد: يهد لليقين عند نزول المصائب، فيعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه. أويهد للرضى والتسليم عند وجود المصائب، أو للاسترجاع عند نزولها؛ بأن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. . انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَهْدِ﴾ بفتح الياء وكسر الدال، مضارعاً لهدى، مجزوماً على جواب الشرط؛ أي: يهده الله. وقرأ قتادة، والسلمي، والضحاك، وأبو جعفر، وأبو عبد الرحمٰن: ﴿يُهْدَ﴾ بضم الياء وفتح الدال مبنياً للمفعول، ﴿قَلْبُه﴾ بالرفع، وقرأ ابن جبير، وطلحة بن مصرف، وابن هرمز، والأزرق عن حمزة: ﴿نَهْدِ قَلْبَه﴾ بالنصب. وقرأ عكرمة، وعمرو بن دينار، ومالك بن دينار: ﴿يَهدأ﴾ بهمزة ساكنة، ﴿قَلْبُه﴾ بالرفع؛ أي: يطمئن قلبه ويسكن بإيمانه ولا يكون فيه اضطراب. وقرأ عمرو بن فائد: ﴿يَهْدَا﴾ بألف بدلاً من الهمزة الساكنة. وقرأ عكرمة، ومالك بن دينار أيضاً: ﴿يَهْدَ﴾ بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة الساكنة، وإبدال الهمزة ألفاً في مثل: يهدأ، ويقرأ ليس بقياس، خلافاً لمن أجاز ذلك قياساً، وبني عليه جواز حذف تلك الألف للجازم تشبيهاً بألف يخشى إذا دخل الجازم عليه. وقرىء: ﴿يَهِدَّ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، ورفع ﴿قلبُه﴾ أيضاً بمعنى: يهتد، كقوله تعالى: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾. فجملة القراءات في ﴿يَهْدِ﴾ سبع، المختار منها قراءة الجمهور.

---

(١) البحر المحيط.

وقال أبو بكر الوراق: ومن يؤمن بالله عند الشدة والبلاء فيعلم أنها من عدل الله.. يهد قلبه إلى حقائق الرضى وزوائد اليقين. وقال أبو عثمان: ومن صحح إيمانه بالله.. يهد قلبه لاتباع سنن نبيه - ﷺ -. وعلامة صحة الإيمان: المداومة على السنن وملازمة الاتباع وترك الأهواء والآراء المضلة.

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها: القلوب وأحوالها، كتسليم من انْقاد لأمره وكراهة من كرهه، وكآفاتها من العجب والريا مثلاً وخلوصها. ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية من ذلك، فيعلم إيمان المؤمن وخلوصه ويهد قلبه إلى ما ذُكر.

والمعنى: والله عليم بالأشياء كلها، فهو عليم بالقلوب وأحوالها ومطلع على سرها ونجواها، فاحذروه وراقبوه في السرّ والعلن، كما جاء في الأثر: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى إطاعة العبد لمولاه فيما يأمره وينهاه. ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ محمداً - ﷺ - إطاعة الأمة لنبيها فيما يؤديه عن الله؛ أي: هونوا المصائب على أنفسكم ولا تشغلنكم عن الاشتغال بطاعته والعمل بكتابه، وعن الاشتغال بطاعة الرسول واتباع سننه، وليكن جل همتكم في السراء والضراء العمل بما شرع لكم.

وكرر[1] الأمر بالإطاعة للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية وتوضيح مورد التولي في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: أعرضتم عن إطاعة الرسول ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ محمد - ﷺ - ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: التبليغ البيّن. والجملة الاسمية تعليل للجواب المحذوف؛ أي: فإن توليتم.. فلا بأس ولا مؤاخذة عليه بإعراضكم إذ ما عليه إلا التبليغ المبين، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه، وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه - ﷺ - والإشعار بمدار الحلم الذي هو كون وظيفته - ﷺ - محض البلاغ لاالإجبار على الإيمان، ولزيادة تشنيع التولي عنه.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: وأطيعوا الله فيما شرع، وأطيعوا رسوله فيما بلغ، وافعلوا ما به أمر، واتركوا ما عنه نهى، وزجر، فإن أعرضتم عن ذلك.. فإنما عليه أداء ما حمل من الرسالة، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة، وهو قد أدى ما عليه ولا يكلف شيئاً بعد ذلك.

ثم أرشد إلى التوحيد والتوكل، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، مبتدأ خبره جملة قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَۚ﴾ سبحانه؛ أي: الله سبحانه هو المستحق للمعبودية لا غيره، وهو القادر على الهداية والضلالة، لا شريك له في الإرشاد والإضلال، وليس بيد الرسول شيء من ذلك. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى خاصة دون غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في تثبيت قلوبهم على الإيمان والصبر على المصائب.

والمعنى: وحدوا الله، وأخلصوا له العمل، وتوكلوا عليه. والآية كالخاتمة والفذلكة لما تقدم. وإظهار[1] الجلالة في موضع الإضمار للإشعار بعلية التوكل، والأمر به، فإن الألوهية مقتضية للتبتل إليه تعالى بالكلية وقطع التعلق عما سواه بالمرة. وفي الآية حث لرسول الله - ﷺ - وللمؤمنين على الثبات على التوكل والازدياد فيه حتى ينصرهم على المكذبين وعلى من تولى عن الطاعة وقَبول أحكام الدين.

واعلم: أن التوكل من المقامات العالية، وهو إظهار العجز وترك الاعتماد على الغير. وفي «الحدائق»: التوكل هو: الثقة بما عند الله، واليأس مما في أيدي الناس. وظاهر الأمر وجوب التوكل مع أنه غير موجود في أكثر الناس، فيلزم أن يكونوا عاصين. ولعل المأمور به هو التوكل العقلي، وهو: أن يعتقد العبد أنه ما من مراد من مراداته الدنيوية والأخروية إلا وهو يحصل من الله، فيثق به في حصوله ويرجو منه، وإن كانت النفس تلتفت إلى الغير وتتوقع منه، نظراً إلى اعتقاد سببيته والله مسبب الأسباب. وأما التوكل الطبيعي الذي لا يكون ثقة صاحبه طبعاً إلا بالله وحده، ولا اعتماده إلا عليه في جميع مقاصده مع قطع النظر عن الأغيار كلها رأساً.. فهو عسير، قلما يوجد إلا في الأنبياء والكمل من الأولياء.

---

(١) روح البيان.

ولما قال تعالى[1]: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله حذر مما يلحق الرجل من امرأته وولده بسبب ما يصدر من بعضهم من العداوة. . ولا أعدى على الرجل من زوجته وولده إذا كانا عدوين. وذلك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا. . فبإذهاب ماله وعرضه، وأما في الآخرة: فبما يسعى في اكتسابه من الحرام لهما، وبما يكسبانه منه بسبب جاهه. وكم من امرأة قتلت زوجها وأفسدت عقله، وكم من ولد قتل أباه، وفي التواريخ وفيما شاهدناه من ذلك كثير. . فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إيماناً خالصاً ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ جمع زوج يعم الحليل والحليلة، كما سيأتي عن «اللباب». لكن المراد هنا: الزوجة، بقرينة سبب النزول كما مر. ﴿وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾ جمع ولد يعم الابن والبنت ﴿عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله تعالى، وإن لم يكن لهم عداوة ظاهرة، فإن العدو لا يكون عدواً بذاته وإنما يكون عدواً بفعله. فإذا فعل الزوج والولد فِعل العدو. . كان عدواً، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد والطاعة، ويدخل في ذلك سبب النزول دخولاً أولياً، وهو: أن رجالاً من مكة أسلموا وأرادوا أن يهاجروا فلم يدعهم أزواجهم ولا أولادهم، فأمر الله سبحانه بأن يحذروهم فلا يطيعوهم في شيء مما يريدونه منهم مما فيه مخالفة لما يريده الله تعالى، أو يخاصمونكم[2] في أمور الدين أو الدنيا، وأشد المكر ما يكون في الدين، فإن ضرره أشد من ضرر ما يكون في الدنيا. وجاء في الخبر: «ليس عدوك الذي لقيته فقتلته وآجرك الله على قتله، ولكن أعدى عدوك: نفسك التي بين جنبيك، وامرأتك التي تضاجعك على فراشك، وولدك من صلبك». وقدم الأزواج على الأولاد؛ لأنها مصادر الأولاد ولكونها محل الشهوات وألصق بقلوب الناس وأشد إشغالاً لهم عن العبودية، ولذا قدمها الله سبحانه في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وفي «اللباب»: إن قوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ يدخل فيه الذَّكر، فكما أن الرجل تكون زوجته وولده عدواً له. . كذلك المرأة يكون زوجها عدواً لها بهذا المعنى، فيكون الخطاب هنا عاماً على التغليب، ويحتمل أن يكون الدخول باعتبار الحكم لا باعتبار الخطاب. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

وأفادت ﴿مِنْ﴾ التبعيضية في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ إلخ، أن منها ما ليس بعدُ، كما قال النبي ـ ﷺ ـ: «الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»، وقال ـ ﷺ ـ: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها.. أطاعته، وإن نظر إليها.. سرته، وإن أقسم عليها.. أبرّته، وإن غاب عنها.. نصحته في نفسها وماله». فإذا كانت المرأة على هذه الأوصاف فهي ميمونة مباركة. وإلا.. فهي مشؤومة منحوسة.

والضمير في قوله[1]: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ يعود إلى العدو أو إلى الأزواج والأولاد لكن لا على العموم بل إلى المتصفين بالعداوة منهم، وإنما جاز جمع الضمير على الوجه الأول؛ لأن العدو يطلق على الواحد والاثنين والجماعة. والحذر[2] الاحتراز عن المخيف؛ أي: احفظوا أنفسكم من محبتهم وشدة التعلق والاحتجاب بهم، ولا تؤثروا حقوقهم على حقوق الله تعالى. وفي الحديث: «إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم أسخياءكم، وأمركم شورى بينكم ـ أي: ذا تشاور لا ينفرد أحد برأي دون صاحبه ـ فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم.. فبطن الأرض خير لكم من ظهرها». وفي الحديث: «شاوروهن وخالفوهن»[3].

والمعنى[4]: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله! إن من أزواجكم وأولادكم أعداء لكم، يحولون بينكم وبين الطاعات التي تقربكم من ربكم والأعمال الصالحة التي تنفعكم في آخرتكم، وربما حملوكم على السعي في اكتساب الحرام واكتساب الآثام لمنفعة أنفسهم. وروي: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يأتي زمان على أمتي يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده، يعيرانه بالفقر، فيركب مراكب السوء فيهلك». ومن الناس من يحمله حبهم، والشفقة عليهم ليكونوا في عيش رغد في حياته وبعد مماته، فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سبباً لذلك، وإن لم يطالبوه، فيهلك.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) هذا ليس بحديث وربما كان أثراً عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. اهـ.

(٤) المراغي.

ومن المفسرين من حمل العداوة على العداوة الدنيوية، وقالوا: إن الزوجات والأولاد ربما آذوا أزواجهم وآباءهم، وجرعوهم الغصص والآلام، وربما جرّ ذلك إلى وضع السم في الدسم أو إلى قتلهم، وفي المشاهد أكبر عبرة لمن اعتبر.

والخلاصة[1]: أنه إما أن يراد بالعداوة العداوة الأخروية، فإن الأزواج والأولاد ربما أضرّوا بأزواجهم وآبائهم فيها إذا منعوهم عن عمل الخير لها، وإما أن يراد العداوة في الدنيا، فتكون عداوة حقيقية بينهم لها آثارها الدنيوية.

ثم أرشدهم إلى التجاوز عن بعض هناتهم فقال: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو؛ بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا أو بأمور الدين، لكن مقارنة للتوبة. ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾؛ أي: تعرضوا عنها بترك التثريب والتعيير. يقال: صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه والتثريب عليه. ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ بإخفائها وتمهيد عذرها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: بليغ المغفرة والرحمة لكم ولهم، يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم.

قيل: كان رجل ثبطه أزواجه وأولاده عن الهجرة، لما رأى الناس قد سبقوه إليها وفقهوا في الدين.. هم أن يعاقب أزواجه وأولاده، فأنزل الله ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ الآية، والآية تعم وإن كان السبب خاصاً.

وحكي أن الحطيئة ـ شاعر مشهور ـ أراد سفراً، فقال لامرأته:

عُدِّي ٱلسِّنِيّنَ لِغَيْبَتِي وَتَصَبَّرِيْ   وَذَرِي ٱلشُّهُورَ فَإِنَّهُنَّ قِصَارُ

فأجابته:

وَٱذْكُرْ صَبَابَتَنَا إِلَيْكَ وَشَوْقَنَا   وَٱرْحَمْ بَنَاتِكَ إِنَّهُنَّ صِغَارُ

والمعنى: أي وإن تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها بترك المعاقبة، وتصفحوا بالإعراض عنها وترك التثريب عليها، وتغفروا بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها.. فهو خير لكم، فإن الله رحيم بكم وبهم، ويعاملكم بمثل ما عاملتم ويتفضل عليكم.

ثم أخبر سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾؛ أي: بلاء واختبار ومحنة، يحملونكم على كسب الحرام ومنع حق الله، فلا تطيعوهم في معصية الله.

---

(١) المراغي.

والمعنى: إنما حبكم لأموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار، إذ كثيراً ما يترتب على ذلك الوقوع في الآثام وارتكاب كبير المحظورات. وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾.

أخرج أحمد، والطبراني، والحاكم، والترمذي عن كعب بن عياض قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال». ولم يذكر ﴿مِنۡ﴾ في ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما. وترك ذكر الأزواج في الفتنة ـ قال البقاعي ـ: لأن منهن من يكن صلاحاً وعوناً على الآخرة.

وجيء[1] بـ﴿إِنَّمَآ﴾ للحصر؛ لأن جميع الأموال والأولاد فتنة؛ لأنه لا يرجع إلى مال أو ولد إلا وهو مشتمل على فتنة واشتغال قلب. وتأخير الأولاد من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ لأن الأولاد ألصق بالقلوب من الأموال لكونهم من أجزاء الآباء بخلاف الأموال؛ فإنها من توابع الوجود وملحقاته.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمن آثر محبته وطاعته على محبة الأموال والأولاد والتدبير في مصالحهم وعلى طاعتهم، فلا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد، ولا تؤاثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم، زهدهم في الدنيا بذكر عيبها، ورغبهم في الآخرة بذكر نعيمها.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لا يقولن أحدكم: اللهم اعصمني من الفتنة، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وولد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن ليقل: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن.

روي: أن أول ما يتعلق بالرجل يوم القيامة أهله وأولاده، فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون: يا ربنا! خذ بحقنا منه، فإنه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا الحرام، ونحن لا نعلم، فيقضى لهم منه، وتأخذ عياله حسناته، فلا يبقى له حسنة.

وعن بعض السلف: العيال سوس الطاعات وهو: دود يقع في الطعام والثوب

---

(١) روح البيان.

وغيرهما. ومن ثم ترك كثير من السلف المال، والأهل رأساً، وأعرضوا عنها بالكلية؛ لأن كل شيء يشغل عن الله فهو مشؤوم على صاحبه.

ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة، فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾؛ أي: ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم؛ أي: ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم، و﴿الفاء﴾ فيه للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا علمتم ما ذكرت لكم وانتصحتم به.. فأقول لكم: اتقوا ما يكون سبباً لمؤاخذة الله إياكم من تدبير أمورهما، ولا ترتكبوا ما يخالف أمره تعالى من فعل أو ترك. وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ لما اشتد عليهم بأن قاموا حتى ورمت أقدامهم وتقرحت جباههم، فنزلت تيسيراً لعباد الله. وممن قال بالنسخ: قتادة، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد. وعن ابن عباس: أنها آية محكمة لا ناسخ فيها. ولعله - رضي الله عنه - جمع بين الآيتين بأن يقول هنا وهنالك: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم، واجتهدوا في الإنصاف به بقدر طاقتكم، فإنه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والمعنى: ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم. إذا أمرتكم بأمر.. فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه.

﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ مواعظه ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ أوامره ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ مما رزقكم في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها خالصاً لوجهه. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن المراد إنفاق الزكاة، والظاهر[1] العموم، وهو مندرج في الإطاعة. ولعل إفراده بالذِّكر لِما أن الاحتياج إليه كان أشد حينئذٍ، وأن المال شقيق الروح ومحبوب النفس، ومن ذلك قدم الأموال على الأولاد في جميع المواضع. وقال مقاتل: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾؛ أي: أصغوا إلى ما ينزل عليكم. ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ لرسوله فيما يأمركم وينهاكم. وقيل: معنى ﴿اسمعوا﴾ اقبلوا ما تسمعون؛ لأنه لا فائدة في مجرد السماع. ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير ولا تبخلوا بها. ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ خبر لـ﴿يكن﴾ المقدر جواباً للأوامر المذكورة؛ أي: يكن ما ذُكر من السمع والطاعة، والإنفاق خيراً لأنفسكم. أو مفعول لفعل محذوف؛ أي: ائتوا وافعلوا

---

(١) روح البيان.

خيراً لأنفسكم واقصدوا ما هو أنفع لها. وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر، وبيان لكون الأمور المذكورة خيراً لأنفسهم من الأموال والأولاد، وما هم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا.

والمعنى: ﴿وَٱسْمَعُوا۟..﴾ إلخ؛ أي: كونوا منقادين لما يأمركم الله ورسوله به، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا ترتكبوا ما نهيتم عنه، وابذلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وفي الوجوه التي يكون فيها صلاح الأمة والملة وسعادة الدين والدنيا، يكن ذلك خيراً لأنفسكم من الأموال والأولاد. وهذا حث على البذل، وبيان أن الامتثال خير لا محالة.

ثم زاد في الحث على الإنفاق، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ﴾ ويعصم ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: بُخْلَ نفسه عن الإنفاق؛ أي: ومن يقه الله سبحانه ويعصمه من بخل نفسه الذي هو الرذيلة المعجونة في طينه النفس. وهو مضارع مجهول مجزوم الآخر بـ﴿من﴾ الشرطية من الوقاية المتعدية إلى مفعولين. و﴿شُحَّ﴾ مفعول ثان له باق على النصب والأول: الضمير القائم مقام الفاعل. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموقون شح النفس ﴿هُمُ﴾ لا غيرهم ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بكل خير.

والمعنى[1]: ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال.. يكن من الفائزين بكل ما يرجو ونيل كل ما يبغي في دينه ودنياه، فيكون محبباً إلى الناس قرير العين برضاهم عنه وحنوهم عليه، سعيداً في الآخرة بالقرب من ربه ومحبته ورضوانه ودخول جنانه.

ثم بالغ في الحث على الإنفاق أيضاً، فقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى بصرف أموالكم إلى المصارف التي عينها. وذِكرُ القرض تلطفٌ في الاستدعاء. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ أي[2]: قرضاً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس. والقرض في العرف: أن يعطي أحداً شيئاً من ماله ليرد بدله، وإقراض الله مثل لتقديم العمل الذي يطلب ثوابه من الله. و﴿قَرْضًا﴾ إن كان بمعنى إقراضاً.. كان نصبه على المصدرية وإن كان بمعنى مقرضاً من النفقة.. كان مفعولاً ثانياً لـ﴿تُقْرِضُوا۟﴾ لأن

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

الإقراض يتعدى إلى مفعولين، ففي التعبير عن الإنفاق بالإقراض وجعله متعلقاً بالله الغني مطلقاً، والتعبير عن النفقة بالقرض إشارة إلى حسن قَبول الله ورضاه، وإلى عدم الضياع، وبشارة باستحقاق المنفق ببركة إنفاقه لتمام الاستحقاق. ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ من المضاعفة، بمعنى التضعيف؛ أي: التكثير، فليس المفاعلة هنا للاشتراك؛ أي: إن تصرفوا أموالكم في سبيل الله ووجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس.. يجعل لكم أجره مضاعفاً، ويكتب بالواحد عشرة، أو سبعين، أو سبع مئة، أو أكثر بمقتضى مشيئته على حسب النيات والأوقات والمحال. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب؛ أي: يضم لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم.

ثم بيّن علة المضاعفة ورغب في النفقة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿شَكُورٌ﴾ يعطي الكثير بمقابلة اليسير من الطاعة، أو يجازي العبد على الشكر. وهو الاعتراف بالنعمة على سبيل الخضوع، فسمى جزاء الشكر شكراً، أو الله شكور، بمعنى: أنه كثير الثناء على عبده، بذكر أفعاله الحسنة وطاعته، فالشكر: الثناء على المحسن بذِكر إحسانه. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم بالبخل والإمساك ونحوهما، فيحلم حتى يظن الجاهل أنه ليس يعلم، ويستر حتى يتوهم الغافل أنه ليس يبصر. قال الإمام الغزالي رحمه الله: الحليم: هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر، ثم لا يتسفزه غضب ولا يعتريه غيظة، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام ـ مع غاية الاقتدار ـ عجلةٌ وطيش، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

ثم ذكر ما يزيد في الترغيب في النفقة أيضاً، فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ خبر بعد خبر؛ أي: عالم ما غاب عنا وما شوهد لنا، لا تخفى عليه من خافية. وقد سبق الكلام عليه في أواخر سورة الحشر. ولعل تقديم الغيب على الشهادة، لأن عالمَ الغيب أعمّ والعِلم به أتم. وهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب القاهر الذي لا يغالب، ولا يمانع من تنفيذ مراده. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: ذو الحكمة البالغة في تدبير أمور خلقه.

والمعنى: هو العليم بما غاب عنكم وبما تشهدونه، فكل ما تعملون فهو محفوظ لديه في أمّ الكتاب، لا يعزب عنه مثقال ذرة، وسيثيبكم عليه ويجازيكم به أحسن الجزاء، وهو ذو العزّة والقدرة، النافذ الإرادة، الحكيم في تدبير خلقه على

ما يعلم من المصلحة.

الإعراب

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾.

﴿يُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، أو (اللام) زائدة في المفعول، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: صلة لـ(ما) الموصولة، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم، ﴿الْمُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من لفظ الجلالة في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾: معطوف على ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر ﴿هو﴾. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢)﴾.

﴿هُوَ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، وجملة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ صلة الموصول. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَمِنْكُمْ﴾: (الفاء): عاطفة، (منكم) خبر مقدم، و﴿كَافِرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة، أعني، ﴿خَلَقَكُمْ﴾، أو على الجملة الاسمية، أعني قوله: ﴿هُوَ الَّذِي﴾. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ...﴾ إلخ ظاهر تقديرهم أنه معطوف على الصلة، ولا يضره عدم العائد؛ لأن المعطوف بالفاء يكفيه وجود العائد في إحدى الجملتين. أو تقول: هي معطوفة على جملة ﴿هُوَ الَّذِي...﴾ إلخ. ا هـ «شهاب». قال الخطيب: والتقدير: هو الذي خلقكم ثم وصفكم فقال: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾. وقوله: ﴿وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾: معطوف على قوله: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ(ما)، و﴿بَصِيرٌ﴾: خبر عن الجلالة. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣)﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿وَالْأَرْضَ﴾: معطوف على

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾ أو من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، و(الباء): للملابسة. ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾: معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، ﴿فَأَحْسَنَ﴾: (الفاء): عاطفة، (أحسن صوركم) فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿صوَّركم﴾ عطفاً تفسيرياً، ﴿وَإِلَيْهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على قوله: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وجملة ﴿تُسِرُّونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: معطوف على ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ متعلق بـ﴿عَلِيمٌۢ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ ﴿١﴾﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري التوبيخي، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَأْتِكُمْ﴾: فعل ومفعول به مجزوم بـ(لم)، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿نَبَؤُا۟﴾: فاعل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُوا۟﴾، أو حال من فاعل ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿فَذَاقُوا۟﴾: (الفاء): عاطفة، (ذاقوا) فعل، وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿ذاقوا﴾ عطف تفسير.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُۥ﴾: خبر، والجملة مستأنفة؛ أي: ذلك كائن بسبب أنه كانت... إلخ. ﴿أنه﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَت﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود

على ﴿الرسل﴾، ﴿تَّأْتِيهِمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به ﴿رُسُلُهُم﴾: فاعل ﴿تَّأْتِيهِمْ﴾، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿تَّأْتِيهِمْ﴾، وجملة ﴿تَّأْتِيهِمْ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر (أنّ)، وجملة (أن) في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب إتيان رسلهم إياهم، بالبينات ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾. ﴿فَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَانَت﴾، ﴿أَبَشَرٌ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري، (بشر) مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة دخول الاستفهام عليه، وجوزوا أن يكون مرفوعاً على الفاعلية بفعل محذوف يفسره ما بعده، فتكون المسألة من باب الاشتغال، والتقدير: أيهدينا بشر؟ وجملة ﴿يَهْدُونَنَا﴾ في محل الرفع خبر على الوجه الأول، ولا محل لها من الإعراب على الوجه الثاني؛ لأنها مفسرة. وجملة الاستفهام في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿فَكَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قالوا﴾، ﴿وَتَوَلَّواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كفروا﴾، ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تولوا﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿غَنِيٌّ﴾: خبر أول، ﴿حَمِيدٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ صلة الموصول ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: أنه. ﴿لَّن﴾: حرف نصب، ﴿يُبْعَثُواْ﴾: فعل ونائب فاعل منصوب بـ﴿لن﴾، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿زَعَمَ﴾؛ أي: زعم الذين كفروا عدم بعثهم من القبور. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ـ ﷺ ـ، والجملة مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي، قائم مقام الجواب، تقديره: قل: بلى تبعثون، وجملة الجواب المحذوف في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَرَبِّى﴾: (الواو): حرف جرّوقسم، (ربي): مجرور بواو القسم، ومضاف إلى الياء، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً، تقديره: أقسم بربي. ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾: (اللام): موطئة للقسم، (تبعثن)؛ فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، نائب فاعل. والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة

القسم في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، (اللام): موطئة للقسم، (تنبؤن): فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و﴿الواو﴾: نائب فاعل، والجملة معطوفة على (تبعثن)، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ(تنبؤن)، وجملة ﴿عَمِلْتُمْ﴾ صلة الموصول، ﴿وَذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسِيرٌ﴾، و﴿يَسِيرٌ﴾: خبر (ذلك)، والجملة مستأنفة.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾: (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كذلك وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: آمنوا. ﴿آمنوا﴾: فعل أمر، وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ(آمنوا)، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱلنُّورِ﴾: معطوف على الجلالة أيضاً، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة لـ﴿النور﴾، وجملة ﴿أَنزَلْنَا﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: والنور الذي أنزلناه. و﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾، و﴿خَبِيرٌ﴾: خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾، أو بمحذوف دل عليه سياق الكلام؛ أي: تتفاوتون يوم يجمعكم. أو مفعول به لفعل محذوف تقديره: اذكروا يوم. وجملة ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾: متعلق بـ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: (الواو): استئنافية، (مَنْ) اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُؤْمِنۢ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿وَيَعْمَلْ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو نعت لمصدر محذوف؛ أي: عملاً صالحاً. ﴿يُكَفِّرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بـ﴿يُكَفِّرْ﴾، ﴿سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾: مفعول به،

وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يُكَفِّرْ﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على السعة، ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل والجملة نعت لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿يدخله﴾. وجمعه نظراً لمعنى (من). ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: خبره، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾: معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: متعلق بـ﴿كذبوا﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: خبره، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره خبر عن الأول، وجملة الأول معطوفة على ما قبلها. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من أصحاب النار، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: (الواو) استئنافية، ﴿بئس المصير﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: هي؛ أي: النار.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَصَابَ﴾: فعل ماض، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿مُّصِيبَةٍ﴾: فاعل، ومفعول أصاب محذوف، تقديره: ما أصابت مصيبة أحداً من الناس. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أَصَابَ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة للرد على الكفار الذين قالوا: لو كان المسلمون على حق لصانهم الله من المصائب في الدنيا. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُؤْمِنۢ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿يَهْدِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿قَلْبَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَآ أَصَابَ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، و﴿عَلِيمٌ﴾: خبر عن الجلالة،

والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأَطِيعُوا۟﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿أطيعوا الله﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة الشرط، أو مستأنفة. ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ما قبله. ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف تقديره: فلا بأس على رسولنا. وجملة الشرط مع جوابه مستأنفة، ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إنما﴾: أداة حصر، ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة للبلاغ، والجملة الاسمية جملة تعليلية للجواب المحذوف، لا محل لها من الإعراب.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة، وقد تقدم لك إعراب الكلمة المشرفة في غير ما موضع. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: (الواو): زائدة، ﴿على اللّٰه﴾ متعلق بـ﴿يتوكل﴾، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾: (الفاء): عاطفة، و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿يتوكل﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أيُّ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ صلة الموصول، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ خبر مقدم لـ﴿إنَّ﴾، ﴿وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَزْوَٰجِكُمْ﴾، ﴿عَدُوًّا﴾: اسم ﴿إنَّ﴾ مؤخر، ﴿لَّكُمْ﴾: صفة لـ﴿عَدُوًّا﴾ أو متعلق به، وجملة ﴿إنَّ﴾ جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ذلك وأردتم بيان اللازم لكم.. فأقول لكم: احذروهم. ﴿احذروا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة

مستأنفة. ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿تَعْفُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون، و﴿الواو﴾ فاعل. ﴿وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾: معطوفان على ﴿تَعْفُوا﴾، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: خبران له، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾: مبتدأ أول، ﴿وَأَوْلَادُكُمْ﴾ معطوفة. ﴿فِتْنَةٌ﴾: خبر ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ﴾: خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿أَجْرٌ﴾، والجملة في محل الرفع خبر عن الجلالة، وجملة الجلالة مستأنفة. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، وتقديره: إذا علمتم أنه تعالى جعل أموالكم وأولادكم فتنة لكم شاغلة عن الآخرة، وأردتم بيان النصيحة لكم.. فأقول لكم: اتقوا الله. ﴿اتقوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ولفظ الجلالة مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ﴿مَا﴾: مصدرية ﴿اسْتَطَعْتُمْ﴾: فعل، وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، وجملة ﴿ما﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: فاتقوا الله استطاعتكم وجهدكم، ولكنه على تقدير مضاف. أي: بقدر استطاعتكم. ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا﴾: معطوفات على ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿خَيْرًا﴾: خبر لـ﴿يكن﴾ المحذوفة، المجزوم بالطلب السابق، تقديره: يكن ذلك الإنفاق خيراً لأنفسكم، كما قاله أبو عبيد أو مفعول به لفعل محذوف تقديره: وأتوا خيراً لأنفسكم. كقوله: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ كما قاله سيبويه. أو نعت لمصدر محذوف؛ أي: إنفاقاً خيراً، كما قاله الكسائي والفراء. أو منصوب على الحال، كما قاله الكوفيون. أو منصوب بأنفقوا؛ أي: أنفقوا مالاً خيراً، وقوله: ﴿لِّأَنفُسِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾. ﴿وَمَن يُوقَ﴾:

﴿الواو﴾: استئنافية ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُوقَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿شُحَّ﴾: مفعول به ثان لـ﴿يُوقَ﴾، ﴿نَفْسِهِۦ﴾: مضاف إليه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط وجوباً، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ ثان، ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر لـ﴿هم﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿تُقْرِضُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به، ﴿قَرْضًا﴾: مفعول مطلق، ﴿حَسَنًا﴾: صفة ﴿قَرْضًا﴾، ﴿يُضَٰعِفْهُ﴾: فعل مضارع، ومفعول به مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يضاعف﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَيَغْفِرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يضاعف﴾: مجزوم على أنه جواب الشرط، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿شَكُورٌ﴾: خبر أول، ﴿حَلِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو عالم الغيب، و﴿ٱلْغَيْبِ﴾: مضاف إليه، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف عليه، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها أيضاً، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر ثان لذلك المحذوف، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثالث له. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ والملك ـ بضم الميم ـ هو: الاستيلاء والتمكن من التصرف في كل شيء على حسب ما أراده في الأزل. قال الرازي: المُلك: تمام القدرة واستحكامها، يقال: ملِك بين المُلك بالضم، ومالك بين المِلك بالكسر. ﴿هُوَ ٱلَّذِى

خَلَقَكُمْ﴾؛ أي: قدر خلقكم في الأزل. وكذا قوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾؛ أي: مقضي بكفره وإيمانه أزلاً. ﴿بِالْحَقِّ﴾: الباء للملابسة؛ أي: خلقاً متلبساً بالحق؛ أي: بالحكمة البالغة. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ أصله: تسررون، بوزن تفعلون، نقلت حركة الراء الأولى إلى السين فسكنت فأدغمت في الثانية. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ هذا الاستفهام للتعجيب من حالهم. والنبأ: الخبر الهام. ﴿فَذَاقُوا﴾ أصله: ذوقوا، بوزن فعلوا، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. والذوق وإن كان معروفاً في القليل فهو مستعمل في الكثير أيضاً. ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: عقوبة كفرهم. والوبال: الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور. والوبل والوابل: المطر الثقيل القطار، مقابل الطل، وهو: المطر الخفيف، ومنه: الوبيل، للطعام الثقيل على المعدة. و﴿أمرهم﴾: كفرهم، فهو واحد الأمور، عبر عنه بذلك للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة. ﴿يَهْدُونَنَا﴾ أصله: يهديوننا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما حذفت التقى ساكنان فحذفت لذلك، وضمت الدال لمناسبة الواو. ﴿وَتَوَلَّوا﴾ أصله: توليوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾؛ أي: أظهر غناه عنهم إذ أهلكهم وقطع دابرهم. وأصله: استغنى بوزن استفعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والزعم: ادعاء العلم بالشيء، وأكثر ما يستعمل للادعاء الباطل، فمعنى زعم فلان كذا: ادعي علمه بحصوله، فمعنى زعمت زيداً قائماً: أقول إنه كذا. ففي تصدير الجملة بقوله: (زعمت) إشعار بأنه لا سند للحكم سوى ادعائه إياه وقوله به. ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾: ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، ﴿لَن﴾: ناصبة؛ لئلا يدخل ناصب على ناصب. ﴿بَلَى﴾: كلمة للجواب تقع بعد النفي لإثبات ما بعده، كما وقع في الآية. ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾؛ أي: لتحاسبن، وتجزون بأعمالكم. أصله: لتبعثون، بنون واحدة، ثم اتصلت به نون التوكيد الثقيلة فصار لتبعثوننّ بثلاث نونات فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال فصار لتبعثونّ فالتقى ساكنان فحذفت الواو لذلك، وكذا القول في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ لا يختلفان.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ والتغابن تفاعل من الغبن، وليس على بابه، يقال: تغابن القوم في التجارة، إذا غبن بعضهم بعضاً في معاملة بينهم بضرب من التدليس؛ كأن يبيع أحدهم الشيء بأقل من قيمته، فهذا غبن البائع، أو يشتريه بأكثر من قيمته،

وهذا غبن للمشتري. والمراد بالمغبون هنا: من غبن عن منازله ومنازل أهله في الجنة، فيظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان. وهو هنا مستعار من تغابن القوم في التجارة، كما سيأتي. ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟﴾ أصله: تعفوون، بوزن تفعلون، حذفت منه نون الرفع لدخول أداة الجزم، ثم سكنت الواو الأولى لام الكلمة لتكون حرف مد لوقوعها إثر ضمة، فلما سكنت التقى ساكنان؛ لأن واو الجماعة التي بعدها ساكنة فحذفت الواو لام الكلمة، فوزنه: تفعو.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾: أصل هذه المادة: (و ق ي)؛ لأن المصدر منها الوقاية. وأصل اتقوا: اوتقيوا، أبدلت الواو فاء الكلمة تاءً وأدغمت في تاء الافتعال، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت للتخفيف، فلما سكنت حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، فحذفت وضمت القاف لمناسبة الواو، وهذا بعد حذف نون الرفع عند بناء الأمر من الأفعال الخمسة. قوله: ﴿ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فيه إعلال بالنقل والحذف، أصله: استطوع، بوزن استفعل، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت الواو لما سلبت حركتها، ثم لما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك سكن آخره فالتقى ساكنان حينئذٍ، وهما: الواو عين الفعل، والعين لامه، فحذفت الواو، فوزنه: استفلتم. قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ أصله: وأطوعوا، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد. ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾: يوق بوزن يفع؛ لحذف لامه للجازم؛ أي: يكف ويحفظ ويعصم؛ أي: يكفه الله شح نفسه، فيفعل في ماله جميع ما أمر به موقناً به مطمئناً إليه، حتى ترتفع عن قلبه الأخطار. والشح: خُلق باطني، هو الداء العضال، والبخل: فعل ظاهر ينشأ عن الشح. والنفس تارة تشح بترك المعاصي بأن تفعلها، وتارة تشح بالطاعات فتتركها، وتارة تشح بإعطاء المال. ومن فعل ما فرض عليه.. خرج عن الشح. ا هـ. «خطيب».

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ والقرض الحسن هو: التصدق من الحلال بإخلاص وطيب نفس. قال في «اللباب»: القرض: القطع، ومنه: المقراض لما يقطع، وانقرض القوم إذا هلكوا، وانقطع أثرهم. وقيل للقرض: قرض، لأنه قطع شيء من المال، هذا أصل الاشتقاق. ثم اختلفوا فيه، فقيل: اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء، سمي قرضاً من حيث التزام الله سبحانه المجازاة عليه. وفي تسميته قرضاً أيضاً مزيد

ترغيب في الصدقة؛ حيث جعلها قرضاً لله مع أن العبد إنما يقرض نفسه؛ لأن النفع عائد عليه. ا هـ. «شيخنا». قال القشيري: ويتوجه الخطاب بهذا على الأغنياء في بذل أموالهم، وعلى الفقراء في عدم إخلاء أوقاتهم عن مراد الحق ومراقبته على مراد أنفسهم. فالغني يقال له: آثر حكمي على مرادك في مالك وغيره، والفقير يقال له: آثر حكمي في نفسك وقلبك ووقتك. ا هـ. «خطيب». ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ من المضاعفة، بمعنى التضعيف؛ أي: التكثير، فليس المفاعلة هنا للاشتراك. ﴿شَكُورٌ﴾ والشكور مبالغة الشاكر. والشكر على أقسام: شكر بالبدن؛ وهو: أن لا تستعمل جوارحك في غير طاعته، وشكر بالقلب، وهو: أن لا تشغل قلبك بغير ذكره ومعرفته، وشكر باللسان؛ وهو: أن لا تستعمله في غير ثنائه ومدحه، وشكر بالمال؛ وهو: أن لا تنفقه في غير رضاه ومحبته. وأحسن وجوه الشكر لنعم الله أن لا تستعملها في معاصيه بل في طاعته.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تكرار (ما) في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾. إفادة للتأكيد والتعميم، وإيذاناً للاختلاف؛ لأن تسبيح ما في السماوات مخالف لتسبيح ما في الأرض كثرة وقلة، وإسرارنا مخالف لعلانيتنا. ولم تُكرر ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ لعدم اختلاف علمه تعالى؛ إذ علمه بما تحت الأرض كعلمه بما فوقها، وعلمه بما يكون كعلمه بما كان.

ومنها: تقديم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾ للدلالة على اختصاص الأمرين به تعالى من حيث الحقيقة؛ لأنه مبدؤ كل شيء ومبدعه، فكان الملك له حقيقة دون غيره، ولأن أصول النِّعم وفروعها منه تعالى. فالحمد له تعالى حقيقة، وحمد غيره إنما يقع من حيث ظاهر الحال وجريان النِّعم على يديه. ا هـ. «كرخي».

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿الأرض﴾ وبين ﴿كَافِرٞ﴾ و﴿مُّؤۡمِنٞۚ﴾، وبين ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾.

ومنها: تقديم الأعم ثم الأخص في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾؛ لأن كل واحدة من هذه الثلاث أخص مما قبلها، وجمع بينهما إشارة إلى أن علمه تعالى محيط بالجزئيات والكليات لا يعزب عنه شيء من الأشياء. ا هـ. «خطيب».

ومنها: عطف المسبب على السبب في قوله: ﴿كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾؛ لأن الذوق مسبب عن الكفر.

ومنها: الترقي من الأظهر إلى الأخفى في هذه الثلاثة المذكورة، لأنه تعالى عالم بما في السماوات وما في الأرض، وبما يصدر من بني آدم سراً وعلناً، وبما لم يصدر بعد بل هو مكنون في الصدور.

ومنها: إظهارالجلالة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ للإشعار بعلية الحكم وتأكيد استقلال الجملة قبل.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لاختلاف الحركات في الشكل.

ومنها: التعبير بالذوق في قوله: ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ إشارة إلى أن ذلك المذوق العاجل شيء حقير بالنسبة إلى ما سيرون من العذاب الآجل.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾؛ لأن الوبال حقيقة في الثقل، فاستعاره للعقوبة، لأنها كالشيء الثقيل المحسوس.

ومنها: التعبير عن كفرهم بالأمر في قوله: ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: كفرهم؛ للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ﴾. أطلق على القرآن النور بطريق الاستعارة التصريحية بجامع الإزالة في كلّ، فإن القرآن يزيل الشبهات كما يزيل النور الظلمات.

ومنها: الالتفات إلى نون العظمة في قوله: ﴿أَنزَلْنَاۚ﴾ لإبراز كمال العناية.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ﴾.

ومنها: المقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا...﴾ الآية، وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾. شبهت حال الفريقين المتمكنين من اختيار ما يؤدي إلى سعادة الآخرة، فاختار كل فريق ما يشتهيه مما كان قادراً عليه بدل ما اختاره الآخر. وشبهه بحال المتبادلين بالتجارة، وشبه ما يتفرع عليه من نزول كل منهما منزلة الآخر بالتغابن؛ لأن التغابن تفاعل من الغبن، وهو أخذ الشيء من صاحبه بأقل من قيمته، وهو لا يكون إلا في عقد المعاوضة ولا معاوضة في الآخرة فإطلاق التغابن على ما يكون فيها إنما هو بطريق الاستعارة التمثيلية. وفي الآية أيضاً فن التهكم؛ لأنه يتهكم بالأشقياء، لأن نزولهم منازلهم في النار ليس بغبن.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية، وتوضيح مورد التولي في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: أعرضتم عن إطاعة الرسول، كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: إظهار الرسول مضافاً إلى نون العظيمة في مقام إضماره؛ لتشريفه - ﷺ -، والإشعار بمدار الحلم الذي هو كون وظيفته - ﷺ - محض البلاغ، ولزيادة تشنيع التولي عنه - ﷺ -.

ومنها: إظهار الجلالة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الإضمار، للإشعار بعلية التوكل، والأمر به. فإن الألوهية مقتضية للتبتل إليه تعالى، وقطع التعلق عما سواه بالمرة.

ومنها: الإتيان بـ﴿مِنْ﴾ التبعيضية في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾ إشعاراً بأن منها ما ليس بعدو بل هو عون على الدنيا والآخرة.

ومنها: الحث على العفو والصفح في قوله: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟﴾ إشعاراً بأنه ليس المراد من الأمر بالحذر وتركهم بالكلية والإعراض عن معاشرتهم ومصاحبتهم، كيف؟ والنساء من أعظم نعم الجنة، وبها نظام العالم. فإنه لولا الأزواج لما وجد الأنبياء والأولياء والعلماء والصلحاء، وإنما يحذر من التعلق بها،

ومحبتها الشاغلة عن محبة الله تعالى.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ﴾؛ لأن جميع الأموال والأولاد فتنة؛ لأنه لا يرجع إلى مال أو ولد إلا وهو مشغول القلب به.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ شبه الإنفاق في سبيل الله والتصدق على الفقراء بمن يقرض الله قرضاً حسناً وأحب الوفاء، وذلك بطريق التمثيل، وهو من لطيف الاستعارة وبديع العبارة، وقيل في قوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ استعارة تصريحية تبعية، وفي قوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ استعارة تصريحية أصلية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على ما يلي:

١ ـ صفات الله الحسنى.

٢ ـ إنذار المشركين بذكر ما حل بمن قبلهم من الأمم.

٣ ـ إنكار المشركين للبعث.

٤ ـ بيان أن ما يحدث في الكون فهو بأمر الله وتقديره.

٥ ـ تسلية الرسول ـ ﷺ ـ بأنه لا يضيره إصرارهم على الكفر.

٦ ـ أن من الأزواج والأولاد أعداء للمرء.

٧ ـ الأموال والأولاد فتنة.

٨ ـ الحث على التقوى والإنفاق في سبيل الله تعالى.

والله أعلم

* * *

سورة الطلاق

سورة الطلاق مدنية، نزلت بعد سورة الإنسان. قال القرطبي: مدنية في قول الجميع. وهي إحدى عشرة آية، وقيل: اثنتا عشرة. وكلماتها: مئتان وتسع وأربعون كلمة. وحروفها: ألف ومئة وسبعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه قال في السورة السابقة: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾، ولما كانت هذه العداوة قد تفضي إلى الطلاق.. أرشد هنا إلى أحكام الطلاق والانفصال عن الأزواج على أجمل وجه.

وقال أبو حيان[1]: مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر الفتنة بالمال والولد أشار إلى الفتنة بالنساء، وأنهن قد يعرضن الرجال للفتنة حتى لا يجد مخلصاً منها إلا بالطلاق.. فذكر أنه ينفصل منهن بالوجه الجميل؛ بأن لا يكون بينهن اتصال لا بطلب ولد ولا حمل، انتهى.

التسمية: وسميت سورة الطلاق لذِكر الطلاق فيها، وتسمى سورة النساء الصغرى.

الناسخ والمنسوخ: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة الطلاق كلها محكم،ليس فيها منسوخ ولا ناسخ.

والله أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك آنفاً بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها. وأما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما

---

(١) المراغي.

أمر[1] بإيقاع الطلاق واحدة فواحدة، ومنع الخروج من المنزل والإخراج منه إلا إذا أتين بفاحشة مبينة، ونهى عن تعدي تلك الحدود حتى لا يحصل الضرر والندم. . خيّر الرجل إذا شارفت عدة امرأته على الانتهاء بين أمرين: إما أن يراجعها ويعاشرها بإحسان، وإما أن يفارقها مع أداء حقوقها التي لها من التفضل والإكرام. فإذا اختار الرجعة. . فليشهد على ذلك شاهدين عدلين، قطعاً للنزاع ودفعاً للريبة، ثم أبان أن هذه الأحكام إنما شرعت للفائدة والمصلحة، وأرشد إلى أن تقوى الله تفتح السبل للمرء وتخرجه عن كل ضيق وتهديه إلى الطريق المستقيم في دينه ودنياه، وأن من يتوكل على ربه يكفيه ما أهمه ويفرج عنه كربه. ثم ذكر أن أمور الحياة جميعاً بقضاء الله وقدره، فلا يجزع المؤمن مما يصيبه من النوائب، ولا يفرح ولا يبطر بما يناله من خيراتها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّٰئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سبق أن الطلاق السني إنما يكون في طهر لا وقاع فيه ولم يبين مقدار العدة، وكان قد ذكر في سورة البقرة التي نزلت قبل هذه أن عدة الحائض ثلاثة قروء. . ذكر هنا عدة الصغار اللاتي لم يحضن والكبار اللاتي يئسن من المحيض تكون ثلاثة أشهر، وعدة الحامل تكون بوضع الحمل، سواء كانت مطلقة أو متوفى عنها زوجها.

قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر مقدار العدة للصغار والكبار والحوامل. . أرشد إلى ما يجب للمعتدة من النفقة والسكنى على مقدار الطاقة. ثم أردف ذلك ببيان: أن الحوامل لهن النفقة والسكنى مدة الحمل بالغة ما بلغت، فإذا هن ولدن. . وجب لهن الأجر على إرضاع المولود، فإن لم يتفقا عليه أتى بمرضع أخرى يدفع الأب نفقتها، والأم أحق بالإرضاع إذا هي رضيت بمثل أجرتها. والنفقة لكل من الموسر والمعسر على قدر ما يستطيع فالله لا يكلف نفساً إلا ما تطيق.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[2] لما ذكر أن الطلاق لا يكون إلا في أوقات مخصوصة، وأنه يجب انقضاء العدة حتى تحل المرأة لزوج آخر، وذكر مدة العدة

---

(1) المراغي.

وما يجب للمعتدة من النفقة والكسوة، ونهى عن تجاوز حدود الله تعالى، وأن من يتجاوزها يكون قد ظلم نفسه.. توعد هنا من خالفوا أمره وكذبوا رسله، وسلكوا غير ما شرعه، وأنذرهم بأن يحل بهم مثل ما حل بالأمم السالفة التي كذبت رسلها فأخذها أخذ عزيز مقتدر وأصبحت كأمس الدابر وصارت مثلاً في الآخرين.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أنذر مشركي مكة بأنهم إن لم يتبعوا أوامر الرسول ـ ﷺ ـ يحل بساحتهم مثل ما حل بسائر الأمم قبلهم ممن كذبوا رسلهم وعتوا عن أمر ربهم فاستؤصلوا وبادوا في الدنيا، وسيحل بهم العذاب الذي لا مرد له في الآخرة.. ذكر هنا عظيم قدرته وسلطانه وبديع خلقه للعالم العلوي والسفلي؛ ليكون ذلك باعثاً لهم على استجابة دعوة الرسول والعمل بما أنزل عليه من تشريع فيه سعادة الدارين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن أنس قال: (طلق رسول الله ـ ﷺ ـ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ...﴾ الآية. فقيل له: راجعها، فإنها صوامة قوامة). وأخرجه ابن جرير عن قتادة أيضاً مرسلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه الحاكم عن جابر قال: نزلت هذه الآية، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ في رجل من أشجع كان فقيراً، خفيف ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ، فسأله، فقال له: «اتق الله واصبر»، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم، وكان العدو أصابوه، فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ، فأخبره خبرها، فقال: «كلها»، فنزلت الآية. قال الذهبي: حديث منكر له شاهد.

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال:

---

(١) لباب النقول.

جاء عوف بن مالك الأشجعي، فقال: يا رسول الله، إن ابني أسره العدو وجزعت أمه، فما تأمرني؟ قال: «آمرك وإياها أن تستكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله» فقالت المرأة: نِعم ما أمرك، فجعلا يكثران منها، فتغفل عنه العدو فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، وهي أربعة آلاف شاة، فنزلت ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا . . .﴾ الآية. وأخرجه الخطيب في «تاريخه» من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البيهقي، والحاكم في جماعة آخرين عن أبي بن كعب: أن ناساً من أهل المدينة لما نزلت آية البقرة في عِدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عدد لم تذكر في القرآن؛ الصغار، والكبار اللاتي قد انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل؟ فأنزل الله تعالى في سورة النساء الصغرى ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ . . .﴾ الآية. وروي: أن قوماً، منهم: أبي بن كعب وخلاد بن النعمان، لما سمعوا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ قالوا: يا رسول الله، فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر؟ فنزلت: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ . . .﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ الكريم ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ أي[1]: إذا أردتم تطليق النساء المدخول بهن المعتدات بالأقراء، وعزمتم عليه بقرينة ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ مستقبلات ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ متوجهات إليها، وهي الحيض عند الحنفية. فاللام متعلقة بمحذوف دل عليه معنى الكلام، والمراد أن يطلقن في طهر لم يقع فيه جماع ثم يتركن حتى تنقضي عدتهن. فإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم على القرء الأول من أقرائها.. فقد طلقت مستقبلة لعدتها. والأقراء عند أبي حنيفة هي الحيض. وقال الجرجاني: واللام في قوله: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ بمعنى (في)؛ أي: طلقوهن في زمن استئناف عدتهن، وهو الطهر الذي لم يجامع فيه، كما عليه الشافعي، فالأقراء عند الشافعي هي الأطهار، فإذا طلقوهن هكذا.. فقد طلقوهن في عدتهن.

(١) روح البيان.

وتخصيص النداء به ـ ﷺ ـ مع عموم الخطاب لأمته أيضاً لتحقيق أنه المخاطب حقيقة، ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه ـ ﷺ ـ إياهم وتغليبه عليهم، ففيه تغليب المخاطب على الغائب.

والمعنى: إذا طلقت أنت وأمَّتك. وقيل: خصه بالنداء أولاً تشريفاً له ثم خاطبه مع أمَّته، أو: الخطاب له خاصة، والجمع للتعظيم، وأمَّته أسوته في ذلك. وفي «الكشاف»: خص النبي ـ ﷺ ـ بالنداء وعمم بالخطاب لأن النبي إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان، افعلوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه، وأنه لسان قومه، فكأنه هو وحده في حكم كلهم لصدورهم عن رأيه، كما قال البقلي: إذا خاطب السيدُ.. بان شرفه على الجمهور: إذ جَمَعَ الجميع في اسمه. ففيه إشارة إلى سر الإتحاد.

وفي «كشف الأسرار»: في هذا الخطاب أربعة أقوال:

أحدها: أنه خطاب للرسول ـ ﷺ ـ، وذكر بلفظ الجمع تعظيماً له، كما يخاطب الملوك بلفظ الجمع.

والثاني: أنه خطاب له، والمراد أمَّته.

والثالث: أن التقدير: يا أيها النبي والمؤمنون إذا طلقتم، فحذف لأن الحكم يدل عليه.

والرابع: معناه: يا أيها النبي قل للمؤمنين: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، انتهى. يقول الفقير: هذا الأخير أنسب بالمقام، فيكون مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لأن النبي ـ ﷺ ـ، وإن كان أصيلاً في المأمورات كما أن أمته أصيل في المنهيات؛ إلا أن الطلاق لما كان أبغض المباحات إلى الله تعالى.. كان الأولى أن يسند التطليق إلى أمته دونه ـ ﷺ ـ مع أنه ـ ﷺ ـ قد صدر منه التطليق، فإنه طلق حفصة بنت عمر ـ رضي الله عنهما ـ واحدة، فلما نزلت الآية.. راجعها، وكانت علَّامةً كثيرة الحديثِ قريباً منزلتها من منزلة عائشة ـ رضي الله عنهما ـ: فقيل له ـ ﷺ ـ: راجعها، فإنها صوامة قوامة، وإنها من نسائك في الجنة، حكاه الطبري. وفي الحديث بيان فضل العلم وحفظ الحديث، ومحبة الصيام والقيام، وكرامة أهلهما عنده تعالى.

قال في «المفردات»: أصل الطلاق: التخلية من وثاق، ويقال: أطلقت البعير من عقاله، وطلقته، وهو طالق وطلق بلا قيد، ومنه استعير: طلقت المرأة إذا خليتها، فهي طالق؛ أي: مخلاة عن حبالة النكاح، انتهى. والطلاق اسم مصدر بمعنى كالتطليق كالسلام بمعنى التسليم، والكلام بمعنى التكليم، وفي ذلك قالوا: المستعمل في المرأة لفظ التطليق، وفي غيرها لفظ الإطلاق؛ حتى لو قال: أطلقتك.. لم يقع الطلاق ما لم ينو. ولو قال: طلقتك.. وقع نوى أو لم ينو.

والعدة[1]: مصدر عدّه يعده. وفي الحديث: سئل رسول الله - ﷺ - متى تكون القيامة؟ قال: «إذا تكاملت العدتان»؛ أي: عدة أهل الجنة وعدة أهل النار؛ أي: عددهم. وسمي الزمان الذي تتربص المرأة عقيب الطلاق أو الموت عدة؛ لأنها تعد الأيام المضروبة عليها، وتنتظر أوان الفرج الموعود لها.

والمعنى[2]: أي أيها المؤمنون: إذا أردتم طلاق نسائكم.. فطلقوهن لزمان محسوب من عدتهن، وهو طهر لا قربان فيه؛ حتى لا يطول عليهن زمان العدة، فإن طلقتموهن في زمان الحيض.. كان الطلاق طلاقاً بدعياً حراماً. والمراد بالنساء: المدخول بهن من ذوات الأقراء. أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن، وذات الأشهر سيأتي حكمهن فيما بعد.

أخرج الشيخان، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في آخرين عن ابن عمر: أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمرُ لرسول الله - ﷺ -، فتغيظ منه، ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، فإن بدا له أن يطلقها.. فليطلقها قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء».

والخلاصة: أن السنة في الطلاق: أن تطلق المرأة وهي طاهرة، دون أن يكون الرجل لامسها في هذا الطهر، أو أن يطلقها وهي حامل حملاً مستبيناً. ومن هذا قسم الفقهاء الطلاق أقساماً ثلاثة:

١ - طلاق سنة، وهو: أن يطلقها طاهرة من غير قربان، أو حاملاً حملاً قد استبان.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

٢ ـ طلاق بدعة، وهو: أن يطلقها حين الحيض، أو في طهر قد واقعها فيه فلا يدري أحملت أم لا؟ والسرّ في هذا[1]: أنه بعمله هذا أطال عليها العدة؛ لأن هذه الحيضة لا تحسب في العدة، وكذا الطهر الذي بعدها؛ لأنها إنما تكون بثلاث حيضات كوامل.

٣ ـ طلاق لا هو سنة ولا بدعة، وهو: طلاق الصغيرة، والآيسة من الحيض، وغير المدخول بها. وقد روي عن إبراهيم النخعي: أن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ كانوا يستحبون أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة، ثم لا يطلقون غير ذلك حتى تنقضي العدة، وما كان أخس عندهم من أن يطلق الرجل ثلاث تطليقات. وقال مالك بن أنس: لا أعرف طلاقاً إلا واحدة، وكان يكره الثلاث متفرقة أومجموعة. وأبو حنيفة وأصحابه يكرهون ما زاد على الواحدة في طهر واحد. وعند الشافعي: لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سُنة، ولا بدعة، بل هو مباح.

والخلاصة: أن مالكاً يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت، وأن أبا حنيفة يراعي التفريق والوقت، والشافعي يراعي الوقت وحده.

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾؛ أي: واحفظوا عدة الأقراء بحفظ الوقت الذي وقع فيه الطلاق، وأكملوها ثلاثة أقراء كوامل لا نقصان فيهن؛ أي: ثلاث حيض، كما عند أبي حنيفة؛ لأن الغرض من العدة استبراء الرحم، وكماله بالحيض الثلاث لا بالأطهار، كما يغسل الشيء ثلاث مرات لكمال الطهارة؛ أي: واحفظوا العدة واحفظوا الوقت الذي وقع في الطلاق، واعرفوا ابتداءها وانتهاءها؛ لئلا تطول على المرأة، واحفظوا الأحكام والحقوق التي تجب فيها.

والمخاطب بالإحصاء هم الأزواج لا الزوجات ولا المسلمون كما قيل، وإلا.. يلزم تفكيك الضمائر، ولكن الزوجات داخلة فيه بالإلحاق، وإنما خوطب الأزواج بذلك دون النساء؛ لأنهم هم الذين تلزمهم الحقوق والمؤن المرتبة عليها.

وقال أبو الليث: أمر الرجال بحفظ العدة: لأن في النساء غفلة، فربما لا

---

(١) المراغي.

تحفظ عدتها، فالزوج يحصي ليتمكن من تفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثاً. فإن إرسال الثلاث في طهر واحد مكروه عند أبي حنيفة وأصحابه وإن كان لا بأس به عند الشافعي وأتباعه، حيث قال: لا أعرف في عدد الطلاق سُنة ولا بدعة، وهو مباح، وليعلم بقاء زمان الرجعة ليراجع إن حدثت له الرغبة فيها، وليعلم زمان وجوب الإنفاق عليه وانقضاءه، وليعلم أنها هل تستحق عليه أن يسكنها في البيت أو له أن يخرجها؟ وليتمكن من إلحاق نسب ولدها به وقطعه عنه.

قالوا[1]: وعلى الرجال في بعض المواضع العدة:

منها: أنه إذا كان للرجل أربع نسوة، فطلق إحداهن.. لا يحل له أن يتزوج بامرأة أخرى ما لم تنقض عدتها.

ومنها: أنه إذا كان له امرأة ولها أخت، فطلق امرأته.. لا يحل له أن يتزوج بأختها ما دامت في العدة.

ومنها: أنه إذا اشترى جارية.. لا يحل له أن يقربها ما لم يستبرئها بحيضة.

ومنها: أنه إذا تزوج حربية.. لا يحل له أن يقربها ما لم يستبرئها بحيضة.

ومنها: أنه إذا بلغ المرأةَ وفاةُ زوجها فاعتدت وتزوجت وولدت، ثم جاء زوجها الأول.. فهي امرأته، لأنها كانت منكوحته ولم يعترض شيء من أسباب الفرقة فبقيت على النكاح السابق، ولكن لا يقربها حتى تنقضي عدتها من النكاح الثاني، ووجوب العدة لا يتوقف على صحة النكاح إذا وقع الدخول، بل تجب العدة في صورة النكاح الفاسد أيضاً، على تقدير الدخول.

ومنها: أنه إذا تزوج امرأة وهي حائض.. لا يحل له أن يقربها حتى تتطهر من حيضها.

ومنها: أنه إذا تزوج بامرأة نفساء.. لا يحل له أن يقربها حتى تتطهر من نفاسها.

ومنها: إذا زنى بامرأة ثم تزوجها.. لا يحل له أن يقربها ما لم يستبرئها

---

(١) روح البيان.

بحيضة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن بإيقاع طلاق ثان بعد الرجعة، فالأمر بالتقوى متعلق بما قبله. والتقوى في الأصل[1]: اتخاذ الوقاية، وهي ما يقي الإنسان مما يكرهه ويؤمل أن يحفظه ويحول بينه وبين ذلك المكروه؛ كالترس ونحوه، ثم استعير في الشرع لاتخاذ ما يقي العبد بوعد الله ولطفه من قهره، ويكون سبباً لنجاته من المضار الدائمة وحياته بالمنافع القائمة، وللتقوى فضائل كثيرة ومراتب عديدة.

والمعنى: أي واخشوا الله ربكم ومالككم، فلا تعصوه فيما أمركم به من الطلاق لعدتهن وفي القيام بما للمعتدات من الحقوق، وفي وصفه تعالى بالربوبية مبالغة في وجوب الامتثال لأمره لما في لفظ الرب من التربية التي هي الإنعام والإكرام على ضروب لا حصر لها.

ثم بيّن بعض هذه الحقوق فقال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾؛ أي: لا تخرجوا أيها الأزواج المعتدات ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾؛ أي: من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة؛ أي: لا تخرجوهن من مساكنكم عند الفراق إلى أن تنقضي عدتهن. وإنما أضيفت إليهن مع أنها لأزواجهن لتأكيد النهي ببيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها أملاكهن، مثل قوله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾. وفي ذكر البيوت دون الدار إشارة إلى أن اللازم على الزوج في سكناهن ما تحصل المعيشة فيه؛ لأن الدار ما يشتمل على البيوت.

والمعنى: أي لا تخرجوا المعتدات من المساكن التي كنتم تساكنونهن، فيها قبل الطلاق غضباً عليهن أو كراهة لمساكنتهن أو لحاجة لكم إلى المساكن؛ لأن تلك السكنى حق الله تعالى، أوجبه للزوجات، فليس لكم أن تتعدوه إلا لضرورة؛ كانهدام المنزل، أو الحريق، أو السيل، أو خوف الفتنة في الدين.

ثم لما نهى الله سبحانه الأزواج عن إخراجهن من البيوت التي وقع الطلاق فيها.. نهى الزوجات عن الخروج أيضاً، فقال: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ المعتدات من بيوتهن

---

(١) روح البيان.

ولو بإذن منكم، فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج ولا أثر لاتفاقهما على الانتقال؛ لأن وجوب ملازمة مسكن الفراق حق الله تعالى ولا يسقط بإسقاط العبد، كما قال في «الكشاف»: فإن قلت: ما معنى الإخراج وخروجهن؟

قلت: معنى الإخراج أي: لا يخرجهن البعولة غضباً عليهن وكراهة لمساكنتهن أو لحاجة لهم إلى المساكن، وأن لا يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك، إيذاناً بأن إذنهم لا أثر له في دفع الحظر، ولا يخرجن بأنفسهم إن أردن ذلك، انتهى. وقيل: المراد: لا يخرجن بأنفسهن إلا إذا أذن لهن الأزواج فلا بأس، والأول أولى.

فإن خرجت المعتدة لغير ضرورة أو حاجة.. أثمت، فإن وقعت ضرورة؛ بأن خافت هدماً أو حرقاً.. لها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إن كانت لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن فيجوز لها الخروج نهاراً لا ليلاً، فإن خرجت ليلاً.. أثمت.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾؛ أي: بالزنا، فيخرجن لإقامة الحد عليهن ثم يعدن. قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا: الزنا، وقال الشافعي وغيره: هي البذاء في اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت، ويؤيد هذا ما قال عكرمة: إن في مصحف أبيّ: ﴿إلا أن يفحشن عليكم﴾. وقال بعضهم: ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ هنا بالكسر لازم؛ بمعنى: بيّن متبينة، كمبين من الإبانة؛ بمعنى: بين. والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وهو الزنا في هذا المقام، وقيل: البذاء - بالمد -. وهو: القول القبيح وإطالة اللسان، فإنه في حكم النشوز في إسقاط حقهن. فالمعنى: إلا أن يبذون عن الأزواج وأقاربهم، كالأب والأخ، فيحل حينئذٍ إخراجهن. وعن ابن عباس: هو كل معصية.

وهو استثناء من الأول: لا تخرجوهن في حال من الأحوال، إلا حال كونهن آتيات بفاحشة، أو من الثاني للمبالغة في النهي عن الخروج ببيان أن خروجها فاحشة. أي: لا يخرجن إلا إذا ارتكبن الفاحشة بالخروج. يعني: أن من خرجت.. أتت بفاحشة، كما يقال: لا تكذب إلا أن تكون فاسقاً، يعني: إن تكذب.. تكن فاسقاً.

والمعنى: أي لا يخرجن من بيوتهن إلا إذا فعلن ما يوجب حدّا، من زنا أو سرقة أو غيرهما، كما أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب، أو يبدون على الأحماء أو الأزواج. فيحل إخراجهن من بيوتهن لبذائهن وسوء خلقهن. أو خرجن متجولات عن منازلهن اللائي يجب عليهن أن يكملن العدة فيها، فأي ذلك فعلن فللأزواج إخراجهن من البيوت لإتيانهن بالفاحشة الواضحة التي ارتكبنها.

﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ وأحكامه التي عينها لعباده. والحد: الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر؛ أي: هذه الأمور التي بينتها لكم، من الطلاق للعدة، وإحصاء العدة، والأمر باتقاء الله، وأن لا تخرج المطلقة من بيتها إلا أن تأتي بفاحشة مبينة.. هي حدود الله وأحكامه التي حدّها لكم، فلا تتعدوها ولا تتجاوزوها.

ثم بيّن عاقبة تجاوز تلك الحدود، فقال: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ أصله[1]: يتعدى، فحذفت اللام بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، وهو من التعدي بمعنى التجاوز؛ أي: ومن يتجاوز ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ أي: حدوده المذكورة وأحكامه، بأن أخل بشيء منها، والإظهار في مقام الإضمار لتهويل أمر التعدي، والإشعار بعلية الحكم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: أضر بها؛ أي: ومن يتجاوز ما شرع الله لعباده من شرائع وما أبيح له إلى ما لم يبح له.. فقد ظلم نفسه وأضر بها من حيث لا يدري.

ثم بيّن علة هذا الضرر، فقال: ﴿لَا تَدْرِى﴾ ولا تعلم أيها المرء. تعليل لمضمون الشرطية؛ أي: فإنك أيها المطلق المتعدِّي لا تدري ولا تعلم عاقبة أمرك وأمر المطلقة. ومفعول الدراية محذوف كما قدرنا. وجملة ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ، مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها؛ لأن الجمهور لم يعدوا ﴿لَعَلَّ﴾ من المعلقات، كما في «السمين». و﴿لَعَلَّ﴾ بمعنى: ﴿إِنَّ﴾ الناصبة؛ أي: لا تدري ولاتعلم أيها المطلق المتعدي بإيقاع ثلاث طلقات عاقبة أمرك وأمر المطلقة، فإن الله سبحانه ربما ﴿يُحْدِثُ﴾ ويوجد في قلبك ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الذي فعلت من التعدي عليها وإيقاع ثلاث طلقات ﴿أَمْرًا﴾ يقتضي خلاف ما فعلته من التعدي، فيبدل ببغضها محبة وبالإعراض عنها إقبالاً إليها، ولا يمكن تداركه برجعة أو استئناف نكاح، فإن القلوب بين

---

(١) روح البيان.

أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء. وإحداث الأمر: إيجاده بعد أن لم يكن. فالأمر الذي يحدثه الله تعالى أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدي إلى خلافه. فالظلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعديه ولا يمكنه تداركه، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوي والأخروي. ويخص التعليل بالدنيوي لكون احتراز الناس منه أشد واهتمامهم بدفعه أقوى. وقيل: ﴿لَعَلَّ﴾ معلقة لـ﴿تَدْرِى﴾ عن العمل في اللفظ، فجملتها في محل نصب سادة مسد المفعولين. والمقصود من الكلام: التحريض على طلاق الواحدة أو الثنتين، والنهي عن الثلاثة. وقوله: ﴿لَا تَدْرِى﴾ خطاب للمتعدي بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي لا للنبي - ﷺ - كما توهم.

والمعنى: ومن يتعد حدود الله.. فقد أضر بنفسه؛ فإنك لا تدري أيها المطلق المتعدي بإيقاع الثلاث وبإخراجها من البيوت أن الله ربما يحدث في قلبك بعد ذلك الذي فعلت - من التعدي بإيقاع الثلاث - أمراً يقتضي خلاف ما فعلت، فيبدل ببغضها محبة وبالإعراض عنها إقبالاً، ولا يمكنك تدارك ما فعلت من التعدي فتندم.

وفي الآية دلالة[1] على كراهة التطليق ثلاثاً بمرة واحدة؛ لأن إحداث الرجعة لا يمكن بعد الثلاث، ففي إيقاع الثلاث عون للشيطان، وفي تركها رغم له، فإن الطلاق من أهم مقاصده، كما روى مسلم من حديث جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن عرش إبليس على البحر فيبعث سراياه - أي: جنوده وأعوانه من الشياطين - فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده الأعظم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه ويقول: نِعْمَ أنت»؛ أي: نِعم المضل أنت، أو الشرير أنت. فيكون (نِعم) بكسر النون فعل مدح حذف المخصوص به، أو نَعَمْ أنت ذاك الذي يستحق الإكرام، فيكون بفتح النون حرف إيجاب.

والخلاصة[2]: أن من يتعد حدود الله.. فقد أساء إلى نفسه؛ فإنه لا يدري

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

عاقبة ما هو فاعل، فلعل الله يحدث في قلبه بعد ذلك التعدي أمراً يدعو إلى عكس ما فعل؟ فيبدل البغض محبّة والإعراض إقبالاً، ولا يمكن له تدارك ذلك برجعة أو استئناف نكاح، فتضيع الفرصة ويندم، ولات ساعة مندم.

تنبيه: الشريعة الإسلامية وإن أباحت الطلاق.. بغضت فيه وقبحته وبينت أنه ضرورة لا يلجأ إليها إلا بعد استنفاد جميع الوسائل؛ لبقاء رباط الزوجية الذي حببت فيه وجعلته من أجل النِّعم، فرغبت في إرسال حَكَم من أهله وحَكَم من أهلها قبل حدوث الطلاق؛ لعلهما يزيلان ما بين الزوجين من نفور، كما رغبت في أن تكون الطلقات الثلاث متفرقات؛ لعل النفوس تصفو بعد الكدر والقلوب ترعوي عن غيها، ولعلهما يندمان على ما فرط منهما، فتكون الفرصة مواتية ويمكن الرجوع إلى ما كانا عليه، بل قد يعودان إلى حال أحسن مما كانا عليه.

روى أبو داود عن محارب بن دثار: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ماأحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق». وروى الثعلبي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق». وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، فإن الله عزّ وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات»، وعن ثوبان: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس به.. حرم الله عليها رائحة الجنة» أخرجه أبو داود والترمذي.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ﴾؛ أي: شارفن وقاربن ﴿أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: آخر عدتهن وانقضاء أجلها ومدتها، وهي[1]: مضي ثلاثة أقراء، ولو لم تغتسل من الحيضة الثالثة، وذلك لأنه لا يمكن الرجعة بعد بلوغهن آخر العدة، فحمل البلوغ على المشارفة، كما قال في «المفردات»: البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى القصد والمبتغى، مكاناً كان أو زماناً، أو أمراً من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه وإن لم ينته إليه؛ مثل: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ ...﴾ إلخ، فإنه للمشارفة، فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل.. لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها. والأجل: المدة المضروبة للشيء. وقرأ الجمهور: ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ بالإفراد والضحاك وابن سيرين: ﴿أجالهن﴾ بالجمع.

---

(١) روح البيان.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾؛ أي: فأنتم بالخيار، فإن شئتم فراجعوهن. والرجعة تحصل بالقول، وكذا[1] عند أبي حنيفة بالوطيء واللمس والنظر إلى الفرج بشهوة فيهما؛ أي: راجعوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: بحُسن معاشرة وإنفاق لائق، ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارة لهن. وفي الحديث: «أكمل المؤمنين: أحسنهن خلقاً وألطفهن بأهله». ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾؛ أي: اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن نفوسهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: مع إيفاء مالهن عليكم من الحقوق وترك المضارة لهن؛ أي: فارقوهن بإيفاء حقوقهن واتقاء ضرارهن بأن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً للعدة. ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ أيها الأزواج؛ أي: على الرجعة وعلى الطلاق قطعاً للتنازع، إذ قد تنكر المرأة بعد انقضاء العدة رجعته فيها، وربما يموت أحدهما بعد الفرقة، ويدعي الباقي منهما ثبوت الزوجية لأخذ الميراث. ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾؛ أي: صاحبي عدالة. تثنية ذا بمعنى صاحب، منصوب بالياء؛ أي: أشهدوا اثنين صاحبي عدالة ﴿منكم﴾؛ أي: من المسلمين، كما قاله الحسن، أو من أحراركم كما قاله قتادة، يكونان عادلين لا ظالمين ولا فاسقين؛ أي[2]: وأشهدوا عادلين منكم على الرجعة، وقيل: على الطلاق، وقيل: عليهما، قطعاً للتنازع وحسماً لمادة الخصومة. والأمر للندب، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾. وقيل: إنه للوجوب، وإليه ذهب الشافعي، قال: الإشهاد واجب في الرجعة، مندوب إليه في الفرقة، وإليه ذهب أحمد بن حنبل. وفي قول للشافعي: إن الرجعة لا تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق. وروي نحو هذا عن أبي حنيفة وأحمد. والعدالة: هي الاجتناب عن الكبائر كلها، وعدم الإصرار على الصغائر، وغلبة الحسنات على السيئات، والآثام من غير إصرار لا يقدح في العدالة؛ إذ لا يوجد من البشر من هو معصوم سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كذا في «الفروع».

ومعنى الآية[3]: فإذا قاربت العدة على الانتهاء، فإن شئتم.. فأمسكوهن وراجعوهن، مع الإحسان في الصحبة، وحسن العشرة، وأداء الحقوق من النفقة والكسوة، وإن صممتم على المفارقة.. فلتكن بالمعروف، وعلى وجه لا عنف فيه ولا مشاكسة، مع إيفاء ما لهن من حقوق لديكم؛ كمؤخر صداق وإعطاء متعة حسنة

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

تذكركن بفضلها، ويتحدث الناس بحسن أحدوثتها، ويكون فيها جبر لخاطرهن لما لحقهن من ضرر بالفراق، وليكون فيها بعض السلوة لهن عما فقدنه من العشير والأنيس.

ثم ذكر ما يحسن إذا أرادوا الرجعة، فقال: ﴿وَأَشْهِدُواْ...﴾ إلخ؛ أي: وأشهدوا على الرجعة ـ إن اخترتموها ـ شاهدين من ذوي العدالة، حسماً للنزاع فيما بعد، إذ ربما يموت الزوج فيدعي الورثة أن مورثهم لم يراجع؛ ليمنعوها ميراثها، ودفعاً للقيل والقال وتهمة الريبة، ومخافة أن تنكر المرأة الرجعة لتقضي عدتها وتنكح زوجاً غيره.

ثم خاطب الشهداء زجراً لهم، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾؛ أي: وأدوا ـ أيها الشهداء ـ الشهادة عند الحاجة إلى أدائها خالصة لله تعالى؛ وذلك بأن يؤدوها لله لا للمشهود له وعليه، ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الظلم، فلو شهد لغرض لا لله.. برىء بها من وبال كتم الشهادة، لكن لا يثاب عليها؛ لأن الأعمال بالنيات.

والحاصل[1]: أن الشهادة أمانة، فلا بد من تأدية الأمانة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾. فلو كتمها فقد خان، والخيانة من الكبائر، دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾؛ أي: وأشهدوا على الحق إذا استشهدتم، وأدوا الشهادة على الصحة، إذ أنتم دعيتم إلى أدائها. وإنما حث على أداء الشهادة لما قد يكون فيه من العسر على الشهود؛ إذ ربما يؤدي ذلك إلى أن يترك الشاهد مهام أموره، ولما فيه من عسر لقاء الحاكم الذي تُؤدَّىٰ الشهادة عنده، وقد يبعد المكان أو يكون للشاهد عوائق تحول بينه وبين أدائها.

وهذا[2] أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقرباً إلى الله تعالى. وقيل: الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة؛ أي: الشهود عند الرجعة، فيكون قوله: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أمراً بنفس الإشهاد، ويكون قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أمراً بأن تكون خالصة لله.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الحث على الشهادة والإقامة، أو على جميع ما في الآية من إيقاع الطلاق على وجه السنة، وإحصاء العدة، والكف عن الإخراج والخروج، والإشهاد، وإقامة الشهادة بإدائها على وجهها من غير تبديل ولا تغيير. وهو مبتدأ خبره ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ الوعظ: زجر يقترن بتخويف؛ أي: يتعظ به ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وخص[1] المؤمن بالله واليوم الآخر، لأنه المتنفع بذلك دون غيره، ولأنه المقصود تذكيره. ولم يقل: ذلكم توعظون به كما في سورة المجادلة لتهييج المؤمنين على الغيرة، فإن من لا غيرة له لا دين له. ومِنْ مقتضى الإيمان بالله: مراعاة حقوق المعبودية والربوبية، وباليوم الآخر: الخوف من الحساب والعذاب، والرجاء للفضل والثواب. فالمؤمن بهما يستحيي من الخالق والخلق فلا يترك العمل بما وعظ به.

والمعنى[2]: أي هذا الذي أمرتكم به وعرفتكم عنه، من أمر الطلاق والواجب لبعضكم على بعض حين الفراق أو الإمساك، عظة منا لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ ليعمل على نهجها وطريقتها.

ودلت الآية[3] على أن للإنسان يومين: اليوم الأول وهو يوم الدنيا، واليوم الآخر وهو يوم الآخرة. واليوم عرفاً: زمان طلوع الشمس إلى غروبها، وشرعاً: زمان طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس. وهذان المعنيان ليسا بمرادين هنا، وهو ظاهر، فيكون المراد مطلق الزمان، ليلاً كان أو نهاراً، طويلاً كان أو قصيراً. وذلك الزمان إما محدود؛ وهو زمان الدنيا المراد باليوم الأول، أو غير محدود؛ وهو زمان الآخرة المراد باليوم الآخر الذي لا آخر له لتأخره عن يوم الدنيا.

ثم أتى بجملة معترضة بين ما سلف وما سيأتي لتأكيد ما سبق من الأحكام والخروج من مشاكلها بعد اتقاء الله سبحانه فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ سبحانه في طلاق البدعة، فطلق للسنة ولم يضار المعتدة، ولم يخرجها من مسكنها، واحتاط في الإشهاد وغيره من الأمور ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ مصدر ميمي؛ أي: خروجاً وخلاصاً مما عسى يقع في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق، ويفرج عنه ما يعتريه من الكروب. وقال بعضهم: هو عام؛ أي: ومن يتق الله في كل ما يأتي وما

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

يذر.. يجعل له خروجاً من كل ضيق يشوش البال ويكدر الحال، وخلاصاً من غموم الدنيا والآخرة، فيندرج فيه ما نحن فيه اندراجاً أولياً. وقيل: معناه: ومن يتق الله.. فليطلق للسنة، يجعل له مخرجاً إلى الرجعة، وعن النبي - ﷺ -: أنه قرأها، فقال: «مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة». وفي «الجلالين»: من الشدة إلى الرخاء، ومن الحرام إلى الحلال، ومن النار إلى الجنة، أو اسم مكان بمعنى يخرجه إلى مكان يستريح فيه. وسئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عمن طلق امرأته ثلاثاً أو ألفاً، هل له من مخرج؟ فقال: لم يتق الله فلم يجعل له مخرجاً، بانت منه بثلاث، والزيادة إثم في عنقه.

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ بعد ذلك الجعل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ولا يظن. ﴿مِنْ﴾ ابتدائية متعلقة بـ﴿يرزقه﴾؛ أي: من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه، فيوفي المهر ويؤدي الحقوق ويعطي النفقات. قال في «عين المعاني»: من حيث لا يرتقب من الظن، أو يعتد من الحساب.

والمعنى(1): أي ومن يخش الله، فلا يطلّق في الحيض حتى لا تطول عدتها، ولا يضار المعتدة، فلا يخرجها من مسكنها، ويحتاط بالإشهاد حين الرجعة.. يجعل الله له مخلصاً مما عسى أن يقع فيه من الغم، ويفرج عنه ما يعتريه من الكرب، ويرزقه من جهة لا تخطر بباله ولا يحتسبها.

والخلاصة: من اتقى الله.. جعل له مخلصاً من غمّ الدنيا وهم الآخرة، وغمرات الموت وشدائد يوم القيامة. وفي الآية إيماء إلى أن التقوى ملاك الأمر عند الله، وبها نيطت السعادة في الدارين، وإلى أن الطلاق من الأمور التي تحتاج إلى فضل تقوى، إذ هو أبغض الحلال إلى الله؛ لما يتضمنه من إيحاش الزوجة وقطع الألفة بينها وبين زوجها، ولما في الاحتياط في العدة من المحافظة على الأنساب وهي من أجل مقاصد الدين، ومن ثم شدد في إحصاء العدة حتى لا تختلط ويكون أمرها فوضى. روي عن ابن مسعود: أنه قال: إن أجمع آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، وإن أكبر آية في القرآن فرجاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾.

---

(1) المراغي.

وقيل المعنى[1]: أي ومن يتق عذاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والوقوف على حدوده التي حدها لعباده وعدم مجاوزتها.. يجعل له مخرجاً مما وقع فيه من الشدائد والمحن، ويرزقه من جهة لا يخطر بباله ولا يكون في حسابه.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في جميع أحواله، ويعتمد عليه في جميع أموره ﴿فَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿حَسْبُهُۥٓ﴾؛ أي: كافي المتوكل عليه في جميع أموره ومعطيه حوائجه حتى يقول: حسبي. أو: من وثق بالله فيما نابه.. كفاه ما أهمه. والتوكل: سكون القلب في كل موجود ومفقود، وقطع القلب عن كل علاقة، والتعلق بالله في جميع الأحوال. و﴿حسبه﴾ بمعنى: محسب؛ أي: كاف.

فإن قلت: إذا كان حكم الله في الرزق لا يتغير، فما معنى التوكل؟

قلت: معناه: أن المتوكل يكون فارغ القلب ساكن الجأش غير كاره لحكم الله، فلهذا كان التوكل محموداً.

والمعنى[2]: أي ومن يكل أمره إلى الله ويفوض إليه الخلاص منه.. كفاه ما أهمه في دنياه ودينه، والمراد بذلك: أن العبد يأخذ في الأسباب التي جعلها من سننه في هذه الحياة، ويؤديها على أمثل الطرق، ثم يكل أمره إلى الله فيما لا يعلمه من أسباب لا يستطيع الوصول إلى علمها، كتوكل الزارع بعد إلقاء الحب في الأرض. وكان السلف يقولون: اتّجروا واكتسبوا، فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم.. كان أول ما يأكل دينه. وربما رأوا رجلاً في جماعة جنازة، فقالوا له: اذهب إلى دكانك. وليس المراد أن يلقي الأمور على عواهنها ويترك السعي والعمل ويفوض الأمر إلى الله، فما بهذا أمر الدين؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾، وقوله - ﷺ -: «اعقلها وتوكل» إلى نحو ذلك مما هو مستفيض في الكتاب والسنة.

وروي عن ابن عباس: أنه ركب خلف رسول الله - ﷺ - يوماً، فقال له رسول الله - ﷺ -: «يا غلام! إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت.. فاسأل الله، وإذا استعنت.. فاستعن بالله، واعلم: أن الأمة

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

لو اجتمعت على أن ينفعوك.. لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك.. لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ثم ذكر السبب في وجوب التوكل عليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ بالإضافة؛ أي: منفذ أمره ومتم مراده، وممضي قضائه في خلقه، فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه، إلا أن من توكل عليه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بالغ﴾ بالتنوين، ﴿أمرَه﴾ بالنصب.

وقرأ حفص والمفضل، وأبان، وجبلة وابن أبي عبلة، وجماعة عن أبي عمرو، ويعقوب، وابن مصرف، وزيد بن علي بالإضافة.

وقرأ ابن أبي عبلة أيضاً، وداود بن أبي هند، وعصمة عن أبي عمرو: ﴿بالغ أمرُه﴾ بتنوين ﴿بالغٌ﴾ ورفع ﴿أمرُه﴾ على أنه فاعل بالغ أو على أن ﴿أمره﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿بالغ﴾ خبر مقدم، وقال الفراء في توجيه هذه القراءة: أي أمره بالغ.

والمعنى على القراءة الأولى والثانية: أن الله سبحانه بالغ ما يريده من الأمر، لا يفوته شيء ولا يعجزه مطلوب. وعلى القراءة الثالثة: أن الله نافذ أمره لا يرده شيء.

وقرأ المفضل ﴿بالغاً﴾ بالنصب على الحال، ويكون خبر ﴿إنَّ﴾ قوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ ويجوز أن تخرج هذه القراءة على قول من ينصب بإن الجزئين، كقوله:

إِذَا ٱسْوَدَّ جُنْحُ ٱللَّيْلِ فَلْتَأْتِ وَلْتَكُنْ ... خُطَاكَ خِفَافاً إِنَّ حُرَّاسَنَا أُسْدَا

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِكُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الشدة والرخاء، والفقر والغنى، والموت والحياة، ونحو ذلك ﴿قَدۡرٗا﴾؛ أي: تقديراً، متعلقاً بنفس ذاته وبزمانه ومكانه، وبجميع كيفياته وأوصافه، وأنه بالغ ذلك المقدر على حسب ما قدره. أو جعل له مقداراً وحدًّا معيناً، أو وقتاً وأجلاً ونهاية ينتهي إليه، لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه ولا يتأتى تغييره. وفي «التأويلات النجمية»: أي رتبة وكمالاً

---

(١) البحر المحيط.

يليق بذلك الشيء. وقرأ جناح بن حبيش ﴿قدراً﴾ بفتح الدال، والجمهور بإسكانها.

والمعنى: أي إن الله سبحانه وتعالى منفذ أحكامه في خلقه بما يشاء، وقد جعل لكل شيء مقداراً ووقتاً، فلا تحزن أيها المؤمن إذا فاتك شيء مما كنت تؤمل وترجو، فالأمور مرهونة بأوقاتها ومقدرة بمقادير خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

وقال القاشاني: معنى الآية[1]: ومن يتوكل على الله بقطع النظر عن الوسائط والانقطاع إليه من الوسائل.. فهو كافيه يوصل إليه ما قدر له، ويسوق إليه ما قسم لأجله من أنصبة الدنيا والآخرة، إن الله يبلغ ما أراد من أمره لا مانع له ولا عائق، فمن تيقن ذلك.. ما خاف أحداً ولا رجا، وفوض أمره إليه ونجا، وقد عين الله لكل أمر حدّاً معيناً، ووقتاً معيناً في الأزل، لا يزيد بسعي ساع ولا ينتقص بمنع مانع وتقصير مقصر، ولا يتأخر عن وقته ولا يتقدم عليه، والمتيقن لهذا الشاهد له متوكل بالحقيقة، انتهى.

﴿وَالَّٰٓـِٔي﴾ من الموصولات، جمع: التي؛ أي: واللاتي ﴿يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ لكبرهن ويأسهن؛ أي: انقطع رجاؤها من رؤية الدم لبلوغها سن اليأس. والمحيض[2]: اسم أو مصدر، ومنه: الحوض؛ لأن الماء يسيل إليه. والحيضة: المرة. وفي الشرع: دم ينفضه رحم امرأة بالغة لا داء بها ولا إياس لها. و﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية، متعلقة بالفعل قبلها. حال كونها ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ وزوجاتكم اللاتي دخلتم بهن. و﴿مِن﴾ للتبيين، متعلقة بمحذوف. ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم في عدتهن، وأشكل عليكم حكمهن لانقطاع دمهن بكبر السن، وجهلتم كيف عدتهن. والمراد بالشك: الجهل، وقيد به لموافقة الواقع، فلا مفهوم له، بل عدتها ما ذكر سواء علموا أو جهلوا، لكن الواقع في نفس الأمر أن السائلين عن عدة الآيسة كانوا جاهلين بقدرها، فالآية مخرجة على سبب. اهـ «شيخنا». ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فقوله: ﴿وَالَّٰٓـِٔي﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾، وقوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ اعتراض، وجواب الشرط محذوف تقديره: أي إن ارتبتم فيها.. فاعلموا أنها ثلاثة أشهر، كذا قالوا. والأشهر: جمع شهر، وهو مدة معروفة مشهورة بإهلال الهلال، أو باعتبار

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

جزء من اثني عشر جزءاً من دوران الشمس من نقطة إلى تلك النقطة. قال في «القاموس»: الشهر: العدد المعروف من الأيام؛ لأنه يشهر بالقمر. ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾؛ أي: ما رأين الدم لصغرهن وعدم بلوغهن سن المحيض. وهو مبتدأ، خبره محذوف؛ أي: فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً، وحذف هذا ثقة بدلالة ما قبله عليه. والأولى[1] أن يقدر مثل: أولئك أو كذلك، فيكون المقدر مفرداً. والشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها بعذر من الأعذار قبل بلوغها سن الآيسات.. فعند أبي حنيفة والشافعي لا تنقضي عدتها حتى يعاودها الدم، فتعتد بثلاثة أقراء، أو حتى تبلغ سن الآيسات، فتعتد بثلاثة أشهر.

وقال أبو حيان: والظاهر: أن قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ يشمل من لم يحضن لصغر ومن لا يكون لها حيض ألبتة، وهو موجود في النساء، وهو أنها تعيش إلى أن تموت ولا تحيض. ومن أتى عليها زمان الحيض وما بلغت به، ولم تحض.. فقيل: هذه تعتد بسنة، انتهى.

ووضع[2] السجاوندي الطاء الدالة على الوقف المطلق على وضعه وقانونه في ﴿لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ لانقطاعه عما بعده، وكان الظاهر أن يضع الميم الدالة على الوقف اللازم؛ لأن المتبادر الاتصال الموهم معنى فاسداً. لعله نظر إلى ظهور عدم حمل التي لم تحض لصغرها؟

والمعنى: أي واللائي بلغن سن اليأس فانقطع حيضهن لكبرهن؛ بأن بلغن سن الخامسة والخمسين فما فوقها.. فعدتهن ثلاثة أشهر، وكذا الصغار اللائي لم يحضن إن شككتم وجهلتم كيف تكون عدتهن وما قدرها.. فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ اسم جمع، واحدتها ذات؛ بمعنى: صاحبة، والأحمال جمع حَمْلَ ـ بالفتح ـ، وهو الولد في البطن؛ أي: ذوات الأحمال من النساء والحبالى منهن ﴿أَجَلُهُنَّ﴾؛ أي: منتهى عدتهن ﴿أَن يَضَعۡنَ﴾ ويلدن ﴿حَمۡلَهُنَّۚ﴾؛ أي: جنينهن سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن. فلو ولدت[3] المرأة

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

حملها؛ أي: حطت ما في بطنها بعد طلاق زوجها أو وفاته بلحظة.. انقضت عدتها وحلت للأزواج، فكيف بعد ساعة أو يوم أو شهر؟ وقد نسخ بهذه الآية عموم قوله تعالى في البقرة: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ لتراخي نزولها عنه. وقد صح أن سبيعية بنت الحارث ولدت بعد وفاة زوجها بليال، فذكرت ذلك لرسول الله - ﷺ -، فقال: «قد حللت فتزوجي». وقرأ الجمهور ﴿حَمْلَهُنَّ﴾ مفرداً، والضحاك: ﴿أحمالهن﴾ جمعاً.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ سبحانه في شأن أحكامه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾؛ أي: يسهل عليه أمره، يوفقه للخير، ويعصمه من المعاصي والشر بسبب التقوى. فـ﴿مِنْ﴾ للبيان، قدم على المبين للفواصل، أو بمعنى: في. وقال الضحاك: من يتق الله فليطلّق للسنة، يجعل له من أمره يسراً في الرجعة.

وحاصل معنى الآية[1]: أي وعدة الحوامل أن يضعن حملهن، سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن، كما روي عن عمر وابنه: فقد أخرج مالك، والشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عمر: أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهي حامل، فقال: إذا وضعت حملها.. فقد حلت، فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال: لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن.. حلت.

وهكذا روي عن ابن مسعود: فقد أخرج عنه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه: أنه قال: من شاء لاعنته أن الآية التي في النساء الصغرى ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ...﴾ الآية، نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهراً، وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها.. فأجلها أن تضع حملها.

وروي: أن سبيعية بنت الحارث الأسلمية كانت تحت سعد بن خولة، فتوفي عنها في حَجة الوداع وهي حامل، فوضعت بعد وفاته بثلاثة وعشرين يوماً، فاختضبت، واكتحلت، وتزينت تريد الزواج، فأنكر ذلك عليها، فسئل النبي - ﷺ -

(١) المراغي.

فقال: «إن تفعل فقد خلا أجلها».

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ...﴾ الخ؛ أي: ومن يخف الله ويرهبه فيؤدي فرائضه **ويجتنب** نواهيه.. يسهل عليه أموره، ويجعل له من كل ضيق فرجاً، وينزله طريق الهدى **في** كل ما يعرض له من المشكلات، فإن في قلب المؤمن نوراً يهديه إلى حلِّ عويصات الأمور. وفي الآية إيماء إلى فضيلة التقوى في أمور الدنيا والآخرة، وأنها المخرج من كل ضيق يعرض المرء فيهما.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأحكام. وإفراد[1] الكاف مع أن الخطاب للجمع كما يفصح عنه ما بعده، لما أنها لمجرد الفرق بين الحاضر والمنقضي لا لتعيين خصوصية المخاطبين. ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حكمه الشرعي ﴿أَنزَلَهُۥٓ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: إلى جانبكم. وقال أبو الليث: أنزله في القرآن على نبيكم لتستعدوا للعمل به، فإياكم ومخالفته.

والمعنى: أي هذا الذي شرع لكم من الأحكام السابقة في الطلاق والسكنى والعدة هو أمر الله الذي أمركم به، وأنزله إليكم لتأتمروا به وتعملوا وفق نهجه.

ثم كرر الأمر بالتقوى؛ لأنها ملاك الأمر وعماده في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالمحافظة على أحكامه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾؛ أي: يسترها لرضاه عنه باتقائه، وربما يبدلها حسنات. ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة، وهو الجنة. قال بعضهم: يعطيه أجراً عظيماً أيَّ أجرٍ كان، ولذلك نُكِّرَ، فالتنكير للتعميم المنبىء عن التعميم.

والمعنى: أي ومن يخف الله فيؤد فرائضه ويجتنب نواهيه.. يمسح عنه ذنوبه، كما وعد ذلك في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ويجزل له الثواب على يسير الأعمال.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَيُعْظِمْ﴾ بالياء مضارع أعظم، وقرأ الأعمش: ﴿نعظم﴾ بالنون، خروجاً من الغيبة إلى التكلم، وقرأ ابن مقسم بالياء والتشديد، مضارع عظم مشدداً.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

قال في «برهان القرآن»: أمر بالتقوى في أحكام الطلاق ثلاث مرات وعدَّ في كل مرة نوعاً من الجزاء، فقال أولاً: يجعل له مخرجاً يخرجه مما دخل فيه، وهو يكرهه، ويهيء له محبوبه من حيث لا يؤمل. وقال في الثاني: يسهل عليه الصعب من أمره، ويفتح له خيراً ممن طلقها. والثالث: وعد عليه الجزاء بأفضل الجزاء، وهو ما يكون في الآخرة من النعماء، إشارة إلى تعداد النعم المترتبة على التقوى.

وقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾: كلام مستأنف[1] وقع جواباً لسؤال مقدر نشأ مما قبله من الحث على التقوى، كأنه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات؟ فقيل: أسكنوهن ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾؛ أي: بعض مكان سكناكم. والخطاب للمؤمنين المطلقين. ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾؛ أي: من وسعكم وطاقتكم؛ أي: مما تطيقونه. قال الفراء: فإن كان موسعاً عليه.. وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً.. فعلى قدر ذلك. قال قتادة: إن لم تجد إلا ناحية بيتك، فأسكنها فيه، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسير له.

وفي «عين المعاني»: و﴿مِنْ﴾ لتبيين الجنس لما في ﴿حَيْثُ﴾ من الإبهام، انتهى. واعترض عليه أبو حيان: بأنه لم يعهد في عطف البيان إعادة العامل، إنما عهد ذلك في البدل، فالوجه جعله بدلاً.

قال صاحب «اللباب»: إن كانت الدار التي طلقها فيها ملكه.. يجب عليه أن يخرج منها ويترك الدار لها مدة عدتها، وإن كانت الدار بإجارة.. فعليه الأجرة، وإن كانت عارية فرجع المعير.. فعليه أن يكتري لها داراً تسكنها. قال في «كشف الأسرار»: وأما المعتدة من وطء الشبهة والمفسوخ نكاحها بعيب أو خيار عتق.. فلا سكنى لها ولا نفقة وإن كانت حاملاً، انتهى. وقد اختلف[2] أهل العلم في المطلقة ثلاثاً هل لها سكنى ونفقة أم لا؟ فذهب مالك والشافعي أن لها السكنى ولا نفقة لها، وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة، وذهب أحمد وإسحاق، وأبو ثور أنه لا نفقة لها ولا سكنى، وهذا هو الحق، قاله الشوكاني.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿مِنْ وُجْدِكُم﴾ بضم الواو. وقرأ الحسن، والأعرج وابن

---

(١) روح البيان. (٢) فتح القدير. (٣) البحر المحيط.

أبي عبلة، وأبو حيوة بفتحها. وقرأ الفياض بن غزوان، وعمرو بن ميمون، ويعقوب بكسرها، وذكرها المهدوي عن الأعرج. وهي لغات ثلاث. بمعنى الوسع، والوجد ـ بالفتح ـ يستعمل في الحزن والغضب والحب، والوُجد بالضم: الغنى والقدرة.

والمعنى: أي أسكنوا مطلقات نسائكم في الموضع الذي تسكنون فيه على مقدار حالكم، فإن لم تجدوا إلا حجرة بجانب حجرتكم.. فأسكنوها فيها. وإنما أمر الرجال بذلك لأن السكنى نوع من النفقة، وهي واجبة على الأزواج.

ثم نهى عن مضارة المطلقات في السكنى، فقال: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾؛ أي: ولا تقصدوا أيها الأزواج إدخال الضرر عليهن في السكنى بأي وجه كان. فالمفاعلة هنا ليست على بابها. ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ في المسكن ببعض الأسباب، من إنزال من لا يوافقهن معهن، أو بشغل مكانهن، أو غير ذلك، وتلجئوهن إلى الخروج.

والمعنى: ولا تستعملوا معهن الضرار في السكنى، بشغل المكان أو بإسكان غيرهن معهن ممن لا يحببن السكنى معه؛ لتلجئوهن إلى الخروج من مساكنهن. وفيه حث على المروءة والمرحمة، ودلالة على رعاية الحق السابق حتى يتيسر لها التدارك في أمر المعيشة من تزوج آخر أو غيره.

ثم بين نفقة الحوامل، فقال: ﴿وَإِن كُنَّ﴾؛ أي: المطلقات ﴿أُوْلَٰتِ حَمۡلٍ﴾؛ أي: ذوات حبل؛ أي: حاملات. و﴿أُوْلَٰتِ﴾ منصوب بالكسر؛ لأنه ملحق بجمع المؤنث السالم. وتنوين ﴿حَمۡلٍ﴾ للتعميم؛ يعني أيّ حمل كان قريب الوضع أو بعيده. ﴿فَأَنفِقُواْ﴾ أيها المطلّقون ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾؛ أي: على المطلقات الحوامل ﴿حَتَّىٰ يَضَعۡنَ﴾ ويلدن ﴿حَمۡلَهُنَّۚ﴾ وحبلهن، فيخرجن من العدة، وتخلصوا من كلفة الإحصاء، ويحل لهن تزوج غيركم إن شئن؛ لأنه بالوضع تنقضي العدة. وهذا حكم المطلّقة طلقة بائنة، أما المطلقة طلقة رجعية.. فتستحق النفقة وإن لم تكن حاملاً.

واعلم[1]: أن البائن بالطلاق إذا كانت حاملاً لها النفقة والسكنى بالاتفاق، وأما البائن الحائل؛ أي: غير الحامل.. فتستحق النفقة والسكنى عند أبي حنيفة كالحامل، إلى أن تنقضي عدتها بالحيض أو بالأشهر، لما روي عن عمر ـ رضي الله

---

(١) روح البيان.

عنه ـ: أنه قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول في المبتوتة: «لها النفقة والسكنى»؛ لأن ذلك جزاء الاحتباس وهو مشترك بين الحامل وغيرها، خلافاً للأئمة الثلاثة. وأما المتوفى عنهن أزواجهن: فلا نفقة لهن من التركة ولا سكنى، بل تعتد حيث تشاء وإن كن أولات حمل؛ لوقوع الإجماع على أن من أجبر الرجل في حياته على النفقة عليه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن ينفق عليه من ماله بعد موته، فكذا المتوفى عنها الحامل، وهو قول الأكثرين. وقال أبو حنيفة: تجب النفقة والسكنى لكل مطلقة، سواء كانت مطلقة بثلاث أو بواحدة، رجعية أو بائنة ما دامت في العدة، أما المطلقة الرجعية: فلأنها منكوحة كما كانت، وإنما يزول النكاح بمضي العدة، وكونه في معرض الزوال بمضي العدة لا يسقط نفقتها، كما لو آلى وعلق طلاقها بمضي شهر. فالمطلقة الرجعية لها النفقة والسكنى بالإجماع، وأما المبتوتة: فعند أبي حنيفة لها النفقة والسكنى ما دامت في العدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾؛ إذ المعنى: أسكنوا المعتدات مكاناً من المواضع التي تسكنونها، وأنفقوا عليهن في العدة من سعتكم، لما قرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم وأنفقوا عليهن من وجدكم﴾. وعند الشافعي: لها السكنى؛ لهذه الآية، ولا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ...﴾ إلخ.

فإن قلت: فإذا كانت كل مطلقة عند أبي حنيفة يجب لها النفقة، فما فائدة الشرط في قوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ...﴾ إلخ؟

قلت: فائدته: أن مدة الحمل ربما طالت، فظن ظان أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحامل، فنفى ذلك الوهم، كما في «الكشاف».

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ﴾ هؤلاء المطلقات ﴿لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ولداً من غيرهن أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية وعلاقة النكاح. وإنما قال: ﴿لَكُمْ﴾ ولم يقل أولادكم لما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ﴾. فالأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً، إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه. ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ﴾ على الإرضاع إن طلبن أو رَجوْنَ، فإن حكمهن في ذلك حكم الأظآر حينئذ. قال في «اللباب»: فإن طلقها.. فلا يجب عليها الإرضاع إلا أن لا يقبل الولد ثدي غيرها،

فيلزمها حينئذٍ. فإن اختلفا في الأجرة: فإنْ دعت إلى أجرة المثل وامتنع الأب إلا تبرعاً.. فالأم أولى بأجر المثل؛ إذ لم يجد الأب متبرعة، وإن دعا الأب إلى أجر المثل وامتنعت الأم لتطلب شططاً.. فالأب أولى به، فإن أعسر الأب بأجرتها.. أجبرت على إرضاع ولدها، انتهى.

﴿وَأْتَمِرُوا﴾ أيها الآباء والأمهات، وتشاوروا فيما ﴿بَيْنَكُمْ﴾ في شؤون أولادكم، وافعلوا فيهم ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: بما هو معروف وجميل وإحسان ومتعارف بين الناس غير منكر عندهم؛ أي: ليأمر بعضكم بعضاً بجميل في الإرضاع والأجر، وهو المسامحة. ولا يكن من الأب مماكسة، ولا من الأم معاسرة؛ لأنه ولدهما معاً، وهما شريكان فيه في وجوب الإشفاق عليه.

ومعنى الآية[1]: أي فإن أرضعن لكم وهن طوالق قد بِنَّ بانقضاء عدتهن.. فلهن حينئذ أن يرضعن الأولاد، ولهن أن يمتنعن، فإن أرضعن.. فلهن أجر المثل، ويتفقن مع الآباء أو الأولياء عليه. وفي هذا إيماء إلى أن حق الرضاع والنفقة للأولاد على الأزواج، وحق الإمساك والحضانة على الزوجات. ﴿وَأْتَمِرُوا﴾؛ أي: وتشاوروا فيما بينكم أيها الآباء والأمهات في شؤون الأولاد بما هو أصلح لهم في أمورهم الصحية والخلقية والثقافية، ولا تجعلوا المال عقبة في سبيل إصلاحهم، ولا يكن من الآباء مماكسة في الأجر وسائر النفقات، ولا من الأمهات معاسرة وإحراج للآباء، فالأولاد هم فلذات أكبادهم، فليحافظوا عليهم جهد المستطاع.

ثم أرشد إلى ما يجب أن يعمل إذا لم يحصل الوفاق بين الأبوين في الإنفاق، فقال: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أيها الآباء والأمهات؛ أي: تضايقتم وتشاكستم وتنازعتم في أجر الرضاع؛ كأن أبى الأب أن يعطي الأم أجرة إرضاعها، وأبت الأم أن ترضع الولد مجاناً ﴿فَسَتُرْضِعُ﴾ الولد ﴿لَهُ﴾؛ أي: لوالده امرأة ﴿أُخْرَى﴾ فليس له إكراه الأم على إرضاعه بل يستأجر الأب للصبي مرضعة غير أمه. وهذا أصل في وجوب نفقة الولد على الوالد دون الأم. والضمير[2] في ﴿لَهُ﴾ للأب كما في «الكشاف» وهو الموافق لقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾، أو للصبي والولد كما في «الجلالين» وفيه: أن الظاهر حينئذ أن يقول: فسترضعه، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة، كما تقول لمن

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

تستقضيه حاجة فيتوانى: سيقضيها غيرك، تريد: إن تبق غير مقضية فأنت ملوم.

قال سعدي المفتي: ولا يخلو من معاتبة الأب أيضاً، حيث أسقط في الجواب عن حيز شرف الخطاب مع الإشارة إلى أنه إن ضويقت الأم في الأجر فامتنعت من الإرضاع لذلك.. فلا بد من إرضاع امرأة أخرى، وهي أيضاً تطلب الأجر في الأغلب الأكثر، والأم أشفق وأحن، فهي به أولى.

وبما ذكرنا يظهر كمال الارتباط بين الشرط والجزاء. وإنما خص الأم بالعتاب، لأن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها، وهو ليس بمال ولا مما يضن به في العرف، ولا سيما من الأم، والمبذول من جهة الأب هو المال، وهو مضنون به في العادة، فهي إذاً أجدر باللوم وأحق بالعتب.

والمعنى: أي وإن ضيق بعضكم على بعض؛ بأن شاحَّ الأب في الأجر، أو اشتطت الأم في طلب زيادة لا يؤديها أمثاله.. فليحضر الأب مرضعاً أخرى تقوم بالإرضاع، فإن رضيت الأم بمثل ما استؤجرت به الأجنبية.. فهي أحق بولدها. وهذا إذا قبل الولد ثدي مرضع أخرى، فإن لم يقبل إلا ثدي الأم.. وجب عليها الإرضاع بالأجر.

ثم بين مقدار الإنفاق بقوله: ﴿لِيُنفِقْ﴾ والد ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ ويسار على المرضع التي طلقت منه ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿ينفق﴾؛ أي: بقدر سعته وغناه، وفيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم وغناهم. ﴿وَمَن قُدِرَ﴾ وضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ وقوته ﴿فَلْيُنفِقْ﴾ على المرضعة ﴿مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: مما أعطاه الله من الرزق ليس عليه غير ذلك وإن قلّ.

والمعنى: لينفق كل من الموسر والمعسر ما يبلغه وسعه ويطيقه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه تعالى ﴿نَفْسًا﴾ معسرة ﴿إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾؛ أي: إلا بإنفاق ما أعطاها من الرزق، فلا يكلف الفقير أن ينفق ما ليس في وسعه، بل عليه ما يقدر عليه وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه الله من الرزق.

والمعنى: أي لا يكلف الله سبحانه أحداً من النفقة على من تلزمه نفقته بالقرابة والرحم والنكاح إلا بمقدار ما آتاه من الرزق، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه عاجلاً وآجلاً؛ إذ ليس في (السين) دلالة على تعين

زمان، وكل آت قريب ولو كان الآخرة. ﴿بَعْدَ عُسْرٍ﴾ وضيق ﴿يُسْرًا﴾؛ أي: سعة؛ أي: سيجعل بعد شدة رخاء، ومن بعد ضيق سعة، ومن بعد فقر غنى، فالدنيا لا تدوم على حال كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، وهذا كالبشرى للمؤمنين الذين كان يغلب عليهم الفقر والفاقة في ذلك الوقت.

أي: فلينتظر المعسر اليسر وفرج الله، فإن الانتظار عبادة، وفيه: تطييب لقلب المعسر، وترغيب له في بذل مجهوده، ووعد لفقراء الأزواج لا لفقراء ذلك الوقت عموماً، كما جوزه الزمخشري، حيث قال: وعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم، أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه، ولم يقصروا.

ولو عجز عن نفقة زوجته يفرق بينهما، قاله أبو هريرة، والحسن، وابن المسيب، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق. وقال عمر بن عبد العزيز وجماعة: لا يفرق بينهما.

وقرأ الجمهور: ﴿لِيُنفِقْ﴾ بلام لأمر. وحكى أبو معاذ: (لينفَقَ) بلام كي ونصب القاف، ويتعلق بمحذوف تقديره: شرعنا ذلك لينفقَ. وقرأ الجمهور: ﴿قُدِرَ﴾ مخففاً، وابن أبي عبلة مشدد الدال.

ولما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام.. حذر من مخالفتها، وذكر عتو قوم خالفوا أوامره، فحل بهم عذابه، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وكثير من أهل قرية. و﴿كأين﴾ بمعنى (كم) الخبرية في كونها للتكثير. والقرية: اسم لموضع اجتماع الناس،فهو من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ثم وصفه بصفته، أو من المجاز العقلي والإسناد إلى المكان. وهذه الآية تحذير للناس عن المخالفة في الأحكام المذكورة وتأكيد لإيجابها عليهم.

﴿عَتَتْ﴾؛ أي: استكبرت وأعرضت ﴿عَنْ﴾ امتثال ﴿أَمْرِ رَبِّهَا﴾ وإجابة دعوة ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ تعالى بسبب التجاوز عن الحد في التكبر والعناد. والعتو: الاستكبار ومجاوزة الحد فيه. والعتو لا يتعدى بـ﴿عَنْ﴾، وإنما عُدِّيَ بها لتضمينه معنى الإعراض؛ كأنه قيل: أعرضت عن أمر ربها وأمر رسل ربها، بسبب التجاوز عن الحد في التكبر والعناد.

وفي إيراده[1] صفة الرب توبيخ لهم، وتجهيل لما أن عصيان العبيد لربهم ومولاهم طغيان وجهل بشأن سيدهم ومالكهم وبمرتبة أنفسهم ودوام احتياجهم إليه في التربية. وقوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾ مبتدأ، و﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ بيان له، و﴿عَتَتْ﴾ خبر المبتدأ. ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ في الدنيا ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: ناقشناها في الحساب مناقشة شديدة، وضيقنا وشددنا عليها، وأخذناها في الدنيا بدقائق ذنوبها وجرائمها من غير عفو، بنحو القحط والجوع، والأمراض والأوجاع، والسيف وتسليط الأعداء عليها، وغير ذلك من البلايا مقدماً معجلاً على استئصالها وذوقها العذاب الأكبرلترجع إلى الله تعالى؛ لأن البلاء كالسوط للسوق، فلم تفعل ولم ترفع رأساً، فابتلاها الله بما فوق ذلك، كما قال: ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا﴾؛ أي: استئصلناها بالعذاب ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾؛ أي: استئصالاً عظيماً منكراً هائلاً منفراً عنه بالطبع، لشدته وإيلامه، أو غير متوقع، فإنهم كانوا لا يتوقعونه، ولو قيل لهم.. لما يصدقونه. والقهر الغير المتوقع أشد ألماً، واللطف الغير المتوقع أتم لذة، وهو العذاب العاجل بالاستئصال، بنحو الإغراق والإحراق، والريح والصيحة، فالنكر: الأمر الصعب الذي لا يعرف، والإنكار ضد العرفان. وقرأ الجمهور بسكون الكاف، وقرىء بضمها.

وقال مقاتل: حاسبنا أهلها في الدنيا على عملها بالأخذ الشديد، وعذبناها في الآخرة عذاباً منكراً فظيعاً بجهنم. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ أي: عذبنا أهلها في الدنيا عذاباً نكراً، بالجوع والقحط والسيف، والخسف والمسخ، وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً على أعمالهم. ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾؛ أي: ضرر كفرها وثقل عقوبة معاصيها؛ أي: أحسته إحساس الذائق المطعوم. ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ هائلاً لا خسر وراءه؛ أي: وكان عاقبة أمرها هلاكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة فتجارتهم خسارة لا ربح فيها، لتضييعهم بضاعة العمر والصحة والفراغ بصرفها في المخالفات. والخسر وكذا الخسران في الأصل: انتقاص رأس المال، كما سيأتي.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ مع ذلك في الآخرة. ولام ﴿لَهُمْ﴾ لام التخصيص، لا لام النفع، كما في قولهم: دعا له، في مقابلة دعا عليه. ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وهو عذاب

---

(١) روح البيان.

النار. والتكرير للتأكيد؛ أي[1]: قدر العذاب الشديد عليهم في علمه على حسب حكمته، أو هيأ أسبابه في جهنم بحيث لا يوصف كنهه، فهم أهل الحساب والعذاب في الدنيا والآخرة لا في الدنيا فقط، فإن ما أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم؛ لعدم رجوعهم عن الكفر، فعذبوا عذاب الآخرة أيضاً. وهذا المعنى من قوله: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ إلى هنا هو اللائق بالنظم الكريم، هكذا ألهمت به حين المطالعة، ثم وجدت في تفسير «الكواشي» و«كشف الأسرار» و«أبي الليث» و«الأسئلة المقحمة» ما يدل على ذلك. والحمد الله تعالى، فلا حاجة إلى أن يقال: إن فيه تقديماً وتأخيراً، وإن المعنى: عذبناها عذاباً شديداً في الدنيا، وحاسبناها حساباً شديداً في الآخرة، على أن لفظ الماضي للتحقيق، كأكثر ألفاظ القيامة.

ومعنى الآية[2]: أي وكثير من أهل القرى خالفوا أمر ربهم، فكذبوا الرسل الذين أرسلوا إليهم ولجوا في طغيانهم يعمهون، وسنحاسبهم حساباً عسيراً، ونستقصي عليهم ذنوبهم، ونناقشهم على النقير والقطمير، ونعذبهم عذاباً نكراً في الآخرة. وعبر بالماضي عن المستقبل دلالة على التحقق، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾، ثم بين أن هذا جزاء ما كسبت أيديهم، فقال: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا...﴾ إلخ؛ أي: وستجني ثمار ما غرست أيديها، ولا يجنى من الشر إلا الشر، كما جاء في أمثالهم: لا تجني من الشوك العنب. فكان عاقبة أمرها الخسران والنكال الذي لا يقادر قدره. ثم أكد هذا الوعيد بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: هيأ الله لهم العذاب المرتقب؛ لتماديهم في طغيانهم وإعراضهم عن اتباع الرسل فيما جاؤوا به من عند ربهم.

ثم نبه المؤمنين إلى تقوى الله حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم، فقالوا: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾؛ أي: فخافوا عقاب الله سبحانه ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: يا أصحاب العقول الراجحة والفطر السليمة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لرجاحة عقولهم وسلامة فطرهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، واحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بمن قبلكم وتذكروا فإن الذكرى تنفع المؤمنين. والموصول في محل النصب نعت للمنادى، أو عطف بيان له، أو منصوب بتقدير: أعني.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي

والظاهر[1]: أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ﴾. والخطاب فيه من قبيل الالتفات من الغيبة؛ أي: قد أنزل الله إليهم ﴿ذِكْرًا﴾ هو القرآن، وأرسل إليهم ﴿رَّسُولًا﴾ هو محمد ﷺ فهو منصوب بفعل مقدر على حد:

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبْـنَـاً وَمَـاءً بَـارِداً

وقرىء: ﴿رسولٌ﴾ بالرفع؛ أي: هو رسول، على إضمار هو. وجملة قوله: ﴿يَتْلُوا۟﴾؛ أي: يقرأ ويعرض ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا أولي الألباب، أو يا أيها المؤمنون، أو ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الالتفات السابق صفة ﴿رَّسُولًا﴾. ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: القرآن ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ بالكسر؛ أي: حال كون تلك الآيات مبينات ومظهرات لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام. أو بالفتح؛ أي: واضحات لا خفاء في معانيها عند الأهالي، أو لا مرية في إعجازها عند البلغاء المنصفين.

وقرأ الجمهور[2]: بالفتح على صيغة اسم المفعول. وقرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي بالكسر على صيغة اسم الفاعل. ورجح القراءة الأولى أبو حاتم وأبو عبيد؛ لقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

وإنما يتلوها، أو أنزله ﴿لِّيُخْرِجَ﴾ الرسولُ، ويخَلِّصَ، أو اللَّهُ تعالى. قال بعضهم: اللام متعلقة بـ﴿أَنزَلَ﴾ لا بقوله: ﴿يَتْلُوا۟﴾؛ لأن ﴿يَتْلُوا۟﴾ مذكور على سبيل التبعية دون ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الموصول عبارة عن المؤمنين بعد إنزاله، وإلا.. فإخراج الموصوفين بالإيمان من الكفر لا يمكن إذ لا كفر فيهم حتى يخرجوا منه؛ أي: ليحصل لهم الرسول ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح بإخراجهم عما كانوا عليه. أو ليخرج الله من علم أو قدر أنه سيؤمن، أو أطلق عليهم ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ باعتبار ما آل أمرهم إليه. ولم يقل[3]: ليخرجكم إظهاراً لشرف الإيمان والعمل والصالح، وبياناً لسبب الإخراج وحثاً على التحقق بهما. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: من الضلالة إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشبهات إلى الدلائل والبراهين، ومن الغفلة إلى اليقظة.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

والمعنى[1]: أي قد أنزل الله سبحانه إليكم - يا ذوي البصائر - ذكرا لكم، وهو القرآن الكريم يذكركم به لتستمسكوا بحبله المتين، وتعملوا بطاعته، وأرسل إليكم رسولاً يتلو عليكم آيات هذا الكتاب الذي أنزل عليه، وهي واضحات لمن تدبرها وعقلها كي يخرج من لديه استعداد للهدى من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إذا هو أمعن في النظر فيها، وأجال الفكر في أسرارها ومغازيها، فهي النبراس الساطع والضوء اللامع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم بيّن جزاء الإيمان والعمل الصالح، فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ﴾ ويصدق ﴿بِٱللَّهِ﴾ سبحانه وعظيم قدرته وبديع حكمته ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: خالصاً من الرياء والتصنع والغرض. وهو استئناف لبيان شرف الإيمان والعمل الصالح، ونهاية أمر من اتصف بهما، تنشيطاً وترغيباً لغير أهلهما لهما؛ أي: ومن يجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه مع اجتناب ما نهاه عنه ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت قصورها أو أشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة المذكورة في سورة محمد ﷺ.

وقرأ الجمهور: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالتحتية. وقرأ نافع، وابن عامر بالنون.

حال كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: مقيمين ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك الجنات إقامة مؤبدة دائمين فيها. وهو حال من مفعول ﴿يُدْخِلْهُ﴾. والجمع[2] باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾ كما أن الإفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها. ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان بمعنى دائماً غير منقطع، فيكون تأكيداً للخلود؛ لئلا يتوهم أن المراد به المكث الطويل المنقطع آخراً.

وجملة قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ على التداخل، أو من مفعول ﴿يُدْخِلْهُ﴾ على الترادف. ومعنى ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾؛ أي: وسع له رزقه في الجنة. وفيه[3] معنى التعجب والتعظيم لما رزقه الله سبحانه المؤمنين من الثواب؛ لأن الجملة الخبرية إذا لم يحصل منها فائدة الخبر ولا لازمها.. تحمل على التعجب إذا اقتضاه المقام؛ كأنه قيل: ما أحسن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

رزقهم الذي رزقهم الله تعالى، وما أعظمه. فرزقاً ظاهره المفعولية لأحسن، والتنوين للتعظيم؛ لإعداده تعالى فيها ما هو خارج عن الوصف، أو للتكثير عدداً؛ لما فيه مما تشتهيه الأنفس من الرزق والأنفس، أو مدداً؛ لأن أكلها دائم لا ينقطع ولا بعد في أن يكون ﴿لَهُۥ﴾ بمعنى: إليه، ويكون ﴿رِزْقًا﴾ تمييزاً، بمعنى: قد هيأ له وأعد ما يحسن إليه به من جهة الرزق.

ومعنى الآية[1]: أي ومن يصدق بوحدانية الله وعظيم قدرته وبديع حكمته، ويعمل بطاعته.. ويدخله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبداً، لا يموتون ولا يخرجون منها، وقد وسع الله لهم فيها الأرزاق من مطاعم ومشارب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ الاسم الشريف مبتدأ، والموصول مع صلته خبره؛ أي: المعبود الذي يستحق منكم العبادة هو الإله القادر، الذي خلق وأبدع على غير مثال سابق سبع طبقات علوية. ونكرها للتعظيم المفيد لكمال قدرة صانعها، أو لكفايته في المقصود من إثبات قدرته الكاملة على وفق حكمته الشاملة، وذلك يحصل بإخبار خلقه تعالى سبع سمٰوات من غير نظر إلى التعيين. ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وخلق من الأرض ﴿مِثْلَهُنَّ﴾؛ أي: مثل السمٰوات السبع في العدد والطباق، فقوله: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ منصوب بفعل مضمر بعد الواو، دل عليه الناصب لسبع سمٰوات، وليس بمعطوف على سبع سمٰوات؛ لأنه يستلزم الفصل بين حرف العطف ـ وهو الواو ـ وبين المعطوف بالجار والمجرور، وصرح سيبويه وأبو علي بكراهيته في غير موضع الضرورة.

واختلف في كيفية طبقات الأرض[2]: قال القرطبي في «تفسيره»: واختلف فيهن على قولين:

أحدهما ـ وهو قول الجمهور ـ: أنها سبع أرضين طباقاً، بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكان من خلق الله.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وقال الضحاك: إنها مطبقة بعضها فوق بعض من غير فتوق ولا فرجة بخلاف السمٰوات.

والقول الأول أصح؛ لأن الأخبار الصحيحة دالة عليه:

منها: ما في «صحيح مسلم» عن سعيد بن زيد قال: سمعت النبي - ﷺ - يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً.. فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين...» إلى آخر كلامه.

ومنها: ما روي عن ابن مسعود: أن النبي - ﷺ - قال: «ما السمٰوات السبع وما فيهن وما بينهن، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الشعب» من طريق أبي الضحى عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال البيهقي: هذا إسناده صحيح، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً. قال أبو حيان: وهذا حديث لا شك في وضعه.

وقرأ الجمهور: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أو على تقدير فعل؛ أي: وخلق من الأرض مثلهن. وقرأ عاصم في رواية وعصمة عن أبي بكر عنه بالرفع على الابتداء والجار والمجرور قبله خبره.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: أمر الله، واللام عوض عن المضاف إليه. وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَتَنَزَّلُ﴾ مضارع تنزل وبرفع ﴿ٱلْأَمْرُ﴾. وقرأ عيسى وأبو عمر في رواية ﴿ينزِّل﴾ مضارع نزل مشدداً، ﴿الأمر﴾ بالنصب، والفاعل ﴿الله﴾ سبحانه. وقرىء: ﴿ينزِل﴾ مخففاً، مضارع أنزل. ﴿بَيْنَهُنَّ﴾؛ أي: بين السمٰوات السبع والأرضين السبع.

والظاهر[2]: أن الجملة استئنافية للإخبار عن شمول جريان حكمه ونفوذ أمره في العلويات والسفليات كلها، فالأمر عند الأكثرين القضاء والقدر، بمعنى: يجري

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

قضاؤه وينفذ حكمه بين السماء السابعة التي هي أعلى السمٰوات وبين الأرض السابعة التي هي أسفل الأرضين، ولا يقتضي ذلك أن لا يجري في العرش والكرسي؛ لأن المقام اقتضى ذِكر ما ذَكره، والتخصيص بالذِّكر لا يقتضي التخصيص بالحكم.

وقال قتادة: في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه. وقيل: هو يدبر فيهن من عجيب تدبيره. فينزل المطر ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء ويخلق المخلوقات على اختلاف ألوانها وهيئاتها، فينقلهم من حالٍ إلى حال.

والمعنى: يجري أمر الله وقضاؤه وقدره، وينفذ حكمه فيهن، فهو يدبر ما فيها وفق علمه الواسع وحكمته في إقامة نظمها بحسب العدل والمصلحة.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ متعلق[1] بـ﴿خَلَقَ﴾، أو بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾ أو بما يعمهما؛ أي: فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر.. قادر على كل شيء، ومنه البعث للحساب والجزاء، فتطيعوا أمره وتقبلوا حكمه، وتستعدوا لكسب السعادة والخلاص من الشقاوة. واللام لام المصلحة والحكمة؛ لأن فعله تعالى خال عن العبث، لا لام الغرض، فإنه تعالى منزه عن الغرض؛ إذ هو لمن له الاحتياج، والله تعالى غني عن العالمين. ﴿وَ﴾ لتعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ كما أحاط به قدرة؛ لاستحالة صدور الأفعال المذكورة ممن ليس كذلك. والإحاطة: العلم البالغ، فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان. ويجوز أن يكون العامل في اللام بيان ما ذكر من الخلق وتنزل الأمر؛ أي: أوحى ذلك وبينه لتعلموا بما ذكر من الأمور التي تشاهدونها والتي تتلقونها من الوحي من عجائب المصنوعات أنه لا يخرج عن علمه وقدرته شيء ما أصلاً. وقوله: ﴿عِلْمًا﴾ نصب على التمييز المحول عن الفاعل؛ أي: ﴿أَحَاطَ﴾ علمه بكل شيء كما في «عين المعاني» أو على المصدر المؤكد لأن ﴿أَحَاطَ﴾بمعنى علم؛ أي: وأن الله قد علم كل شيء علماً كما في «فتح الرحمٰن» أو على أنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: أحاط إحاطة علماً، كما في «الشوكاني».

---

(١) روح البيان.

وروي عن الإمام أبي حنيفة: أن هذه الآية من أخوف الآيات في القرآن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ بتاء الخطاب. وقرىء بياء الغيبة.

والمعنى[2]: ينزل قضاء الله وأمره بين ذلك كي تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه، وأنه لا يتعذر عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه أمر شاءه، فهو على ما يشاء قدير. ولتعلموا أن الله بكل شيء من خلقه محيط علماً، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. فخافوا أيها المخالفون أمر ربكم؛ فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع، وهو قادر على ذلك ومحيط بأعمالكم، لا يخفى عليه منها خاف، وهو محصيها عليكم ليجازيكم بها يوم تجزى كل نفس بما كسبت واكتسبت.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لـ﴿أيُّ﴾ أو بدل منه، أو عطف بيان، وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إذا﴾ ﴿طلقوهن﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من مفعول ﴿طلقوهن﴾؛ أي: حالة كونهن مستأنفات ومستقبلات لعدتهن ومتوجهات إليها. وهذا أولى ما قيل في بيان متعلق اللام. وقيل: متعلق بـ﴿طلقوهن﴾ على تقدير مضاف؛ أي: طلقوهن لاستقبال عدتهن ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ﴾: فعل وفاعل، ومفعول، معطوف على ﴿طلقوهن﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف أيضاً على ﴿طلقوهن﴾، ﴿رَبَّكُمْۖ﴾: بدل من الجلالة، ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾: فعل مضارع، وفاعل،

---

(1) البحر المحيط.

(2) المراغي.

ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية معطوف على ﴿طلقوهن﴾ بعاطف مقدر، ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿يَخۡرُجۡنَ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون الإناث في محل الرفع فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾. وإنما جمع بين النهيين إشارة إلى أن الزوج لو أذن لها في الخروج لا يجوز لها الخروج. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال، ﴿أَن﴾ حرف مصدر ونصب، ﴿يَأۡتِينَ﴾: فعل مضارع في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: متعلق بـ﴿يَأۡتِينَ﴾، ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾: صفة لـ﴿فاحشة﴾. والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على الحال من فاعل ﴿لا يخرجن﴾، ومن مفعول ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ ولكنه في تأويل مشتق تقديره: لا تخرجوهن، ولا يخرجن في حال من الأحوال إلا في حال كونهن آتيات بفاحشة مبينة.

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾.

﴿وَتِلۡكَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿تلك﴾: مبتدأ، ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يَتَعَدَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به. ﴿فَقَدۡ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب (مَنْ) الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تَدۡرِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على المطلق، ومفعول الدراية محذوف تقديره: لا تدري أيها المطلق عاقبة أمرك وأمرها. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل مضمون جواب الشرط. ﴿لَعَلَّ﴾: حرف نصب بمعنى ﴿إنّ﴾ مجرد عن معنى الترجي، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿يُحۡدِثُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿يُحۡدِثُ﴾، ﴿أَمۡرٗا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يُحۡدِثُ﴾ في محل

الرفع خبر ﴿لَعَلَّ﴾، وجملة ﴿لَعَلَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل جملة الدراية، كما مرّ في مبحث التفسير.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾.

﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته من أحكام الطلاق، وأردت بيان حكم الرجعة، فأقول لك: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿بَلَغْنَ﴾: فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة فاعل، ﴿أَجَلَهُنَّ﴾: مفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط، ﴿أمسكوهن﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: حال من ضمير الإناث، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: حال كون إمساكهن متلبساً بمعروف. ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: معطوف على ﴿أمسكوهن بمعروف﴾، ﴿وَأَشْهِدُوا﴾: فعل أمر، وفاعل، معطوف على ﴿أمسكوهن﴾، ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾: مفعول به منصوب بالياء؛ لأنه تثنية ذا؛ بمعنى صاحب ﴿مِنْكُمْ﴾: صفة لـ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾؛ أي: كائنين منكم. ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به معطوف على ﴿أشهدوا﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿وَأَقِيمُوا﴾؛ أي: لوجه الله.

﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾.

﴿ذَلِكُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُوعَظُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿يُوعَظُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿يُوعَظُ﴾، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُوعَظُ﴾، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمها ضمير مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ وجملة ﴿يُؤْمِنُ﴾ في محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾، ﴿وَالْيَوْمِ﴾: معطوف على الجلالة، ﴿الْآخِرِ﴾: صفة لـ﴿اليوم﴾، ﴿وَمَنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو اعتراضية، ﴿مَن﴾: اسم شرط في

محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿يَجْعَل﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿لَّهُۥ﴾ متعلق بـ﴿يَجْعَل﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿مَخْرَجًا﴾: مفعول أول له، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة سيقت استطراداً لذكر المؤمنين، أو اعتراضية لاعتراضها بين أحكام المطلقات.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿يَجْعَل﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: متعلق بـ﴿يرزق﴾، وجملة ﴿لَا يَحْتَسِبُ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾، ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿يَتَوَكَّلْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستترمجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَتَوَكَّلْ﴾، ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿حَسْبُهُۥٓ﴾: خبر. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿بَٰلِغُ﴾: خبره، ﴿أَمْرِهِۦ﴾: مضاف إليه أو مفعول به، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له إن كانت بمعنى التصيير، ﴿قَدْرًا﴾: مفعول ثان له. والجملة الفعلية في محل الرفع بدل من ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ على كونه خبر لـ﴿إنّ﴾.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللائي﴾: اسم موصول للجمع المؤنث في محل الرفع مبتدأ، ﴿يَئِسْنَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾: متعلق بـ﴿يَئِسْنَ﴾، ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾: حال من فاعل ﴿يَئِسْنَ﴾، ﴿إِنِ﴾: حرف شرط،

﴿ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: فعل، وفاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية، ﴿عدتهن﴾: مبتدأ، ﴿ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوابها في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. وقيل: الجملة الاسمية خبر اللاتي، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فاعلموا أنها ثلاثة أشهر، وتكون جملة الشرط وجوابه معترضة. والأول أولى؛ لسهولته ولاستغنائه عن التقدير. ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللائي﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: فكذلك أو مثلهن؛ أي: فعدتهن ثلاثة أشهر. ولو قيل: إنه معطوف على ﴿اللائي يئسن﴾ عطف المفردات، وأخبر عن الجميع بقوله: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾.. لكان وجهاً حسناً. ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾: مبتدأ أول، ومضاف إليه ﴿أَجَلُهُنَّ﴾: مبتدأ ثان، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَضَعۡنَ﴾: فعل مضارع في محل النصب مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، ﴿حَمۡلَهُنَّۚ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية، تقديره: أجلُهن وضعُهن حملَهن. وجملة المبتدأ الثاني في محل الرفع خبر عن الأول، وجملة الأول معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾ شرطية في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، وجملة ﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾: فعل شرط لها، وجملة ﴿يَجۡعَل﴾ جوابها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿لَّهُۥ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾: حال من ﴿يُسۡرٗا﴾، و﴿يُسۡرٗا﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلَهُۥٓ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿إِلَيۡكُمۡۚ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَهُۥٓ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَمَن يَتَّقِ﴾: اسم شرط وفعله، ﴿ٱللَّهَ﴾ لفظ الجلالة مفعول و﴿يُكَفِّرۡ﴾: جوابه، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى. ﴿عَنۡهُ﴾: متعلق بـ﴿يُكَفِّرۡ﴾، ﴿سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾: مفعول به. ﴿وَيُعۡظِمۡ﴾: معطوف على جواب الشرط، ﴿لَهُۥٓ﴾ متعلق بـ﴿يعظم﴾، ﴿أَجۡرًا﴾: مفعول به.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ متعلق بـ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾، وجملة ﴿سَكَنتُم﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾، ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾: بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُضَآرُّوهُنَّ﴾: فعل مضارع، وفاعل، ومفعول به، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾. ﴿لِتُضَيِّقُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تضيقوا﴾: فعل مضارع، ومفعول تضيقوا محذوف، تقديره: لتضيقوا المساكن أو النفقة. وجملة ﴿تضيقوا﴾ صلة أن المضمرة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتضييق المساكن، ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُضَآرُّوهُنَّ﴾.

﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿كُنَّ﴾: فعل ماض ناقص في محل جزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، مبني بسكون على النون المدغمة في نون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع اسمها، ﴿أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾: خبرها. ﴿فَأَنفِقُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية، ﴿أنفقوا﴾: فعل أمر في محل جزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿أنفقوا﴾، والجملة مستأنفة أو معطوفة على ما قبلها. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يَضَعْنَ﴾: فعل مضارع في محل النصب بأن المضمرة بعد حتى، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، ﴿حَمْلَهُنَّ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى إلى، تقديره: إلى وضعهن حملهن، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أنفقوا﴾، ﴿فَإِنْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حكم إنفاقهن، وأردتم بيان حكم إرضاع الولد.. فأقول لكم: إن أرضعن لكم. ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿أَرْضَعْنَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث فاعل، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَرْضَعْنَ﴾ ومفعول ﴿أَرْضَعْنَ﴾

محذوف، تقديره: ولداً منهن. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿آتوهن﴾: فعل أمر، وفاعل ومفعول أول، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول ثان لأن ﴿آتى﴾ بمعنى أعطى، وجملة الأمر في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَأْتَمِرُوا﴾: فعل أمر، وفاعل، معطوف على ﴿آتوهن﴾؛ أي: ليأمر بعضكم بعضاً. ﴿بَيْنَكُم﴾: ظرف متعلق بـ﴿ائتمروا﴾، ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: متعلق بـ﴿ائتمروا﴾ أيضاً. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾ حرف شرط، ﴿تَعَاسَرْتُمْ﴾: فعل، وفاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿فَسَتُرْضِعُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بحرف التنفيس، و﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿ترضع﴾: فعل مضارع مرفوع، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿ترضع﴾، ﴿أُخْرَىٰ﴾: فاعل. والجملة في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معطوفة على ما قبلها.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿لِيُنفِقْ﴾: ﴿اللام﴾: لام أمر، ﴿ينفق﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿ذُو سَعَةٍ﴾: فاعل مرفوع بالواو، لأنه من الأسماء الستة، ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ينفق﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿قُدِرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿قُدِرَ﴾، ﴿رِزْقُهُۥ﴾: نائب فاعل، ﴿فَلْيُنفِقْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية، و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿ينفق﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ الشرطية ﴿مِمَّآ﴾: متعلق بـ﴿ينفق﴾ وجملة ﴿ينفق﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿لِيُنفِقْ﴾ لاشتمالها على الطلب أيضاً، وجملة ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: صفة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾: فعل وفاعل، ومفعول أول، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ما﴾: مفعول به ثان لـ﴿يُكَلِّفُ﴾، وجملة ﴿ءَاتَىٰهَا﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة،

﴿سَيَجْعَلُ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿يجعل الله﴾: فعل مضارع، وفاعل، ﴿بَعْدَ عُسْرٍ﴾: ظرف متعلق بمحذوف، وهو المفعول الثاني لـ﴿يجعل﴾. ﴿يُسْرًا﴾: مفعول أول لـ﴿يجعل﴾، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتأكيد الوعد للفقراء بفتح أبواب الرزق.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كأين﴾: اسم مبهم، بمعنى كم الخبرية، في محل الرفع مبتدأ، ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾: تمييز لـ﴿كأين﴾، و﴿مِنْ﴾ زائدة، وجملة ﴿عَتَتْ﴾؛ أي: أعرضت، خبرها. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿عَنْ أَمْرِ﴾: متعلق بـ﴿عَتَتْ﴾، ﴿رَبِّهَا﴾: مضاف إليه، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوف على ﴿رَبِّهَا﴾، ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿حاسبناها﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، ﴿حِسَابًا﴾: مفعول مطلق، ﴿شَدِيدًا﴾: صفة ﴿حِسَابًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَتَتْ﴾، ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿حاسبناها﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق، ﴿نُّكْرًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾. ﴿فَذَاقَتْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ذاقت﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿قَرْيَةٍ﴾، معطوف على ﴿عذبنا﴾، ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَكَانَ﴾: فعل ماض ناقص، معطوف على ﴿ذاقت﴾، ﴿عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا﴾: اسمها، ﴿خُسْرًا﴾: خبرها.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به، ﴿شَدِيدًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾، والجملة مفسرة لما تقدم تأكيداً للوعيد، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما ذكر من استئصال الأمم الماضية بمخالفة أمر ربها ورسله، وأردتم بيان ما هو النجاة لكم من ذلك.. فأقول لكم: اتقوا الله. ﴿اتقوا الله﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَٰٓأُو۟لِى﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أولي﴾:

منادى مضاف منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة على كونها جواب الأمر السابق. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نعت للمنادى، أو بدل منه، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة له، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿ذِكْرًا﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة.

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾.

﴿رَّسُولًا﴾: منصوب بفعل مقدر لدلالة ما قبله عليه، تقديره: أرسل إليكم رسولاً، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على ﴿أَنزَلَ﴾، على حد قوله:

عَلَفْتُهَا تِبْنَاً وَمَاءً بَارِدَاً   حَتَّىٰ غَدَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا

أي: وسقيتها ماء بارداً، وفيه أوجه كثيرة من الإعراب مذكورة في المطولات.

وجملة ﴿يَتْلُوا۟﴾: في محل النصب صفة لـ﴿رَّسُولًا﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ﴿يَتْلُوا۟﴾، ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾: حال من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿لِّيُخْرِجَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يخرج﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لإخراجه الذين آمنوا، الجار والمجرورمتعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾ أو بـ﴿يَتْلُوا۟﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل نصب مفعول به. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿يخرج﴾، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: متعلق بـ﴿يخرج﴾ أيضاً، ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة جواب الشرط أو الجواب، ﴿يُؤْمِنۢ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿يُدْخِلْهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على السعة لـ﴿يُدْخِلْهُ﴾، ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن

﴿تَحۡتِهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجۡرِي﴾، ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من الهاء في ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾، روعي فيه معنى ﴿مَنۡ﴾ الشرطية بعد مراعاة لفظها، ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿أَبَدٗاۖ﴾: ظرف متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿قَدۡ﴾ حرف تحقيق، ﴿أَحۡسَنَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿أَحۡسَنَ﴾، ﴿رِزۡقًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال ثانية من الهاء في ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾. وقد روعي فيها لفظ ﴿مَنۡ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِي﴾: خبره، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿خَلَقَ﴾: صلة الموصول ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: حال من ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾، و﴿مِثۡلَهُنَّ﴾: مفعول به لفعل محذوف، تقديره: وخلق من الأرض مثلهن، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾. ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَيۡنَهُنَّ﴾: متعلق بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾، ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تعلموا﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وعلامة نصبه حذف النون، والواو: فاعل، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعلمكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٞ﴾، و﴿قَدِيرٞ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تعلموا﴾، تقديره: لتعلموا قدرة الله على كل شيء، و﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق، ﴿أَحَاطَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾: متعلق بـ﴿أَحَاطَ﴾، ﴿عِلۡمَۢا﴾: تمييز محول عن الفاعل منصوب بـ﴿أَحَاطَ﴾، وجملة ﴿أَحَاطَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ معطوفة على جملة أنَّ الأولى على كونها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي تعلموا، تقديره: وإحاطة علمه تعالى بكل شيء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: قال في «المفردات». أصل الطلاق: التخلية من وثاق. ويقال: أطلقت البعير من عقاله، وطلقته، وهو طالق وطلق بلا قيد، ومنه: استعير: طلقت المرأة، إذا خليتها، فهي طالق؛ أي: مخلاة من حبالة النكاح. والطلاق اسم

مصدر بمعنى التطليق، كالسلام والكلام بمعنى التسليم والتكليم. وفي ذلك قالوا: المستعمل في المرأة لفظ التطليق، وفي غيرها لفظ الإطلاق، حتى لو قال: أطلقتك.. لم يقع الطلاق ما لم ينوه، ولو قال: طلقتك.. وقع نوى أو لم ينوه.

﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ العدة مصدر عده يعده، كشده يشده شدة، وشرعاً: اسم لمدة تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها غالباً؛ أي: مستقبلين لعدتهن؛ بأن تطلقوهن في طهر لا قربان فيه. ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾؛ أي: اضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء كوامل. وأصل الإحصاء: العد بالحصى كما كان يستعمل ذلك قديماً، ثم استعمل في مطلق العد والضبط، وأصله: أحصيوا، بوزن أفعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت الياء حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، ثم ضمت الصاد لمناسبة الواو.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾: والتقوى في الأصل: اتخاذ الوقاية، وهي: ما يقي الإنسان مما يكرهه، ويؤمل أن يحفظه، ويحول بينه وبين ذلك المكروه، كالترس ونحوه، ثم استعير في الشرع لاتخاذ ما يقي العبد بوعد الله ولطفه من قهره، ويكون سبباً لنجاته من المضار الدائمة وحياته بالمنافع القائمة.

﴿بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ - بالكسر - اسم فاعل، من بين اللازم، بمعنى تبين. والفاحشة: كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وهو الزنا في هذا المقام. وقيل: البذاء على الأحماء، أو على الزوج، أو الخروج قبل انقضاء العدة.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: شرائعه التي أمر بفعلها، ونهى عن ارتكابها، وهي جمع حدّ، والحد: الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾: ﴿يَتَعَدَّ﴾: فيه إعلال بالحذف، فحذف حرف العلة عنه للجازم. ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾؛ أي: أضر بها.

﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ والحدوث: كون الشيء بعد أن لم يكن، عرضاً كان ذلك أو جوهراً، وإحداثه: إيجاده. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وفي «المفردات»: البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى القصد والمبتغى، مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه، وإن لم ينته إليه مثل: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ ...﴾ إلخ كما مرّ. ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾ والعدالة: هي الاجتناب عن الكبائر كلها، وعدم

الإصرار على الصغائر، وغلبة الحسنات على السيئات. ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾: الوعظ: زجر يقترن بتخويف. ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾: المخرج مصدر ميمي؛ أي: خروجاً وخلاصاً مما عسى يقع في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضائق، ويفرج عنه ما يعتريه من الكروب.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التوكل: سكون القلب في كل موجود ومفقود. ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾؛ أي: محسبه؛ أي: كافيه. ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾: ﴿يَئِسْنَ﴾ فعل ماض، والنون للنسوة. واليأس: القنوط ضد الرجاء، يقال: يئس من مراده ييأس يأساً، وفي معناه: أيس يأيس يأساً، وإياساً لا أيساً، وفاعلهما: آيس، لا يائس، يقال: امرأة آيس، إذا كان يأسها من الحيض دون آيسة؛ لأن التاء إنما زيدت في المؤنث، إذا استعملت الكلمة للمذكر أيضاً فرقاً بينهما، وإذا لم تستعمل له.. فأي حاجة إلى الزيادة؟ ومن ذلك يقال: امرأة حائض وطالق وحامل، بلا تاء إذا كان حملها من الولد، وأما إذا كان يأسها وحملها من غير الحيض وحمل الولد.. يقال: آيسة وحاملة. وفي «المغرب»: اليأس: انقطاع الرجاء، وأما الإياس في مصدر الآيسة من الحيض.. فهو في الأصل: ائياس على وزن إفعال، حذفت منه الهمزة التي هي عين الكلمة تخفيفاً.

﴿ٱلْمَحِيضِ﴾: الحيض: وهو في اللغة مصدر حاضت الأنثى، فهي حائض وحائضة؛ أي: خرج الدم من قُبلها، ويكون للأرنب والضبع والخفاش، كما ذكره الجاحظ. وفي «القاموس»: حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحيضاً ومحاضاً، فهي حائض. والمحيض: مصدر ميمي بمعنى الحيض، على وزن مفعل بفتح الميم وكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت إثر كسرة فصارت حرف مد. ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ الهمزة فيه مبدلة من واو لظهور الواو في نسوة ونسوان. ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أصله: ارتيب، بوزن افتعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لما سكن آخر الفعل عند الإسناد إلى ضمير الرفع المتحرك لالتقاء الساكنين.

﴿ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ والأشهر: جمع شهر، وهو مدة معروفة مشهورة بإهلال الهلال، ما مرّ بسطه. ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾. ﴿وَأُوْلَٰتُ﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه، واحدتها: ذات، بمعنى صاحبة. والأحمال: جمع حمل ـ بفتح الحاء ـ كصحب وأصحاب. وفي «المختار»: الحمل ـ بالفتح ـ: ما كان في البطن أو على

رأس شجر، والحمل ـ بالكسر ـ: ما كان على ظهر أو رأس. ا هـ. والمراد به هنا الحَبَل؛ أي: الثقل المحمول في البطن، وهو الولد في البطن. والمعنى: والحبالى منهن. ﴿أَن يَضَعْنَ﴾ مضارع وضع، وقياس مضارعه: يوضع، لكنهم حذفوا فائه التي هي الواو حملاً له على المثالي المكسور العين. ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ بضم الواو باتفاق القراء. والوجد: القدرة والغنى، يقال: افتقر فلان بعد وجده؛ أي: غناه. وفي «المختار»: وجد في المال وجداً، بضم الواو وفتحها وكسرها، وجدة أيضاً بالكسر؛ أي: استغنى. ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ أصله: تضاررونهن، حذفت نون الرفع لدخول الجازم، وهو ﴿لا﴾ الناهية، ثم أدغمت الراء الأولى في الثانية.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ الرضاع لغة: شرب اللبن من الضرع أو الثدي، وشرعاً: وصول لبن آدمية مخصوصة جوف طفل مخصوص على وجه مخصوص. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾ أصله: فائتيوهن، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت الياء حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت التاء لمناسبة واو الجماعة، وأبدلت الهمزة الثانية ألفاً، وحذفت نون الرفع. ﴿وَأْتَمِرُواْ﴾ الأصل: ائتمروا، بهمزة وصل قبل الهمزة فاء الفعل من ائتمر الخماسي، فلما دخلت الواو استغني بها عن همزة الوصل للتمكن من النطق عند وجودها. وقرىء: ﴿وَأْتَمِرُواْ﴾ بإبدال الهمزة ألفاً حرف مدّ للواو، فالائتمار بمعنى التآمر، كاشتوار بمعنى التشاور، يقال: ائتمر القوم وتآمروا، إذا أمر بعضهم بعضاً. يعني: الافتعال قد يكون بمعنى التفاعل، وهذا منه.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾ قوله: ﴿سَعَةٍ﴾ فيه إعلال بالحذف، أصله: وسعة، حذفت الفاء من المصدر حملاً له على المضارع، فوزنه (عَلَةٌ) ظهرت الفتحة على السين عين الكلمة؛ لأن الفعل من باب فعل بكسر العين، يفعل بفتحها، والتاء عوض عن الواو المحذوفة. ﴿مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أصله: أءتيه، بوزن أفعل، أبدلت الهمزة الساكنة ألفاً حرف مد للأولى، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وكذلك القول في قوله: ﴿ءَاتَىٰهُ﴾. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾. و﴿كأين﴾ كـ(كم) الخبرية في كونها للتكثير. والقرية: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس. والمعنى: وكثير من أهل قرية. ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ قال في «المفردات»: العتو: النبو عن الطاعة. وفي «القاموس»: عتا يعتو عتواً، وعتياً وعتيًّا: استكبر وجاوز الحد، فهو عاتٍ وعتيٌّ. انتهى. وأصل عتا: عتو، بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لما اتصلت

بالفعل تاء التأنيث الساكنة لالتقاء الساكنين.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾: و﴿ذاقت﴾ فيه إعلال بالقلب أصله: ذوقت، قلبت الواو لتحركها بعد فتح. ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ والخسر والخسران: انتقاص رأس المال، وينسب إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، أصله: أعدد، نقلت حركة الدال الأولى إلى العين فسكنت فأدغمت في الدال الثانية.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تخصيص النبي - ﷺ - بالنداء، وتعميم المؤمنين بالخطاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه؛ لأنه إمام أمّته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان، افعلوا كيت وكيت.

ومنها: تغليب المخاطب على الغائب في قوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ إظهاراً لشرفه واستتباعه إياهم؛ لأن المعنى إذا طلقت أنت وأمّتك.

ومنها: وصفه تعالى بصفة ربوبيته لهم في قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ تأكيداً للأمر بالتقوى، ومبالغة في إيجاب الاتقاء.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾.

ومنها: إضافة البيوت إليهن في قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ مع أنها للأزواج؛ لتأكيد النهي عن الإخراج ببيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها أملاكهن.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ لتهويل أمر التعدي والإشعار بعلية الحكم في قوله: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. ونكتته مشافهة المتعدي بالخطاب لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي، والظاهر: أن يكون بطريق الغيبة: (لا يدري).

ومنها: مجاز المشارفة في قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: قاربن انقضاء

عدتهم؛ لأنه لا يؤمر بالإمساك بعد انقضاء العدة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾. وكذلك في قوله: ﴿بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ حذف منه الخبر؛ أي: فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ للتعظيم؛ أي: أجراً عظيماً، وللتعميم المنبىء عن التتميم؛ أي: أيّ أجر كان.

ومنها: تكرار الأمر بالتقوى ثلاث مرات اهتماماً بشأن التقوى في أحكام الطلاق.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ يراد بها أهل القرية، فهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحال، علاقته المحلية.

ومنها: إيراد صفة الرب في قوله: ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ توبيخاً لهم وتجهيلاً لما أن عصيان العبيد لربهم ومولاهم طغيان وجهل بشأن سيدهم، ومالكهم، وبمرتبة أنفسهم ودوام احتياجهم إليه في التربية.

ومنها: تكرار الوعيد للتفظيع والترهيب في قوله: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ﴾.

ومنها: في قوله: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾. استعارتان تصريحيتان. استعار الظلمات للضلال والكفر، واستعار النور للهدى والإيمان. حيث شبه الكفر بالظلمات ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به، وشبه الإيمان بالنور وحذف المشبه وأبقى المشبه به أيضاً.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾ من الغيبة إلى الخطاب، وكان مقتضى السياق: قد أنزل الله إليهم ذكراً، وكذا في قوله: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾. أكد الخلود فيها بقوله: ﴿أَبَدٗاۖ﴾ لئلا يتوهم أن المراد به: المكث الطويل المنقطع آخراً.

ومنها: التعجب في قوله: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾؛ لأن فيه معنى التعجب

والتعظيم لما رزق الله المؤمنين من الثواب؛ لأن الجملة الخبرية إذا لم يحصل منها فائدة الخبر ولازمها تُحمل على التعجب، إذا اقتضاه المقام، كأنه قيل: ما أحسن رزقهم الذي رزقهم الله، وما أعظمه! والتنوين في ﴿رِزْقًا﴾ للتعظيم لإعداده تعالى فيها ما هو خارج عن الوصف، أو للتكثير عدداً لما فيه مما تشتهيه الأنفس من الرزق، أو مدداً؛ لأن أكلها دائم لا ينقطع.

والله أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من الشؤون

اشتملت هذه السورة على أحكام شرعية، ومناهج دينية، وفتاوى إسلامية وضعت لإقامة العدل بين الخلق، وما أهل الأرض ولا أحكامهم ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا لمحة من نور العدل العام، وقبضة من فيضه، وزهرة من شجرته، فكم بين السمٰوات والأرض من قضاء في هذا الفضاء الواسع الصامت لفظاً، الناطق معنى؟ وكم من حكم بيننا نرى أثره، ولا نسمع النطق به؟ ترى الشمس محكوماً عليها أن تطلع من مواضع في المشرق وتغيبَ في مواضع في المغرب لا تجوزها، وترى الرياح محكوماً عليها والسحب مأمورة والأنهار جارية، والمزارع قد حكم عليها أن تكون في زمن خاص وأمكنة خاصة، فليس للقطن أن ينبت في البلاد الباردة، ولا أن يثمر في زمن الشتاء، ولا للنخل أن يثمر إلا بعد عدد من السنين، وكل ذلك حكم لمصلحة الناس وسعادتهم في دنياهم.

فانظر أيّ الحكمين أكثر منفعة، أَحُكْمٌ لمصلحةِ أشخاصٍ متنازِعِينَ، أم حكمٌ بسعادة هؤلاء المتنازعين من كل أهل ملة ودين؟

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة التحريم

سورة التحريم مدنية، قال القرطبي في قول الجميع: نزلت بعد الحجرات، وتسمى[1] سورة النبي.

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة التحريم بالمدينة، ولفظَ ابن مردويه: سورة المحرم. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت بالمدينة سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾.

وآيها[2]: اثنتا عشرة آية، **وكلماتها**: مئتان وسبع وأربعون كلمة، **وحروفها**: ألف وستون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها[3]:

١ ـ أن سورة الطلاق في حسن معاشرة النساء والقيام بحقوقهن، وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي ﷺ؛ تعليماً لأمته أن يحذروا أمر النساء وأن يعاملوهن بسياسة اللين، كما عاملهن النبي ـ ﷺ ـ بذلك، وأن ينصحوهن نصحاً مؤثراً.

٢ ـأن كلتيهما افتتحت بخطاب النبي ﷺ.

٣ ـ أن تلك في خصام نساء الأمة، وهذه في خصام نساء النبي ﷺ، وقد أفردن بالذكر تعظيماً لمكانتهن.

وقال أبو حيان[4]: والمناسبة بينها وبين السورة التي قبلها: أنه لما ذكر جملة من أحكام زوجات المؤمنين.. ذكر هنا ما جرى من زوجات رسول الله ﷺ.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة التحريم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

التسمية: وسميت سورة التحريم؛ لأنه ذكر فيها تحريم النبي - ﷺ - ما أحل الله له مع العتاب عليه.

فضلها: وذكر في فضلها أنه - ﷺ - قال: «من قرأ سورة التحريم.. آتاه الله توبة نصوحاً». وفيه مقال.

قال العلماء[1]: **والصحيح في سبب نزولها**: أنها في قصة العسل لا في قصة مارية المروية في غير «الصحيحين»، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح. قال النسائي: إسناد حديث عائشة في العسل جيد صحيح غايةً.

والله أعلم

* * *

(١) البيضاوي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها. وأما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[1] بعض نساء النبي - ﷺ - بالتوبة عما فرطن من

---

(١) المراغي.

الزلات، وأبان لهن أن الله كالىء رسوله وناصره فلا يضره تظاهرهن عليه، ثم حذرهن من التمادي في مخالفته ـ ﷺ ـ خوفاً من الطلاق وحرمانهن من الشرف العظيم بكونهن أمهات المؤمنين، ومن استبدال غيرهن بهن من صالحات المؤمنات.. أمر المؤمنين عامة بوقاية أنفسهم وأهليهم من نار وقودها الناس والحجارة يوم القيامة، يقال للكافرين: لا تعتذروا فقد فات الأوان، وإنما تلقون جزاء ما عملتم في الدنيا، ثم أمر المؤمنين أن يقلعوا عن زلّاتهم وأن يتوبوا توبة نصوحاً، فيندموا على ما فرط منهم من الهفوات، ويعزموا على عدم العودة فيما هو آت، ليكفر الله عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[1] المؤمنين بالتوبة النصوح والرجوع إلى الله والإخبات له.. أمر رسوله بقتال الكفار الذين يقفون في سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله، وبوعيد المنافقين والغلظة عليهم حتى يثوبوا إلى رشدهم، وذكر أن جزاءهم في الآخرة جهنم وبئس المقيل والمأوى.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر عباده المؤمنين بالتوبة النصوح، بالندم على ما فات وعدم العودة فيما هو آت، وأمر رسوله بجهاد الكافرين والمنافقين والغلظة عليهم في القول والعمل.. ذكر هنا أن النفوس إن لم تكن مستعدة لقَبول الإيمان وفي جوهرها صفاء ونقاء.. فلا يجدي فيها الغلظة والعبرة ولا مخالطة المؤمنين المتقين، وضرب لذلك المثل بامرأة نوح وامرأة لوط، فقد كانتا في بيت النبوة ولم يلن قلبهما للإيمان والإسلام، كذلك إذا كان جوهر النفس نقياً خالصاً من كدورة الكفر والنفاق فمجاورتها للكفرة وعشرتها إياهم لا تغير من حالها شيئاً، ولا يؤثر فيها ضلال الضالين، ولا عتو الظالمين، وضرب لذلك مثلاً بامرأة فرعون التي ألحف عليها فرعون وقومه أن تعتنق الوثنية التي كانوا يدينون بها، وتعتقد ألوهيته هو، فأبت وجاهدت في الله حق جهاد حتى لاقت ربها، وهي آمنة مطمئنة قريرة العين بما دخل في قلبها من نور الإيمان،

---

(١) المراغي.

وكذلك مريم بنة عمران التي عفت فآتاها الله سبحانه الشرف والكرامة وأنجبت نبي الله عيسى، وصدقت بجميع شرائعه وكتبه، وكانت من العابدين القانتين.

وفي هذا المثل إيماء إلى أن قرابة المشركين للنبي - ﷺ - لا تجديهم نفعاً بعد كفرهم وعداوتهم له وللمؤمنين، فإن الكفر قد قطع العلائق بينه وبينهم، وجعلهم كالأجانب بل أبعد منهم، كحال امرأة نوح وامرأة لوط لما خانتاهما، كما تضمن التعريض بأُمَّي المؤمنين حفصة وعائشة لما فرط منهما، والتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات: ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي - ﷺ - كان يمكث عند زينب بنة جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيتُ أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها رسول الله - ﷺ - فلتقل: إني لأجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: «لا بأس، شربت عسلاً عند زينب بنة جحش، ولن أعود له» فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً». الحديث، أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه مختصراً ومطولاً.

وأخرج النسائي كما في «تفسير ابن كثير»، والحاكم، وقال: على شرط مسلم، عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله - ﷺ - كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ...﴾ إلى آخر الآية.

وفي «مجمع الزوائد» عن ابن عباس قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ قال: نزلت هذه في سريته، رواه البزار بالإسنادين والطبراني، ورجال البزار رجال الصحيح غير بشر بن آدم، وهو ثقة.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين

معاً. ا هـ. أي: بسبب تحريمه العسل وتحريمه جاريته. وقال الشوكاني في «تفسيره»: فهذان سببان صحيحان لنزول الآية. والجمع ممكن بوقوع القصتين، قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منها أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه مسلم عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم. قال: لما اعتزل نبي الله ـ ﷺ ـ نساءه قال: دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ـ ﷺ ـ نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب ـ فقلت: لأعلمن ذلك اليوم، قال: فدخلت عليَّ عائشة فقلت: يا ابنة أبي بكر! أقد بلغ شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ فقالت: ما لي وما لك يا ابن الخطاب عليك بعيبتك، قال: فدخلتُ على حفصة فقلت لها: يا حفصة؛ أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ والله لقد علمت أن رسول الله ـ ﷺ ـ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله ﷺ، فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خزانته في المشربة، فدخلت فإذا أنا برباحٍ ـ غلام رسول الله ﷺ ـ قاعداً على أُسْكُفَّةِ المشربة مدلٍّ رجليه على نقير من خشبٍ ـ وهو جذع يرقى عليه رسول الله ﷺ وينحدر ـ فناديت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليّ فلم يقل شيئاً، ثم قلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إلي فلم يقل شيئاً، ثم رفعت صوتي فقلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإني أظن أن رسول الله ـ ﷺ ـ ظنّ أني إنما جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرب عنقها لأضربن عنقها، ورفعت صوتي، فأومأ إليَّ أن إرقه، فدخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظاً، وإذا أفيق معلق، قال: فابتدرت عيناي، قال: «ما يبكيك يا ابن الخطاب» قلت: يا نبي الله! وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جسمك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ـ ﷺ ـ وصفوته وهذه خزانتك، فقال:

«يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا»؟ قلت: بلى، قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب فقلت: يا رسول الله! ما يشق عليك من شأن النساء، فإنْ كنت طلقتهن.. فإن الله معك، وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت، وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، ونزلت الآية؛ آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾. وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسول الله، أطلقتهن؟ قال: «لا» قلت: يا رسول الله! إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى، يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: «نعم، إن شئت» فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه وحتى كشر فضحك وكان من أحسن الناس ثغراً، ثم نزل رسول الله ـ ﷺ ـ ونزلت، فنزلت أتثبت بالجذع، ونزل رسول الله ـ ﷺ ـ كأنما يمشي على الأرض ما يَمسُّه بيده، فقلت: يا رسول الله! إنما كنتَ في الغرفة تسعة وعشرين، قال: «إن الشهر يكون تسعاً وعشرين»، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ـ ﷺ ـ نساءه ونزلت هذه الآية ﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾. فكنتُ أنا استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله عز وجل آية التخيير.

وقد تقدم في سورة البقرة قول عمر: وافقت ربي في ثلاث، وذكر منها: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ الكريم محمد ـ ﷺ ـ ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ على نفسك ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَكَ﴾؛ أي: لأي شيء تمتنع من الانتفاع بما أحل الله لك؛ أي: لم تمتنع من شرب العسل الذي أحل الله لك، أو من وقاع مارية القبطية التي أهداها المقوقس ملك مصر. حال كونك ﴿تَبْتَغِى﴾ وتطلب وتقصد بذلك الامتناع ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾؛ أي: إرضاءهن عنك وتبشيرهن. وهذا عتاب من الله سبحانه لرسوله ﷺ على فعله ذلك؛ لأنه لم يكن عن باعث مرضي، بل كان طلباً لمرضات الأزواج.

وفي هذا[1] تنبيه إلى أن ما صدر منه ـ ﷺ ـ لم يكن مما ينبغي لمقامه الشريف أن يفعله. وفي ندائه ـ ﷺ ـ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ في مفتتح العتاب حسن تلطف، وتنويه بشأنه ـ ﷺ ـ على نحو ما جاء في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾. ومعنى ﴿تُحَرِّمُ﴾: تمتنع، وليس التحريم المشروع بوحي من الله، وإنما هو امتناع لتطييب خاطر بعض أزواجه. وأصل ﴿لِمَ﴾ لما، والاستفهام لإنكار التحريم. وجملة ﴿تَبْتَغِي﴾ في محل نصب حال من فاعل ﴿تُحَرِّمُ﴾؛ أي: مبتغياً به مرضاة أزواجك، أو مفسرة لقوله: ﴿تُحَرِّمُ﴾ أو مستأنفة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: والله غفور لذنوب التائبين من عباده وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك رحيم بهم أن يعاقبهم على ما تابوا منه من الذنوب، وإنما عاتبه على الامتناع من الحلال، وهو مباح سواء كان مع اليمين أو بدونه، تعظيماً لقدره الشريف وإجلالاً لمنصبه أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله به، وإيماء إلى أن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي يعد كالذنب وإن لم يكن في نفسه كذلك.

واختلفوا[2] فيما إذا قال لزوجته: أنت عليّ حرام، أو: الحلال عليّ حرام، ولا يستثني زوجته.

فقال جماعة ـ منهم الشعبي، ومسروق، وربيعة، وأبو سلمة، وأصبغ ـ: هو كتحريم الماء والطعام، وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ والزوجة من الطيبات ومما أحله الله تعالى.

وقال أبو بكر، وعمر، وزيد، وابن عباس، وابن مسعود، وعائشة، وابن المسيب، وعطاء، وسليمان بن يسار، وطاووس، وابن جبير، وقتادة، والحسن، والأوزاعي، وأبو ثور، وجماعة: هو يمين يكفرها.

وقال ابن مسعود، وابن عباس أيضاً في إحدى روايتيه وللشافعي في أحد قوليه: فيه تكفير يمين، وليس بيمين.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وقال أبو حنيفة والكوفيون: هذا ما أراد من الطلاق، فإن لم يرد طلاقها.. فهو لا شيء.

وإنما جَمْعُ[1] ﴿الأزواج﴾ مع أن من أرضاها النبي - ﷺ - في هذه القصة عائشة وحفصة رضي الله عنهما، إما لأن إرضاءهما في الأمر المذكور إرضاء لكلهن، لأن النساء في طبقة واحدة في مثل تلك الغيرة؛ لأنهن جبلن عليها، أو لأن الجمع قد يطلق على الاثنين، أو للتحذير عن إرضاء من تطلب منه - ﷺ - ما لا يحسن وتلح عليه، أيتهن كانت؛ لأنه - ﷺ - كان حيياً كريماً.

والجملة حال من ضمير ﴿تُحَرِّمُ﴾، كما مر، والمعنى: حال كونك مبتغياً وطالباً لرضى أزواجك، والحال أنهن أحق بابتغاء رضاك منك، فإنما فضيلتهن بك. فالإنكار وارد على مجموع القيد والمقيد دفعة واحدة، فمجموع الابتغاء والتحريم منك، نظيره قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾. وفيه إشارة إلى فضل مارية والعسل. وفي الحديث: «أول نعمة ترفع من الأرض العسل»، وقد بين ذلك في سورة النحل.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾؛ أي: مبالغ في الغفران، قد غفر لك وستر ما فعلت من التحريم وقصدت من الرضىٰ؛ لأن الامتناع من الانتفاع بإحسان المولى الكريم يشبه عدم قبول إحسانه. ﴿رَّحِيمٌ﴾ قد رحمك ولم يؤاخذك به، وإنما عاتبك محافظة على عصمتك. وقال في «كشف الأسرار»: هذا أشد ماعوتب به رسول الله - ﷺ - في القرآن.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ﴾؛ أي: قد شرع الله سبحانه وتعالى، وبين ﴿لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾؛ أي: تحليل أيمانكم وتكفيرها بالإطعام، أو الكسوة، أو العتق، أو الصوم على ما مر تفصيله في سورة المائدة. والفرض هنا بمعنى الشرع والتبيين؛ لأن ﴿فَرَضَ﴾ بمعنى أوجب إنما يتعدى بعلى. والتحلة: مصدر حلّل المضعف العين، أصله: تحللة، ككرّم تكرمة، وفرق تفرقة، والمراد: تحليل اليمين وفكها، كأن اليمين عقد والكفارة حلّ. يقال: حلّل اليمين تحليلاً: كفّرها؛ أي: فعل ما يوجبه الحنث.

والمعنى: قد بيّن الله لكم ما تنحل به عقدة اليمين من الكفارة في سورة

---

(١) روح البيان.

المائدة، فكفروها إذا حنثتم وخالفتم ما حلفتم عليه بفعله أو تركه.

قال بعضهم[1]: لَمْ يثبتْ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال لِما أحله الله: هو حرام علي، وإنما امتنع من مارية ليمين تقدمت منه، وهو قوله: والله لا أقربها بعد اليوم، فقيل له: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾؛ أي: لم تمتنع منه بسبب اليمين. يعني: أقدم على ما حلفت عليه، وكفر عن يمينك. وظاهر قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ﴾ أنه كانت منه يمين.

فإن قلت: هل كفر رسول الله لذلك؟

قلت: عن الحسن البصري أنه لم يكفر؛ لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإنما هو تعليم للمؤمنين. وعن مقاتل: أنه أعتق رقبة في تحريم مارية وعاودها؛ لأنه لا ينافي كونه مغفوراً أن يكفر، فهو والأمة سواء في الأحكام ظاهراً. وقرىء[2]: ﴿قد فرض الله لكم كفارة أيمانكم﴾، والمعنى: قد شرع الله لكم تحليل أيمانكم بالكفارة عنها، فعليك أن تكفر عن يمينك. وقد روي: أنه ﷺ كفر عن يمينه فأعتق رقبة، عبداً أو أمة.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَوْلَىٰكُمْۖ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: متولي أموركم بنصركم على أعدائكم، ومسهل لكم سبيل الفلاح في دنياكم وآخرتكم، ومنير لكم طوق الهداية إلى ما فيه سعادتكم في معاشكم ومعادكم. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم، فيشرعه لكم. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير أموركم، فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا وفق ما تقتضيه المصلحة.

ثم ساق ما هو كالدليل على علمه، فقال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ والإسرار[3]: ضد الإعلان، والسر: هو الحديث المكتم في النفس، ويقال: أسررت إلى فلان حديثاً: أفضيت به إليه في خفية. فالإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضي إليه السر، وإن كان يقتضي إخفاءه من غيره. فإذاً قولهم: أسررت إلى فلان، يقتضي من وجه الإظهار ومن وجه الإخفاء.

و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: هو رسول الله ﷺ، فإن اللام للعهد. و﴿إِذْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف؛ اي: اذكر الحادث وقت الإسرار، والأكثر المشهور أنه مفعول به؛ أي:

---

(١) روح البيان. (٢) المراح. (٣) روح البيان.

واذكر يا محمد وقت إسرار النبي وإخفاءه حديثاً إلى بعض أزواجه على وجه التأنيب والعتاب. أو: واذكروا أيها المؤمنون. فالخطاب إن كان له ﷺ.. فالإظهار في مقام الإضمار، بأن قيل: وإذ أسررت، للتعظيم بإيراد وصف ينبىء عن وجوب رعاية حرمته ولزوم حماية حرمه عما يكرهه، وإن كان لغيره عموماً على الاشتراك، أو خصوصاً على الانفراد.. فذكره بوصف النبي للإشعار بصدقه في دعوة النبوة.

﴿إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ وهي حفصة رضي الله عنها. تزوجها النبي - ﷺ - في شعبان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة قبل أحد بشهرين، وكانت ولادتها قبل النبوة بخمس سنين، وقريش تبني البيت وماتت بالمدينة في شعبان سنة خمس وأربعين، وصلى عليها مروان بن الحكم، وهو أمير المدينة يومئذ، وحمل سريرها، وحمله أبو هريرة أيضاً، وقد بلغت ثلاثاً وستين سنة، وأبو حفص أبوها عمر رضي الله عنه كناه رسول الله - ﷺ - به، والحفص ولد الأسد. ﴿حَدِيثًا﴾ قال الراغب: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له: حديث. والمراد: حديث تحريم مارية، أو العسل، أو أمر الخلافة. قال الكلبي: أسر إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي. قال سعدي المفتي فيه: أن تحريم العسل ليس مما أسر إلى حفصة، بل كان ذلك عند عائشة، وسودة وصفية رضي الله تعالى عنهن. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾؛ أي: أخبرت حفصة صاحبتها التي هي عائشة ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالحديث الذي أسره إليها رسول الله - ﷺ - وأفشته إليها.

وقرأ الجمهور: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾. وقرأ طلحة: ﴿أنبأت﴾، ﴿وَأَظْهَرَهُ﴾ ﷺ ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إفشاء حفصة ذلك الحديث إلى عائشة؛ أي: أطلع الله سبحانه نبيه على إفشاء حفصة ذلك الحديث على لسان جبريل، فالضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ راجع إلى الحديث، بتقدير المضاف المذكور، وضمن ﴿أظهر﴾ معنى أطلع، فعداه بـ﴿على﴾ إلى المفعول الثاني، من ظهر فلان السطح، إذا علاه، وحقيقته: صار على ظهره، وأظهره على السطح؛ أي: رفعه عليه، فاستعير للاطلاع على الشيء، وهو من باب الإفعال.

﴿عَرَّفَ﴾ النبي - ﷺ - حفصة. وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَرَّفَ﴾ بتشديد الراء من

---

(١) البحر المحيط.

التعريف يعني أعلمها به وأنبأها عليه، وقرأ السلمي، والحسن، وقتادة، وطلحة، والكسائي، وأبو عمرو في رواية هارون عنه بتخفيف الراء؛ أي: جازى بالعتب واللوم، كما تقول لمن يؤذيك: لأعرفن لك ذلك؛ أي: لأجازينك. وقيل: إنه طلق حفصة وأمر بمراجعتها، وقيل: عاتبها ولم يطلقها، وقرأ ابن المسيب، وعكرمة ﴿عَرَاف﴾ بألف بعد الراء، وهي إشباع، قال ابن خالويه: يقال: إنها لغة يمانية، ومثالها قوله:

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَقْرَابِ الشَّائِلاَتِ عُقَدَ الأَذْنَابِ

يريد من العقرب.

أي: عرف النبي - ﷺ - حفصة ﴿بَعْضَهُ﴾؛ أي: بعض الحديث الذي أفشته إلى صاحبتها على طريق العتاب؛ بأن قال لها: ألم أك أمرتك أن تكتمي سري، ولا تبديه لأحد وهو حديث الإمامة. روي: أنه عليه السلام لما عاتبها.. قالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي.. فرحاً بالكرامة التي خص الله بها أباها، وبعض الشيء جزء منه. واختار أبو عبيد[1]، وأبو حاتم القراءة الأولى؛ لقوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾؛ أي: لم يعرفها إياه، ولو كان مخففاً لقال في ضده: وأنكر. ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾؛ أي: عن تعريف بعض تكرماً وحياء وحسن عشرة، وهو حديث مارية، وقال بعضهم: عرف تحريم الأمة وأعرض عن تعريف أمر الخلافة، كراهة أن يُنشر ذلك في الناس، وتكرماً منه وحلماً. وفيه حث على ترك الاستقصاء فيما جرى من ترك الأدب، فإنه صفة الكرام. قال الحسن: ما استقصى كريم قط. وقال بعضهم: ما زال التغافل من فعل الكرام.

ومعنى الآية[2]: أي واذكر يا محمد حين أسر النبي - ﷺ - إلى حفصة أنه كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، وقال: «لن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا»، فلما أخبرت عائشة بما استكتمها من السر، وأطلعه الله على ما دار بين حفصة وعائشة بما كان قد طلب من حفصة أن تكتمه، أخبر حفصة ببعض الحديث الذي أفشته، وهو قوله لها: كنت شربت عسلاً عند زينب بنت جحش فلن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أعود، وأعرض عن بعض الحديث وهو قوله: «وقد حلفت» فلم يخبرها به، تكرماً منه؛ لما فيه من مزيد خجلتها، ولأنه - ﷺ - ما كان يود أن يشاع عنه اهتمامه بمرضاة أزواجه إلى حدّ امتناعه عن تناول ماأحل الله له.

﴿فَلَمَّا﴾[1] أفشت حفصة الحديث لعائشة، واكتتمتها إياه و﴿نَبَّأَهَا﴾ الرسول ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: أخبر النبي - ﷺ - حفصة بالحديث الذي أفشته، بما أظهره الله عليه من أنها أفشت سره.. ظنت حفصة أن عائشة فضحتها فـ﴿قَالَتْ﴾ حفصة له - ﷺ -: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾؛ أي: من أخبرك هذا الخبر عني؟ على سبيل التثبت. وفيه تعجب واستبعاد من إخبار عائشة بذلك؛ لأنها أوصتها بالكتم. ولم يقل: من نبأك؛ ليوافق ما قبله للتفنن. ﴿قَالَ﴾ النبي - ﷺ - ﴿نَبَّأَنِيَ﴾ بفتح ياء المتكلم؛ أي: أخبرني الله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بظواهر الأشياء ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطنها، الذي لا تخفى عليه خافية، فسكتت وسلمت. ونبأ أيضاً من قبيل التفنن، يقال: إنَّ أنبأ ونبأ يتعديان إلى مفعولين: إلى الأول بنفسهما، وإلى الثاني بالباء، وقد يحذف الأول للعلم به، وقد يحذف الجار ويتعدى الفعل إلى الثاني بنفسه أيضاً، فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ على الاستعمال الأول، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ على الاستعمال الثاني، وقوله: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ﴾ على الاستعمال الثالث.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ هو والعالم والعلام من أسمائه سبحانه، ومن أدب من علم أنه سبحانه عالم بكل شيء حتى بخطرات الضمائر ووساوس الخواطر أن يستحي منه، ويكف عن معاصيه، ولا يغتر بجميل ستره، ويخشى بغتات قهره ومفاجأة مكره، والخبير بمعنى العليم.

والمعنى[2]: أي فلما أخبر النبي - ﷺ - حفصة بما دار بينها وبين عائشة من الحديث.. قالت: من أنبأك هذا؟ ظناً منها أن عائشة قد فضحتها بإخبارها رسول الله ﷺ، قال: أخبرني ربي العليم بالسر والنجوى، الخبير بما في الأرض والسماء، لا يخفى عليه شيء فيهما.

وفي الآية إيماء إلى أمور اجتماعية هامة:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

١ ـ أنه لا مانع من الإباحة بالأسرار إلى من تركن إليه من زوجة أو صديق.

٢ ـ أنه يجب على من استكتم الحديث أن يكتمه.

٣ ـ أنه يحسن التطلف مع الزوجات في العتب والإعراض عن الاستقصاء في الذنب.

ثم وجه الخطاب إلى حفصة وعائشة مبالغة في العتب، فقال: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه. خطاب لحفصة وعائشة رضي الله عنهما، فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الخطاب، لكن العتاب يكون للأولياء كما أن العقاب يكون للأعداء، كما قيل:

إِذَا ذَهَبَ ٱلْعِتَابُ فَلَيْسَ وُدٌّ وَيَبْقَىٰ ٱلْوُدُّ مَا بَقِيَ ٱلْعِتَابُ

ففيه إرادة الخير لحفصة وعائشة بإرشادهما إلى ما هو أوضح لهما، وجواب الشرط محذوف. و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ لتعليل[1] الجواب المحذوف، كما في قولك: اعبد ربك؛ فالعبادة حق، وإلا فالجزاء يجب أن يكون مرتباً على الشرط مسبباً عنه، وصغو قلوبهما كان سابقاً على الشرط وكذا الكلام في ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا...﴾ إلخ.

والمعنى: إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما ما يوجب التوبة؛ لأنه قد صغت قلوبكما ومالت وعدلت عما يجب عليكما من مخالصة رسول الله ـ ﷺ ـ وحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه، حيث حصل منكما إفشاء سر الرسول ـ ﷺ ـ يقال: صغا عن الحق، يصغو صغواً، إذا مال وعدل عنه. أو المعنى: فقد صغت ومالت قلوبكما إلى ما يجب للرسول ـ ﷺ ـ من إجلال وتعظيم. وجمع القلوب فراراً من كراهة اجتماع تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة لو قال: قلباكما؛ لأن العرب تكره ذلك، والجمع[2] في مثل هذا أكثر استعمالاً من المثنى والتثنية دون الجمع، كما قال الشاعر:

فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِنَوَافِذٍ كَنَوَافِذِ ٱلْعَبِطِ ٱلَّتِي لاَ تُرْفَعُ

وكان هذا هو القياس؛ لأن الأصل: أن يعبر عن المثنى بالمثنى، لكن كرهوا

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

اجتماع تثنيتين، فعدلوا إلى الجمع، لأن التثنية جمع في المعنى، والإفراد لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر، كقوله:

حَمَامَةَ بَطْنِ ٱلْوَادِيَيْنِ تَرَنَّمِي

يريد: بطني. وغلط ابن مالك فقال في «التسهيل»: ونختار لفظ الإفراد على لفظ التثنية.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ قرأ الجمهور[1]: ﴿تَظَٰهَرَا﴾ بحذف إحدى التاءين تخفيفاً، أصله: تتظاهرا. وقرأ عكرمة: ﴿تتظاهرا﴾ على الأصل. وقرأ أبو رجاء، والحسن، وطلحة، وعاصم، ونافع في رواية عنهما ﴿تظّهّرا﴾ بشد الظاء والهاء بدون ألف. وهو تفاعل، من الظَهْر؛ لأنه أقوى الأعضاء؛ أي: فإن تتعاونا على النبي - ﷺ - بما يسوؤه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره. وكانت كل منكما ظهراً لصاحبتها فيه، وجواب الشرط محذوف، كما أشرنا إليه سابقاً، تقديره: فلن يعدم هو؛ أي: النبي - ﷺ - من يظاهره. و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ لتعليل ذلك الجواب المحذوف، والتقدير: وإن تظاهرا وتعاونا على إفشاء سره - ﷺ - وإظهار ما يكرهه.. فلن يعدم - ﷺ - من يظاهره ويعاونه؛ لأن الله سبحانه وتعالى ناصره ﴿وَجِبۡرِيلُ﴾ رئيس الملائكة المقربين قرينه ورفيقه. ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾؛ أي: ومن صلح من المؤمنين، أتباعه وأعوانه ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مع تكاثر عددهم وامتلاء السماوات من جموعهم ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد نصرة الله، وناموسه الأعظم، وصالح المؤمنين. وفيه تعظيم لنصرتهم؛ لأنها من الخوارق كما وقعت في بدر، ولا يلزم منه أفضلية الملائكة على البشر. ﴿ظَهِيرٌ﴾؛ أي: فوج مظاهر له معين، كأنهم يد واحدة على من يعاديه، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراءه وأعوانه؟ وقوله: ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، جيء به لتقوية الحكم لا للحصر، وإلا لانحصرت الولاية له - ﷺ - في الله تعالى، فلا يصح عطف ما بعده عليه. ﴿وَجِبۡرِيلُ﴾: عطف على موضع اسم إن بعد استكمالها خبرها، وكذا قوله: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾. وإليه مال السجاوندي؛ إذ وضع علامة الوقف على المؤمنين.

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط.

والظاهر[1]: أن ﴿صالح﴾ مفرد، ولذلك كتبت الحاء بدون واو الجمع، ومنهم من جوز كونه بالواو والنون، وحذفت النون بالإضافة وسقطت واو الجمع في التلفظ لالتقاء الساكنين، وسقطت في الكتابة أيضاً حملاً للكتابة على اللفظ، نحو ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾، ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، و﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ إلى غير ذلك. وعلى تقدير عطف ﴿جبريل﴾ وما بعده على اسم إن يكونان داخلين في الولاية لرسول الله - ﷺ -، ويكون ﴿جبريل﴾ أيضاً ظهيراً له بدخوله في عموم الملائكة. ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿مَوْلَىٰهُ﴾، ويكون ﴿جبريل﴾ مبتدأ، وما بعده عطفاً عليه، و﴿ظَهِيرٌ﴾ خبر للجميع، فتختص الولاية بالله. وقد تقرر في علم النحو: أن فعيل كظهير وجريح وخبير، يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع.

قيل: المراد بصالح المؤمنين: أبو بكر وعمر، وقيل: علي بن أبي طالب، وقيل: الأنبياء. وقال السهيلي: لفظ الآية عام، فالأولى حملها على العموم.

قال بعضهم: لعل ذكر غير الله مع أن الإخبار بكونه تعالى مولاه كاف في تهديدهما لتذكير كمال رفعة شأن النبي - ﷺ - عند الله وعند الناس وعند الملائكة أجمعين.

ويقول الفقير - أمده الله القدير - هذا ما قالوا، والظاهر: أن الله مع كفاية نصرته ذكر بعد نفسه من كان أقوى في نصرته - ﷺ - من المخلوقات؛ لكون المقام مقام التظاهر، لكون عائشة وحفصة متظاهرتين. وزاد في الظهير لكون المقام مقام التهديد أيضاً، وقدم ﴿جبريل﴾ على الصلحاء لكونه أول نصير له - ﷺ - من المخلوقات وسفيراً بينه وبين ربه سبحانه. وقدم الصلحاء على الملائكة لفضلهم عليهم في باب النصرة؛ لأن نصرة الملائكة نصرة بالفعل القالبي، ونصرة الصلحاء نصرة به وبالهمة، وهي أشد، وما يفيده البعدية من أفضلية تظاهرهم على تظاهر الصلحاء، فمن حيث الظاهر؛ إذ هم أقدر على الأفعال الشاقة من البشر، فاقتضى مقام التهديد ذكر البعدية.

ومعنى الآية: أي إن تتوبا من ذنبكما، وتقلعا عن مخالفة رسوله - ﷺ -،

---

(١) روح البيان.

فتحبا ما أحبه وتكرها ما كرهه.. فقد مالت قلوبكما إلى الحق والخير، وأديتما ما يجب عليكما نحوه - ﷺ - من إجلال وتكريم لمنصبه الشريف. ثم ذكر سبحانه أنه حافظه وحارسه، فلا يضره أذى مخلوق، فقال: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ...﴾ إلخ؛ أي: وإن تتعاونا على العمل بما يؤذيه ويسؤوه، من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره.. فلن يضره ذلك شيئاً؛ فإن الله ناصره في أمر دِينه وسائر شؤونه على كل من يتصدى لما يكرهه، وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة مظاهرون له ومعينون.

وقد أعظم[1] الله سبحانه شأن نصرة نبيه على هاتين الضعيفتين للإشارة إلى عظم مكر النساء، وللمبالغة في قطع أطماعهما، في أنه ربما شفع لهما مكانتهما عند رسول الله - ﷺ - وعند المؤمنين لأمومتهما لهم، وكرامة له - ﷺ -، ورعاية لأبويهما، ولتوهين أمر تظاهرهما، ودفع ما عسى أن يتوهمه المنافقون من ضرره في أمر النبوة، وقهر أعداء الدين؛ إذ قد جرت العادة بأن الشؤون المنزلية تشغل بال الرجال، وتضيع زمناً في تفكيرهم فيها، وقد كانوا أحق بالتفكير فيما هو أجدى نفعاً وأجل فائدة.

ثم شرع سبحانه في تخويفهما، بأن ذكر لهما أنه - ﷺ - يحتمل أن يطلّقكما، ثم إنه إن طلقكما لا يعود ضرر ذلك إلا إليكما؛ لأنه يبدله أزواجاً خيراً منكما، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾؛ أي: حقق رب محمد - ﷺ - ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ وهذا شرط معترض بين اسم ﴿عَسَىٰ﴾ وخبرها، وجوابه محذوف تقديره: إن طلقكن.. يبدله أزواجاً خيراً منكن، أو متقدم على ﴿عَسَىٰ﴾؛ أي: إن طلقكن.. فعسى أن يبدله. ﴿أَن يُبۡدِلَهُۥٓ﴾؛ أي: أن يعطي الله سبحانه محمداً - ﷺ - بدلكن ﴿أَزۡوَٰجًا﴾ مفعول ثان ليبدله وقوله: ﴿خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ صفة للأزواج، وكذا ما بعده من قوله: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾ إلى ﴿ثَيِّبَٰتٖ﴾. وفيه تغليب المخاطب على الغائبات، فالتقدير: إن طلقكما وغيركما، أو تعميم الخطاب لكل الأزواج بأن يكن كلهن مخاطبات لما عاتبهما بأنه قد صغت قلوبكما، وذلك يوجب التوبة.

فإن قلت: كيف أثبت الخيرية لهن بالصفات المذكورة بقوله: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾ إلى

---

(١) المراغي.

آخره مع اتصاف أزواجه - ﷺ - بها أيضاً؟

قلت: المراد خيراً منكن في حفظ قلبه ومتابعة رضاه مع اتصافهن بهذه الصفات.

وليس[1] في الآية ما يدل على أنه - ﷺ - لم يطلق حفصة، وعلى أن النساء خيراً منهن، فإن تعليق الطلاق للكل لا ينافي تطليق واحدة، وما علق بما لم يقع لا يجب وقوعه. يعني: أن هذه الخيرية لما علقت بما لم يقع لم تكن واقعة في نفسها، وكان الله عالماً بأنه - ﷺ - لا يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن طلقهن.. أبدله خيراً منهن، تخويفاً لهن، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾، فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم، لا أن في الوجود من هو خير من أصحاب محمد ﷺ.

قيل: كل ﴿عَسَىٰ﴾ في القرآن واجب إلا هذا. وقيل: هو أيضاً واجب، ولكن الله علقه بشرط، وهو: التطليق، ولم يطلقهن. وفي «فتح الرحمٰن»: ﴿عَسَىٰ﴾ تكون للوجوب في ألفاظ القرآن إلا في موضعين:

أحدهما: في سورة محمد ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: علمتم أو تمنيتم.

والثاني: هنا، ليس بواجب؛ لأن الطلاق معلق بالشرط، فلما لم يوجد الشرط.. لم يوجد الإبدال، انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿طَلَّقَكُنَّ﴾ بفتح القاف، وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس بإدغامها في الكاف.

ثم وصف سبحانه الأزواج بقوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾؛ أي: مقرات باللسان ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾؛ أي: مخلصات بالجَنان.. فليس من قبيل التكرار - أو منقادات انقياداً ظاهرياً بالجوارح مصدقات بالقلوب، أو قائمات بفرائض الإسلام، مصدقات بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾؛ أي: مطيعات؛ أي: مواظبات على الطاعة، أو مصليات ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ من الذنوب ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾؛ أي: متعبدات، أو متذللات لأمر الرسول - ﷺ - ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

صائمات. سمى الصائم سائحاً، لأنه يسيح في النهار بلا زاد، فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه، فشبه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره.

وقال بعضهم[1]: الصوم ضربان:

صوم حقيقي، وهو: ترك المطعم والمشرب والمنكح.

وصوم حكمي، وهو: حفظ الجوارح من المعاصي، كالسمع والبصر واللسان والسائح هو الذي يصوم هذا الصوم دون الأول. انتهى. أو مهاجرات من مكة إلى المدينة، إذ في الهجرة مزيد شرف ليس في غيرها، كما قال ابن زيد: ليس في أمة محمد سياحة إلا الهجرة، والسياحة في الأصل: الجولان في الأرض.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾، وعمرو بن فائد ﴿سَيِّحات﴾. وهذه الصفات السابقة تجتمع، وأما الثيوبة والبكارة فلا يجتمعان في ذات واحدة لتنافيهما، فلذلك عطف أحدهما على الآخر في قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾. ولو لم يعطف.. لاختل المعنى، فكأنه قيل: أزواجاً خيراً منكن متصفات بهذه الصفات المذكورة المحمودة، كائنات بعضها ثيبات، تعريضاً لغير عائشة، وبعضها أبكاراً تعريضاً لها، فإنه - ﷺ - تزوجها وحدها بكراً، وهو الوجه في إيراد ﴿الواو﴾ الواصلة دون ﴿أو﴾ الفاصلة؛ لأنها توهم أن الكل ثيبات أو كلها أبكار. الثيب تمدح من جهة أنها أكثر تجربة وعقلاً وأسرع حبلاً غالباً، والبكر تمدح من جهة أنها أطهر وأطيب وأكثر ملاعبة ومداعبة غالباً. وسميت الثيب ثيباً؛ لأنها ثابت؛ أي: رجعت إلى بيت أبويها، وسميت العذراء بكراً، لأنها على أول حالتها التي خلقت بها.

قال السيوطي - رحمه الله تعالى -[3]: ذكر بعض أهل العلم أن في هذا إشارة إلى مريم البتول، وهي البكر، وإلى آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وأن الله سيزوجه عليه السلام إياهما في الجنة، كما روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال أبو الليث: تكون وليمة في الجنة، وسيجتمع عليها أهل الجنة، فيزوج الله هاتين المرأتين؛ يعني: آسية ومريم، من محمد - ﷺ - كما رواه معاذ بن جبل عن النبي - ﷺ -. وبدأ بالثيب قبل البكر؛ لأن زمن آسية قبل زمن مريم، ولأن أزواج

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

النبي - ﷺ - كلهن ثيب إلا واحدة، وأفضلهن خديجة، وهي ثيب. فتكون هذه القبلية من قبلية الفضل والزمان أيضاً؛ لأنه تزوج الثيب منهن قبل البكر.

ثم إن المراد من الإبدال أن يكون في الدنيا، كما أفاده قوله تعالى: ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾؛ لأن نساء الجنة يكن أبكاراً، سواء كن في الدنيا ثيبات أو أبكاراً.

ومعنى الآية[1]: أي عسى الله أن يعطيه - ﷺ - بدلكن أزواجاً خيراً منكن إسلاماً وإيماناً، ومواظبة على العبادة، وإقلاعاً عن الذنوب، وخضوعاً لأوامر الرسول، بعضهن ثيبات وبعضهن أبكاراً، إن هو قد طلقكن.

والخلاصة: احذرن أيتها الأزواج من إيذاء رسول الله - ﷺ - والتألب عليه والعمل على ما يسؤوه؛ فإنه ربما أحرج صدره فطلقكن، فأبدله الله من هو خير منكن في الدين والصلاح والتقوى وفي الشؤون الزوجية، فأعطاه بعضهن أبكاراً وبعضهن ثيبات.

ولا شيء أشد على المرأة من الطلاق، ولا سيما إذا استبدل خير منها بها.

ثم اعلم[2]: أن في الآيات المتقدمة فوائد:

منها: أن تحريم الحلال غير مرضي، كما أن ابتغاء رضى الزوج بغير وجهه وجه ليس بحسن.

ومنها: أن إفشاء السر ليس في المروءة، خصوصاً إفشاء أسرار السلاطين الصورية والمعنوية لا يعفى، وكل سرّ جاوز الاثنين.. شاع؛ أي: المسر والمسر إليه، أو الشفتين.

ومنها: أن من الواجب على أهل الزلة التوبة والرجوع قبل الرسوخ واشتداد القساوة.

ومنها: أن البكارة وجمال الصورة وطلاقة اللسان ونحوها، وإن كانت نفاسة جسمانية مرغوبة عند الناس، لكن الإيمان والإسلام والقنوت والتوبة ونحوها نفاسة روحانية مقبولة عند الله، وشرف الحسب أفضل من شرف النسب، والعلم الديني

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

والأدب الشرعي هما الحسب المحسوب من الفضائل. فعلى العاقل: أن يتحلى بالورع، وهو: الاجتناب عن الشبهات، والتقوى وهو: الاجتناب عن المحرمات، ويتزين بزين المكارم والأخلاق الحسنة، والأوصاف الشريفة المستحسنة.

ولما وعظ سبحانه أزواج النبي - ﷺ - موعظة خاصة.. أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين وأهليهم، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: احفظوا أنفسكم، وبعِّدوها من النار بترك المعاصي، وفعل الطاعات أمر من الوقاية، بمعنى الحفظ والحماية كما سيأتي. والأنفس: جمع نفس، والمراد بالنفس هنا: ذات الإنسان، لا النفس الأمارة، ﴿وَ﴾ قوا ﴿أَهْلِيكُمْ﴾ بالنصح والتأديب؛ لأن رب المنزل راع، وكل راع مسؤول عن رعيته. ومعنى وقايتهم: حملهم على طاعة الله وإلزامهم أداء ما فرض عليهم.

وقرىء[1]: ﴿وأهلوكم﴾ بالواو عطفاً على الضمير في ﴿قُوا﴾، وحسن العطف للفصل بالمفعول، و﴿أَنفُسَكُمْ﴾ واقع بعده في التقدير؛ أي: قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم، ولما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه فجعلت ضميرهما معاً على لفظ المخاطب. وأصله: أهلين، جمع أهل، حذفت النون للإضافة، وقد يجمع على أهالي على غير قياس، وهو كل من في عيال الرجل ونفقته، من المرأة والولد، والعبد والأمة، ويفسر بالأصحاب.

﴿نَارًا﴾ عظيمة هائلة ﴿وَقُودُهَا﴾؛ أي[2]: ما توقد به تلك النار يعني: حطبها. فالوقود - بالفتح -: اسم لما توقد به النار من الحطب وغيره والوقود - بالضم - مصدر بمعنى الاتقاد. وقرىء به على تقدير مضاف؛ أي: أسباب وقودها، أو بالحمل على المبالغة. ﴿ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: كفار الإنس والجن، وإنما لم يذكر الجن أيضاً لأن المقصود تحذير الإنس، ولأن كفار الجن تابع لكفار الإنس، لأن التكذيب إنما صدر أولاً من الإنس. ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾؛ أي: تتقد بالحجارة أيضاً اتقاد غيرها بالحطب. ففيه بيان لغاية إحراقها وشدة قوتها، فإن اتقاد النار بالحجارة مكان الحطب من الشجر يكون من زيادة حرها. لذلك قال النبي - ﷺ -: «ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم».

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وعن ابن عباس: هي حجارة الكبريت، وهي أشد الأشياء حراً إذا أوقد عليها، ولها سرعة الاتقاد ونتن الرائحة وكثرة الدخان وشدة الالتصاق بالأبدان، فيكون العذاب أشد. وقيل: وقودها الناس إذا صاروا إليها، والحجارة قبل أن يصيروا إليها. وقرن الناس بالحجارة لأنهم نحتوها، واتخذوها أرباباً من دون الله، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

والمعنى[1]: يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله! ليعلم بعضكم بعضاً ما تتقون به النار وتدفعونها عنكم، إنه طاعة الله تعالى وامتثال أوامره، ولتعلموا أهليكم من العمل بطاعته ما يقون به أنفسهم منها، واحملوهم على ذلك بالنصح والأدب. قال ابن جرير: فعلينا أن نعلم أولادنا الدِّين والخير وما لا يستغنى عنه من الأدب. ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾. روي: أن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال حين نزلت هذه الآية: نقي أنفسنا، فكيف لنا بأهلينا؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «تنهونهن عما نهاكم الله عنه، وتأمرونهن بما أمركم الله به، فيكون ذلك وقاية بينهم وبين النار». وأخرج ابن المنذر، والحاكم في جماعة آخرين عن علي رضي الله عنه: أنه قال في الآية: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم.

وفي الآية إيماء إلى أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من فرائض الدين وتعليمها لهؤلاء. وجاء في الحديث: «رحم الله رجلاً قال: يا أهلاه! صلاتَكم، صيامَكم، زكاتَكم، مسكينَكم، يتيمَكم، جيرانَكم؛ لعل الله يجمعكم معهم في الجنة».

﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على تلك النار العظيمة ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ تلي أمرها وتعذيب أهلها، وهم: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم، فليس[2] المراد بـ﴿على﴾ الاستعلاء الحسي، بل الولاية والقيام، والاستيلاء والغلبة على ما فيها من الأمور. ﴿غِلَاظٌ﴾؛ أي: غلاظ القلوب. جمع غليظ، بمعنى خشن خال قلبه من الشفقة والرحمة. ﴿شِدَادٌ﴾؛ أي: شداد القوى. جمع شديد، بمعنى القوي؛ لأنهم أقوياء لا يعجزون عن الانتقام من أعداء الله على ما أمروا به. وقيل: غلاظ الأقوال، شداد الأفعال،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أقوياء على الأفعال الشديدة، يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم. وقيل: غلاظ على أهل النار، شداد عليهم لا يرحمونهم إذا استرحموهم؛ لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه، وحبب إليهم تعذيب خلقه لا لذة لهم إلا فيه، فمقتضى جبلَّتهم تعذيب الخلق بلا مرحمة كما أن مقتضى جبلة الحيوان الأكل والشرب، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، أو كما بين المشرق والمغرب، يضرب أحدهم بمقمعة ضربة واحدة، فيهوون في النار سبعين ألفاً من أهل النار.

وقيل: الغلاظ: ضخام الأجسام، والشداد: الأقوياء.

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿مَآ أَمَرَهُمْ﴾؛ أي[1]: لا يعصون أمره في عقوبة الكفار وغيرها، على أنه بدل اشتمال من ﴿ٱللَّهَ﴾، و﴿مَآ﴾ مصدرية؛ أو: لا يعصونه فيما أمرهم به، على نزع الخافض، و﴿مَآ﴾ موصولة؛ أي: لا يمتنعون من قبول الأمر كأعوان ملوك الدنيا يمتنعون بالرشوة، بل يلتزمونه ويعزمون على إتيانه. فليست هذه الجملة مع التي بعدها في معنى واحد. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: يؤدون ما يؤمرون به من تعذيب الكفار من غير تثاقل وتوان، وتأخير وزيادة ونقصان. وقال القاضي: لا يعصون الله ما أمرهم فيما مضى، ويستمرون على فعل ما يؤمرون به في المستقبل. وقال الزمخشري. فإن قلت[2]: أليست الجملتان في معنى واحد؟

قلت: لا، فإن معنى الأولى: أنهم يتقبلون أوامره، يلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها، ومعنى الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به من تعذيب الكفار، لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه، انتهى.

وقال بعضهم[3]: لعل التعبير في الأمر أولاً بالماضي مع نفي العصيان بالمستقبل؛ لما أن العصيان وعدمه يكونان بعد الأمر، وثانياً بالمستقبل؛ لما أن أمرهم بعذاب الأشقياء يكون مرة بعد مرة. قال بعض الكبار: في هذه الآية دليل على عصمة جميع الملائكة السماوية، وذلك لأنهم عقول مجردة بلا منازع ولا شهوة فيهم مطيعون بالذات، بخلاف البشر والملائكة الأرضية الذين لا يصعدون إلى

---

(١) روح البيان. (٢) الكشاف. (٣) روح البيان.

السماء، فإن من الملائكة من لا يصعد من الأرض إلى السماء أبداً، كما أن منهم من لا ينزل من السماء إلى الأرض أبداً.

والحاصل: أن الجملة الأولى قد أفادت نفي العناد والاستكبار عنهم، فهي كقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، وأفادت الثانية نفي الكسل عنهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

وخلاصة ذلك: يمتثلون الأمر ولا يمتنعون عن تنفيذه، بل يؤدونه من غير تثاقل ولا توانٍ.

وبعد أن ذكر شدة العذاب في النار واشتداد الملائكة في الانتقام من أعداء الله الكافرين.. بين أنه يقال للكافرين: لا فائدة في الاعتذار؛ لأنه توبة، والتوبة غير مقبولة بعد الدخول في النار، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾؛ أي: تقول الملائكة للذين كفروا عند إدخالهم النار حسبما أمروا به: لا تعتذروا في هذا اليوم عن كفركم ومعاصيكم، فقد فات الأوان ولا يجدي رجاء ولا اعتذار، فلات ساعة مندم:

نَـدِمَ الْـبُـغَـاةُ وَلَاتَ سَـاعَـةَ مَـنْـدَمِ ... وَالْـبَـغْـيُ مَـرْتَـعُ مُـبْـتَـغِـيْـهِ وَخِـيـمُ

قال الراغب: العذر: تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه. وذلك ثلاثة أضرب: أن يقول: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا - فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنباً - أو يقول: فعلت ولا أعود، ونحو ذلك، وهذا الثالث هو التوبة، فكل توبة عذر وليس كل عذر توبة، واعتذرت إليه: أتيت بعذر، وعذرته: قبلت عذره.

ثم بيّن السبب في عدم فائدة الندم، فقال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ﴾ اليوم ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي بعد ما نهيتم عنها أشد النهي، وأمرتم بالإيمان والطاعة، فلا عذر لكم قطعاً؛ أي: حقيقة. وفي بعض التفاسير: لا تعتذروا اليوم؛ لما أنه ليس لكم عذر يعتد به حتى يقبل فينفعكم. وهذا النهي لهم إن كان قبل وقوع الاعتذار منهم.. فهو لا يوافق ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وإن كان بعده.. فيؤول هذا القول ويقال: لا يؤذن لهم أن يتموا اعتذارهم ولا يسمع إليه.

والمعنى: أي لا تعتذروا لأنكم، إنما تثابون اليوم، وتعطون جزاء أعمالكم

التي عملتموها في الدنيا، فلا تطلبوا المعاذير منها.

والخلاصة: أن هذه الدار دار جزاء لا دار عمل، وأنتم قد دسيتم أنفسكم في الدنيا بالكفر والمعاصي بعد أن نهيتم عنها، فاجنوا ثمر ما غرستم واشربوا من الكأس التي قد ملأتم.

وبعد أن ذكر أن التوبة في هذا اليوم لا تجدي نفعاً.. نبه عباده المؤمنين إلى المبادرة بالتوبة النصوح، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿تُوبُوٓا۟﴾ وارجعوا من فعل المعاصي ﴿إِلَى﴾ طاعة ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾؛ أي: رجوعاً خالصاً من جميع الشوائب المفسدة للتوبة من قولهم: عسل ناصح؛ أي: خالص من الشمع، أو من النصاحة وهي الخياطة؛ أي: قد أحكمها وأوثقها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته وتوثيقه. والنصح: تحري قول أو فعل فيه صلاح صاحبه، والنصوح فعول، من أبنية المبالغة، كقولهم: رجل صبور وشكور؛ أي: توبة بالغة في النصح لصاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه، وصفت بذلك على الإسناد المجازي، وهو وصف التائبين، وهو: أن ينصحوا أنفسهم بالتوبة، فيأتوا بها على طريقتها وشروطها، وذلك بأن يتوبوا من القبائح لقبحها، نادمين عليها، مغتمين أشد الاغتمام لارتكابها، عازمين على أنهم لا يعودون في قبيح من القبائح إلا أن يعود اللبن في الضرع، وكذا لو حزوا بالسيف وأحرقوا بالنار، موطنين أنفسهم على ذلك بحيث لا يلويهم عنه صارف أصلاً.

وقرأ زيد بن علي[1]: ﴿توباً﴾ بغير تاء. وقرأ الجمهور: ﴿نَّصُوحًا﴾ بفتح النون وصفاً لتوبة. وقرأ الحسن، والأعرج، وعيسى، وأبو بكر عن عاصم، وخارجة عن نافع بضمها، وهو مصدر وصف به، ووصفها بالنصح على سبيل المجاز؛ إذ النصح صفة للتائب، وهو أن ينصح نفسه بالتوبة فيأتي بها على طريقها، وهي خلوصها من جميع الشوائب المفسدة لها. ويجوز أن يكون بالضم، جمع ناصح. قال المبرد: أراد توبة ذات نصح.

---

(١) البحر المحيط.

فصل في التوبة[1]

وقال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب على الفور، ولا يجوز تأخيرها، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي.. فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً. فإذا اجتمعت هذه الشروط في التوبة.. كانت نصوحاً.

وإن فقد شرط منها.. لم تصح توبته. فإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي.. فشروطها أربعة: هذه الثلاثة المتقدمة.

والرابع: أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت المعصية مالاً ونحوه.. رده إلى صاحبه، وإن كان حدّ قذف أو نحوه.. مكنه من نفسه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة.. أستحله منها. ويجب أن يتوب العبد من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها.. صحت توبته من ذلك الذنب، وبقي عليه ما لم يتب منه. وهذا مذهب أهل السنة، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة.

وعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم مئة مرة» أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «والله! إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» أخرجه البخاري.

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة...» الحديث متفق عليه.

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله

---

(١) الخازن.

يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» أخرجه مسلم.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن.

والمعنى: أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله سبحانه وإلى ما يرضيه عنكم، رجوعاً لا تعودون فيه أبداً.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: حقق ربكم ﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾؛ أي: أن يستر ويمحو عنه سيئات أعمالكم التي سلفت منكم، بل يبدلها حسنات. ﴿و﴾ أن ﴿يدخلكم جنات﴾؛ أي: بساتين ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الأربعة المعهودة. وجمَع جنات إما لكثرة المخاطبين؛ لأن لكل منهم جنة، أو لتعددها لكل منهم من الأنواع. قال في «الإرشاد»: ورود[1] صيغة الإطماع والترجية للجري على سنن الكبراء، فإن الملوك يجيبون بلعل وعسى، ويقع ذلك موقع القطع وللإشعار بأنه تفضل، والتوبة غير موجبة له، وأن العبد ينبغي له أن يكون بين الخوف والرجاء، وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة.

يقول الفقير: التكفير إشارة إلى الخلاص من الجحيم؛ لأن السيئات هي سبب العذاب، فإذا زال السبب.. زال المسبب، وإدخال الجنات إشارة إلى التقريب؛ لأن الجنان موضع القرب والكرامة، وجريان الأنهار إشارة إلى الحياة الأبدية؛ لأن الماء أصل الحياة وعنصرها، فلا بد للإنسان في مقابلة هذه الأنهار من ماء العلم ولبن الفطرة وعسل الإلهام وخمر الحال، فكما أن الحياة المعنوية في الدنيا إنما تحصل بهذه الأسباب.. فكذا الحياة الصورية في الآخرة إنما تحصل بصورها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿أَن يُكَفِّرَ﴾. وقرىء بالجزم، وقال الزمخشري: عطفاً على محل ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ﴾ كأنه قيل: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم، انتهى. والأولى أن يكون حذف الحركة تخفيفاً

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وتشبيهاً لما هو من كلمتين بالكلمة الواحدة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ ولا يذله، ظرف ليدخلكم؛ أي: يدخلكم يوم لا يخزي الله النبي، وهو يوم القيامة. ولا يخزي: تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق والنبي هو: محمد - ﷺ -. قال بعض أهل التفسير[1]: ﴿يُخْزِى﴾: إما في الخزي، وهو الفضاحة، فيكون تعريضاً للكفرة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. أو من الخزاية، بمعنى الحياء والخجل، وهو الأنسب هنا بالنظر إلى شأن الرسول خصوصاً إذا تم الكلام في النبي وإن أريد المعنى الأول.. حينئذ يجوز أن يكون باعتبار أن خزي الأمة لا يخلو عن إنشاء خزي ما في الرسول على ما يشعر به قوله - ﷺ - في دعائه: «اللهم لا تخزنا يوم القيامة ولا تفضحنا يوم اللقاء» بعض الإشعار حيث لم يقل: لا تخزني، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ليكون دعاؤه عاماً لأمته من قوة رحمته، وأدخل فيهم نفسه العالية من كمال مروءته. قيل: الخزي كناية عن العذاب لملازمة بينهما. والأولى العموم لكل خزي يكون بسبب من الأسباب، من الحساب والميزان والعقاب وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ معطوف على النبي، و﴿مَعَهُۥ﴾ صلة لا يخزي؛ أي: لا يخزي الله معه الذين آمنوا؛ أي: يعمهم بأن لا يخزيهم، أو حال من الموصول، بمعنى كائنين معه. أو متعلق بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صاحبوه في الإيمان، وهو الموافق لقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾.

والمعنى: أي ولا يخزي الذين اتبعوه في الإيمان، كما قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وذلك[2] الخزي بسوء الحساب، والتعيير والعتاب وذل الحجاب، ورد الجواب، فيحاسبهم حساباً يسيراً، بل ويرفع الحساب عن بعضهم، ويلاطفهم، ويكشف لهم جماله، ويعطي مأمولهم من الشفاعة لأقاربهم وإخوانهم ونحولهم. والكلام تم عند قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾، وفيه تعريض بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق كما سبق واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم. قيل:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مبتدأ، خبره ما بعده من قوله ﴿نُورُهُمْ﴾ إلخ، أو خبره ﴿مَعَهُۥ﴾. والمراد بالإيمان هو الكامل حينئذٍ، حتى لا يلزم أن لا يدخل عصاة المؤمنين النار.

﴿نُورُهُمْ﴾ مبتدأ على الوجه الأول، وهو الأولى وخبره ﴿يَسْعَىٰ﴾ ويضيء ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: قدامهم. والجملة الاسمية حال، أو مستأنفة لبيان حالهم؛ أي: نور إيمانهم وطاعتهم يضيء ويمشي بين أيديهم. والسعي: المشي السريع القوي، وفيه إشارة إلى كمال اللمعان. والأيدي: جمع يد، يراد بها قدام الشيء. فالجمع إما بإطلاقه على التثنية أو بكثرة أيدي العباد. ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ جمع يمين، مقابل الشمال؛ أي: عن أيمانهم وشمائلهم على وجه الإضمار. يعني: جهة أيمانهم وشمائلهم، أو عن جميع جهاتهم. وإنما[1] اكتفى بذكرهما لأنهما أشرف الجهات. وقال بعضهم: تخصيص الأيدي والأيمان لأن أرباب السعادة يؤتون صحائف أعمالهم منهما، كما أن أهل الشقاوة يؤتون من شمائلهم ووراء ظهورهم فيكون ذلك علامة لذلك وقائداً على الصراط إلى دخول الجنة وزينة لهم فيها.

وقرأ سهل بن شعيب، وأبو حيوة[2]: ﴿وبإيمانهم﴾ بكسر الهمزة.

والمعنى: أي نورهم يسعى بين أيديهم حين يمشون وبإيمانهم حين الحساب، لأنهم يؤتون الكتاب بأيمانهم. وفيه نور وخير لهم.

ثم بيّن ما يطلبونه من ربهم، فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول المؤمنون - وهو الظاهر -، أو الرسول لأمته، والمؤمنون لأنفسهم، إذا طفىء نور المنافقين إشفاقاً على نورهم؛ أي: يشفقون على العادة البشرية على نورهم أن ينطفىء ويتفكرون فيما مضى منهم من الذنوب، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ أي: متولي أمورنا ﴿أَتْمِمْ لَنَا﴾؛ أي: أدم لنا ﴿نُورَنَا﴾ ولا تطفئه عنا كنور المنافقين، فيكون المراد بالإتمام: الإدامة إلى أن يصلوا إلى دار السلام. وجملة القول في محل النصب على الحال أيضاً. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ ذنوبنا، ﴿إِنَّكَ﴾ يا رب ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإتمام والمغفرة وغيرهما. وقيل: يدعون تقرباً إلى الله تعالى مع تمام نورهم، كقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

﴿لِذَنۢبِكَ﴾ وهو مغفور له.

قال في «الكشاف»: كيف يتقربون وليست الدار دار تقرب؟

قلت: لما كانت حالهم كحال المتقربين يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة.. سماه تقرباً. وقيل: يتفاوت نورهم بحسب أعمالهم، فيسألون إتمامه تفضلاً، فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ من باب: بنو فلان قتلوا زيداً.

والمعنى[1]: أي يسألون ربهم أن يبقي لهم نورهم فلا يطفئه، حتى يجوزوا الصراط حين يقول لهم المنافقون والمنافقات: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾، وقد تقدم نحو هذا في سورة الحديد. ويطلبون أيضاً منه أن يستر عليهم ذنوبهم، لا يفضحهم بعقوبتهم عليها حين الحساب. ثم ذكروا ما يطمعهم في إجابة الدعاء، فقالوا: إنك على إتمام نورنا، وغفران ذنوبنا، وكل ما نرجو منك ونطمع، قدير يا ربنا، فاللهم: أجب دعاءنا ولاتخيب رجاءنا.

وقد روي: أن أدناهم منزلة من يكون نوره بقدر ما يبصر موطىء قدمه؛ لأن النور على قدر العمل. وروي: أن السابقين إلى الجنة يمرون على الصراط مثل البرق، ويمر بعضهم كالريح، وبعضهم يحبو حبواً أو يزحف زحفاً، وهم الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ المجاهرين للكفر بالسيف والسنان، ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: المبطنين للكفر، بالحجة واللسان، أو بالوعيد والتهديد، أو بإلقائهم بوجه قهر، أو بإفشاء سرهم. قيل: النفاق مستتر في القلب، ولم يكن للنبي - ﷺ - سبيل إلى ما في القلوب من النفاق والإخلاص إلا بعد إعلام من قبل الله، فأمر عليه السلام بمجاهدة من علمه منافقاً بإعلام الله إياه باللسان دون السيف لحرمة تلفظه بالشهادتين، وأن يجري عليه أحكام المسلمين ما دام ذلك إلى أن يموت.

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ أي: واشدد على الفريقين، واستعمل الخشونة فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة. قال الحسن: أي جاهدهم بإقامة الحدود عليهم، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود. وفيه[2] إشارة إلى أن الغلظة على

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

أعداء الله من حسن الخلق، فإن أشفق الخلق إذا كان مأموراً بالغلظة عليهم، فما ظنك بغيره؟ فهي لا تنافي الرحمة على الأحباب. كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: مقرهم ومنزلهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ ومصيرهم إليها، سيرون فيها عذاباً غليظاً. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع الذي يرجعون إليه. والمخصوص بالذم جهنم وفيه تصريح بما علم التزاماً مبالغة.

يقول الفقير: إذا كان الأعداء الظاهرون يحتاجون إلى الغلظة والشدة.. فما ظنك بأعدى الأعداء، وهي النفس الأمارة بالسوء، ففي الغلظة عليها نجاة، وفي اللين هلاك، وفي المثل: العصا لمن عصا.

والمعنى[1]: أي جاهد الكفار بالسيف، وقاتلهم قتالاً لا هوادة فيه، وجاهد المنافقين بالإنذار والوعيد وبيان سوء المنقلب وعنفهم بفضيحة عاجلة تبين قبح طواياهم وخبث نفوسهم كما حدث منه - ﷺ - في المسجد الجامع لبعض المنافقين على ملأ من الناس، فقال: اخرج يا فلان، اخرج يا فلان، وأخرج منهم عدداً كثيراً، ثم بيّن سوء عاقبتهم، فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: وسيكون مسكنهم جهنم وبئس المثوى والمقيل.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: شبهاً. وهو المفعول الثاني لضرب؛ لأنه بمعنى: جعل، و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ متعلق بـ﴿مَثَلًا﴾، وقوله: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾؛ أي: حالهما. مفعوله الأول أخّر عنه ليتصل به ما هو شرح وتفسير لحالهما، ويتضح بذلك حال هؤلاء الكفرة.

وضرب المثل[2] في أمثال هذه المواضع عبارة عن إيراد حالة غريبة ليعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة؛ أي: ضرب الله سبحانه وجعل حال امرأة نوح وامرأة لوط مثلاً وشبهاً لحال هؤلاء الكفرة في خيانتهم لرسول الله - ﷺ - بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الإيمان والطاعة. وامرأة نوح هي: واعلة بالعين المهملة، أو والعة. وامرأة لوط هي: واهلة بالهاء. ﴿كَانَتَا﴾؛ أي: كانت المرأتان ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾ بيان لحالهما الداعية لهما إلى الخير

---

(1) المراغي. (2) روح البيان.

والصلاح. والمراد بكونهما تحتهما: كونهما في حكمهما وتصرفهما بعلاقة النكاح والزواج. و﴿صَٰلِحَيۡنِ﴾ صفة عبدين؛ أي: كانتا تحت نكاح نبيّين، وفي عصمة رسولين عظيمي الشأن، متمكنين من تحصيل خيري الدنيا والآخرة وحيازة سعادتهما. وإظهار العبدين المراد بهما نوح ولوط لتعظيمهما بالإضافة التشريفية إلى ضمير التعظيم والوصف بالصلاح. وإلا.. فيكفي أن يقال: تحتهما. وفيه بيان شرف العبودية والصلاح.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بيان لما صدر عنهما من الخيانة العظيمة مع تحقق ما ينفيها من صحبة النبي. والخيانة ضد الأمانة، فهي إنما تقال اعتباراً بالعهد والأمانة؛ أي: فوقعت منهما الخيانة لهما بالكفر والنفاق، والنسبة إلى الجنون، والدلالة على الأضياف ليتعرضوا لهم بالفجور لا بالبغاء، فإنه ما بغت امرأة نبيّ قط. فالبغاء للزوجة أشد في إيراث الأنفة لأهل العار والناموس من الكفر، وإن كان الكفر أشد منه في أن يكون جرماً يؤاخذ به العبد يوم القيامة، وهذا تصوير لحالهما المحاكية لحال هؤلاء الكفرة في خيانتهم لرسول الله - ﷺ - كما مرّ.

﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا...﴾ إلخ بيان لما أدى إليه خيانتهما؛ أي: فلم يغن النبيَّان ﴿عَنۡهُمَا﴾؛ أي: عن تينك المرأتين بحق الزواج ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عذابه تعالى ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الإغناء؛ أي: لم يدفعا العذاب عنهما. ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة. وصيغة الماضي للتحقيق؛ أي: قالت الملائكة الموكلون بالعذاب لهما: ﴿ٱدۡخُلَا﴾ أي: أيها المرأتان ﴿ٱلنَّارَ﴾؛ أي: نار جهنم ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾؛ أي: مع سائر الداخلين لها من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين أولياء الله. ذكرن[1] بلفظ جمع المذكر السالم، لأنهن لا ينفردن بالدخول، فإذا اجتمعا.. فالغلبة للذكور.

وقطعت هذه الآية طمع من يرتكب المعصية أن ينفعه صلاح غيره من غير موافقة له في الطريقة والسيرة، وإن كان بينه وبينه لحمة نسب أو صلة صهر

وفي هذا المثل[2]: تعريض بأمي المؤمنين عائشة وحفصة وما فرط منهما، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده حين تظاهرتا على رسول الله - ﷺ -، وما

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

أحسن قول من قال[1]: إن ذكر امرأتي النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله - ﷺ - يرشد أتم إرشاد ويلوح أبلغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله، وخاتم رسله.. فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئاً، وقد عصمهما الله تعالى عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة.

ومعنى الآية[2]: أي ضرب الله مثلاً يبين به حال الكافرين الذين لم ينتفعوا بعظات المؤمنين الصادقين من النبيين والمرسلين؛ لظلمة قلوبهم وسوء استعدادهم وفساد فطرتهم، امرأة نوح وامرأة لوط؛ إذ كانتا في عصمة نبيّين يمكنهما أن ينتفعا بهديهما ويحصلا ما فيه سعادتهما في معاشهما ومعادهما، لكنهما أبتا ذلك وعملتا ما يدل على الخيانة والكفر، فاتهمت الأولى زوجها بالجنون، وكانت الثانية ترشد قوم لوط إلى ضيوفه لمآرب خبيثة، فلم يدفع عنهما قربهما من ذينك العبدين الصالحين شيئاً، وحاق بهما سوء ما عملتا، وسيحل بهما عقاب الله، وسيدخلان النار في زمرة داخليها، جزاء وفاقاً لما اجترحتا من السيئات وما دستا به أنفسهما من كبير الآثام وعظيم المعاصي.

وبعد أن ضرب مثلاً يبين به أن وصلة الكافرين بالمؤمنين لا تفيدهم شيئاً.. أرشد إلى عكس هذا، فأفاد أن اتصال المؤمنين بالكافرين لا يضرهم شيئاً، فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثان، قدمه للاهتمام به. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: جعل الله حالها مثلاً لحال المؤمنين، ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة والتمسك بالدين والصبر في الشدة، وأن وصلة الكفار وصولتهم لا تضرهم كما لم تضر امرأة فرعون، وقد كانت تحت أكفر الكافرين، وصارت بإيمانها بالله سبحانه في أعلى غرف الجنان. والمراد بها: آسية بنت مزاحم. يقال: رجل آسي وامرأة آسية، من الأسى. وهو الحزن. قال بعضهم: الحزن حلية الأدباء، ومن لم يذق طعام الحزن.. لم يذق لذة العبادة على أنواعها. أو من الأسو، وهو: المداوة، والآسي - بالمد -: الطبيب.

﴿إِذْ قَالَتْ﴾: ظرف للمثل المذكور؛ أي: ضرب الله مثلاً للمؤمنين حالها إذ

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي﴾[1] على أيدي الملائكة، أو بيد قدرتك، فإنه روي: أن الله تعالى خلق جنة عدن بيده من غير واسطة، وغرس شجرة طوبى بيده. ﴿عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ أي: قريباً من رحمتك، على أن الظرف حال من ضمير المتكلم، أو ابن لي في أعلى درجات المقربين، فيكون ﴿عند﴾ ظرفاً للفعل، و﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ صفة لـ﴿بَيۡتٗا﴾. وفي «عين المعاني»: ﴿عِندَكَ﴾؛ أي: من عندك بلا استحقاق مني بل كرامة منك. وروي: أنها لما قالت ذلك.. رفعت الحجب حتى رأت بيتها في الجنة من درة بيضاء، وانتزع روحها. ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ﴾ الجاهل ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ الباطل؛ أي: من نفسه الخبيثة وسوء جوارها، ومن عمله السيء الذي هو كفره ومعاصيه. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: من القبط التابعين له في الظلم. روي: أنه لما غلب موسى عليه السلام السحرة.. آمنت امرأة فرعون، وقيل: هي عمّة موسى آمنت به، فلما تبين لفرعون إسلامها طلب منها أن ترجع عن إيمانها، فأبت، فأوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وربطها، وألقاها في الشمس وأراها الله بيتها في الجنة، ونسيت ماهي فيه من العذاب، فضحكت، فعند ذلك قالوا: هي مجنونة، تضحك وهي في العذاب!

وأخرج ابن أبي شيبة[2]، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الشعب» عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها.. أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة: إن فرعون وَتَدَ لامرأته أربعة أوتاد، وأضجعها على ظهرها، وجعل على صدرها رحى، واستقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء فـ﴿قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ففرج الله لها عن بيتها في الجنة، فرأته. وقيل: اشتاقت إلى الجنة وملت من صحبة فرعون، فسألت ذلك. وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

وذكر[1] المفسرون أنواعاً مضطربة في تعذيبها، وليس في القرآن نص بأنها عذبت، والله أعلم. وقال بعض الظرفاء، وقد سئل أين في القرآن مثل قولهم: الجار قبل الدار؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾، فـ﴿عِندَكَ﴾ هو المجاورة، و﴿بَيْتًا﴾ في الجنة هو الدار، وقد تقدم ﴿عِندَكَ﴾ على قوله: ﴿بَيْتًا﴾.

ومعنى الآية[2]: أي وجعل الله حال امرأة فرعون مثلاً يبين به أن وصلة المؤمنين بالكافرين لا تضرهم شيئا إذا كانت النفوس خالصة من الأكدار؛ فقد كانت تحت أعدى أعداء الله في الدنيا، وطلبت النجاة منه ومن عمله، وقالت في دعائها: رب اجعلني قريباً من رحمتك، وابن لي بيتاً في الجنة، وخلصني من أعمال فرعون الخبيثة، وأنقذني من قومه الظالمين. وفي هذا دليل على أنها كانت مؤمنة مصدقة بالبعث، ومن سنن الله أن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وأن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ معطوف على امرأة فرعون. وجمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييباً لأنفسهن. وسميت مريم في القرآن باسمها في سبعة مواضع، ولم يسم غيرها من النساء؛ لأنها أقامت نفسها في الطاعة كالرجل الكامل. ومريم بمعنى العابدة. وقد سمى الله أيضاً زيداً في القرآن كما سبق في سورة الأحزاب. وقرأ الجمهور: ﴿ٱبْنَتَ﴾ بفتح التاء، وأيوب السختياني: ﴿ابنه﴾ بسكون الهاء وصلاً، إجراء مجرى الوقف.

والمعنى[3]: وضرب الله سبحانه مثلاً للذين آمنوا حال مريم ابنة عمران والدة عيسى عليهما السلام، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع كون قومها كفاراً. ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ﴾ وحفظت ﴿فَرْجَهَا﴾ عن مساس الرجال مطلقاً، حراماً وحلالاً على آكد الحفظ. والإحصان: العفاف. والفرج: ما بين الرِّجْلَين، وكنى به عن السوءة وكثر حتى صار كالصريح فيه. قال بعضهم: صانته عن الفجور كما صان الله آسية عن مباشرة فرعون؛ لأنه كان عنّيناً - وهو من لا يقدر على الجماع لمرض أو كبر سن، أو يصل إلى الثيب دون البكر - فالتعبير عن آسية بالثيب كما مرّ في ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ لكونها في صورة الثيب من حيث إن لها بعلاً.

---

(1) البحر المحيط. (2) المراغي. (3) روح البيان.

وقال السهيلي: إحصان الفرج معناه: طهارة الثوب، يريد فرج القميص؛ أي: لم يعلق بثوبها ريبة؛ أي: إنها طاهرة الأثواب، فكنى بإحصان فرج القميص عن طهارة الثوب من الريبة. وفروج القميص أربعة: الكمان، والأعلى، والأسفل، فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا، لأن القرآن أنزه معنى وأوجز لفظاً وألطف إشارة وأحسن عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل، انتهى. قال في «الكشاف»: ومن بدع التفاسير: أن الفرج هو جيب الدرع ومعنى أحصنته: منعته.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾: ﴿الفاء﴾: للسببية. والنفخ: نفخ الريح في الشيء؛ أي: فنفخنا بسبب ذلك في فرجها، على أن يكون المراد بالفرج هنا الجيب. وقال السجاوندي في «عين المعاني»: أي فيما انفرج من جيبها، وكذا قال أبو القاسم في «الأسئلة»: ولم يقل: فيها؛ لأن المراد بالكناية جيب درعها، وهو إلى التذكير أقرب، فيكون قوله: ﴿فِيهِ﴾ من باب الاستخدام؛ لأن الظاهر: أن المراد بلفظ الفرج العضو، وأريد بضميره معنى آخر للفرج، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾. وكذا يكون إسناد النفخ إلى الضمير مجازياً؛ أي: نفخ جبريل بأمرنا، وهو إنما نفخ في جيب درعها. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾؛ أي[1]: من روح خلقناه بلا توسط أصل. وأضاف الروح إلى ذاته تعالى، تفخيماً لها ولعيسى، كقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾، وفي سورة الأنبياء ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في مريم؛ أي: أحيينا عيسى في جوفها من الروح الذي هو من أمرنا. وقال بعضهم: أحيينا في فرجها، وأوجدنا في بطنها ولداً من الروح الذي هو بأمرنا وحده، بلا سببية أصل وتوسل نسل على العادة العامة، أو من جهة روحنا جبريل؛ لأنه نفخ من جيب درعها، فوصل النفخ إلى جوفها. أو ففعلنا النفخ فيه. وقرىء: ﴿فيها﴾ على وفاق ما في سورة الأنبياء؛ أي: في مريم، والمآل واحد، انتهى.

يقول الفقير: يلوح لي هاهنا سر خفي، وهو: أن النفخ وإن كان في الجيب إلا أن عيسى لما كان متولداً من الماءين: الماء المتحقق، وهو ماء مريم، والماء المتوهم، وهو ما حصل بالنفخ.. كان النفخ في الجيب بمنزلة صب الماء في الفرج، فالروح المنفوخ في الجيب كالماء المصبوب في الفرج، والماء المصبوب،

---

(١) روح البيان.

وإن لم يكن الروح عينه إلا أنه في حكم الروح؛ لأنه يخلق منه الروح، ولذا قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾؛ أي: في الفرج، سواء قلت: إنه فرج القميص أو العضو، فاعرف، ولا يقبله إلا الألباء الربانيون.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾؛ أي: في الفرج. وقرأ عبد الله: ﴿فيها﴾ كما في سورة الأنبياء؛ أي: في الجملة.

﴿وَصَدَّقَتْ﴾ معطوف على ﴿أَحْصَنَتْ﴾، ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بالصحف المنزلة على الأنبياء عليهم السلام. وفي «كشف الأسرار»: يعني بالشرائع التي شرعها الله تعالى لعباده بكلماته المنزلة. ويقال: صدقت بالبشارات التي بشر بها جبريل، وهي: قول جبريل لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾. وقال مقاتل: يعني بالكلمات: عيسى. ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾؛ أي: بجميع كتبه المنزلة الشاملة للصحف وغيرها من الكتب الإلهية، متقدمة أو متأخرة. ﴿وَكَانَتْ﴾ مريم ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾؛ أي: من عداد المواظبين على الطاعة. فـ﴿مِن﴾ للتبعيض. وفي «عين المعاني»: من المطيعين المعتكفين في المسجد الأقصى. وقال عطاء: من المصلين، كانت تصلي بين المغرب والعشاء، أو كانت من القانتين؛ أي: من نسلهم، يريد رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة؛ لأنها من أعقاب هارون أخِ موسى عليه السلام. فـ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية. وقال: ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ ولم يقل: من القانتات؛ لتغليب الذكور على الإناث، وللإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى عدت من جملتهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ بتشديد الدال. وقرأ يعقوب وأبو مجلز، وقتادة، وعصمة عن عاصم بتخفيفها؛ أي: كانت صادقة بما أخبرت به من أمر عيسى عليه السلام، وما أظهر الله له من الكرامات.

وقرأ الجمهور: ﴿بِكَلِمَٰتِ﴾ جمعاً، فاحتمل أن تكون الصحف المنزلة على إدريس وغيره، وسماها كلمات لقصرها ويكون المراد: بكتبه الكتب الأربعة، ويحتمل أن تكون الكلمات ما صدر في أمر عيسى عليه السلام. وقرأ الحسن،

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

ومجاهد، والجحدري: ﴿بكلمة﴾ على التوحيد، فاحتمل أن يكون اسم جنس، واحتمل أن تكون كناية عن عيسى؛ لأنه قد أطلق عليه أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم.

وقرأ أبو عمرو وحفص: ﴿وكتبه﴾ جمعاً، ورواه كذلك خارجة عن نافع. وقرأ باقي السبعة: ﴿وكتابه﴾ على الإفراد، فاحتمل أن يراد به الجنس وأن يراد به الإنجيل، لا سيما إن فسرت الكلمة بعيسى. وقرأ أبو رجاء: ﴿وكتْبه﴾ بسكون التاء. قال ابن عطية مراداً به الإنجيل والتوراة. وقال صاحب «اللوامح»: وقرأ أبو رجاء: ﴿وكَتْبه﴾ بفتح الكاف وهو مصدر أقيم مقام الاسم. وقال سهل: ﴿وَكَتْبه﴾ أجمع من كتابه؛ لأن فيه وضع المضاف موضع الجنس، فالكتب عام والكتاب هو الإنجيل فقط.

ومعنى الآية[1]: أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا حال مريم - وما أوتيت من كرامة الدنيا وكرامة الآخرة، فاصطفاها ربها مع أن أكثر قومها كانوا كفاراً من قبل - أنها منعت جيب درعها جبريل عليه السلام، وقالت له: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾. فأثبتت بذلك عفتها وكمال طهارتها، فنفخ جبريل فيه، فحملت بنبي الله وكلمته عيسى صلوات الله عليه، وصدقت بشرائع الله وكتبه التي أنزلها على أنبيائه وكانت في عداد القانتين العابدين المخبتين لربهم المطيعين له.

روى أحمد في «مسنده»: «سيدة نساء أهل الجنة: مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم عائشة». وفي «الصحيح»: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة كفضل الثريد على سائر الطعام»، وإنما فضل الثريد لأنه مع اللحم غذاء جامع بين اللذة وسهولة التناول وقلة المؤنة في المضغ وسرعة المرور على المريء، فضربه مثلاً ليؤذن بأنها رضي الله عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق وفصاحة الكلام، وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل، والتحبب للبعل، وبحسبك أنها عقلت من النبي - ﷺ - ما لم يعقل غيرها من النساء، وروت ما لم يرو مثله الرجال.

---

(١) المراغي.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: بدل من ﴿أي﴾ أو عطف بيان له، أو نعت له، وجملة النداء مستأنفة. ﴿لِمَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الجر باللام مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين (ما) الموصولة، الجار والمجرورمتعلق بـ﴿تُحَرِّمُ﴾، ﴿تُحَرِّمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما أحله لك، ﴿لَكَۖ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَحَلَّ﴾، ﴿تَبۡتَغِي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تُحَرِّمُ﴾، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿رَّحِيمٞ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق، ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لَكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿فَرَضَ﴾، ﴿تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَرَضَ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣﴾.

﴿وَإِذۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد قصة.....، والجملة المحذوفة مستأنفة: ﴿أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَسَرَّ﴾، ﴿حَدِيثٗا﴾: مفعول به. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿نَبَّأَتۡ﴾: فعل ماض، و﴿التاء﴾: علامة تأنيث الفاعل، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى بعض أزواجه،

والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، لا محل لها من الإعراب. والأصل في نبأ وأنبأ، وأخبر وخبّر وحدث أن تتعدى إلى مفعول واحد بأنفسها وإلى ثان بحرف جر، ويجوز حذفه كما هنا، لأنه محذوف هنا، تقديره: غيرها، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نبأ﴾ على أنه مفعول ثان. وقوله: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾؛ أي: بهذا، و﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: به فإذا ضمنت معنى أعلم.. تعدت إلى ثلاثة مفاعيل، كما هو مقرر في محله. ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿نَبَّأَتْ﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أظهر﴾، ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على النبي، ومفعول به، والجملة جواب ﴿لما﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿إذ أسر﴾. ﴿وَأَعْرَضَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿عَرَّفَ﴾، ﴿عَنۢ بَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿أعرض﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾ حرف شرط، ﴿نَبَّأَهَا﴾: فعل، وفاعل مستتر ومفعول به فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿نبأ﴾ على أنه مفعول ثان. ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام للاستفهام الاستخباري في محل الرفع، مبتدأ، ﴿أَنۢبَأَكَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول أول، و﴿هَٰذَا﴾: مفعول ثان لـ﴿أنبأ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ﴿مَنْ﴾ الاستفهامية، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على النبي، والجملة مستأنفة، ﴿نَبَّأَنِيَ﴾: فعل ماض، ونون وقاية، ومفعول به أول، والثاني محذوف، تقديره: نبأني به، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: فاعل، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: صفته، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم، ﴿تَتُوبَآ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾: الشرطية على أنه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والألف فاعل ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، وجواب الشرط محذوف، تقديره: يتب عليكما. وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿صَغَتْ﴾: فعل ماض مبني بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة للتخلص من

التقاء الساكنين منع من ظهورها التعذر، و﴿التاء﴾: علامة تأنيث الفاعل، ﴿قُلُوبُكُمَا﴾: فاعل، والجملة الفعلية جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿تَظَٰهَرَا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿تَظَٰهَرَا﴾، وجواب الشرط محذوف، تقديره: يجد ناصراً. وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إِنْ﴾ الأولى. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿مَوْلَىٰهُ﴾: خبر ﴿إن﴾، والوقف تام هنا، وجملة ﴿إِنَّ﴾ تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَجِبْرِيلُ﴾: مبتدأ، ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَصَٰلِحُ﴾: اسم جنس لا جمع، ولذلك جاء من غير واو بعد الحاء، وجوزوا أن يكون جمعاً بالواو والنون، وحذفت النون للإضافة، وكتبت دون واو اعتباراً بلفظه؛ لأن الواو ساقطة لالتقاء الساكنين، ولا داعي لهذا التكلف. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على ﴿جبريل﴾ أيضاً، ﴿ظَهِيرٌ﴾: خبر عن الجميع؛ لأن فعيلاً يستوي فيه الواحد والجمع كما مر. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ على كونها تعليلية، ويجوز أن تعطف ﴿جبريل وصالح المؤمنين﴾ على محل ﴿إنّ﴾ واسمها، فالخبر عن الجميع، ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حينئذٍ مبتدأ، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿ظَهِيرٌ﴾، و﴿ظَهِيرٌ﴾: خبر عن الملائكة، والجملة معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ أيضاً.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

﴿عَسَىٰ﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء، ﴿رَبُّهُۥٓ﴾: اسمها، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿طَلَّقَكُنَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن طلقكن يبدله أزواجاً خيراً منكن، وحملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين ﴿عَسَىٰ﴾ وخبرها، لا محل لها من الإعراب. ﴿أنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يُبْدِلَهُۥٓ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به أول، ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول به ثان، ﴿خَيْرًا﴾: صفة لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ﴿مِّنكُنَّ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على أنه خبر ﴿عَسَىٰ﴾، ولكنه على تأويل اسم الفاعل ليصح الإخبار،

تقديره: عسى ربه مبدلاً إياه أزواجاً خيراً منكن، وجملة ﴿عَسَىٰ﴾ مستأنفة. وفصل بين عسى وخبرها بالشرط اهتماماً بالأمر وتخويفاً لهن. ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾: نعت ثان لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ويجوز نصبه على أنه حال من الضمير المستتر في ﴿خَيْرًا﴾، ونصبه بعضهم على الاختصاص، ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾: صفة ثالثة، ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: رابعة، ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾: خامسة، ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾: سادسة، ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾: سابعة، ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾: ثامنة، ﴿وَأَبْكَارًا﴾: معطوف على ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾. ووسطت الواو بين ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ ﴿وَأَبْكَارًا﴾ لتنافي الوصفين فيه دون سائر الصفات، وليست هي واو الثمانية، كما توهمه بعضهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيها﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿قُوٓا۟﴾: فعل أمر، من الوقاية، فوزنه: عوا، كما سيأتي، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿أَنفُسَكُمْ﴾: مفعول به أول، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَنفُسَكُمْ﴾، وعلامة نصبه الياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿نَارًا﴾: مفعول ثان، ﴿وَقُودُهَا﴾: مبتدأ، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: خبره، ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾: معطوف عليه، والجملة صفة لـ﴿نَارًا﴾، ﴿عَلَيْهَا﴾: خبر مقدم، ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صفة ثانية لـ﴿نَارًا﴾، ﴿غِلَاظٌ﴾: صفة أولى لـ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، و﴿شِدَادٌ﴾: صفة ثانية لـ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة صفة ثالثة لـ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، ﴿مَآ﴾ مصدرية، ﴿أَمَرَهُمْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾ المصدرية، ﴿مَآ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على أنه بدل اشتمال من الجلالة، كأنه قيل: لا يعصون أمره. وأجاز أبو حيان نصبه على نزع الخافض؛ أي: فيما أمرهم. ﴿وَيَفْعَلُونَ﴾: فعل، وفاعل مرفوع بثبوت النون، ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يفعلون﴾ في محل الرفع صفة رابعة لـ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، وجملة ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: يؤمرون به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَعْتَذِرُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تَعْتَذِرُواْ﴾، والجملة جواب النداء. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿تُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بالنون، و﴿الواو﴾: نائب فاعل له، و﴿مَا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية جملة تعليلية مسوقة لتعليل النهي، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُنتُمْ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبر كان الناقصة.

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿تُوبُوٓاْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل. والجملة جواب النداء، ﴿تَوْبَةً﴾: مفعول مطلق، ﴿نَّصُوحًا﴾: نعت لـ﴿تَوْبَةً﴾، ﴿عَسَىٰ﴾: فعل ناقص من أفعال الرجاء، ﴿رَبُّكُمْ﴾: اسمها، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يُكَفِّرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق به، ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: مفعول به والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على أنه خبر ﴿عَسَىٰ﴾ ولكنه مع التأويل بمشتق تقديره: عسى ربكم مكفراً عنكم سيئاتكم، ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿يُكَفِّرَ﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على السعة، ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يدخلكم﴾ أو بفعل محذوف، تقديره: اذكر، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يُخْزِى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾: مفعول به، والجملة في محل الجرّ مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿الذين﴾: معطوف على ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿مَعَهُۥ﴾: حال من فاعل ﴿ءَامَنُواْ﴾، أو متعلق به.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿نُورُهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَسْعَىٰ﴾: خبره والجملة الاسمية مستأنفة أو حالية.

ويجوز أن تكون الواو استئنافية، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾: خبره، ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَسْعَىٰ﴾، ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، متعلق بما تعلق به، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر ثان عن الموصول أو حال منه، ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿أَتْمِمْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر، ﴿لَنَا﴾ متعلق به، ﴿نُورَنَا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾: معطوف على ﴿أَتْمِمْ لَنَا﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة إن في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها معللة للدعاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، والجملة مستأنفة، ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾، ﴿وَٱغْلُظْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾، معطوف على ﴿جَٰهِدِ﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿اغلظ﴾، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿مأواهم﴾: مبتدأ، ﴿جَهَنَّمُ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿وَبِئْسَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿بئس﴾: فعل ماض جامد لإنشاء الذم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: فاعل، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي، وهو مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿بئس﴾ خبره مقدم عليه، والتقدير: هي؛ أي: جهنم مقول فيها: بئس المصير، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، ﴿مَثَلًا﴾: مفعول ثان مقدم، ﴿لِّلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿مَثَلًا﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾: مفعول به أول، ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾: معطوف على امرأة نوح، والجملة مستأنفة مسوقة لإيراد حالة

غريبة، ﴿كَانَتَا﴾: فعل ناقص، و﴿التاء﴾: علامة تأنيث اسمها، والألف اسم كان، ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر كان، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿عَبْدَيْنِ﴾، وجملة كانتا جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب سيقت لتفسير ضرب المثل. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿كَانَتَا﴾، ﴿فَلَمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يُغْنِيَا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾ وعلامة جزمه حذف النون، والألف فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿خانتاهما﴾، ﴿عَنْهُمَا﴾: متعلق بـ﴿يُغْنِيَا﴾، ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: حال من شيئاً؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿شَيْئًا﴾: مفعول مطلق، أو مفعول به، ﴿وَقِيلَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿قيل﴾: فعل ماض، ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾: نائب محكي لـ﴿قيل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾. وإن شئت قلت: ﴿ادْخُلَا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الألف﴾: فاعل، ﴿النَّارَ﴾: مفعول به على السعة، ﴿مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿ادْخُلَا﴾، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول ثان، ﴿لِلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿مَثَلًا﴾، وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول، ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾: مفعول أول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿مَثَلًا﴾. ولعل الأولى أن يقال: إنه متعلق بمحذوف بدل من مثلاً، أو نعت له، وجملة ﴿قَالَتْ﴾: في محل الجرّ بإضافة الظرف إليه، ﴿رَبِّ ابْنِ لِي﴾: إلى قوله: ﴿وَمَرْيَمَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾، ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذفت منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾، ﴿ابْنِ﴾: فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، ﴿لِي﴾: متعلق بـ﴿ابْنِ﴾، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالَتْ﴾، ﴿عِنْدَكَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ضمير المتكلم، أو من ﴿بَيْتًا﴾ لتقدمه عليه، ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾: عطف بيان أو بدل من قوله: ﴿عِنْدَكَ﴾، أو متعلق بـ﴿ابْنِ﴾، ﴿وَنَجِّنِي﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر ونون وقاية، ومفعول به معطوف على ﴿ابْنِ﴾. ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ﴿نجني﴾، ﴿وَعَمَلِهِ﴾: معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ﴿وَنَجِّنِي﴾: معطوف على ﴿نجني﴾ الأول، ﴿مِنَ الْقَوْمِ﴾:

متعلق بـ﴿نجني﴾، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: نعت للقوم.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَرْيَمَ﴾: معطوف على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، ﴿ٱبْنَتَ﴾: بدل، أو نعت لـ﴿مريم﴾، ﴿عِمْرَٰنَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة لزيادة الألف والنون، ﴿ٱلَّتِيٓ﴾: صفة ثانية لـ﴿مريم﴾، ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿فَنَفَخْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أَحْصَنَتْ﴾، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿نفخنا﴾، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾: صفة لمفعول محذوف؛ أي: روحاً كائناً من روحنا. ﴿وَصَدَّقَتْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مريم﴾، معطوف على مقدر مناسب للسياق؛ أي: فحملت بعيسى. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿صدقت﴾، ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾: معطوف على ﴿كلمات﴾، ﴿وَكَانَتْ﴾: فعل ناقص، واسمها ضمير مستتر يعود على مريم، ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: خبرها، والجملة معطوفة على ﴿صدقت﴾، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ أصل ﴿لِمَ﴾ لما، مركبة من (لام) الجر و(ما) الاستفهامية. ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ أصل أحل: أحلل، بوزن أفعل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الحاء فسكنت فأدغمت في الثانية. ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾: الابتغاء: الطلب. والمرضاة: مصدر كالرضا، وفيه إعلال بالقلب، أصله: مرضية بوزن مفعلة، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وأصل الياء واو، من الرضوان، أعل بالقلب حملاً له في الإعلال على اسم الفاعل، والماضي: رضي، أصله: رضو، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة. والأزواج: جمع زوج، فإنه يطلق على المرأة أيضاً، بل هو الفصيح كما قال في «المفردات»: وزوجة لغة رديئة. ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾: مصدر لحلل الرباعي، فأصله: تحللة، بوزن تفعلة، كتكرمة من كرم، وتفرقة من فرق، فأدغمت، ولكنه غير مقيس، فإن قياس مصدره التفعيل إذا كان صحيحاً غير مهموز، فأما معتل اللام، كزكى، ومهموز اللام كنبأ.. فمصدرهما تفعلة، كتزكية وتنبئة، على أنه قد جاء التفعيل في المعتل كاملاً، نحو قوله:

بَــاتَــتْ تُــنَــزِّي دَلْــوَهَــا تَــنْــزِّيَــا   كَــمَــا تُــنَــزِّي شَــهْــلَــةٌ صَــبِــيّــاً

وعبارة «الروح» هنا: الفرض هنا بمعنى الشرع والتبيين، كما دل عليه ﴿لَكُمْ﴾، فإن فرض بمعنى: أوجب، إنما يتعدى بعلى. والتحلة: مصدر حلل، بتضعيف العين، بمعنى التحليل، أصله: تحللة، كتكرمة، وتعلة، وتبصرة، وتذكرة، من كرم وعلل وبصر وذكر، بمعنى: التكريم والتعليل والتبصير والتذكير، إلا أن هذا المصدر من الصحيح خارج عن القياس، فإنه من المعتل اللام، نحو: سمي تسمية، أو مهموز اللام مثل: جزّأ تجزئة. والمراد: تحليل اليمين، كأن اليمين عقد والكفارة حله. انتهى.

وتحلة القسم يستعمل على وجهين:

أحدهما: تحليله بالكفارة كما في الآية.

ثانيهما: بمعنى الشيء القليل، وهذا هو الأكثر، كما جاء في الحديث: «لن يلج النار إلا تحلة القسم»؛ أي: إلا زمناً يسيراً.

قوله تعالى: ﴿أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ أصله: أسرر، بوزن أفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى السين، فسكنت فأدغمت في الثانية. والإسرار: خلاف الإعلان، ويستعمل في الأعيان والمعاني والسر هو: الحديث المكتتم في النفس، وأسررت إلى فلان حديثاً: أفضيت به في الخفية، فالإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضي إليه بالسر وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره، فإذاً قولهم: أسررت إلى فلان، يقتضي من وجه الإظهار ومن وجه الإخفاء. و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: هو رسول الله ـ ﷺ ـ، فاللام للعهد. ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أي: وليكم وناصركم. ﴿حَدِيثًا﴾ قال الراغب: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له: حديث: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ضمن أظهر معنى أطلع، من ظهر فلان السطح إذا علاه، وحقيقته: صار على ظهره، وأظهره على السطح؛ أي: رفعه عليه، فاستعير للإطلاع على الشيء، وهو من باب الإفعال. قال الراغب: ظهر الشيء، أصله: أن يحصل شيء على ظهر الأرض، فلا يخفى، وبطن إذا حصل في بطنان الأرض فيخفى، ثم صار مستعملاً في كل بارز للبصر والبصيرة. ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ وبعض الشيء: جزء منه.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أصله: تتوبان، حذفت نون الرفع للجازم، ثم نقلت حركة

الواو إلى التاء؛ لأن الأصل: تتوبان، لوزن تفعلان، فسكنت الواو إثر ضمة فصارت حرف مد، فوزنه تفعلان. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أصله صغي، بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فلما اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة.. حذفت الألف لالتقاء الساكنين، يقال: صغا يصغو صغوا، إذا مال، وأصغى إليه: مال بسمعه. قال الشاعر:

تُصْغِي ٱلْقُلُوبُ إِلَىٰ أَغَرَّ مُبَارَكٍ مِنْ آلِ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبْ

﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أصله: تتظاهران - بتاءين - وحذفت منه نون الرفع للجازم وإحدى التاءين للتخفيف، ماضيه: تظاهر، من باب تفاعل من الظهر؛ لأنه أقوى الأعضاء. ﴿ظَهِيرٌ﴾؛ أي: ظهراء معاونون وأنصار مساعدون. ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾ أصله عسي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾؛ أي: خاضعات لله منقادات له بالطاعة. ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾؛ أي: مصدقات بتوحيد الله مخلصات له. ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾؛ أي: مواظبات على القنوت والعبادة. ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾؛ أي: مقلعات عن الذنوب، وفيه إعلال بالإبدال، أصله: تاوبات، من تاب يتوب أبدلت الواو في الجمع والمفرد همزة حملاً للوصف في الإعلال على فعله حيث أعل بقلب الواو ألفاً في الفعل لأن أصل تاب توب، كقال أصله: قول ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أي: متعبدات متذللات لأمر الرسول ﷺ. ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات، وسمي الصائم بذلك من حيث أن السائح لا زاد معه ولا يزال ممسكا حتى يجد الطعام، كالصائم، ثم لا يزال كذلك حتى يجيء وقت الإفطار. وفيه إعلال بالإبدال، أصله: سايحات، أبدلت الياء همزة في الجمع أيضاً حملاً للوصف في الإعلال على فعله: سيح، حيث قلبت الياء ألفاً، والسياحة في اللغة: الجولان في الأرض. ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ جمع ثيب، والثيب الرجل الداخل بامرأة. والمرأة المدخول بها، يستوي فيه المذكر والمؤنث، فيجمع المذكر على ثيبين، والمؤنث على ثيبات، من ثاب إذا رجع، سميت به المرأة لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام بها، وإلى غيره إن فارقها، أو إلى حالتها الأولى، وهي: أنه لا زوج لها، فهي لا تخلو عن الثوب، أي: الرجوع، وقس عليها الرجل.

وأصل ثيب: ثيوب كسيّد وميّت، أصلهما سيود وميوت، ووزن ثيبات فيعلات، أدغمت ياء فيعل في عين الكلمة كما هو رأي صاحب «القاموس»

و«اللسان».

وقيل: ثيوبات، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما ساكنة فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء، وهذا رأي الجوهري، والراغب الأصفهاني.

﴿وَأَبْكَارًا﴾؛ أي: عذارى، وسميت العذراء بالبكر لأنها على أول حالتها التي طلعت عليها. قال الراغب: سميت التي لم تفتض بكراً اعتباراً بالثيب؛ لتقدمها عليها فيما يراد له النساء، ففي البكر معنى الأولية والتقدم، ولذا يقال: البكرة لأول النهار، والباكورة للفاكهة التي تدرك أولاً. ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال الراغب: الصلاح: ضد الفساد الذي هو خروج الشيء عن الاعتدال والانتفاع، قل أو كثر، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل الصلاح في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة.

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: أمر من الوقاية، بمعنى الحفظ والحماية والصيانة. أصله: أوقيوا، كاضربوا؛ لأنه أمر من وقى يقي وقاية، وهذا الفعل لفيف مفروق، ماضيه: وقى، ومضارعه: يقي، مع أن القياس أن يكون المضارع يوقي بوزن يفعل ـ بكسر العين ـ لكن فاء الفعل الواو حذفت من المضارع لوقوعها بين عدوتيها،، الياء المفتوحة والكسرة، ولما بني منه أمر مسند إلى واو الجماعة.. حذف منه حرف المضارعة وحذفت الواو، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت للتخفيف؛ لأن اللفظ صار بعد حذف نون الرفع عند بناء الأمر من الأفعال الخمسة، صار: قيوا، فلما حذفت حركة الياء.. سكنت، فالتقت ساكنة مع واو الجماعة، فحذفت لذلك، فصار وزنه: عوا، وهكذا شأن كل لفيف مفروق بني منه الأمر لم يبق من أصله إلا العين فقط؛ لأن الفاء تحذف قياساً إذا كانت واواً، واللام: حرف علة تحذف لبناء الأمر على حذف حرف العلة من المعتل، أو لالتقاء الساكنين كما هنا.

﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ أصله: أهلين، جمع أهل، حذفت النون للإضافة، وقد يجمع على أهالي ـ على غير قياس ـ: وهو كل من في عيال الرجل، ونفقته، من المرأة والولد، والأخ والأخت، والعم وابنه، والخادم، ويفسر بالأصحاب أيضاً. ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ الوقود ـ بفتح الواو ـ: اسم لما توقد به النار من الحطب وغيره، وبالضم: مصدر بمعنى الاتقاد.

﴿غِلَاظٌ﴾: جمع غليظ، بمعنى خشن خال قلبه عن الشفقة والرحمة. ﴿شِدَادٌ﴾ جمع شديد، ككرام جمع كريم، وهو القوي الجسم. ﴿لَّا يَعْصُونَ﴾ أصله: يعصيون، بوزن يفعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الصاد لمناسبة الواو. ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ يقال: اعتذرت إلى فلان من جرمي، ويعدى بـ﴿من﴾. والمعتذر قد يكون محقاً وغير محق. قال الراغب: العذر: تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ﴾ أصله: تجزيون، بوزن تفعلون، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة. ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ والتوبة: أبلغ وجوه الاعتذار، بأن يقول: فعلت وأسأت وقد أقلت، وفي الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة كما مر. ﴿نَّصُوحًا﴾ والنصوح: فعول، من أبنية المبالغة، كقولهم: رجل صبور وشكور؛ أي: مبالغة في النصح، وصفت التوبة بذلك على الإسناد المجازي، والنصح: تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه. ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ﴾ والسعي: المشي القوي السريع. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: جمع يد، يراد بها قدام الشيء. ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ جمع يمين، مقابل الشمال. ﴿كَانَتَا﴾: أصل كان: كون، بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، والتحق بها هنا تاء التأنيث الساكنة، ولكنها حركت بالفتح لالتقائها ساكنة مع ألف الاثنين وكان تحريكها؛ أي: التاء بالفتح ليناسب الألف، وكذلك القول في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أصله: خون، قلبت الواو ألفاً، ثم لحقت الفعل تاء التأنيث الساكنة وحركت لمناسبة ألف الاثنين الساكنة، واختير لها الفتح لمناسبة الألف. ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾الإحصان: العفاف، والفَرْجُ: ما بين الرِّجْلَين، وكنى به عن السوأة، وكثر حتى صار كالصريح فيه. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ والنفخ: نفخ الريح في الشيء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿حرم﴾ و﴿أَحَلَّ﴾ في قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في ﴿لِمَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿عَرَّفَ﴾ و﴿أعرض﴾، وبين ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ و﴿أبكاراً﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ﴾؛ لأن الإظهار: رفع الشيء على نحو السطح، فاستعير للاطلاع على الشيء.

ومنها: التفنن في قوله أولاً: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا﴾، ثم قوله ثانياً: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ﴾، ثم قوله ثالثاً: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ زيادة في اللوم والعتاب.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؛ لأن جواب الشرط محذوف، تقديره: إن تتوبا فقد وجد منكما ما يوجب التوبة.

ومنها: جمع القلوب فيه، فراراً من كراهة اجتماع تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة لو قال: فقد صغى قلباكما، لكراهة العرب اجتماع ذلك.

ومنها: تغليب المخاطب على الغائبات أو تعميم الخطاب لكل الأزواج في قوله: ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، إذ التقدير: إن طلقكما وغيركما، أو كون كلهن مخاطبات لما عاتبهما بأنه قد صغت قلوبكما.

ومنها: توسيط العاطف بين ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ و﴿أبكاراً﴾ دون غيرهما، إشعاراً بتنافيهما وعدم اجتماعهما في ذات واحدة، كما مرّ.

ومنها: التعريض لغير عائشة بقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ ولها بقوله: ﴿أبكاراً﴾.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص في قوله: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. فقد خص جبريل بالذكر أولاً تشريفاً له، ثم ذكره ثانياً مع العموم اعتناء بشأن الرسول ﷺ.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ حيث ذكر المسبب وأراد السبب؛ أي: لازموا على الطاعة لتقوا أنفسكم وأهليكم من عذاب الله تعالى.

ومنها: السلب والإيجاب في قوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وهو بناء الكلام على نفي الشيء من جهة وإيجابه من جهة أخرى. أو أمر بشيء من جهة ونهي عنه من غير تلك الجهة، وهذا المعنى في الآية ظاهر، فقد سلب عزّ وجل عن هؤلاء الموصوفين العصيان وأوجب لهم الطاعة.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾، حيث أسند النصح إلى التوبة مجازاً للمبالغة، وإنما النصح من التائب.

ومنها: المقابلة بين مصير أهل الطغيان ومصير أهل الإيمان في ضرب المثل في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ومنها: إيراد صيغة الماضي في قوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ إفادة لتحقق وقوعه.

ومنها: تغليب الذكور على الإناث في قوله: ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾؛ لأنهن لا ينفردن بالدخول.

ومنها: التصريح بما علم التزاماً في قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مبالغة في ذمهم.

ومنها: إظهار العبدين في قوله: ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ المراد بهما نوح ولوط لتعظيمهما بالإضافة التشريفية إلى ضمير التعظيم والوصف بالصلاح، وإلا.. فيكفي أن يقول: تحتهما، وفيه بيان شرف العبودية والصلاح.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ مبالغة في الدعاء.

ومنها: الاستخدام في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾؛ لأن المراد بلفظ الفرج، العضو، وأريد بضميره معنى آخر، وهو: الجيب، وهو من المحسنات البديعية. وفيه أيضاً الإسناد المجازي، حيث أسند النفخ إلى الضمير مع أن النافخ هو جبريل عليه السلام.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ تفخيماً لها ولعيسى عليهما السلام - كقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾.

ومنها: تغليب الذكور في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ إشعاراً بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال حتى عدت من جملتهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على شيئين:

١ ـ أخبار نساء النبي ـ ﷺ ـ وحلفه ـ ﷺ ـ أن لا يشربن العسل إرضاء لبعضهن، وإطلاع الله له على ما أفشين من سرّ أمرهن بكتمه.

٢ ـ ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين[1].

* * *

---

(١) وكان الفراغ من تسويد هذا الجزء في (المسفلة) بحارة الرشد من (مكة المكرّمة) جوار الحرم الشريف، في اليوم الخامس عشر وقت الضحوة من يوم الجمعة المبارك، من شهر الله المحرم، من شهور سنة ألف وأربع مئة وست عشرة ١٤١٦/١/١٥ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

إلى هنا تمّ المجلدُ التاسعُ والعشرونَ. ويليه المجلد الثلاثون أوله سورة الملك.

شعرٌ

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْمَأْمُولُ فِي كُلِّ حَاجَةٍ إِلَيْكَ شَكَوْتُ ٱلضُّرَّ، فَٱرْحَمْ شِكَايَتِي
أَلاَ يَا رَجَائِي أَنْتَ كَاشِفُ كُرْبَتِي فَهَبْ لِي ذُنُوبِيْ كُلَّهَا وَٱقْضِ حَاجَتِيْ
فَزَادِي قَلِيْلٌ مَا أَرَاهُ مُبَلِّغِي عَلَىٰ ٱلزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِي
أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ رَدِيْئَةٍ وَمَا فِي ٱلْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِي

آخرُ

يَا خَادِمَ ٱلْجِسْمِ كَمْ تَسْعَىٰ لِخِدْمَتِهِ وَتَطْلُبُ ٱلرِّبْحَ بِمَا فِيْهِ خُسْرَانُ
عَلَيْكَ بِٱلنَّفْسِ فَٱسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا فَأَنْتَ بِٱلنَّفْسِ لاَ بِٱلْجِسْمِ إِنْسَانُ

آخرُ

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا أَلْهَمْتَنَا إِلْهَامَا
إِنِّي إِذَا مَا قَدْ خَتَمْتُ خَتْماً أَقُولُ: يَا ٱللَّهُمَّ يا ٱللَّهُمَّا

آخرُ

لَكَ الحَمْدُ حَمْداً يُوَافِي وَلَكَ ٱلشُّكْرُ شُكْراً يُكَافِي

الفهرس